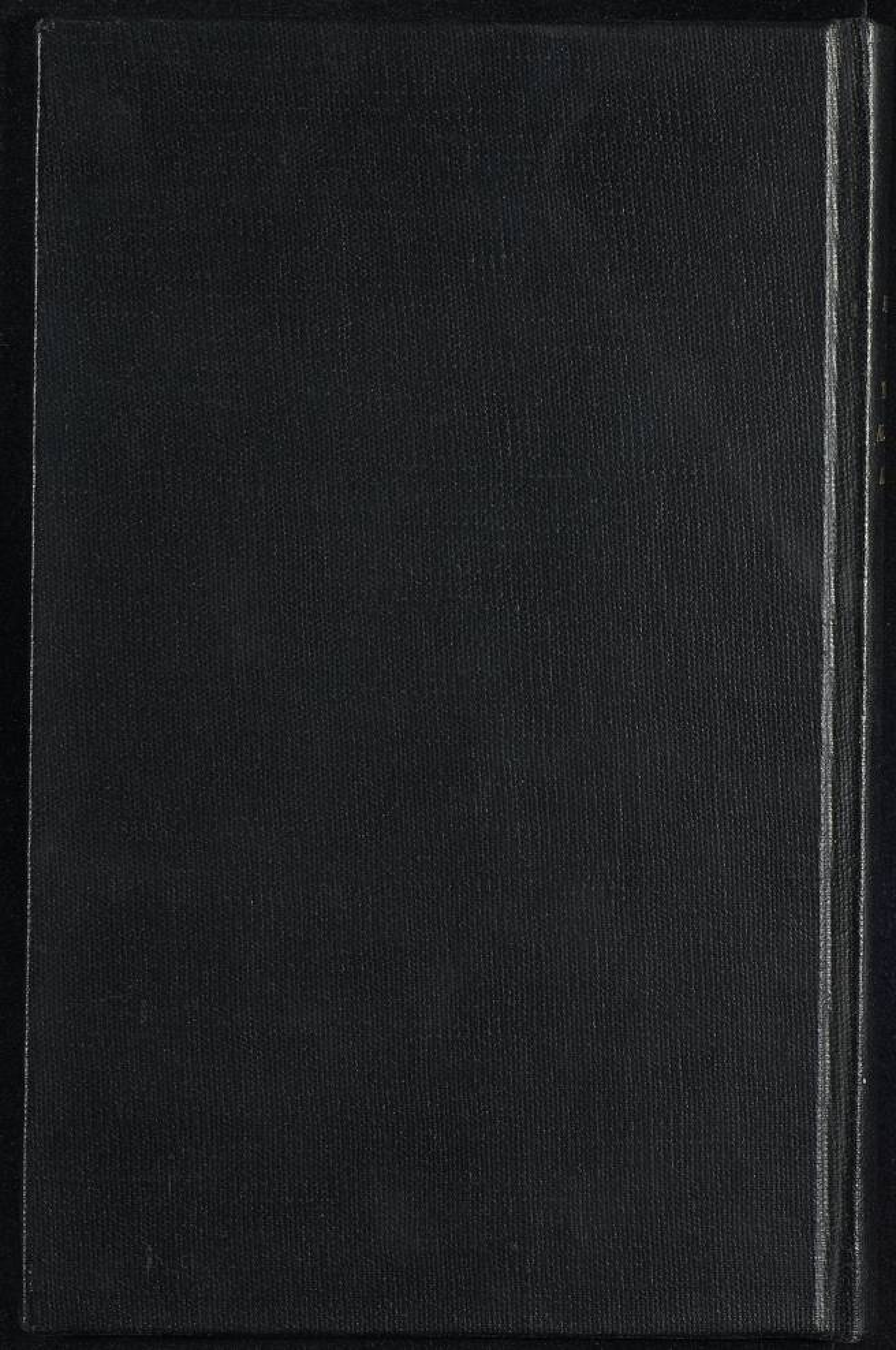
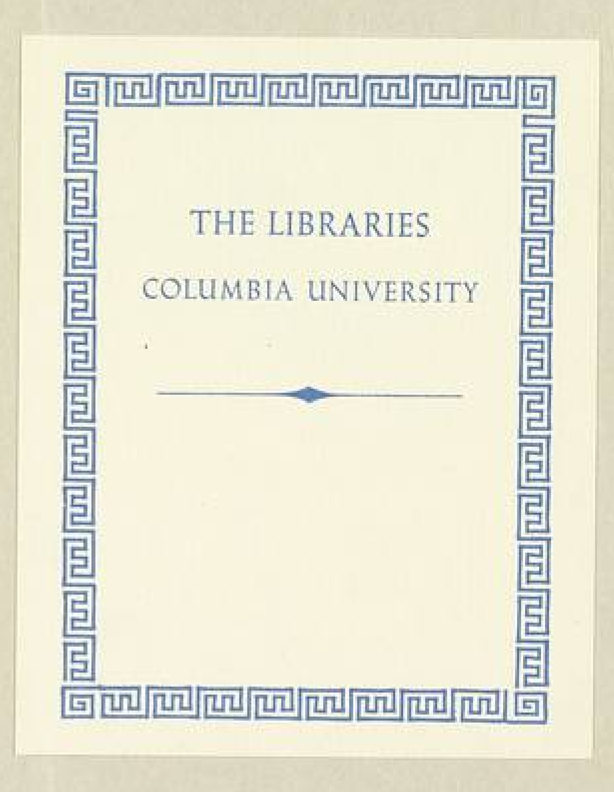



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

يشتمل على ايجاز واف مفصل لتاريخ اقطار الجزائر فى جميع اطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية مع تراجم العبقريين وارباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ اقدم العصور الى الآن.

الجزء الثانى

يحتوى على خريطتين تاريخيتين وخمس لوحات مصورة

ماكان فى هذه الدنيا بنو زمن
الا وعندى من اخبارهم طرف

المعرى

المطبعة العربية ـ الجزائر
١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م

965
J56

v.2

الطبعة الأولى

المطبعة العربية - الجزائر

١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

33848H

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الانبياء والمرسلين وعلى الصحابة والتابعين ، وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

اما بعد ، فلقد علم قراء الجزء الاول من كتابنا هذا

تاريخ الجزائر العام

انه قد احتوى على تاريخ هذا القطر الجزائرى الكريم من الشمال الافريقى الذى هو واسطة عقد المغرب العربى منذ العصر الحجرى القديم فيما قبل التاريخ ، ثم منذ وجد التاريخ وانتظمه فى سلكه ورصفه فى ديوانه الى قرب نهاية القرون الوسطى، اي منتهى دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ–١٢٦٩م

وها أنا اليوم بفضل الله وعونه اقدم للقراء الكرام هواة التاريخ ورواد العلم والمعرفة الجزء الثانى من تاريخنا هذا كاملا غير منقوص ولا معقوص ، متمشيا فيه على نسق ما عهده القراء منى فى الجزء الاول من وضوح فى التعبير ، وسهولة فى الاسلوب، واطراد فى الفصول، وانتظام فى العرض؛ واستيعاب فى الجمع، واحكام فى الوضع ، وصراحة فى الحكم ، متحاشيا كل انحيازا وامتياز ؛ مستمدا العون والتوفيق من البارى جل جلاله ، انه هو العليم الخبير ذو القوة المتين ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الجزائر
ربض العين الزرقاء { ١٦ جادى الاولى ١٣٧٥هـ
٣١ ديسمبر ١٩٥٥م }

المؤلف

الدولة الحفصية

٦٢٧ـ٩٤٣هـ

١٢٢٩ـ١٥٣٦م

نشأتها

لقد مر بنا فى الجزء الاول ان دولة الموحدين استمرت قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الافريقى طيلة مدة قرن ونصف ؛ ولقد اكتسب المغرب الاسلامى يومئذ بوحدته هذه بأسا وقوة تمكن بهما من نشر نفوذه السياسى على بلاد الاندلس وخضع له كل من دول ضفاف هذا البحر الابيض المتوسط وأممه شرقا وغربا ، ولم يزل الموحدون فى اوج عزهم وشاهق سلطانهم الى ان تصدع شملهم فى «وقعة العقاب» بالاندلس ٦٠٩هـ (١٢١٢م) فاضطرب يومئذ حبل الدولة وأذنت ايامها بالذهاب ، فخرج عنها ولاة النواحى وظهر العصيان من رؤساء العشائر فاستبدوا بالادارة ونما فيهم الشعور بالقوة الفردية على حين ضعف الدولة فتفككت حينئذ وحدة الشمال الافريقى واشرقت فيه ثلاث امارات اوقل هى ثلاث دول اسلامية مغربية متزاحمة على جذب طرف حبله متنازعة نشر نفوذها على هذا القطر والاستحواذ عليه : فكلها تحاول الاستقلال به وبسط نفوذها وسلطانها عليه ؛ ولتكافؤ القوات — او ضعفها ؟ — لم يخلص بتمامه الى اى دولة من هذه الدول الثلاث ، واخيرا توزعته — مرغمة — فيما بينها ؛ فكان شرقيه لبنى ابى حفص وغربيه لبنى مرين وواسطة عقده ـ الجزائر ـ لبنى زيان من بنى عبد الواد ؛ ووقعت الجزائر مرارا فى قبضة الحفصيين وبنى مرين ايضا وامتد نفوذهم اليها ونشروا سلطانهم على نواح منها برهة من الدهر ، فمن هم هؤلاء الحفصيون ؟..

ينتسب هؤلاء الحفصيون الى رجل هو من خاصة ابن تومرت واحد مريديه العشرة السابقين الى مبايعته ونصرته في غربته الذين قامت على كواهلهم اركان دولة الموحدين فأحكموا قواعدها وشيدوا اركانها ؛ ذلكم هو ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي — نسبة الى قبيلة هنتاتة من المصامدة بالمغرب الاقصى —

برهن ابو حفص هذا على كفاءته ومقدرته السياسية والادارية فى جميع الاعمال والولايات التى تولاها لدولة الموحدين بالمغرب الاقصى والاندلس فاستحق عن جدارة ما تبواه من المقام السامي والاصطفاء بهذه الدولة ، وضل بمكانه هذا الى وفاته سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) فتنقلت الولاية فى عقبه الى ان تولى عرش الموحدين الخليفة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فعقد على ولاية تونس لابى محمد عبد الواحد بن ابى حفص يوم ١٠ شوال ٦٠٣هـ (١٠ ماى ١٢٠٧م)، وكان ابو محمد هذا متزوجا بعمة الخليفة ، فاستمر فى ولايته على تونس الى وفاته سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م) فورثه فى امارته هذه ولده عبد الرحمن مستبدا بها الى ان افضت امارتها الى ابى زكرياء يحيى بن الشيخ ابى محمد بن عبد الواحد بن ابى حفص سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) وكان ملكا عادلا عالما عاملا اديبا ، فاعلن استقلاله عن دولة الموحدين رافضا لدعوتهم واستبد بأعمال تونس والقيروان ، وخضعت له الجزائر وبويع له بكثير من بلاد الاندلس واستصرخ به آخرون ؛ ثم تداول بعده بنوه ملك المغربين : الاوسط والادنى

نظامها الحكومى

كان بحكم استقرار رؤساء هذه الدولة فى حاضرة تونس ان اتخذ ملوكها هذه المدينة عاصمة لمملكتهم المغربية ؛ وحكومتها مستقلة تماما تحت رعاية ملكها المتلقب اولا بالامير ثم بالخليفة استئثارا بهذا اللقب عن ملوك دولة بنى عبد المؤمن الموحدية ، ثم تواضع ملوك هذه الدولة امام قداسة لقب الخلافة فاتخذوا اسم «السلطان» (١) شارة لهم . وولاية الملك فيهم غالبا تكون بالعهد من السلطان السابق ، وتارة تكون بالغلبة والقهر ؛ وتمتاز صكوك الاوامر السلطانية وما يصدر عن اذن الملك من رسائل ومناشير بوضع «العلامة» فى اعلا الكتاب بالقلم الغليظ بعد البسملة ، وهى « الحمد لله والشكر لله » ، كما قد توضع ايضا فى ختام بعض الرسوم ، ولكتابة هذه العلامة موظف خاص بالقصر وقد تضاف الى « القهرمان » وهو صاحب اشغال السلطان والمكلف ايضا بضبط الحسابات وحصر الذخيرة وتموين القصر وجميع ما يحتاج اليه السلطان فى نفسه من رزق وعطاء الخ .... وتجتمع جميع مصالح الحكومة واعمالها الادارية في ثلاث وزارات : الجيش ، القضاء ، المال ، والجيش عندهم مختلط من العرب والبربر وغيرهم وفيه من الافرنج ايضا ؛ وقد بلغ عدد الفرسان ايام ابى زكرياء الاول الى سبعين الف فارس ؛ ولم يكن اهتمام هذه الدولة بإنشاء الاساطيل وتجهيزها بالشكة والسلاح بأقل من اهتمام غيرها من الدول المعاصرة لها يومئذ ، وكان مركز الاسطول الحفصى بالجزائر ميناء بونة — عنابة — وبالساحل التونسى ايضا . واما ديوان الاموال فانه منوط بصاحب الاشغال ، ولصاحب هذه الخطة النظر في مالية الدولة من دخل وخرج وهو المسؤول عن استخلاص الاموال والمحاسبة باسم الحكومة وله التفويض التام والسيطرة المطلقة على جميع من دونه مرتبة من ولاة

---

(١) ان اول من تلقب من ملوك الاسلام بهذا اللقب هو السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ، لقبه به الخليفة العباسى القادر بالله ٣٨١-٤٢٢هـ (٩٩١-١٠٣٠م)

المراتب الادارية ، ويشترط فيه ان يكون من عصبة الموحدين الاولين ، ولقد بلغت ثروة خزينة الحكومة ايام ابى زكرياء يحيى الاول نحو التسعة عشر مليون دينارا (١) وهو ما يقدر بما ينيف على اربعة وثلاثين مليار فرنك ، وليس هذا المبلغ بالهين اذا قيس بضيق المملكة وبما كانت عليه خزائن الدول المعاصرة يومئذ ؛ واغلب موارد الخزينة الحفصية من الزكاة والخراج والجبايات ؛ واكثر عملة الدولة ونقودها مضروبة بالمدن الجزائرية كبجاية وقسنطينة والجزائر وتنس ؛ وهى متنوعة الى ذهب وفضة ، والى فلوس نحاسية احدثها السلطان ابو زكرياء الاول ، وكان لا يحصل على رآسة القلم فى الدولة الا من يحسن الانشاء العربى ويجيد صناعة الكتابة والترسيل مع شرط الامانة وكتمان الاسرار ، ولم يشترطوا النسب في صاحب هذه الخطة كعادتهم في سائر الولايات والمناصب الرئيسية لقلة او فقد الاكفاء فيهم بسبب رطانة السنتهم وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة ، وجميع اعمال الدولة كانت تدون باللسان العربى المبين ، وهو ما حمل حكومة جمهورية (بيزا) الايطالية على وضع نص المعاهدة التجارية التى قدمتها للدولة الحفصية سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) باللغة العربية ويخص ؛ رئيس الشرطة من بين موظفى الحكومة بلقب «الحاكم» ؛ وهناك «المحتسب» المكلف باصلاح الهيئة الاجتماعية والمسؤول عن الاسواق والمتاجر والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛

وكان مما امتازت به دولة الحفصيين ان وجد بها منصب وزير الرأى والمشورة ، وهو الملقب لديهم ؛ «شيخ الموحدين» المشرف على جميع شؤون الدولة مما قل او جل ؛ واخيرا اسندت هذه الخطة الى «الحاجب» كما جعلت له وزارة الحرب ايضا ؛ وبذلك اصبحت خطة «الحجابة» هى اكبر المناصب

(١) وزن الدينار ٤ قرامات و ٢٠ صانتيقرام ذهبا

الحكومية في هذه الدولة . (١) وكان نظام الاقطاع يومئذ معمولا به عند كثير من الدول الاسلامية كما هو في غيرها ايضا ؛ فانه كثيرا ما اضطرت الحكومة الحفصية عسكريا الى اقطاع بعض جهات من ممتلكاتها الى بعض القبائل العربية المناصرة ، ثم انه لا فرق بين هذه الدولة وبين غيرها ممن تقدمها من دول المغرب الاسلامى ، فهى تسير حسب سابقاتها مستمسكة في سياستها العمومية بسنة الموحدين حتى كاد ان لا يوجد ، هنالك فرق بين الحكومتين اذا استثنينا بعض الفروق الطفيفة

حدود الجزائر الحفصية

الجزائر الحفصية هى عبارة اليوم عن مقاطعتي الجزائر وقسنطينة مع جزء من مقاطعة وهران ؛ وهى تنقسم الى اربع ولايات : ولاية بونة — عنابة — ، وولاية بجاية ، وولاية قسنطينة ، وولاية الزاب وقاعدته مدينة بسكرة وتارة مقرة من بلاد الحضنة ، ويمتد خط الجنوب الى ما وراء بلاد وارجلن - واركلة - ، وكثيرا ما راينا اختلاف عمال هذه الولايات الجزائرية على الحكومة المركزية حيث قاموا بعدة وقائع حربية حاولوا بها اخذ البيعة لانفسهم والاستبداد بالملك فتداخلت الحدود واختلفت الخطوط والتخوم المرسومة لمملكة الجزائر الحفصية

---

(١) قال ابن خلدون : ومعنى الحجابة - في دولتنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه في ذلك احد . ج ٧ ص ٤١٨ فهو بمنزلة كبير الامناء في الدول العربية اليوم

كيف كان استيلاء الحفصيين على الجزائر

كان اول ما وقع من التراب الجزائرى بيد الحفصيين ولاية قسنطينة وبجاية فاستسلم اهلهما الى السلطان ابى زكرياء الحفصى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) فأسر بنو حفص عمال هاتين المقاطعتين وذهبوا بهم الى تونس ؛ ثم فى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) كان استيلاؤهم على ولاية الجزائر ونواحى شلف والبطحاء – البسيط الذى بين مدينة غليزان وسهل وادى شلف – وما الى ذلك من الجهات الغربية الزناتية؛ وقد جعل التصرف فى هذه الجهات لاقارب السلطان الحفصى وبنى عمه ؛ وفى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) جهز السلطان المستنصر اخاه عمر بن ابى زكرياء الاول للقضاء على سلطة الفقيه ابى على الملياني المتسلط يومئذ على عمل «مليانة» فتقدم عمر المذكور صحبة «مغبدون بن فرندة» النصرانى الى مليانة ونصبا عليها المجانيق وضيقا عليها الحصار فأعطت المدينة مقادتها لبنى حفص واستسلمت لهم يوم عيد الفطر – ٢٩ اوط – من التاريخ فعقد السلطان آن ذاك لاخيه عمر على ولاية بجاية مكافأة له على انتصاره وتغلبه هذا ، ولكن عمر استعفى اخاه من هذه التولية فاعفاه

فتح ولاية تلمسان

لقد كان لمبايعة خليفة الموحدين على السعيد من بنى عبد المؤمن بمراكش اضطراب كبير ادى الى نقض البيعة وشق العصا فى كثير من ارجاء المغرب ، فكانت هذه فرصة لخروج ولاة النواحى عن الخليفة ونبذ طاعته ، وكان من بينهم عبد الله بن زكرياء الهزوجى صاحب تلمسان ، فنشأ عن ذلك بينه وبين يغمراس (١) الزيانى المتحيز يومئذ لبنى عبد المؤمن خلاف ونزاع كبير افضى الى تسلط يغمراس على تلمسان

(١) ضبطه ابن خلدون فى مواضع من تاريخه بالحركات مرة : بفتح الياء والغين وسكون الميم بعدها راء مفتوحة ثم الف بعدها سين مفتوحة فنون ساكنة ؛ ومرة بكسر الغين والسين

وبينما الحال على ذلك اذ وفد على السلطان ابى زكرياء الحفصى نخبة من رؤساء بنى توجين ومغراوة مستصرخين به ضد يغمراسن ؛ ولقد كان لبنى توجين ملك مابين قلعة «سعيدة» غربا الى «المدية» شرقا وكانت لهم قلعة بنى سلامة (١) ومنداس (٢) ووانشريس. فتخذ ابو زكرياء ذلك وسيلة ووصلة للقضاء على عرش الموحدين المحتضر ومن والاهم من رؤساء النواحي وولات الجهات، فنزل فى شوال ٦٣٩هـ (افريل ١٢٤٢م) بمليانة، ومنها راسل يغمراسن فى الاذعان لطاعة الدولة الحفصية فأبى ؛ ويومئذ احاطت جيوش الحفصيين بتلمسان فضيقت حصارها وبالغت فى التنكيل باهلها فخرج يغمراسن من باب العقبة لرد عادية بنى حفص فانهزم ونجاهو بنفسه الى الصحراء، وسقطت تلمسان بيد الحفصيين آخر المحرم ٦٤٠هـ (جوليط ١٢٤٢م) ودخلها يوميذ ابو زكرياء فرد عنها عادية جنده وكف أيديهم عن النهب والسلب

المبايعة بالخلافة

منذ نهاية القرن السادس الهجرى — اواخر الثانى عشر الميلادى — والعالم الاسلامى بالمشرق والمغرب كله يتمخض في قلق واضطراب مترقبا ماعسى ان يحدث او يقع من التحولات السياسية العامة الناتجة عن اتحادا مم النصرانية في حروبها الصليبية التى كادت ان تعصف بالعالم الاسلامى اجمع ؛ وماكان كذلك من اتحاد قبائل التتر برئاسة جنكيز خان وشروعها في الزحف على غرب بلاد آسيا وجنوبها واحتلالها لبلاد الصين سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) ؛ وتصدع الاسر القابضة على زمام

(١) هى على سته كيلوميترا الى الجنوب الغربى من مدينة فرندة من مقاطعة وهران وفيها تفرغ مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون للعلم والدرس فسكن بقصر ابى بكر بن عريف اربع سنوات وهنالك شرع في وضع تاريخه الكبير فأكمل به مقدمته العجيبة ،

(٢) غربى تيارت وجنوب مدينة غيليزان - بين وانشريس وجبل كزول الواقع على عشرة كيلوميترات بالجنوب الغربى من مدينة تيارت الحالية

بقية الباقية من بعض المدن الاسلامية؛ والامبراطورية الساجوقية يومئذ قد انقرضت من بلاد فارس ، ومثلها الدولة الغزنوية ايضا بعد قضائها على الدولة الجديدة القائمة بأفغانستان الشرقية فاسقطتها من شاهق عزها حوالى سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م)؛ وانقراض عائلة زنكى فى الموصل ، وملوك مصر والشام يومئذ فى شقاق وتناحر وافتراق؛ وفى بغداد من الخلاف الطائفى والمذهبى القائم بين اهل السنة والشيعة، بل وبين مذاهب اهل السنة انفسهم كالخلاف والجدل الواقع ايضا بين الحنابلة والحنفية قد بلغ اشده ... وعم ذلك سائر طبقات الشعب العراقى وارث مدنيات العالم !.. .. فدعا ذلك كله الى بسط نفوذ الاجنبى ونشر سلطانه على الشرق الاسلامى ، وفملا اكتسح التتر معالم الحضارة الاسلامية وحطم عواصم المدنية الشرقية ، وكان ذلك الفتك الذريع بالانسانية الذى لم يسجل التاريخ فيما عهدناه حوادث افضع منها منذ تحدث عن البشر الى يوم الناس هذا - اذا استثنينا حوادث (اتيلا) ونهاية الاندلس الاسلامية ! ... وسقطت بغداد قلب العالم الاسلامى النابض بيد التتر سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وذهبت بذهابها تلك المدنية الزاهرة المشرقة ، وسقطت الخلافة العباسية بسقوطها

وفى المغرب الاسلامي كذلك فان سلطان الامويين بالاندلس قد انهار منذ سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) وتشتت وحدتهم السياسية فتوزعها ملوك الطوائف بينهم ، فقام بكل ناحية منها امير المؤمنين ومنبر!.. فاشتد حينئذ الشعور الاسلامى العام فأعلن حاجته الاكيدة الى زعيم دينى ورئيس سياسى تجتمع لديه جميع السلطات المدنية والعسكرية ، وكان من المقدران وجدت دولة الحفصيين يومئذ صلبة العصا ، قوية الاساطين ، وثيقة الاركان ، فتأكدت مبايعتها على الناس ، فأطاعها اهل سبتة وفاس وطنجة وسجلماسة - تافيلالت - ؛ ومكناسة بعدما قتل اهلها عامل الموحدين عليها سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) وبعث اهل مكة ببيعتهم الى السلطان المنتصر سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) وهى بانشاء عبد الحق بن سبعين فقرئت على الناس ، وبايع بنو مرين تقية ريثما استوثق

الامر لسلطانهم يعقوب المريني فنبذوا عهد الحفصيين ؛ ودخل اهل مدينة شبيلة وغيرها من بلاد الاندلس فى دعوة الحفصيين ايضا فاخترق حينئذ صيتهم البلاد وخشيتهم امم اوروبا فباتت تخطب ودهم وابرمت فى ذلك معاهدات سلم بينها وبين القصر الحفصي ، منها معاهدة «فريديريك» امبراطور الالمان لمدة عشر سنوات ومعاهدة «اوهان سطوفان» ملك صقلية وهلم جرا .... ويومئذ تلقب السلطان ابو عبد الله محمد بن السلطان ابى زكرياء يحيى الاول بأمير المؤمنين ، وتسمى بالمستنصر بالله الواثق .

تربص يغمراسن وانتصاره

لا يعزب عن القارىء الكريم ما قدمناه من حال انهزام يغمراسن الزياني عن تلمسان ايام غزو الحفصيين لها سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) وماكان من فراره منها والتجائه الى الصحراء الخ ... وبعدما تأكد يغمراسن من اطباق الكثير من سادة العالم الاسلامي ودوله شرقا وغربا على مبايعة ملك الحفصيين بالخلافة اعتصم بالدهاء والتدبير فى الانتصار فبعث بوالدته ـ سوط النساء ـ الى ابى زكرياء الحفصي لتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه فاقتبلها ابو زكرياء راضيا عن ولدها ، فاغتنمت الوالدة يومئذ هذه الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحا يتضمن طلب العفو عن يغمراسن والمسامحة له بالعودة الى رئاسة قومه من بنى عبد الواد تحت طاعة الخليفة ، فأمضى لها ابو زكرياء ذلك كله ، واذن فى عودة يغمراسن الى امارته على شروط بينهما وتمت عقدة المبايعة على ذلك وعاد يغمراسن الى تلمسان واخذ يتصرف فى اهلها واموالها التى كانت تقدر بمائة الف دينار سنويا: وكان السلطان الحفصي ادرك ما يكنه يغمراسن فى صدره من الحقد والضغينة على ملك الحفصيين ، فأقطع القطائع حول تلمسان واحدث امارات فى بنى توجين ومغراوة وجاء ببنى سليم الى نواحى بونة ـ عنابة ـ فأسكنهم بها الى ارض الجريد واغدق عليهم من الاموال ما غمرهم به وجعلهم حاجزا بينه وبين خصمائه ومنافسيه فكانوا رده

المملكة وحصنها الحصين

وما لبث ابو زكرياء بعد ذلك الاقليلا حتى فاجأه اجله وهو بمحلته فى بونة فتوفى ليلة الجمعة ١٢ جمادى الثانية ٦٤٧هـ (٢٢ سبتمبر ١٢٤٩م) ودفن من الغد بجامع بونة . وكان يغمراسن قد عاد بعد الى تلمسان بموجب نصوص المعاهدة التى عقدها مع الملك الراحل؛ ولم يبرح قومه ان اجتمعوا حوله واخذوا معه فى الانقضاض على المدن الجزائرية وغزوها ففتحوها مدينة مدينة ، واقتحموا مليانة سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ، ثم وقعت بلدة المدية بايديهم سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) ، وهكذا اخذ الزيانيون فى امتلاك القطر الجزائرى تدريجيا حتى استولوا عليه باسره كما سنذكره فيما يأتى من تاريخهم

اضطرابات وفتن

كان مما اشاعه الناس يومئذ ان الخليفة المستنصر الحفصى عازم على الفتك بابن عمه ابى القاسم بن ابى زيد لما بلغه عنه من رفض بيعته والخروج عن الطاعة ؛ وبلغت الاشاعة هذه الى ابى القاسم نخشى على نفسه ، فخرج من تونس سنة ٦٦١هـ (١٢٦٢م) الى نواحى قسنطينة ملتحقا بشبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة - اشياع بنى بن غانية واعداء الموحدين والحفصيين - وهنالك بايعه هؤلاء القوم وبرزوا معه لغزو البلاد الجزائرية فأحدثوا بها اضطرابا كبيرا واضرارا عظيمه اضرت بالجميع واشتد يومئذ غضب السلطان على ابى القاسم ، فأرعد وابرق وبيت قتله ، فارتاع لذلك ابو القاسم وتراجع الى تلمسان متواريا ومنها ركب بمرسى هنين الى الاندلس ، ثم التحق بالمغرب الاقصى فأقام بتينملل حيث مصدر دعوة الموحدين ، ثم عاد الى تلمسان فتوفى بها

مقاومة العصاة المنشقين

كانت حوادث ابى القاسم بن ابى زيد وحركة الدواودة من رياح ،سببا فى خروج السلطان المستنصر الاول بنفسه من تونس سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) على رأس جيشه العظيم ونزوله بأماكن الفتنة ومواطن الثورة بالقطر الجزائرى ، وقضائه على المنشقين بها ، واستمر السلطان متنقلا فى البلاد مستقصيا بذور الفتنة ومناجم الخلاف حتى نزل على الدواودة ففر رئيسهم شبل بن موسى وخرج بقومه الى القفر فاحتل السلطان يومئذ بلادهم ونزل بمدينة «المسيلة» — المحمدية - آخر مواطن رياح ، وهنالك وفد عليه محمد بن عبد القوى امير بنى توجين مجدداً لطاعته ، فاكرمه السلطان واقطعه مدينة «مقرة» و «اوماش» من اعمال الزاب الجزائرى ، واستمر المستنصر فى زحفه على الدواودة الى ان ظفر بهم بمدينة «نقاوس» — بالقاف المعقودة — فتبدد شملهم وانتهبت اسلابهم ، وقبض السلطان على رؤوس الفتنة فضربت اعناقهم ونقلت الى بسكرة فنصبت بها ، واما الاشلاء فانها تركت حيث قتلوا فنصبت كذلك متفرقة بالامكنة التى بويع فيها ابو القاسم بن ابى زيد الثائر بنواحى نقاوس والمسيلة وغيرها ؛ واغذ السلطان سيره فاجتاح بقية النواحى المشاقة ، فمنحه القوم اكتافهم مجتازين «وادى شدى» - جدى - فطاردتهم الجيوش الحفصية الى ان تجاوزت بهم مفاوز الصحراء ثم عادت مع السلطان الى تونس

انتقاض مدينه الجزائر وفتحها

جاهر اهل مدينة الجزائر بنبذ طاعتهم ايام ان ظهر ضعف الحفصيين امام حملة زناتة عليهم حوالى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) ولقد حاول الجزائريون بذلك الاستبداد بحكم بلادهم والتوصل الى تأسيس مملكة جزائرية بحته ؛ فهاجمهم يومئذ عامل بجاية «ابو هلال الهنتاتى» واطال حصار مدينة الجزائر نحو سنة ثم عاد منهزما الى مركزه ؛ وبقيت الجزائر فى هذه الفترة مستقلة حرة الى ان غزتها

جيوش بني حفص سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) بقيادة ابى الحسن بن ياسين ومناصرة حامية بجاية، وخرج معها الاسطول الحفصى فانحصرت الجزائر من جميع جهاتها ودخلتها الجيوش الحفصية مثخنة فى اهلها قتلا ونهبا وسلبا ، فاستسلمت المدينة حينئذ واذعنت لطاعة الحفصيين : واخذت مشيختها ورؤساؤها فغلوا واسروا ثم نوقلوا الى تونس مصفدين فاعتقلوا هنالك بالقصبة الى وفاة المستنصر سنة ٦٧٥هـ (١٢٧٧م) فعفا عنهم ولده الواثق يومئذ

مبايعة الجزائر لابى اسحاق الاول

كان ابو اسحاق ابراهيم بن ابى زكريا، يحيى الاول مقيما بمدينة تلمسان ، ولما توفى اخوه المستنصر نهض مطالبا بملك اخيه مناقضا للواثق الذى اخذ البيعة لنفسه بعد وفاة والده ؛ وكان اول من بايعه على الملك مضيفه يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ؛ وصادف ان كان اهل بجاية منشقين على والى الاشغال عندهم فقتلوه واستدعوا ابا اسحاق يحثونه على ولاية العرش ، فانتقل اليهم أبو اسحاق ودخل بجاية آخر شهر ذى القعدة سنة ٦٧٧هـ (افريل ١٢٧٩م) فاجتمع عليه اهلها وبايعوه بالملك؛ فغزا بهم قسنطينة فامتنعت عليه ، وهنالك بعث الواثق جيوشه لمقاتلة عمه هذا، وما كادت الجيوش تتصل بالزاب الجزائرى حتى تقدمت بنفسها الى ابي اسحاق فبايعته بالملك وكتبت فى ذلك وثيقة بعثت بها الى الواثق بتونس، فتنازل مكرها عن العرش وخلع نفسه غرة ربيع الاول ٦٧٨هـ (١٢ جوليط ١٢٧٩م) ، فكانت الجزائر بذلك هى اول من بايع السلطان ابا اسحاق واول من اعترف له بحقه على العرش

ظهور ابن ابى عمارة الدعى

هو رجل من اهل المسيلة ، وكان مسكن آبائه ببجاية فنشأ بها ، واسمه احمد بن مرزوق ، ولقد سولت له نفسه يوما ان يدعى اثما وزورا انه من بيت الملك

وانه من ابناء الواثق الحفصي ، وكان هنالك من الموالى من ايده فى دعواه هذه ونهضوا معه ضد ابى اسحاق ابراهيم الاول فدخل الناس فى طاعته وتغلب على السلطان بدهائه ومكره فامتلك نواحي طرابلس واحتل تونس واتخذ لنفسه لقب « المعتمد على الله » ، وخرج ابو اسحاق من تونس مع ولده ابى زكرياء طريدا آخر شوال ٦٨١هـ (جانفى ١٢٨٣م) محاولا الالتجاء الى قسنطينة فمنعه عنها واليها خشية خروج الامر من يده ، فتوجه السلطان الطريد الى ولده ابى فارس امير بجاية ، فاعترضه ومنعه من النزول عليه وصرفه الى مكان آخر واجبره بالتنازل له عن العرش ؛ وجاء ابن ابى عمارة غازيا بجاية فحمل عليها فى صفر سنة ٦٨٢هـ [ماى ١٣٨٣م] وقتل ابا فارس فى اخوته ، فانتقل السلطان الطريد ابو اسحاق يومئذ من اعمال بجاية مع ولده ابى زكرياء متوجها الى تلمسان ، واحتل ابن ابى عمارة المدينة واخذ البيعة لنفسه ، وبعث بمن ادرك ابا اسحاق بجبل بنى غبرين فرده مأسورا الى بجاية وهنالك قتل السلطان صبرا فى اخر شهر ربيع الاول سنة ٦٨٢هـ [جوان ١٢٨٣م] ونجا ولده ابو زكرياء الى تلمسان ؛ ثم بعد حين انكشف حال ابن ابى عمارة وافتضح للناس تزويره وتحققوا تدجيله وانه دعى فى بيت الملك فتألبوا ضده ونقضوا بيعته فقتلوه سنة ٦٨٣هـ [١٢٨٤م] وتولى الملك يومئذ المستنصر الثانى

انفصال الجزائر عن الحكومة المركزية

كان هنالك شخصيتان متنافستان بالقصر الحفصي وهما الحاجب ابو الحسن بن سيد الناس وابو عبد الله الفزازى ؛ فكلاهما كان يزاحم صاحبه فى نيل الحظوة والمنزلة والمقام الرفيع عند السلطان. ولقد لاحظ الحاجب المذكور انه مغموط الجانب مهتضم المقام عند السلطان بجانب صاحبه الفزازى ، فأضمر للمستنصر حسيكة وأبطن له غلا ، وكان من المقدر يومئذ ان يوجد ابو زكرياء يحيى بن ابراهيم عم المستنصر بتلمسان مطالبا بعرش والده ، فالتحق به ابو الحسن فبايعه واخذ

له البيعة من الناس واقام له ابهة الملك وشعار السلطنة وخرج معه فى جمع حاشد الى اعمال قسنطينة فطافوا بتلك الولاية ، وكان اذ ذاك اهل بجاية فى اضطراب ونزاع فلما رأوا ابا زكرياء بادروا الى تقديم بيعتهم اليه فاحتل ابو زكرياء يومئذ بجاية سنة ٦٨٤هـ [١٢٨٥م] وبايعه اهل مدينة الجزائر والزاب ، فرسخ يومئذ قدم ابى زكرياء بمملكة الجزائر فأورثها بنيه ، واصبحت المملكة الحفصية مجزاة الى جزئين ، قسم شرقى وعاصمته تونس ، وقسم غربى بالمغرب الاوسط تتزعمه حاضرتا قسنطينة وبجاية ، وهكذا استمر الامر بالقطر الجزائرى الى سنة ٦٩٤هـ [١٢٩٤م] - وعند ابن خلدون ان ذالك وقع سنة ٧٠٧هـ ؟.. حيث انتقض اهل مدينة الجزائر على عاملهم فأطردوه واستبدوا بولايتهم جاعلين امرهم بيد «ابن علان» فمكث هذا اربعة عشر سنة حاميا المدينة واحوازها إلى العهد الزيانى ، وظلت البقية من القطر الجزائرى مابين مدوجزر بين ملوك الحفصيين وامراء الجزائر وولاتها الى ان دعا ابو بكر خالد بن يحيى الحفصى الى نفسه سنة ٧١١هـ [١٣١١م] وتلقب بالمتوكل على الله ، فخالف عليه والى بجاية عبد الرحمن بن خلوف فقتله السلطان غدرا فى السنة التالية واحتل ابو بكر بجاية واذعنت تونس لطاعة ابن اللحيانى وعادت الدولة الى انقسامها ثانيا ، وهكذا الى سنة ٧١٨هـ [١٣١٨م] فحاز ابو بكر ولاية تونس واعاد وحدة الدولة الى نصابها وجمع بين القطرين الشقيقين : تونس والجزائر

اعتداء الافرنج على مدينة الجزائر

بينما الامر ما ذكرنا فى الجزائر اذ فاجأها الافرنج بحملة بحرية عنيفه سنة ٦٨٦هـ [١٢٨٧م] يقودها «روجي دولوريا» فحطموا مدينة «القالة» وانتهبوا اموالها وتركوها كجوف حمار !... ثم اعادوا عليها الكرة سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) وحاصروا معها فى هذه المرة مدينة بونة ايضا ، واسروا اهلها ، فاستبسل الجيش الحفصي وشمر عن ساق الحرب فاندحر الافرنج عن الجزائر

امارة بنى مزنى (١) بسكرة

كانت امارة الزاب الى هـذا العهد لبنى رومـان ، وهى من اغنى امـارات الجزائر واضخمها لذلك العهد وتمتد حدودها من المسيلة ونقـاوس شمالا الى واركلة ـ وارجلن ـ ووادى ريغ جنوبا ، ومن «الدوسن» غربا الى بادس شرقا؛ وتبعد مدينة بادس هذه عن بسكرة بنحو ثلاثين ومائة كيلوميترا وتقرب من (خنقة سيدى ناجى) بنحو العشر كيلومترات ؛

استمر بنورمان على ولايتهم هذه الى عصر السلطان ابى اسحاق ابراهيم الاول فانتزعها منهم وجعلها للفضل بن على جد بنى مزنى ، حيث قام بنصرته وتأييد دعوته، فشكر له السلطان موقفه هذا وولاه إمارة الزاب هذه سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ثم كانت فى عقبه ؛ وحسنت سيرة بنى مزنى واحسنوا التدبير فعاشوا وعاش الناس معهم فى ارغد عيش ، وهم تارة مقيمون ببسكرة وتارة بمقرة من بلاد الحضنة ، وكان طبيعيا ان ينشأ عن ذلك من ذوى الاخلاق السافلة والامراض النفسانية الخبيثة حسدوضغينة فاوغروا صدر السلطان على بنى مزنى واضرموا غيضه ، فاضطرب لذلك شأن امراء هذا البيت وانتقضت أمورهم فتذبذبوا فى سيرهم وسلوكهم السياسى ، واصبحوا تارة بجانب الحفصيين، تارة مع بنى زيان ، واحيانا نجدهم منقادين لبنى مرين ملوك المغرب الاقصى ، وكثيرا ما اشتبه عليهم الامر فنراهم فى ان واحد يبايعون اميرا وينتقضون عليه فى نفس الوقت .... وهكذا ذهب بنو مزنى فى تيار من عاصفة الاهواء السياسية المختلفة التى ادت بهم الى الاضمحلال ، فغزاهم السلطان ابو فارس عزوز الحفصى واقتحم مدينة بسكرة يوم السبت ١٧ جمـادى الثانية ٨٠٤هـ (٢٢ جانفيى ١٤٠٢م) وقضى علي هذه الاسرة بعدما امضت فى حكم الزاب ما ينيف على قرن وربع ، وكان من اشهر رجـالها: الفضل بن على وابنه المنصور وولده يوسف ، وعلى ، وحسن ، وأحمد ،

(١) بفتح الميم وضمها

حزب السنية وابن مزني

كان بمدينة «طولقة» من عمل بسكرة رجل من عرب رياح اسمه «سعادة» وهو من بطن «مسلم» او «رحمان» اشتهر بين قومه وعشيرته بالعلم والصلاح آخذا على نفسه القيام بالحسبة – يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ فاجتمع عليه الناس وكثر حوله الاتباع والتحق به بعض رؤساء العرب من الدواودة كشيخ بني محمد بن مسعود ؛ واولاد سباع ، واولاد ادريس ، ورجالات العطاف وغيرهم في كثير من اتباعهم ومرؤوسيهم من المستضعفين ، وكلهم عاهد «سعادة» على التزام طريقته والاخذ بمبدأه فتشكلت يومئذ حوله هالة من الخاصة والعامة اشتهروا باسم «السنية» او «السقية» كما كان يدعوهم هو ، فلما استكملت هذه الجماعة قوتها واشتدت شوكتها اخذت في شن الغارات على العصاة المحاربين وقطاع الطرق المعتدين ، وكان شيخهم هذا متشددا على الولاة والحكام كثير المؤاخذة لهم على ما يأتونه من حيف اوجور؛ واقد باغ عامل الزاب يوما وهو يومئذ المنصور بن فضل بن مزني – ان زعيم السنية هذا ينكر عليه اعماله وخاصة وقع الظلامات والمكس على الرعية ، فطوى على عداوته احناء صدره وعزم على الفتك به لولا تصلب حزب السنية في وجه العامل وصده عن مراده ، وكان ذلك مما زاد في انتشار صيت الشيخ سعادة وانتصار الناس له فبايعوه على اقامة السنة اوالموت دونه ، فاشتد من ذلك غضب ابن مزني على السنية واذنهم بالحرب مستنفرا حلفاءه من رؤساء العشائر وولاة الحفصيين ، ومستنصرا بالامير خالد بن ابي زكرياء الحفصي والي بجاية ، فجاءته الجنود من كل صوب ، واوعز الى اهل طولقة بالقبض على الزعيم سعادة فامتنع عنهم ، واخذ في تأسيس رباطه بتلك الانحاء على غرار منهاج عبدالله بن ياسين في انشاء دولة المرابطين او ابن تومرت في انشاء دولة الموحدين ؛ فكان ذلك حصنه المنيع الذي التجأ اليه اتباعه ريثما تكاملت قواهم فزحفوا على مدينة بسكرة واحدقوا بها وحاصروها سنة ٧٠٣هـ(١٣٠٣م) وقطعوا نخيلها وشددوا في تضييقهم على اهلها وبذلوا

غاية جهدهم لفتحها فاستعصت عليهم ثم اعادوا غزوها فخابوا ورجعوا عنها مرتين، ويومئذ ٧٠٥هـ (١٣٠٥م) اقفل سعادة بقومه الى مشـاتيهم ، فمكثوا فى رباطهم بزاب طولقة ريثما تهيأت لهم الاسباب فغزوا مدينة «مليلى» احدى مدن بسكرة ، فاستصرخ اهلها بابن مزنى فانجدتهم عساكره المخيمة هنالك ، واشتد اوار الحرب بين طائفة السنية وجنود الامير ، فـاسفرت الوقعة عن قتل الزعيم سعادة وحمل رأسه الى ابن مزنى ، فاستشاط لذلك غضب اتباعه فاندفعوا فى حملة عنيفة بقيادة ابى يحيى بن احمد شيخ اولاد محرز – من الدواودة – الى عـاصمة الزاب – بسكرة – فشنـوا غارتهم عليها وقطعوا نخليها وحمى وطيس الحرب فعظمت الفتنة واشتد القتال ، فكان فيمن وجد قتيـلا بحومة الوغى على بن منصور بن مزنى ٧١٣هـ (١٣١٣م) واخذ بعض رؤساء قومه فاسروا وفيهم من احرق بالنار وسكنت الحرب مدة تمكن فيها السنية من نشر مباديهم الاصلاحية تحت اشراف رئيسهم الدينى الشيخ ابى عبـد الله محمد بـن الازرق المقرى ؛

استمر امر السنية على ذلك وهم يترقبون الفرص ويرصدون الخلس ، الى ان جاءهم المدد من ناحية «ريغ» فاعادوا حصار بسكرة سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) تحت امراة على بن احمد شيخ اولاد محمد ـ من الدواودة ـ واطالوا حصار عاصمة الزاب اشهرا واخيرا عجزوا عن اقتحامها فرجعوا الى مراكزهم ؛ ونزل الشيـخ ابن الازرق مدينة بسكرة باستدعاء من صاحبها يوسف بن مزنى ـ تفريقا لامر السنية ـ وعرض عليه قضاءها فاجابه الى ذلك ؛ وانسحب يومئذ حزب السنية من الميدان وانتثر عقده ولم يبق له ذكر الا عند من يتخذه كوسيلة للتوصل به عند العامة الى قبض الصدقات والزكاة والنذر باسم القيام بتغيير المنكر . وان «برج سعادة» المعروف الى اليوم قرب مدينة طولقة هو مكان الرباط الذى اسسه الزعيم «سعادة» وذلك لقول ابن خلدون : واوعز ـاى ابن مزنى ـ الى اهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائها زاوية ونزل بهـا هو واصحابه .... واقـام المرابط سعـادة بزاويته مـن زاب

طولقة ....، ولقد بقى من عقب سعادة على عهد ابن خلدون بالزاوية المذكورة بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزنى الرعاية وتعرف لهم اعراب الفلاة من رياح حقا فى اجازة من يجيزونه من اهل السابلة [١]

الجزائر بين الحفصيين والمرينيين

ذهبت دولة الموحدين العظيمة التى كانت تعرف كيف تسوس رعاياها العرب المتهالكين على الرئاسة وتركت بعدها اضطرابا عظيما بين تلك القبائل العربية المتشوفة الى مناصب الحكم المتفرقة يومئذ تارة هنا وتارة هناك تجرى وراء كل ناعق ترى فيه نيل مرادها والحصول على اغراضها ، فطوراً نراها تسير فى ركاب الحفصيين ، وطورا نجدها منحازة الى بنى مرين ، وتارة تكون فى جانب الزيانيين ، كل ذلك تفعله لغاية واحدة هى الحصول على الرئاسة ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة ، فكانت حملات الاعراب هذه شديدة على الحفصيين ، وتعددت يومئذ الوقائع الثورية وانتشرت الفوضى وعمت الفتن لا فى الجزائر فحسب بل بالمغرب الاسلامى كله ، وعجز الحفصيون عن رد عادية هؤلاء الاعراب فضاقوا بهم ذرعا فاضطروا الى الاستنجاد بدولة بنى مرين ، فجاءت هذه حامية للدولة المستنجدة فاحتلت اولا تلمسان سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م) بدون ان تحفظ للحفصيين حرمة ، بل لم يكتف بذلك السلطان ابو يحيى المرينى فحاصر ايضا بجاية سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م) .

[١] ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨-٣٩

ثم فى سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٧م) حدث من الفتن ما اضطرب لها بال السلطان الحفصى حيث ظهر فى اسرته من ينازعه فى الحكم مطالبا بالعرش، مستنصرا عليه بنى عبد الواد الزيانيين ملوك تلمسان، فاستصرخ الملك الحفصى يومئذ بالسلطان ابى سعيد المرينى على ان يقاسمه ولاية تلمسان — ان انتصر على اهلها — فكان الامر كذلك واقتسمت اوطان بنى عبد الواد بين بنى حفص وبنى مرين وتم ذلك بينهما سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م)

واخذت حينئذ مطامع المرينيين تتسع وأنظارهم تتشوف الى حيازة المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ، وما كادت تمضى خمس سنوات حتى تحرك السلطان ابو الحسن المرينى من عاصمة فاس، قاصدا غزو الجزائر، فاقتحم تلمسان عنوة يوم ٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ (٣٠ افريل ١٣٣٧م) وقد اربى يومئذ عدد القتلى على ثمانين الف قتيل، ومنذ ذلك اخذ شأن المرينيين يرتفع ويعلو بالمغرب الاوسط ونفوذهم ينتشر شيئا فشيئا حتى عم سلطانهم القطر المغربى كله وذلك فى مدة لا تزيد على عشر سنوات، وحكموا تونس ايضا مدة عامين ونصف ثم عادت الى اصحابها الحفصيين، واستعاد الفضل بن يحيى الحفصى مدينة بجاية وقسنطينة فاحتلهما يوم الجمعة غرة المحرم سنة ٧٤٩هـ [فاتح افريل ١٣٤٨م]؛ وسقطت ولاية تلمسان بيد ابى عنان المرينى فاحتلها سنة ٧٥٣هـ [١٣٥٢م] وبلغ الى المدية، ثم بعد سنتين فتحت لهم بجاية ثم قسنطينة وبونة سنة ٧٥٨هـ [١٣٥٦م]

وفى شوال ٧٦١هـ [اوت ١٣٦٠م] ازمع الحفصيون واجمعوا على استرجاع ملكهم الضائع بالمغرب الاوسط، فنازل ابو عبد الله الحفصى مدينة بجاية فامتنعت عليه فداب على المكافحة وثابر على متابعة الفتح بتكرار وشن الغارات عليها حتى فتحها فى رمضان ٧٦٥هـ [جوان ١٣٦٤م]، وبعد شهرين نازل مدينه تدلس — دلس — فافتكها من يد الزيانيين، ثم استعادها السلطان ابو حمو الثانى كما سنذكره فيما يلى من تاريخ الدولة الزيانية وانزل بها حاميته وعقد السلم مع ابى

عبد الله الحفصي واصهر اليه فى ابنته ، ثم عاد الحفصيون فاحتلوا تلمسان مرة اخرى واستعادوا اليهم ملك بسكرة وقسنطينة وبايعهم اهل المدية ومليانة وتنس، وهكذا اضحت الجزائر تتنقل بين ايدى ملوك المغرب الاسلامى يتهافتون عليها تهافت الفراش على السراج ولم يكن لها فى هذه الاونة استقلال بالحكم الا برهة قليلة من الزمن قام فيها بعض ولاة العواصم المستبدين فتظاهروا فيها بمظهر الملك ؛ وظلت كذلك الى ان تمحض حكمها لبنى عبد الواد الزيانيين



خريطة المغرب الاسلامى منذ القرن السابع الهجرى الى اواسط العاشر

حركة السلطان الى بسكرة

لقد بلغت النخوة والتيه بعامل الزاب احمد بن مزنى الى ان استشرفت نفسه الى الامتناع من اداء واجب الخراج للدولة ورفض طاعتها محتميا بالاعراب القاطنين بضواحى الزاب والتلول ، وخاصة منهم الدواودة الذين طالما اسخطوا الحكومة عليهم بأعمالهم العدائية ومواقفهم السلبية ، فتحرك السلطان ابو العباس احمد الاول الى قاعدة الزاب — بسكرة — سنة ٧٨٦ﻫ (١٣٨٤م) فجاءها فى جيش عظيم حتى ازدحم الناس بالجند وضاقوا بهم ذرعا ، وضرب عليها الحصار وكانت هنالك مقتلة عظيمة دامت اياما خضع لها ابن مزنى واذعن لسلطان الحفصيين فكفت عنه ايدى الجند وانكفأ عنه ابو العباس فى قومه الى تونس

تنازع امراء بنى ابى حفص على ولاية قسنطينة وبجاية

كانت ولاية قسنطينة لابى بكر بن ابى العباس احمد الحفصى ، فنازعه عليها ابن عمه الامير ابو عبد الله محمد بن ابى زكرياء صاحب بونة - عنابة - وحاصرها سنة ٧٩٦ﻫ [١٣٩٤م] فانتصر السلطان ابو فارس الحفصى لاخيه ابى بكر واوقع بابن عمه صاحب بونة ، فذهب يومئذ ابو عبد الله ملتجئا الى فاس مستصرخا سلطانها المرينى ومكث هنالك الى ان عقد له سلطان مرين على جيش عظيم زحف به على بجاية سنة ٨١٠ﻫ [١٤٠٧م] فانتصر على صاحبها ابي يحيى فعزله وولى مكانه ولده المنصور ثم ارتحل عنها الى تونس منتقما من سلطانها ابى فارس ؛ فخالفه السلطان المذكور الى بجاية فأقصى عن حكمها المنصور وجعل ولايتها لابن اخيه احمد بن ابى بكر ، ثم انبرى لمقاتلة ابى عبد الله فظفر به فقتله وبعث برأسه الى من نصبه على باب فاس اغاضة لمؤيده وناصره سلطان بنى مرين ، وتقدم الى تلمسان فاحتلها سنة ٨١٢ﻫ [١٤٠٩م] ثم كانت هدنة وصلح تبودلت فيه الهدايا والتحف بين ملوك الحفصيين وبنى مرين

ولما انتصب السلطان ابو عمرو عثمان على عرش تونس مكان اخيه المنتصر المتوفى سنة ٨٣٩هـ [١٤٣٥م] قام فى وجهه صاحب بجاية وهو يومئذ على بن عبد العزيز ، فامتنع عن مبايعته مدعيا انه احق بالملك من عمه ، وقد شايعه على ذلك فقيه بجاية منصور بن على بن عثمان ؛ فنشأت عن ذلك حروب وخطوب انهزم فيها صاحب بجاية وامتلكها السلطان ابو عمرو فى جمادى الثانية سنة ٨٤٣هـ [نوفمبر ١٤٣٩م] فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد الاول

مشاركة الجزائر فى هزم الصليبين

كان لانهزام النصارى عن انطاكية واستيلاء سلطان مصر الملك بيبرس البندقدارى على بلاد سورية امتعاظ شديد وغيظ عظيم اورثهم شجوا وشجنا ، فقامت لديهم قيامة الاحزان وارسلوا الى البابا «كليمنضوس الرابع» يطلبون منه المساعدة والمعاونة على القتال باسم الصليب - كذباوزورا - ؛ فأرسل هو بدوره منشورا الى جميع ملوك اوروبا يستنفرهم ويستنفزهم الى ايقاد حرب صليبية ثامنة لاخذ ثأرهم من المسلمين ، فكان اول من لبى نداء البابا ملك فرنسا لويس التاسع St Louis واخذ فى تجهيز العساكر والاساطيل لذلك ، وبعد استشارة اصحابه ووقوع المداولات بينهم في تعيين البلاد التى تقصدها الحملة الصليبية وقع الاتفاق على مهاجمة تونس بدعوى ان اهل المغرب طالما تعدوا على بحرية فرنسا وغيرها ؛ فسارت الحملة بقيادة الملك لويس المذكور ونزلت بأنقاض مدينة قرطاجنة من الساحل التونسى ، وكان عدد جيش الصليبيين زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين الفا من الرجالة ، وبلغت اساطيلهم ثلاثمائة قطعة ما بين كبار وصغار ، فنادى حينئذ السلطان الحفصى ابو عبد الله محمد المستنصر الاول في الناس بالاستعداد والنفير العام ، وارسل الى جميع الممالك التابعة له -ومنها الجزائر- يطلب المدد ، فوافته الامداد من كل ناحية ، وجاءه ابو هلال عياد صاحب بجاية في جموعه وسرح اليه محمد بن عبد القوى عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان ، وجاءت جموع العرب وهوارة وولهاصة -سكان بسيط بونة-

وسدويكش وهم سكان مواطن صنهاجة بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية - وامده ايضا ملوك المغرب من زناتة واحتدمت الحرب فى منتصف المحرم ٦٦٩هـ (٥ سبتمبر ١٢٧٠م) ونشب هنالك بين الفريقين قتال عنيف مات فيه عدد عظيم من الطرفين وغدا ملك فرانسا قتيلا ، قيل انه مات حتف أنفه ، وقيل انه اصابه سهم غرب فقتله ، وقيل اصابه مرض الوباء ، ويقال ايضا وهو بعيد ان السلطان بعث اليه مع ابن جرام الدلاصى بسيف مسموم كان فيه مهلكه [١] فانسحب الصليبيون يومئذ عن تونس منهزمين وكفى الله المؤمنين القتال

مقاومة القرصنة الاروبية

لقد بلغ من عتو قراصنة الغرب واصوصه ان اصبحوا يجوبون هذا البحر ويعترضون مراكب المسلمين فيه فيتخطفون الناس من اهل المغرب ويبيعونهم باسواق اوروبا بيع السوائم ، فكثيرا ماحدثنا التاريخ عن بحارة اوروبيين كانوا يستغلون حركتهم التجارية لارتكاب القرصنة ؛ فان المؤرخ المسيحى «دوماس لاطرى» يقول ان فى سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م) هجمت سفينتان من بيزا على مراكب إسلامية واسرت ركابها وانتهكت اعراض النساء ووضعت يدها على ما صادفته من عروض ومتاع ؛ ويكفى ان نعيد للأذهان كما يقول المؤلف المذكور : آلاف المزارعين والملاكين العرب الذين اختطفوا في قابس عام ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وجربة عام ٧٠٩هـ (١٣١٠م) وطرابلس عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) ثم بيعوا في اسواق الرقيق باوروبا

وكان اول من انبرى لمقاومة هذه القرصنة الاروبية ورد عاديتها عن سواحل المسلمين بالمغرب اهل بجاية فانهم قد كالوا لهؤلاء القراصنة كيلا بكيل ، فاتخذوا مثلهم الاساطيل للغزو وأخذوا في الهجوم علي سواحل الافرنج مثل جنوة والبندقية وسواحل ايطاليا واسبانيا ، فغنموا واسروا ، وكثر يومئذ عدد

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩٠ ٢٩٤ والاخبار السنيه ص ٢٦٧-٢٧٠ ط مصر ١٣١٧هـ

الاسرى في بجاية حتى اشتد لغطهم وصخبهم بالمدينة من أثر اجترار السلاسل والاغلال ؛ ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل

ولم تعدم الانسانية بحمدالله رجالا عاملين على المحافظة على شرفها والسمو بها الى مقامها الجديرة به فى هذه الحياة ؛ فلقد كان لعملية القرصنة هذه استياء عظيم في قلوب الافارقة المسلمين فعملوا على عقد معاهدات بينهم وبين دول هذا البحر من الغربيين ؛ وحرصوا على توفير الضمانات وفرض التعويضات على الخسائر التى تلحق رعايا الطرفين من جراء اعتداء القراصنة ؛ فتعهدت جميع الدول التى ابرمت تلك الوثائق بالعمل المشترك لاستئصال القرصنة ، ولقد نصت معاهدة (صيبو) في فصلها التاسع عشر على انه اذا ما اضطر الموحدون الى تجهيز مركب لمطاردة احد القراصنة الجنويين فان جمهورية جنوة يجب عليها اذ ذاك ان تجهز بدورها مركبا للمساهمة في هذه المطاردة ، وقد ادى الامر بالطرفين ـ استئصالا لارباح القرصنة العفنة ـ الى تحضير بيع الغنائم والاسرى وتسريح هؤلاء عاجلا بدون فداء ، بل قرر الجانبان معا اتلاف مصادرة اموال القراصنة الذين يهاجمون رعايا الدول المتحالفة ، ولكن بالرغم عن كل ذلك ظلت كل من اوروبا وافريقية تعجان بالاسرى المسلمين والمسيحيين ، ولقدوازن المؤرخ «لاطرى» وقابل في كتابه المذكور بين فظائع القرصنة المسيحية وفظائع القرصنة الاسلامية ، فلاحظ ان المسيحيين يتحملون قسطا وافرا من النهب والتدمير الذى ارتكب باسم القرصنة البحرية والذى نسب الى المغاربة وحدهم (١) ؛ وماكان من حق المؤرخ المذكور ان ينسب هذا العمل الشنيع الى الاديان اويسميه بها ، فالقرصنة ليست هى في شيء من الدين ، فلا هى مسيحية ولا اسلامية ، وانما هى تطاول على الغير حبا فى الاثرة والغلبة ، وقد تكون دفاعا وذبا عن الحمى وحينئذ تلحق بباب الجهاد والحرب ولكل منهما حدود وقوانين

---

(١) رسالة المغرب عدد ١٤٦ ص ٤٩-٤٠-٣١

الاسلام والنصرانية بالمغرب

جاء فى المعاهدة التى ابرمها السلطان المستنصر الحفصى سنة ٦٦٨ﻫ (١٢٧٠م) مع ملك فرانسا فليب الجرىء، وشارل دوق انجو، وتيبو ملك نافار، ن للرهبان والقساوسة المسيحيين الاقامة بالمملكة الحفصية تحت رعاية الدولة الاسلامية، ولهم اتخاذ الكنائس والاديرة لاقامة شعائرهم الدينية وطقوسهم التقليدية والقاء المواعظ الخ .... كما لو انهم كانوا فى ديارهم وبين اظهر قومهم، واعطيت لهم الارض الكافية لذلك؛ فتكاثر يومئذ عدد النصارى ببجاية وغيرها من بلاد الجزائر وتونس وطرابلس، وانتشرت معابدهم بها، وذلك غاية في التسامح

وفى التاريخ المذكور سقطت جزيرة «ميورقة» بيد «يعقوب» الاول ملك «اراغون» فذهب اليها الراهب الفرنسي «ريموندلول» فوجدها صالحة لبث تعاليم المسيحية ونشر مبادى مذهبه «الفرانسيسكى» (١) فابتنى بها ديرا لاجتماع الطائفة به واتخذه مركزاً للتبشير بعقيدته، وفيه اخذ فى درس اللغة العربية ليستعين بها على تنصير المسلمين بالمغرب، ولقد بلغ هذا الراهب من الجراءة والحماسة الى ان القى بحتفه فى تونس عاصمة المملكة الحفصية وطفق يطعن فى الاسلام ويستنقص رسوله الكريم فهم بقتله المسلمون لولا ان ادركته عناية السلطان الحفصى فانتشله من ايدى الرعية وانقذه من الردى وابقاه اسيراً بتونس مدة، ثم اطلق السلطان كبله وفك اسره فارتحل يومئذ الى مدينة الجزائر، ومنها انتقل الى بجاية واستمر يعمل بها على خطته المعهودة فى نشر دعوته التبشيرية معلنا عداوته للاسلام فقتل هنالك يوم ١٧ ربيع الاول ٧١٥ﻫ (٢١ جوان ١٣١٥م)

---

(١) اسسه القديس الايطالى «فرانسوا داسيز» المولود سنة ١١٨٢ والمتوفى سنة ١٢٢٦م وكان تأسيس مذهبه هذا سنة ١٢٠٩م

المعتقدات والمذاهب الدينية

ما برح المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ينظرون الى علماء الاسلام وائمة مذاهبه والمجتهدين منهم واختلاف اقوالهم وآرائهم فى احكامه وشرائعه الا كنظرهم الى مذهب واحد وامام واحد، من غير نكير ولا تعصب ولا تحيز ولا اعتراض؛ فليس عندهم ترجيح لهذا عن ذاك ولا تفاضل بين امام وامام او مذهب دون مذهب فالكل على هدى من ربهم ورحمة، والشريعة بينهم كالبحر من اى الجوانب اغترفت منه فهو واحد، وان ما ورد عن هؤلاء الاعلام من الاختلاف في الفتوى وبعض الفروع انما كان عن اجتهاد وجد ودأب منهم رضي الله عنهم فى خدمة هذا الدين الحنيف رحمة بالمسلمين ، وقد كان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول : لا تقولوا اختلف العلماء في كذا وقولوا قد وسع العلماء على الامة بكذا ؛ اذ كلهم يغرفون من معين واحد سماوى كله خير وبركة ، واستمر الحال على ذلك الى ان حدث تقليد اهل المذاهب في القرن الرابع الهجرى وابتدا الجدل.

وبينما المسلمون على ذلك في تقليدهم هذا مطمئنين خاشعين الى ربهم اذ فوجئوا بحادثة وقعت بمصر ايام دولة المماليك البحرية ، اختلف فيها الملك الظاهر «بيبرس» العلائى البند قدارى ٦٥٨–٦٧٦هـ ١٢٦٠–١٢٧٧م وشيخ الاسلام الوزير تقي الدين بن بنت الاعز ، فذهب كل منهما غير مذهب صاحبه ، واغتنم حسدة الشيخ ومنافسوه فرصة هـذا الخلاف المستحدث فزينوا للسلطان قول الحنفية في المسألة اعتراضا على الشيخ تقي الدين الذى كان يرى راى الشافعية فيها، وكان يومئذ لا يلى القضاء ولا يقدم للحكم بين الناس في مصر الا الشافعية . اتباعا لما كان عليه الايوبيون من قبل ، فتوسع السلطان الظاهر يومئذ ٦٦٥هـ–١٢٦٦م في ديوان القضاء وجعله لاربعة فقهاء من اهل المذاهب الاربعة : شافعي وحنفى ومالكي وحنبلى ، وافتى فقهاء الامصار بوجوب تقليد اصحاب هذه المذاهب خاصة وتحريم ما عداها ، واقيمت لاهلها الخوانق والزوايا والربط ، وحبست

باسمها الاوقاف وعودى من تمذهب بغيرهـا وانكر عليه . ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة اوالتدريس او الامامة بالمساجد احد ما لم يكن مقلدا لاحد هذه المذاهب الاربعة (١) ولا ادرى ما حجتهم في ايجابهم تقليد البعض من ائمة المذاهب دون البعض، وكلهم عالم وكلهم مجتهد؟.. ولعل الائمة الذين رغبوا عن اقوالهم وعن مسائلهم الاجتهادية الشرعية هم اعلم بتلك المسائل او - ببعضها - من غيرهم ؟... ومن يدرى ؟....

.... وكان ما ارادوا وانصرف النـاس يومئذ الى تقـليد الائمـة الاربعـة واجتهدوا في استنباط الاحكام واستخراج النصوص الفـقهية وتفريع المسائل الشرعية على مقتضى قواعد المذاهب الاربعة ، وتحول اليهـا طـلاب الوظائف والمتطلعون الى نيل الجاه وحيازة المناصب البارزة في الدولة (٢) وكان من المصادفة ان ظهر وقتئذ بمصر رجل زعم انه ولد الخليفة الظاهر بن النـاصر العباسى ، وانه نجا بنفسه من مذبحة المغول ببغداد، وبعد ان ثبت نسبه لدى حكومة مصر رسميا بايعه السلطان بالخلافة - تبركا - ولقبه «بالمستنصر بالله» او «الحاكم بأمر الله» فتوهم البعض من سكان الامصار والممالك الاسلامية ان ما اشتهر بمصر من وجوب الاقتصار على تقليد هذه المذاهب الاربعة خاصة انما كان صادرا عن اذن الخليفة العباسي المقيم يومئذ هنـاك ، فامتثلوا واطاعوا لدولة المماليك واقتصروا منذ ذلك العهد في اخـذ

١] خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٤ ط بولاق ١٢٧٠هـ. ولقطة العجلان ص ٢٣٤ ط استانبول ١٢٩٦هـ

٢] كان الشيخ محمد بن الدهان البغدادى المتوفي سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م حنبليا فتشفع ، ثم تحنف حين طلب الخليفة نحويا يعلم ولده النحو ، ثم عاد الى مذهب الشافعية حين شغرت وظيفة التدريس بالنظامية وكان من شرط صاحبها ان يكون المدرس بها شافعيا ، ولم يكن عهدئذ احد اعلم منه بالفقه والنحو ، وكان الامام ابوحيان الاندلسى المتوفي سنة ٧٤٥هـ ١٣٤٤م ظاهريا ثم تشفع حين انتقاله الى المشرق ، فتـولى تدرس التفسير بالمنصوريه و الاقراء بالجامع الاقمر بالقاهرة ، وكان يقول : محال ان يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه.

احكامهم الشرعية عن فقهاء هذه المذاهب خاصة والغاء كل ما عداها ، ولم يشذ في ذلك سوى الزيدية باليمن ، والشيعة بفارس والعراق ، والاباضية بعمان والمغرب فتمسك كل من هؤلاء بمذهبه، وما شذ هؤلاء الطوائف الثلاث عن الامتثال لهذا الامر الا لكونهم لا يرون صحة امامة العباسيين ولا يعترفون بخلافتهم . ومنذ يومئذ انفردت المذاهب الاربعة بالانتشار والتمكن في البلاد واخذ غيرها في الاندراس والتقلص تدريجيا الى ان اصبح الامر على ما هو عليه الحال الى الآن (١)

---

١) يذكر علماء الاحصاء ان اكثر المذاهب ذيوعا وانتشارا في العالم الاسلامى اليوم هو مذهب ابي حنيفة ، فانه الغالب على بلاد الهند وان اتباعه هنالك يقدرون بنحو ٤٨ مليون مسلم، ويكثر مقلدوه ايضا فى بلاد العراق والشام والافغان والتركستان — الشرقيه والغربية — والقوقاز، وهو الغالب ايضا على الاتراك والالبانيين، وسكان البلقان والاتحاد السوفييتي؛ وفي البرازيل بامريكا الجنوبية نحو الخمسة والعشرين الف مسلم حنفي، ويقدر الجميع بنحو ١١٨ مليونا حنفيا. ويليه في الذيوع والانتشار مذهب الشافعية، فهو الغالب على القطر المصرى — ما عدا الصعيد فان اهله مالكية — وعلى بلاد فلسطين وبلاد الاكراد وأرمينية، واكثر السنية من اهل فارس شافعية — وفيهم الحنفية — (والاغلبيه عندهم شيعة) وجميع مسلمى جزيرة سرنديب -سيلان- وجزائر الفيليبين وجاوة وما جاورها من الجزر كلهم شافعية، وكذلك اهل الهند الصينية واستراليا واهل عسير والسنيون في اليمن وحضرموت -عدا عدن- فان فيها بعض الحنفيه؛ كما انه يغلب ايضا على أهل الحجاز مع مذهب الحنابله، ويتبعه نحو الربع من مسلمى الشام، ويكثر اتباعه بالعراق -اعنى بعد المذهب الحنفي- ويتبعه في الهند نحو المليون مسلم، وفي تركيا نحو المليون ونصف شافعيه كما انه يوجد بقلة فى جهات اخرى؛ ويقدر المجموع بنحو ٧٣ مليون .

ويليه فى نسبة عدد الاتباع المذهب المالكى فانه الغالب على اهل المغرب الاسلامى وارض الصعيد والسودان والكويت وقطر والبحرين ، وله اتباع ومقلدون فى العراق والحجاز وفلسطين واكثر اهل السنة في الاحساء مالكية وحنابله، ويقدر مجموع المالكية بنحو ثلاثين مليون .

اما الحنابله فانهم اظهر ما يكون بنجد والحجاز بجانب المذهب الشافعى كما هم بفلسطين ايضا ، ونحو الربع من اهل السنه بالشام حنابله ، ولهذا المذهب اتباع قليلون بقطر والبحرين من النازحين الى هذه البلاد من نجد، ويقدر عدد اتباع المذهب الحنبلى اليوم بنحو ضم ملايين مسلم. وفي الجزائر اليوم بجانب المالكيه نحو الاربعين الف اباضى، وباضافة ما بجربة من اباضيه وهم ٢٠٠٠٠ نسمة، وما بعمان ٥٩٧٦٠٠ نسمة، وما بجبل نفوسة بالقطر الطرابلسى ٤٨٠٠٠ نسمه، كان مجموع عدد الاباضية زهاء ٧٠٥٦٠٠ نسمة .

وانظر ما قدمناه من كلامنا حول حركة المذاهب الاسلامية وتطورها بالجزائر في الجزء الاول صفحة١٧٧-٢٠١-٢١٩-٢٥٧-٢٦٤-٢٩٤-٣٢٧-٣٥٠-٣٨١

وان هـذا العمل وان كان فيه نوع من جمع كلمة المسلمين وتوحيد اتجاهـهم وصد لتلاعب المغرضين وارباب الدعاوى العريضة فان فيه ايضا تضييقا لسعة الفقه الاسلامي وتحجيرا للافكار الحرة وقتلا للنشاط والبحث العلمي وتعطيلا للشريعة بحمل الاكفاء من الناس على ترك الاجتهاد في تفهم الكتاب والسـنة واستنباط الاحكام على ما توجبه مقتضيات الحياة وعلى ما يقتضيه تقدم العـلم وترقي العـقل البشري واتساع مداركه ومدارجه وما يتجدد مع الزمن من حوادث ونوازل، وفيه كذلك تسفيه لآراء المتقدمين وطعن في جميع ما ذهبوا اليـه من آراء كان لا يراها اصحاب المذاهب الاربعة ، في حين انهم كلهم كانوا لا يرون فيما عـالجوه من شـؤون المجتمـع وما بذلـوه من وسـع في الذب عـن حقيقـة الدين وما انفقوه من جهود جبارة في استنباط الاحكام والاستدلال عليها بصحيح الكتاب والسـنة وتدوينها الاخدمة دين الاسلام الخالد الذى لا يسعه كل ما عرف من مذاهبه -جميعها- الى اليوم فكيف يسعه الاقتصار على هذه الاربعة فقط !....
وفي ذلك ايضا من الجمود المميت للقرائح، والتضييع للعلم بالغاء ما احتفظ به الاوائل من اثر صحيح اواجتهاد صائب، ورحم الله شيخ الاسلام زكرياء الانصارى حيث قال : « اياكم ان تبادروا الى الانكار على قول مجتهد او تخطئته الا بعد احاطتكم بأدلة الشريعة كلها ومعرفتكم بجميع لغات العرب التى احتوت عليها الشريعـة ومعرفتكم بمعانيها وطرقهـا ، فاذا احطتكم بها كما ذكرنا ولم تجدوا ذلك الامر الذى انكرتموه فحينئذ لكم الانكار والخير لكم ، واني لكم بذلك » ؟!.....
وبالفعل انعدم يومئذ الاجتهاد واغلق بابه بالمغرب الاسلامي كما ذكره العـز بن عبد السلام -٦٦٠هـ-١٢٦١م- وقل انصاره بالمشرق ايضا .

ولو راجعنـا رجال هذه المذاهب الاربعة انفسهم واستشرناهم فيما احدثه

المحدثون حول مذاهبهم لما وجدنا فيهم واحدا - رحمهم الله تعالى - يرى هذا التحجير او قل التضييق !... فهذا امام دار الهجرة مالك بن انس نراه ينهى الخليفة ابا جعفر المنصور عما وجه اليه عزيمته من حمل الناس على مذهبه قائلا: « لا تفعل ذلك يا امير المؤمنين ، فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل ، وسمعوا احاديث ، ورووا روايات ، واخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا الله تعالى به ، فدع الناس وما اختار اهل كل بلد منهم لانفسهم » ، وكذلك نجد الامام هذا نفسه يؤكد في دفع الخليفة هرون الرشيد عما هم به هو الاخر ايضا من تعليق كتاب الموطأ في الكعبة وحمل الناس على ما فيه ، فقال « يا امير المؤمنين لا تفعل فان اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الامة فكل يتبع ما صح لديه عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله ، وان اصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلاد وكل مصيب » فقال له الرشيد : وفقك الله يا ابا عبد الله !... ولقد صح عن الشافعي ايضا انه نهي الناس عن التقيد حتى بمذهبه ، وهكذا كان منهاج جميع ائمة السلف رحمهم الله تعالى ، فلم يبلغنا عن احد منهم انه امر اصحابه بالتزام مذهبه او الاقتصار على مذهب واحد معين ، بل المنقول والمقرر عنهم جميعهم انهم كانوا يحثون اصحابهم على الاجتهاد في اخذ الاحكام من مصدر الشريعة المطهرة ، وكانوا يرون ان التقصير في هذا معصية واشراف على خطر عظيم ، ذلك لان الحوادث والوقائع في المعاملات لا تتناهى فلا بد اذا من الاجتهاد او الاخذ بجميع مذاهب الاسلام على الاقل ، نعم انهم كانوا يعملون بفتوى بعضهم بعضا ولكن كلهم لسان واحد يقول : اذا صح الحديث فذاك مذهبي ، فما معنى اذا هذا التضييق ؟!... اللهم الا ان يقال ان ذلك كان موقتا وفي ظروف مخصوصة منعا لتسرب التعاليم الدخيلة في الاسلام فمسلم .

ويتصل بهذا ما يرجع الى مباحث اصول الدين وتشعب الجدل الديني في العقائد واختلاف ارباب الفرق والطوائف الاسلامية في المعتقدات وتضارب

انظار ائمة مذاهب علم الكلام واهل الاعتزال كما هو السائد يومئذ بالمشرق ، فان ذلك كله لم يكن منه شيء بالمغرب ، وخاصة في الجزائر فانها بريئة من ذلك، والناس فيها على عقيدة مذهب السنة والجماعة حسب اصول مذهب الاشعرى وتعاليمه التي جاء بها ابن تومرت من المشرق الى هذه الديار ، الا ما كان من جماعة الاباضية فان عقيدتهم ترمي الى الخارجية (١)

وما كان اتحاد الناس هنا بالجزائر والمغرب قاطبة فى عقيدتهم الاشعرية وبعدهم عن الآراء الاخرى الا لتمسكهم بمذهب مالك ، وفى ذلك يقول عياض : « وقد نظرنا طويلا في اخبار الفقهاء وقرانا ما صنف في اخبارهم الى يومنا هذا ، فلم نر مذهبا من المذاهب غيره -يعنى المالكي- اسلم منه ، فان فيهم الجهمية- والرافضة- والخوارج - والمرجئة- والشيعة- الا مذهب مالك فانا ما سمعنا ان احدا ممن قلد مذهبه قال بشيء من البدع» (٢)

وفي هذا العصر ايضا اخذت الطرق الصوفية تنتشر باشتهار رجالها المؤسسين فى المشرق والمغرب ، كالقادرية المنسوبة الى الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١هـ-١١٦٦م والشاذلية المنسوبة الى الشيخ ابي الحسن الشاذلي المتوفي سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م ، والنقشبندية المنسوبة الى الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند المتوفي سنة ٧٩١هـ-١٣٨٩م والى هذه الطرق الثلاثة يرجع سند جل طرق المتصوفة المنتشرة اليوم بالمغرب الاسلامي وغيره ، وكان يومئذ حدوث وظيفة او قل منصب شيخ المشائخ بمصر ، احدثها السلطان صلاح الدين الايوبى ، غير ان الجزائر بقيت نازحة عن الفكرة الطرقية هذه ولم تتأثر بها بهذه الصفة التي هي عليها اليوم الا منذ العهد التركي العثماني فقط .

---

١) انظر الجزء الاول من الكتاب ص ١٧٨ و٢٠١ والملل والنحل للشهر ستانى ج ١ ص ١٨٠ ط مصر ١٣١٧هـ

٢) مقدمة كتاب المدارك ص ١٩ ط باليرمو ١٩١٠م

اجل انه لم تكن ارض الجزائر منعزلة تماما او خلوا عن الفكرة الصوفية وطريق القوم ، الا ان علماء الشريعة بها كانوا بالمرصاد لاصحاب الشطحات والخرافات المبتدعة فلم يجرأ يومئذ احد على ادعاء الطريق ما لم يكن حقا هو على قدم الجنيد واضرابه ، واليك صورة مصغرة عن موقف علماء الجزائر تجاه هذه الطبقة من الناس :

روى الغبريني في عنوانه عن عالم بجاية الشيخ ابي الحسن عبيد الله الازدى المتوفي بها سنة ٦٩١هـ-١٢٩٢م قال انه كان متنزها عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة ، ولقد مضى بمسجده ابوا الحسن الفقير (١) المعروف بالطيار مع صاحب له من الفقراء ، ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد ، فجلسوا من غير تحية فأمرهم بالتحية فقال له الطيار « ولذكر الله اكبر » وامتنع من الركوع ووقع بينه وبينهم في هذا كلام ، ولما ظهر منهم التوقف مع هذا المقال وعدم النزوع عن هذه الحال وقع العمل على نفيهم الى المغرب واخراجهم من البلد ؛ والنفي في حق هؤلاء وامثالهم قليل وانما الواجب ان يعاملوا بأسوء التمثيل ، وهؤلاء جملة اغبياء لا علم ولا عمل ولا تصوف ولا فهم وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون ان مبناهم على اساس [٢]

---

١) هو لقب عام لاتباع طرق المتصوفة عندنا بالجزائر

٢) عنوان الدراية ص٦٣

الثقافة والحضارة والعمران

لم تحد هذه الدولة في خطتها التمدنية عن ما قدمناه فى تاريخ دولة الموحدين وكيف تحيد عنها وقد درجت من مهدها وتفرعت من ايكتها وتغذت بلبانها؟.. فان معالم حضارة الحفصيين قائمة الى اليوم وآثارهم مشاهدة باقية بدار سلطانهم ومركز حكمهم -تونس- الى الآن؛ فهذه قلاع ومناور وثكنات، وهذه معاهد وقصور ومرستانات ، وتلك مساجد ومدارس ودور كتب واسواق وحمامات ، وهي كلها تمتاز بطابعها الحفصي وشكلها الاندلسى الجميل المرتكز في تخطيطه على فن المعمار الصنهاجي وبنايات بني الاغلب .

والملحوظ على هذه الدولة انها قليلة الآثار بالجزائر وانها قصرت عنايتها العمرانية بعاصمة ملكها -تونس- دون بقية مملكتها المتسعة بالجزائر اللهم الا شيء تافه يسير كضيعة فرفار التي احدثها بالزاب الغربي السلطان ابو العباس احمد الاول ٧٧٢هـ-١٣٧٠م وتوسيع قصبة قسنطينة وجامعها الكبير سنة ٨١٦هـ-١٤١٣م على عهد يحيى المنتخب ، وتأسيس مسجد واركله -وارجلان- بالجنوب الجزائرى المرسوم على مأذنته اسم الامير ابى زكرياء الاول فقط ، ولا اعلم لهذه الدولة من آثار لها بالجزائر باقية غير هذه ولعل عذرها في ذلك هو انصراف الحكومة يومئذ الى اخماد الفتن والثورات بالمغربين -الاوسط والادنى- واشتغال ولاة الامر بانقسام المملكة بين الجزائر وتونس واهتمامهم برد عادية المزاحمين لهم من بني مرين ومنافسيهم من بني زيان وشيوخ العرب ورؤساء القبائل البربرية الخ.. وايا ما كان فان فضل بني ابي حفص على فن المعمار لا ينكر .

اما عن الاقتصاد فان الجزائر كانت مزدهرة بما فيها من اسواق قائمة وتجارة رائجة في انواع الحبوب والتمور والماشية والصوف ، وخاصة بمدينة قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وارض الزاب ، وسير القوافل كان يومئذ منظماً ما بين الجزائر والسودان ، وكذلك المواصلات بحرا ما بين المملكة

الحفصية والولايات الاطالية كقطاونية وصقلية وجنوة ؛ فانه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكانت لها محطات ومستودعات لتبادل التجارة منبثة بكامل سواحل الشمال الافريقي كمركز بونة وبجاية، فمن هذه كانت تستورد حاجياتها الضرورية من حبوب وزيت وسمك وصوف ومرجان وانواع البسط والجلد الخ .. وذلك ماكانت الجزائر ولا تزال تغله الى الآن، وان المملكة الحفصية كانت بدورها كذلك تستورد من الخارج انواع الزجاج والمصوغ وادات الحديد الصناعية الخ . . فازداد بذلك ثراء الرعية ، وبلغت ثروة اسرة القائد نبيل عشرين قنطارا ذهبا ناضا ومثلها من قيمة الجواهر والعقار والاثاث !...

وفي الميدان العلمي نرى التعليم يومئذ منتشرا بالكتاتيب والمساجد التي هي معاهد الاسلام العلمية منذ وضع الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حجر مسجد الاسلام بالمدينة من اول يوم الى الآن ، ويكفينا ان نعلم ان ما ذكره ابن خلدون في مقدمته الحافلة من انواع جميع العلوم والمعارف والفنون والصناعات انما كانت كلها تدرس بالمساجد ، ولقد تلقاها هو نفسه في المساجد، وكان رحمه الله يتطوع بنفسه لتثقيف طلبة العلم بالتدريس فى مساجد الجزائر كما يؤخذ من سيرته في بجاية بمسجد القصبة على عهد ولايته الحجابة لامراء هذه الدولة، تلك هي المساجد التي هدمها وخربها الاستعمار واخلى بقيتها من المدرسين !... وان حركة التأليف كانت مطردة بالجزائر كما تشهد بذلك كتب التراجم وفهارس العلماء ، فان مقدمة ابن خلدون وضعها مؤلفها بالجزائر بقلعة بني سلامة بالجنوب الغربي قرب مدينة «فرندة» من مقاطعة وهران سنة ٧٧٦هـ(١٣٧٤م)، وان كلا من الامام عبدالرحمن الثعالبي-واحمد المغراوى-واحمد بن يونس القسنطيني-وابي العباس احمد بن اديس البجائي-وحمزة بن محمد البجائي-ومحمد ابن احمد الوانوغي-ومحمد بن عبد القوى البجائي-وبنته رقية-ومحمد القاوسي-ومنصور بن محمد المتناني-وناصر بن احمد بن مزني-واسرة

المشدالى فى آخرين من العبقرين النبغاء الذين لا يقلون عن هؤلاء ثقافة وعلما وادبا كلهم انجبتهم الجزائر الحفصية ، واذا كان ابو على المسيلي المعروف بأبي حامد الصغير حين يشار اليه بالتفرد في العلم يقول : ادركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون ، فما ظنك بالادباء والنحاة والمحدثين وغيرهم (١)

ويحدثنا الغبريني في عنوانه بشيء من التفصيل عن كتب الدراسة والفنون التي كانت تدرس عهدئذ بالجزائر ، فهو يذكر لنا من دواوين امهات الفقه موطأ الامام مالك والتهذيب للبراذعي والجلاب والتلقين للقاضى عبد الوهاب البغدادى ـ ومختصر بن ابي زيد ورسالته الشهيرة ـ والمدونة وكتاب عبد الله بن عبد الحكم ـ والتفريع لابن الجلاب ـ والتبصرة للخمي ـ وكتب ابن العربى والمازرى والقاضي عياض . ولم يكن يومئذ يعرف بالجزائر او غيرها من بلاد المغرب مختصر خليل حتى جاء به محمد بن الفتوح التلمساني سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) فاقبل عليه الناس وعنوا به وتناولوه بالشرح والتدريس مكتفين به عن بقية دواوين الفقه المالكي وامهاته

وفي الاصلين كتاب الارشاد لامام الحرمين والمستصفى للغزالي ـ والمعالم ـ وكتاب الباقلانى وابن فورك ـ والسنن للشافعى ـ وكتاب الليث بن سعد البصرى ـ وجامع الخيرات لسفيان بن عيينة

وفي التفسير كتاب الكشاف للزمخشرى واحكام القرآن لابى الحسن على بن محمد الطبرى ـ والكشف والبيان عن تفسير القرآن لابى اسحاق احمد الثعلبى والتحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لابى العباس المهدوى ـ والوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن عطية المحاربى الغرناطى

وفي الحديث كل الصحاح – ما عدا ابن ماجة فانه لم يذكره الغبرينى في برنامجه – وكتاب التمهيد لابن عبد البر القرطبى ، والمنتقى للباجىى ،

١) عنوان الدراية ص ١٦و٣٢

والمختار الجامع بين المنتقى والاستذكار للقاضى ابى عبد الله محمد بن عبد الحق التلمسانى ومسند احمد بن حنبل

واما علوم اللغة والادب فانها كانت تدرس بالجزائر في كتاب سيبوية والايضاح لابى على الفارسى - والجمل للزجاجى - والعقد الفريد لابن عبد ربه - وزهر الاداب للحصرى - والقانون لابى موسى الجزولى - والمفصل للزمخشرى - وادب الكتاب لابى محمد بن قتيبة - وامالى القالى - وديوان الحماسة لابى تمام وشعره وشعر المتنبى وابى العلاء ومقامات الحريرى - ومقصورة ابن دريد

واما التصوف فانه كان يدرس في كتاب قوت القلوب لابى طالب المكى - والرسالة المنسوبة للقشيرى - وكتب ابى الفرج بن الجوزى - ورسالة فضل مكة لابى سعيد الحسن بن ابى الحسن البصرى

واما عن صناعة الطب فانها كانت -كما يقول الغبرينى- اشد الصنائع ضياعا في بلادنا ذلك لانه يتعرضها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز الا عند القليل من الناس؛ وهو يذكر لنا من كتب الطب المتداولة بينهم كتاب القانون لابن سينا وارجوزته المشهورة في الطب ، وكان ممن برع فى هذه الصناعة واشتهر امره يومئذ بالجزائر الطبيب ابن اندراس فانه كان ماهرا فى علمه باحثا مجيدا تصدر لاقراء العربية والطب ببجاية وكانت دروسه ومجالسه العلمية حافلة بأذكياء الطلبة واعيان العلماء ويجرى فيها من الابحاث الدقيقة ما يعز وجوده فى بطون الكتب ، وكان ابن اندراس هذا على راس الاطباء المختصين بقصر الامارة فى بجاية وبها وضع ارجوزته فى الادوية ، ثم استدعاه المستنصر الحفصي الى تونس فسلكه فى طبقة اطبائه المختصين به (١)

---

١) عنوان الدراية ص ٤٥-٤٦

ولم يذكر لنا الغبريني عن كتب الفلسفة والمعقول شيئا سوى علم المنطق فانه ذكر بأنه كان يدرس عندهم على طريقة الفارابي وابن سينا وغيرهما من الاقدمين والمحدثين والمتوسطين ، وذكر من كتب المعقول المتداولة بينهم كتاب النجاة والاشارات والتنبيهات وكلها لابن سينا. والذي يبدو من كلام المقري في ازهار الرياض وابن خلدون في مقدمته انه لم يكن ببلاد المغرب يومئذ تحقق تام وتمكن من ناصية فنون الفلسفة والعلوم العقلية ؛ بحيث اننا لا نكاد نجد من آثارها ورسومها بالجزائر في هذا العصر الا قليلا عند امثال القاضي محمد بن ابراهيم الاصولي واضرابه، ذلك ان اهلها مع قلتهم كانوا مضطهدين من قبل علماء النقل الجامدين المتزمتين (١)

ويحدثنا التاريخ عن فخامة مكتبة الدولة الحفصية بما لم يعهد مثله يومئذ عند اي حكومة من الدول المعاصرة بالمغرب –وخاصة في اوروبا– فان عدد كتب المكتبة الدولية بلغ الى ست وثلاثين الف مجلد ؛ (٢) بينما كانت مكتبة باريس في مفتتح القرن الرابع عشر الميلادي لا تزيد على بضع عشرات من الكتب ، ومثلها كذلك مكتبة «اوكسفور» Oxford من بلاد الانكليز فانها عهدئذ عبارة عن صندوق واحد فيه بضع مجلدات مجعولة تحت رحمة رئيس رهبان كنيسة مريم

ورغم كل ما ذكرنا من تقدم الحضارة وتوفر اسباب الثقافة والمدنية في هذا العصر فقد سجل التاريخ عجز دولة الحفصيين عن وقاية المغرب من سقوطه من قمة مجده الشامخ التي تبوأها ايام دولة الموحدين ، ولكل امة اجل

---

١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ وأزهار الرياض ج ٣ ص٢٦

٢) مما يذكره التاريخ بكل اسى ان هذه الكتب التي جمعها ابوزكرياء الاول تفرقت وبيعت بسوق الكتبيين بتونس أيام حركة اللحياني الى قابس اوائل سنة ٧١٧هـ-١٣١٧م ؛ ولقد كان من حسن الجد ان عوضها الامراء بعده بمكتبات شتى

انهيار الجزائر الحفصية

لم تزل الدولة الحفصية حاكمة على القطر الجزائرى الى ان دهمها الشقاء ونخر عظمها الخلاف والافتراق، ظهر فى الولاة والرؤساء حب الترف والاسراف والانهماك فى الشهوات، فذهبت هيبتهم من الصدور وخلت عن توقيرهم النفوس، فاستطار بالدولة سماع سوء وخفت نشاطها السياسى، وشعر الاجانب بضعفها فارتاح لها اهل الحروب الصليبية فهاجمها لويس التاسع ملك فرنسا ومات هنالك بتونس كما تقدم؛ وهاجمها ايضا كارلوس صاحب صقلية؛ وذهب التيه يومئذ بالاسبان الذين انتصروا يومئذ على المسلمين بالاندلس الى غزو القطر الجزائرى فاحتلوا المرسى الكبير بوهران سنة ٩١٠هـ (١٥٠٤م) وزحفوا نحو تلمسان ومستغانم وتدلس -دلس- وبجاية واستولوا على قلعة مرسى «الجزائر» فهدموا منها منارها الذى انشأه المسلمون لمراقبة العدو منه وبنوا مكانه حصن «البنيون» وقد كان ذلك سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م) بقيادة «الكونت دونافار»؛ ويومئذ خرج والى الجزائر الحفصى المقيم بقسنطينة متواريا الى قلعة بنى عباس فاستقر بها الى ان ظهر الاتراك العثمانيون بتونس فقاومهم السلطان الحفصى الحسن بن محمد مستعينا عليهم بالاسبان؛ فتحولوا عنه الى مدينة «جيجل» بالجزائر ففتحوها سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م). وكانت ولاية بونة لاحمد بن الحسن الحفصى فنزل عنها للاسبان جزاء حمايتهم ودفاعهم عن تونس ضد الاتراك. وبقى هو مقيما بها الى ان بويع له بالملك مكان ابيه سنة ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) فانتقل يومئذ الى تونس، وكان ذلك آخر العهد بالدولة الحفصية فى الجزائر

وتمكن البرتغاليون يومئذ من احتلال بعض المراكز الهامة من الشمال الافريقى فأقاموا فيه محارس وحصونا، واضحت الاراضى الداخلية نهبا متنازعا بين بداة الاعراب والقبائل البربرية -او قل المغربية- المستقلة التى كانت تأبى الخضوع والطاعة لنظام الدول الوطنية الحاكمة، فظلت متحاربة متنافرة تفسح للاجنبى

فرصة النصر والظفر ؛ وكان ذلك كله سببا مباشرا فى تدهور الدولة الحفصية واضمحلال سلطانها وتضعضع كيانها ، فسقطت نهائيا بيد الاتراك الفاتحين يوم ٢٥ جمادى الاولى سنة ٩٨١هـ (٢٤ سبتمبر ١٥٧٣م) واسر آخر ملوكها محمد بن الحسن فنقل من تونس الى استانبول وبقي هنالك الى وفاته بها ، وبانتقاله انقرضت دولة الحفصيين من المغرب بعد ما حكمت ٣٥٤ سنة قضت منها بالجزائر ٣١٥ سنة

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر ولاة الجزائر – فاتحة عهد الدولة الحفصية – الامير ابو زكرياء يحيى الاول ، حيث ولاه والده ابو محمد عبد الواحد بن ابى حفص ولاية بجاية ، وجعل وزارته ليحيى بن صالح بن ابراهيم ، ومشورته لابن ابى مهدى ، وجبايته لعبد الحق بن ياسين ، وعقد للعباس بن منديل على بلاده مغراوة بشلف وكانت حاضرتها مليانة ، ومنحه بها شبه استقلال وتصرف داخلى ، فاتخذ العباس ذلك ذريعة لاظهار ابهة الملك وشارة السلطان . وكان يومئذ عبد القوي بن العباس بن منكوش على ولاية توجين

ولما فتح السلطان ابو زكرياء الاول مقاطعة قسنطينة سنة ٦٢٨هـ(١٢٣٠م) اقطعها لبنى النعمان – هم من قبيلة هنتاتة بالمغرب الاقصى – ام يزالوا ولاة بها الى ان نكبوا على يد السلطان المستنصر سنة ٦٥١هـ-١٢٥٣م فتولاها يومئذ ابن كلداسن – من مشيخة الموحدين – فأقام هو بتونس واناب عنه ابا بكر بن موسى بن عيسى الكومى المعروف بابن الوزير ، فمكث هذا بقسنطينة الى ان عين من طرف المستنصر محافظا بها

ولما استبد ابو على الملياني بعاصمة مغراوة – مليانة – سنة ٦٥٩هـ-١٢٦١م جهز له السلطان المستنصر الاول اخاه الامير عمر فأخضعه ، وفى عودة الامير من غزاته هذه وافاه – وهو بطريقه الى تونس – عقد الولاية على بجاية جزاء بطولته

وموقفه الحربى ضد الثائر المليانى المستبد بمغراوة ؛ فامتنع عمر من قبول هذه الولاية واستعفى اخاه السلطان منها فأعفاه وولى عليها يومئذ ابا هلال عياد بن سعيد الهنتاتى ، فمكث بها الى وفاته بقربة بنى ورار سنة ٦٧٣-١٢٧٤م ، فخلفه عليها ولده محمد ، فخشى السطان استبداده فأشرك معه فى العمل ابا العلاء ادريس بن عبد الملك الغافقى وجعله على اشغال بجاية ، وكان ذلك بسعى من اخيه كاتب الدولة ابن الجبير ؛ فوجد محمد بن هلال فى ذلك مضايقة له ، فعمل على التخلص من ابى العلاء بقتله فى ذى القعدة ٦٧٧هـ-مارس ١٢٧٩م

ويقول الغبرينى انه لما انفصل جيش بجاية مع جيش افريقية لحصار مليانة ، وبقيت البلاد شاغرة عاث المفسدون فى الخارج وافسدوه وامتدت الايدى ووقع هرج عظيم ، فقام بأمر الناس قاضى بجاية وامام جامعها الاعظم الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن الغماز الانصارى ووقف خير موقف وحفر الحفير على البلاد وشيد ما احتاج الى التشييد من الاسوار وظهر من عقله وفضله ونبله وجده واجتهاده ما حمد به امره وجل به قدره (١) فعد بذلك من زعماء الجزائر ورؤسائها العاملين ؛ اما قسنطينة فقد كان على راس قيادة جيوشها فى التاريخ -ايام الواثق (٦٧٥-٦٧٨هـ) ١٢٧٧-٧٩م- عبد العزيز بن عيسى بن داود الهنتاتى

وفى سنة ٦٧٩هـ-١٢٨٠م ولى السلطان ابراهيم الاول ولده الاكبر ابا فارس عبدالعزيز على بجاية ، وجعل حجابته لمحمد بن ابى بكر بن خلدون جد المؤرخ الاقرب ، ولم تكد تمر ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوما على حجابة ابن خلدون هذا حتى قتل على يد ابن ابى عمارة الداعى . وفى سنة ٦٨١هـ-١٢٨٢م قتل عامل قسنطينة ابو بكر بن الوزير اقتصاصا منه بسبب خلع طاعته وثورته ضد الحفصيين ، وكان قتله على يد عبد العزيز الهنتاتى قائد الجيوش الاعلى بقسنطينة ؛ وجعل مكانه ابو محمد بن بوفيان الهرغى

---

١) عنوان الدراية ص ٧٠

وفى سنة ٦٨٤هـ-١٢٨٥م عاد يحيى بن ابراهيم لامتلاك بجاية بمساعدة الدواودة ، فانتصر فى حركته هذه واستقل بمملكة الجزائر وكان بذلك اول من قسم المملكة الحفصية الى شطرين : غربية وشرقية ؛ واتخذ لنفسه لقب « المنتخب لاحياء دين الله » وجعل حجابته لابى الحسن بن سيد الناس الاشبيلى فلما توفى الحاجب المذكور ٦٩٠-١٢٩١م خلفه ابوالقاسم بن ابى حى الاندلسى؛ وفى سنة ٦٩٨هـ-١٢٩٨م عهد المنتخب لابنه خالد بولاية عهده وولاه على قسنطينة؛ وكانت اقامة المنتخب تارة بقسنطينة وتارة ببجاية، ولم يزل كذلك الى ان وافاه اجله ببجاية سنة ٧٠٠هـ-١٣٠٠م . وبعد وفاته انتقل ولده خالد الى بجاية فاستوزر بها يحيى ابن ابى الاعلام ، وجعل القيام بشؤون دولته لابى عبد الرحمن بن عمر، وولى قسنطينة على بن الامير الهمدانى صهر الحاجب بن ابى حى ؛ وفى سنة ٧٠٥هـ-١٣٠٥م عزل الحاجب المذكور بتهمة موالاته لابى عصيدة خصم الامير خالد وتولى مكانه ابو عبد الرحمن يعقوب بن غمر السلمى؛ ويومئذ غير ابن الامير سياسته تعصبا لصهره وحول وجهته نحو ابى عصيدة فدعا له ونادى باسمه ملكا، فنهض الامير خالد الى قسنطينة فقتل عاملها المذكور واستعاد قسنطينة لطاعته

ولما انتقل الامير ابوالبقاء خالد بن يحيى الى تونس سنة ٧٠٩هـ-١٣٠٩م عقد لعبد الرحمن بن المزوار يعقوب بن خلوف الصنهاجى على بجاية تحت رعاية واشراف الحاجب ابن غمر، وبسعي من الحاجب المذكور عقد لاخيه ابى بكر بن يحيى على قسنطينة وكان قد ولد ونشأ بها ؛ ولما صار الامر الى السلطان ابى بكر هذا الملقب بـ(المتوكل على الله) وانتقل من قسنطينة الى تونس سنة ٧١٨هـ-١٣١٨م استقل الحاجب بن غمر بولاية قسنطينة وما والاها من التراب الجزائرى الى ان توفى بعد ذلك بسنة ، فولى السلطان يومئذ اعمال الجزائر لبنيه: فجعل ولاية قسنطينة لابى عبد الله محمد المزداد والناشىء بها؛ وبجاية لابى زكرياء يحيى ؛ وبونة - عنابة - للفضل ؛ وبعث معهم الحجاب والوزراء والقادة ؛

ثم تولى على اعمال قسنطينة الامير ابو العباس احمد بن السلطان ابي يحيى ابي بكر ٧٣٥هـ-١٣٣٤م وكان على حجابته ابو القاسم بن عبومن مشيخة الموحدين و في سنة ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م هلك محمد بن السلطان ابي يحيى ابي بكر عامل قسنطينة . فتولى مكانه ولده ابو زيد عبد الرحمن تحت كفالة مولاهم نبيل . ولما هلك ابوزكرياء والي بجاية نجل السلطان سنة ٧٤٦ هـ - ١٣٤٥ م قدم البجائيون مكانه ابنه محمداً ، وكان حاجبه فارح المعلوجي بن سيد الناس ، واستمر ابو زيد ومحمد على ولايتهما هذه الى يوم استيلاء ابي الحسن المريني على المملكة الحفصية سنة ٧٤٨هـ-١٣٤٦م فشرد امراء بني ابي حفص، ونقل محمداً الى ندرومة وعبدالرحمن واخوته الى وجدة . وابقي صهره الفضل ببونة .

وفي سنة ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م نهض ابو زيد عبد الرحمن بن محمد من عمله بقسنطينة فدخل بونة مستنصرا عمه الفضل واجلب على تونس تاركا ولايته لاخيه ابي العباس احمد . ثم بعد سنة وقعت ولاية قسنطينة بيد المرينيين فقبضوا عليه ونقلوه الى سبتة .

وفي سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م اقطع ابو العباس امير بجاية ولد اخيه ابا عبدالله محمدا اعمال بونة ، واشتهر من رؤساء الجند ببجاية يومئذ القائد البشير وفي رمضان سنة ٧٦٥ هـ - جوان ١٣٦٤ م احتل الامير محمد بجاية وافتكها بمعاضدة بني مرين من يدعمه ابي اسحاق ابراهيم ؛ واستدعى لحجابته مفخرة المغرب الاسلامي عبد الرحمن بن خلدون وكان عبد الرحمن هذا يومئذ صحبة السلطان ابي سالم المريني بفاس . فبعث بأخيه يحيى كنائب عنه ومحافظ على الرسم الى ان عاد اخوه عبد الرحمن بن خلدون من الاندلس فاستقل بحمل اعباء الملك وتدبير السياسة ببجاية ، وباشر بنفسه التدريس والخطابة بجامع قصبتها نحو سنتين الى ان سعى به خصومه ومنافسوه الى السلطان ابي العباس احمد فخرج ابن خلدون من بجاية الى بسكرة بعد ما عاش في كنف الجزائر وتحت رعاية ملوكها الحفصيين

نحو سنتين ، ولما انتقل السلطان الى تونس ٧٧٢هـ-١٢٧٠م اصتحب معه اخاه ابا زكرياء ونقله من ولاية بونة الى منصب الحجابة بتونس ، وجعل مكانه ولده محمدا ومن هنا بعث السلطان بولديه محمد وابراهيم الى الجزائر فجعل الاول على بجاية والثاني على قسنطينة ، وارسل معهما القادة والحجاب .

وفي سنة ٧٧٣ هـ - ١٣٧١ م عقد السلطان على قسنطينة للقائد بشير ، وبعد وفاته سنة ٧٧٩ - ١٣٧٧ م جعل السلطان هذه الولاية لولده ابي اسحاق ابراهيم مستقلا بها ، وقد كان بها من قبل تحت وصاية القائد نبيل لمكان صغره . ولما توفي الامير محمد صاحب بجاية سنة ٧٨٥ هـ - ١٣٨٣ م خلفه في منصبه ولده احمد اما اخوه ابراهيم صاحب قسنطينة فانه توفى بعد اخيه بثماني سنوات فخلفه في ولايته كاتبه ابراهيم بن يوسف الغمارى ٧٩٣ هـ - ١٣٩١ م

وبعد ان استولى السلطان عزوز الحفصي على قسنطينة واحتلها في رمضان ٧٩٨هـ جوان ١٣٩٦ م قدم لقيادة الجند بها قائده نبلا ، وجعل على قصبتها الشيخ قاسم بن احمد بن تافراكين التينمللي ، وولى اخاه زكرياء على بونة ثم نازل بعد ذلك نواحي لوراس فضل الطريق هو وجنده وكاد ان يهلك .

وفي سنة ٨١٠هـ-١٤٠٧م انتصر المرينيون للامير محمد الحفصي المنهزم اليهم فأمدوه بالاسلحة والعتاد الحربي ، حتى اشتد ساعده وعظم باسه فتقوى بذلك على فتح بجاية ، وعقد لابنه المنصور عليها ، فنهض السلطان عزوز لمقاومة الامير محمد الى ان ظفر به فقتله في المحرم ٨١٢ هـ - ماى ١٤٠٩ م واسر ولده المنصور وجعل ولاية بجاية لابي البقاء خالد ، ثم عزل ابو البقاء هذا بالمعتمد بن السلطان ابي فارس سنة ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م ثم عزل كذلك المعتمد سنة ٨٣٤ هـ - ١٤٣٠م وتولى مكانه القائد ابو نعيم رضوان مملوك السلطان .

وفي هذه السنة قتل الذواودة قائد قسنطينة جاء الخير في معركة كانت بينهم فعقد السلطان ابو فارس لمملوكه محمود عليها ، فدخلها في ثاني عشر رجب

ثامن افريل من سنته هذه ؛ وفي سنة ٨٣٧هـ-١٤٣٣م ولى السلطان محمد المنتصر على قسنطينة أخاه ابا عمر عثمان وجعل ولاية بجاية لعمه ابي الحسن على بن عزوز ابي فارس . وفي سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م تنازع والي قسنطينة عثمان اخ المنتصر مع عمه علي بن عزوز صاحب بجاية على الملك فتحاربا وكان النصر بينهما سجالا واخيرا تغلب عثمان على عمه ودخل بجاية في جمادى الثانية ٨٤٣ هـ - نوفمبر ١٤٣٩م فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد فاغتيل هذا اوائل سنة ٨٤٦ هـ ١٤٤٢م وخلفه اخوه ابو محمد عبد الملك ؛ كما تولا ها كذلك محمد ابن فرج سنة خمسين . ثم في سنة ٨٥٦ هـ - ١٤٥٢ م اعتقل عبد الملك بن احمد بتونس وتولى مكانه احد موالي السلطان ، فأصبحت الجزائر يومئذ بيد الموالي ، وفي هذه السنة كانت ولاية بسكرة للقائد ابي زيد عبد الرحمن الكلاعي .

واشتهر من رؤساء تبسة في سنة ٧٥٣ هـ - ١٣٥٢ م محمد بن عبدون ، ومن رؤساء عرب رياح المقيمين بضواحي قسنطينة وبجاية حوالي سنة ٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م يعقوب بن علي بن احمد ؛ و في سنة ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م عقد السلطان لولده عبد العزيز على بجاية واضاف اليه كذلك ولاية قسنطينة واعمال بسكرة وتقرت ، وفي سنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م عقد السلطان لحفيده محمد المنصور بن محمد المسعود على ولاية قسنطينة وجعل بين يديه مزوارا القائد ابا علي منصور الصبان ، والقائد بشيرا على المدينة .

وكانت رآسة الزاب لبني مزني ، اشتهر منهم الفضل بن علي وولده المنصور وابنه يوسف و علي وحسن وأحمد ؛ ورآسة بني تليلان المعروفين باسم اولاد ثابت المقيمن بجبلهم المطل على القل شمال ميلة وقسنطينة للحسن بن ابراهيم بن ابي بكر ابن ثابت ، وآخرهم علي ورئاسة قبائل سدويكش بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية هي لاولاد سواق ثم كانت لبني سيلين ، وكان من اشهر الرؤساء في اولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ، ثم ابناؤه : طلحة فيحيى

فمنديل الذى عزله السلطان ابــو بكر وادال من بني علاوة بني عمهــم اولاد يوسف بن حمو بن سواق . وممن اشتهر من رؤساء احياء سدويكش القاطنين بجبل بابور وما اليه من نواحي بجاية : صخر بن موسى ، اختصه السلطان ابو يحيى بهذه الرآسة وكانت له مقامات في خدمته وعرف بالــوفاء لابنه الاميــر ابي حفص ، فلم يزل معه الى ان اوقع بنو مرين بناحية قابس فقطعه السلطان ابــو الحسن المريني من خلاف ثم هلك ، فخلفه حينئذ ابنه عبد الله وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية الى ان هلك اعوام الثمانين فخلفه ابنه محمد [١]

وكانت رآسة وادي ريغ ، بالجنوب الجزائرى ، للدواودة ، اشتهر منهم عبيد الله بن يوسف بن عبد الله ، ثم اشاؤه داود فيوسف فمسعــود ، ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد الذى تولى رئاسة قومه على عهد ابن خلدون ؛ وحاضرتهم يومئذ مدينة تقرت. وكان يوسف بن حسن ايضا من بيت مشيختها فامتنع يوما من اداء جبايته للسلطان ابي عمر وعثمان سنة ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م فاقتحم عليه السلطان المدينة واسره في بنيه واهله وذويه . ورئاسة تماسين، من وادى ريغ كذلك كانت لبني ابراهيم الريغيين ، ورئاسة وارقلة لابي بكر بن مــوسى بن سليمان من بني ابي غبول - فخذ من بني وكير احدى بطون بني واركلة - اما رئاسة ولهاصة بسيط بونة هى لعسكر بن بطان من بنى عريف ، ورئاسته لواته بنواحى بجاية كانت لولد راحج بن صواب اللواتى، ومشيخة قبيلة بني ايراتن الزواوية كانت لبني عبد الصمد ، وقد ترأست فيهم امرأة تدعى شمس ، كان لها عشرة بنين .

ويبدو ان آخر ولاة الحفصيين بالجزائر هو الاميــر احمــد بن الحسن ، ولى اعمال بونة ايام والده السلطان الحسن بن محمد الى ان نبذ التونسيون عهد والده وبايعوا ولده المذكور مكانه سنة ٩٤٣هـ-١٥٣٦م كما تقدم الالماع الى ذلك . اما عن رئاسة البحر وقيادة الاسطول الحفصى فإني لم اقف على تسمية رجال هذا السلك سوى اسم زيدون بن فرحون مع انه كان لهذا الاسطول حركة مستمرة بهذا البحر

[١] ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩ - ١٥١

ملوك الدولة الحفصية

	تاريخ التولية
ابوزكرياء يحيى (الاول)	٦٢٧هـ ١٢٢٩م
ابوعبد الله محمد (الاول) المنتصر	٦٤٧هـ ١٢٤٩م
ابوزكرياء يحيى (الثانى) الواثق	٦٧٥هـ ١٢٧٧م
ابواسحاق ابراهيم (الاول)	٦٧٨هـ ١٢٧٩م
احمد بن مرزوق بن ابى عمارة (الدعى)	٦٨١هـ ١٢٧٣م
ابوحفص عمر (الاول) المستنصر	٦٨٣هـ ١٢٨٤م
ابوزكرياء يحيى المنتخب لاحياء دين الله	٦٨٣هـ ١٢٨٤م
ابوعبد الله (ابوعصيدة) محمد (الثاني) المنتصر	٦٩٤هـ ١٢٩٥م
ابوالبقاء خالد الناصر (الاول) ـببجاية، ثم انفرد بالحكمـ	٦٩٩م ١٢٩٥م
ابوبكر (الاول) الشهيد ـببجاية، ثم انفرد بالحكمـ	٧٠٩هـ ١٣٠٩م
ابوالبقاء (الاول) الناصر	٧٠٩هـ ١٣٠٩م
ابوبكر (الثانى) المتوكل ـبقسنطينة وبجايةـ	٧١١هـ ١٣١١م
ابويحيى زكرياء اللحيانى	٧١٧هـ ١٣١٧م
ابوضربة محمد (الثالث) المستنصر	٧١٧هـ ١٣١٧م
ابويحيى ابوبكر (الثانى) المتوكل	٧١٨هـ ١٣١٨م
ابوحفص عمر (الثانى)	٧٤٧هـ ١٣٤٦م
ابوالعباس احمد (الاول) الفضل ـبقسنطية وبجايةـ	٧٤٩هـ ١٣٤٨م
ابوزيد عبد الرحمن ـبقسنطينةـ	٧٤٩هـ ١٣٤٨م
ابوعبد الله محمد المنصور ـببجايةـ	٧٤٩هـ ١٣٤٨م
ابوالعباس احمد (الاول) المتوكل ـنهائياـ	٧٥٠هـ ١٣٤٩م

	تاريخ التولية
ابو اسحاق ابراهيم (الثاني) المستنصر	٧٥١هـ ١٣٥٠م
ابوعبد الله محمد المنصور – ببجاية –	٧٦١هـ ١٣٦٠م
ابوالبقاء خالد (الثاني)	٧٧٠هـ ١٣٦٨م
ابوالعباس احمد (الثاني) المستنصر	٧٧٢هـ ١٣٧٠م
ابوفارس عبد العزيز ـ عزوز ـ (المتوكل)	٧٩٦هـ ١٣٩٣م
ابوعبد الله محمد (الرابع) المنتصر	٨٣٨هـ ١٤٣٤م
ابوعمرو عثمان	٨٣٩هـ ١٤٣٥م
ابوزكرياء يحيى (الثالث)	٨٩٣هـ ١٤٨٨م
ابوعبد الله محمد (الخامس) المتوكل	٨٩٩هـ ١٤٩٣م
ابوعبد الله محمد الحسن ـ بن محمد الخامس ـ	٩٣٢هـ ١٥٢٥م
ابوالعباس احمد (الثالث) بن الحسن	٩٤٨هـ ١٥٤١م

مشاهير الجزائريين

يحيى بن عبد المعطى

٦٢٨هـ - ١٢٣١م

هو ابوالحسين زين الدين ابوزكرياء يحيى بن عبد المعطى بن عبد النور الجزائرى الزواوى، منتمى اصله من قبيلة (آفراوسن) بزواوة؛ ترجمه ابن خلكان ترجمة حافلة، وقال انه : كان احد أئمة عصره، مبرزا فى علوم العربية شاعرا محسنا كثير الحفظ، وكان من جملة محفوظاته كتاب الصحاح للجوهرى، ولد ابن معطى بالجزائر سنة ٥٦٤هـ-١١٦٩م واخذ العلم عن مشائخ بلده وتفقه بالمذهب المالكى على الشيخ ابى موسى الجزولى، ثم انتقل الى المشرق فتشفع ثم تحنف، فكان فى ذلك مثل ابن مالك وابى حيان حين خرجا من المغرب، ولم يأت اولئك ببدع، فقد رايناكثيرا ممن غيرمذهبه من العلماء الاعلام وانتقل الى مذهب آخر، كالشيخ محمد بن الدهان النحوى كما تقدمت الاشارة اليه، والخطيب البغدادى الحافظ المشهور فانه كان حنبليا ثم تشفع، وابن فارس صاحب المجمل فى اللغة، كان شافعيا ثم انتقل الى مذهب مالك، وابن دقيق العيد كان مالكيا ثم تحول الى مذهب الشافعية. فى آخرين كثيرين ....

سكن الشيخ ابن معطى دمشق فسمع بها من ابن عساكر، واقرأ بها النحو فانتفع به خلق كثير، وولاه الملك المعظم مصالح الجامع، ثم ان الملك الكامل بمصر رغب اليه فى الانتقال الى القاهرة فانتقل الشيخ الى بلاد الكنانة وتصدر هنالك لاملاء الادب العربى وتدريسه بجامعها العتيق فالتف يومئذ حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه واقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وادبه فأخذوا عنه علما كثيرا وادبا جما، واجرى له الملك على ذلك جراية، فأكب المترجم على

التدريس والتأليف فتخرج عنه عدد عظيم . وكان مما وضعه من التآليف الفيته في النحو المشهورة باسم الدرة الالفية في علم العربيـة وهي التي اشار اليهـا ابن مالك النحوي في دباجة خلاصته واثنى عليه فيها ؛ وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع وبعضها من الرجز ، طالعها :

يقـول راجي ربه الغـفور　　　يحيى بن معطي بن عبد النـور

وهي مطبوعة بمصر ، وللعلماء عليها شروح كثيرة اشهرها شرح الشريشي ؛ وله كتاب الفصول ، وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وحواش على اصول ابن السراج في النحو ، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو ، وشرح لابيـات سيبويه نظما ، كما نظم الجمهرة لابن دريد في اللغة ونظم كتابا في العروض ، وله قصيدة في القراآت السبع وديوان خطب ، وكتاب المثلث ، وعني اخيـرا بنظم كتاب الصحاح للجوهري فتوفي ولم يكمله ، ويروى له من الشعر قوله عن نفسه متواضعا :

قالوا تلقب زين الدين فهو له　　　نعت جميل به قد زين الامنـا
فقلت لا تعـذلوه ان ذا لقب　　　وقف على كل نحس والدليل انا !...

ولم يزل الشيخ على حاله وخطته العلمية موفور الكرامة الى ان وافاه اجله فتوفي رحمه الله بالقاهرة سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٨هـ-٢٩ سبتمبر ١٢٣١م ودفن من الغد على شفير الخندق قرب تربة الامام الشافعي رضي الله عنه

عبد الرحمن بن السطاح

٦٢٩هـ – ١٢٣١

هو ابو زيد وابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن ابى بكر المعروف بابن السطاح اصله من مدينة الجزائر وسكن بجاية ثم انتقل فى طلب العلم الى الاندلس فدخل اشبيلية واخذ بها عن ابى الحسن بن زرقون وابى بكر بن طلحة النحوى وابى عبد الرحمن بن على بن طرفة ؛ ومنها انتقل الى مرسية فاتصل بها بابى القاسم الطرسونى فأخذ عنه مقامات الحريرى وكتبا اخرى فى الادب وعلم الاحكام ، وهنالك اذن له المشائخ فى التعليم فجلس بها للاقراء سنة ٦١٨هـ – ١٢٢١م وكان يشتغل فيها بعقد الشروط وتحرير الصكوك وله فى ذلك القدم الراسخة والباع الطويل فتقدم بذلك على ارباب هذا الشأن فى الاندلس ، ثم عاد الى بجاية سنة ٦٢٣هـ – ١٢٢٦م فانقطع بها لتدريس العلم محترفا مهنة التوثيق ، فأخذ عنه جماعة منهم ابو عبد الله السدفى ، وابو عبد الله بن الطراز . ثم كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٢٩هـ – ١٢٣١م

احمد بن هلال العروضى

٦٤٠هـ – ١٢٤٢م

الاديب الكبير واللغوى الحجة ابو العباس احمد بن هلال العروضى ، من اهل مدينة الجزائر ففيها نشأ وبها تعلم وقرأ ثم انتقل الى بجاية فاجتهد فى تحصيل فنون الشعر والقوافى وتخصص فى فن العروض حتى اشتهر به فدعى بالعروضى ، وارتحل الى الاندلس فسكن مرسية وعنه اخذ اهلها العروض ومكث بها الى وفاته رحمه الله سنة ٦٤٠هـ – ١٢٤٢م

عبد الله بن السكات

٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م

هو الامام القاضى ابو محمد عبد الله بن حجاج بن عبد الله بن يوسف المعروف بابن السكات من اشهر بيوتات مدينة الجزائر العريقة في المجد الحائزة على رئاسة العلم ايضا بها ، كان والده من قضاة العدل بهذه المدينة .

ولد مترجمنا بالجزائر فى شهر صفر سنة ٥٦٢ هـ - ديسنبر ١١٦٦ م وبها نشأ وتعلم وكان من اشهر مشائخه بها والده والشيخ ابو عبد الله بن الحسن الجزائرى : انتقل المترجم الى الاندلس فلقى بمالقة ابا الحجاج بن الشيخ فسمع منه كتاب الاحكام لعبد الحق الاشبيلي و غيره من مؤلفات الاندلسيين الفقهية والادبية . واخذ ايضا عن الامام ابن العربى ، وله رواية عن ابى موسى الجزولي . ثم انتقل الى بجاية فتولى قضاءها بعد تأخير ابى عبد الله محمد بن ابراهيم الاصولي المتوفي سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٦ م والمترجم له في الجزء الاول من كتابنا هذا صفحة ٣٩٦ وطالت مدته في القضاء وعلى طول مدته في هذه الولاية فإنه لم يتناول من مرتبه شيئا لطعامه وانما كان ينفقه في الصدقة وصلة اهل البر ، وماكان يطعم الا من شيء كان يتناوله من عقار له ببلدة الجزائر ورثه عن ابيه ، وكان مشهورا بالعلم والفضل والعفاف عادلا في احكامه مشاورا لاهل العلم فاخذ عنه اناس ؛ وتوفى رحمه الله يوم التاسع والعشرين من شهر جمادى الاولى سنة ٦٤١ هـ — ١٥ نوفمبر ١٢٤٣ م وترك خمسة اولاد كل منهم ساد وحاز المراتب العليا وأفاد .

محمد بن منـداس

٦٤٣هـ-١٢٤٥م

هو ابو عبد الله محمد بن قاسم بن منداس ، اصله من بلدة آشير ، وولد بمدينة الجزائر فاتح جمادى الاولى سنة ٥٥٧ هـ - ١٨ افريل ١١٦٢ م وفيها نشأ وترعرع وتأدب؛ اخذ عن الشيخ ابي محمد بن عبد الله وعلي بن عتيق، وعن نخبة من ذوى الفضل ، ولما ورد الشيخ ابو موسى الجزولي على مدينة الجزائر سنة ٥٨٠ هـ ١١٨٤ م لازمه الشيخ ابن منداس واخذ عنه علوم اللغة والادب . كما انه لقي في رحلته الى قابس الشيخ ابا القاسم بن محكان آخر من روى عن ابي عبد الله المازرى ؛ ثم عاد ابن منداس الى بلده الجزائر مجتهدا في نشر فنون من العلم وخاصة علوم الحديث فكان ممن اخذ عنه ابو عبد الله بن الابار ، وكانت وفاته رحمه الله فاتح شهر المحرم ٦٤٣ هـ - ٢٩ ماي ١٢٤٥م .

محمد بن الحسن القلعي

٦٧٣ هـ - ١٢٧٤ م

هو عميد اهل الادب وزعيمهم بالجزائر وفحل من فحول الشعراء وامراء البيان وجهابذة العلماء المحققين الراسخين في العلم : العلامة الشيخ ابو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي . نسبة الى قلعة بنى حماد (١) التى كان جده ميمون قاضيا بها .

نشأ المترجم بمدينة الجزائر فقرأ على جلة علمائها كالشيخ ابى عبد الله بن منداس الآنف الذكر وغيره ومنها انتقل الى بجاية فاجتهد في تحصيل العلم والادب بها واستوطن هنالك فتخرج على يد اساتذتها الكبار منهم الشيخ ابو الحسن الحرالي، والفقيه ابو الحسن بن ابي نصر ، والفقيه ابو بكر بن محرز ، والفقيه ابو المطرف بن عميرة وابو زيد بن السطاح في آخرين من نخبة الادباء والعلماء

برع الشيخ في فنون كثيرة من العلم وخاصة الادب فانه كان آية في تحريره غزير المادة فيه تقرأ عليه جميع امهات كتب الادب والشعر فيقوم على جميعها احسن قيام ، وكان يحضر مجالسه الكثير من فضلاء الطلبة ونبهائهم ، وكثيرا ما كانت تعرض عليه المسائل العويصة والمشاكل المختلفة في التفسير والحديث وغريب الشعر وغيره فيتصدى لشرحها وتحليلها بكيفية عجيبة مما لا يكاد يوجد عند غيره من العلماء بل ولا في نوادر الكتب ايضا ؛ ومن تلامذته المشهورين ابو العباس احمد الغبريني مؤلف « عنوان الدراية » فقد لازمه اكثر من عشر سنين واستفاد منه علما كثيرا وادبا جماً وسطر اعترافه بفضل شيخه هذا في عنوانه فقال : وهو افضل من لقيت في علم العربية لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة اعوام واستمتعت به كثيرا

---

١) راجع الجزء الاول ص ٢٨٩

واستفدت منه كثيرا ، قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته ، وقرات عليه جملة من الامالي وزهر الاداب ومن المقامات وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي وحضرت قراءة المفصل ؛ وكان رحمه الله محبا فى التعليل؛ وله من التآليف كتاب سماه بالموضح فى علم النحو، وحدق العيون فى تنقيح القانون -لعله قانون ابى موسى الجزولى ؟- ونشر الخفى فى مشكلات ابىعلى ؛ هو على الايضاح . وكان يؤثره على غيره من الكتب

وكان قدس الله روحه سخى الدمع سريع العبرة . فيه فضل وسخاء ومروءة وانتخاء، وكانت يده ويد الطلبة فى كتبه سواء لا مزية له عليهم، بارع الخط جيد الشعر مكثرا منه يسلك فيه طريق ابى تمام حبيب بن اوس، وكان صديقه الاديب ابوعبد الله محمد بن احمد الاريسى المعروف بالجزائرى شيخ كتبة الديوان ببجاية يسلك فى شعره سلوك المتنبى ، وكانا يتراسلان بجيد المنثور وبديع المنظوم . فمن شعر المترجم القلعى قوله فى طالع قصيدة فى مدح الحضرة النبوية :

امن اجل ان بانوا فؤادك مغرم ... وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك الا ان جسمك منجد ... وقلبك مع من سار فى الركب متهم
ومن قائل فى نظمه متعجبا ... وجسم بلا قلب فكيف رايتم ؟!..
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه ... فحيث ثوى المحبوب يثوى المتيم
وما ضرهم لو ودعوا يوم او دعوا ... فؤادى بتذكار الصبابة يضرم
عساهم كما ابدوا صدودا وجفوة ... يعودون للوصل الذى كنت اعلم
وانى لادعو الله دعوة مذنب ... عسى انظر البيت العتيق والثم
فيا طول شوقى للنبى وصحبه ... ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم

وتحتوى هذه المقطوعة على ثمانية عشر بيتا . وله موشحات حسنة ؛ ولقد شرع بنفسه فى جمع شعره وتدوينه عام ثلاثين وستمائة هجرية وعاش بعد ذلك ثلاثا واربعين سنة فلو تم له تدوين شعره كله لكان فى مجلدات كثيرة ؛ ويقول

الغبريني انه كان منه بأيدى الناس كثير (١) وتوفي رحمه الله ببجاية سنة ٦٧٣هـ - ١٢٧٤م

ومن شعر صديقه الاريسى الجزائرى المذكور قوله فى طالع مقطوعة يتحنن فيها الى ارض الحجاز

ادرها فقد هبت نسيمة دارين   ونم بسر الروض نشر الرياحين
وقام خطيب الورق يدعو هزيله   وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين
وذكر ايام الصبابة والصبا   ولذة عيش كان لى غير ممنون
فثار كمين الوجد من مستقره   وبحت بسر بين جنبى مخزون

وكلاهما شاعر فحل مكثر ولهما فى مختلف اغراض الشعر وفنونه كل ما هو حسن جيد ، وكلاهما يعدان من كبار ادباء الجزائر في اواسط القرن السابع الهجرى رحمهما الله

١) عنوان الدراية ص ٣٩-٤٣

ابو زيان ناصر بن مزني

٨٢٣هـ - ١٤٢٠م

العالم المقرىء والمؤرخ الفقيه الشيخ ناصر بن احمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن احمد بن حسين بن عبد المعطى بن الحسين بن مزني الفزاري البسكري، يكنى بابي زيان وابي علي ولد ببسكرة في المحرم سنة ٧٨١هـ - افريل ١٣٧٩م من اسرة كريمة هي منتهى رآسة الزاب ومعقد آماله، اذ كانت امارة بسكرة وارض الحضنة بيدها منذ تولاها جده الفضل بن علي (١)

اشتغل المترجم بالعلم اولا في بلده فأخذ القراءآت عن ابي الحسن علي بن عبد الرحمن التوزري، وكان يعظمه جدا؛ واخذ الفقه عن الامام بن عرفة وابي فارس عبد العزيز بن يحيى الغساني البرجي، ومحمد بن علي ابراهيم الخطيب، وعيسى بن احمد الغبريني وسمع عليه الصحيح

انتقل ابن مزني هذا الى مصر سنة ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م فحج في هذه السنة ونكب في كثير من ماله وكتبه في جملة ما اصاب ركب المغاربة من النهب يومئذ؛ واتفق ان نكبت اسرته في هذه السنة ايضا ببسكرة فعزل والده عن الامارة ونزل السلطان الحفصي بسكرة فحطم بيت ابن مزني، فاستقر لذلك المترجم بالقاهرة وكان بها يومئذ صديق آبائه العلامة الامام عبد الرحمن بن خلدون فعطف عليه وسعى له لدى من بيده الامر حتى نزل بالشيخونية، وبها سمع صحيح البخاري على التقي الدجوى، ولازم الشيخ ابن حجر مدة طويلة فاستفاد كل منهما من علم صاحبه؛ ولابن مزني هذا عناية خاصة واهتمام كبير بالتاريخ واخبار الرواة، جماعة لذلك ضابطا له مكثرا منه وقد شرع في جمع تاريخ كبير للرواة لم يجمع احد مثله، ولم يقدر له تبيضه فقد اصيب في بصره سنة ٨٢٢هـ ١٤١٩م

١) راجع صفحة ٢١ من هذا الجزء

وانتقل من الشيخونية الى البرقوقية وطالت علته وعاجلته المنية فتوفى رحمه الله يوم ٢٠ شعبان ٨٢٣هـ-٣٠ اوط ١٤٢٠م ولم يكمله ، يقول ابن حجر انه لو اتم كتابه المذكور فى التاريخ لكان مائة مجلد ! فانه جمع منه في مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت الحد ؛ ومات فتفرقت مسودته شذر مذر ، ولعل اكثرها عمل بطائن مجلدات ! . وذكره المقريزى في عقوده فقال ان صاحب الترجمة كان يتردد اليه ، وقال رحمه الله ما ذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة

احمد بن ابى القاسم الخلوف

٨٩٩ هـ - ١٤٩٤ م

هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن ابي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف الحميرى ، انتقلت اسرته من مدينة فاس الى الجزائر فسكنت مدينة قسنطينة ، وبها كان مولد مترجمنا في ثالث المحرم سنة ٨٢٩ هـ (منتصف نوفمبر ١٤٢٥ م) وذهب به والده صبيا الى مكة فجاور هنالك اربع سنين ثم انتقل به الى بيت المقدس وبه حفظ ولده القرآن الكريم وكتبا جمة في فنون مختلفة وبما ان الولد كان متضلعا من فنون الادب والفقه فأخذ ولده بدراسة ما عنده من العلم ، ثم تركه يمتزج بمشيخة المشرق ، فاتصل المترجم يومئذ بأبي القاسم النويرى ولازمه فأخذ عنه الفقه وعلوم اللغة والاصول وغيرها وانتفع به ، كما انه اخذ روايته في القراءات وعلوم القرآن عن الشهاب بن رسلان والعز القدسي وماهر وغيرهم ، ثم انتقل الى القاهرة ؛ والظاهر ان ذلك كان بعد وفاة والده بالقدس الشريف ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م وهناك اجتمع بالعز عبد السلام البغدادي فاخذ عنه النحو والصرف والمنطق ؛ وكان ممن اخذ عنه العربية ببلاد المغرب احمد السلاوي ويقول عنه : انه احفظ من لقيه بها

واستقر مترجمنا بالمغرب مشتهرا بين اعيان علمائه بالادب والعلم الغزير متعاطيا لنظم الشعر الرقيق الفحل ، فاستكتبه المولى المسعود بن عثمان حفيد ابي فارس الحفصي، وقدم الى القاهرة غير ما مرة ومنها رحلته اليها بمناسبة حجه سنة ٨٧٧هـ ١٤٧٢ م فاجتمع فيها بالامام السخاوي وجرت بينهما محاورات ادبية ذكرها السخاوي فى تاريخه «الضوء اللامع» وقال في وصفه : ولقيته مودعا له وهو حسن الشكالة والابهة ظاهر النعمة ، طلق العبارة بليغا بارعا في الادب ومتعلقاته ويذكر بظرف وميل الى البزة وما يلائمها، كتب عنه غيرواحد بالقاهرة والاسكندرية ومما كتب عنه من نظمه ما ضمن فيه قول ابن الاحمر صاحب الاندلس :

افاتكة اللحظ التي سلبت نسكى — على اي حال كان لابدلي منك
فاما بذل وهو اليق بالهوى — واما بعز وهو اليق بالملك

فقال :

اماط الهوى عن واضحى برقع النسك — فوجدت من اهواه عن هوة الشرك
فقلت وقد افتت لحاظك بالفتك — افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي
على اي حال كان لابد لي منك

يمينا بنجم القرط منك اذا هوى — وخال على عرش بوجنتك استوى
لئن لم تفي لا بد للقلب ما نوى — فاما بذل وهو اليق بالهوى
واما بعز وهو اليق بالملك

ولاشتهار مترجمنا بجودة الشعر والكتابة عرف بين أدباء عصره بذى الصناعتين ، فهو حقا من امراء الشعر المتفننين وفحول الادب العربى البارعين طويل النفس ضليع في فن القريض ، له ديوان شعر خاص بمدح الحضرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام توجه بمقدمة حافلة تدل على رسوخ قدمه وتمكنه من ناصية اختصاصه وتعلقه الشديد بالجناب النبوى الشريف ؛ ولقد والله

ابدع في منظومه ومنثوره ايما ابداع وجاء بما لم يوفق اليه غيره من ائمة هذا الشان كالبوصيري واضرابه من شعراء المديح، فان قصائده كلها عيون وكلها تتدفق سلاسة وطبعا، وان اقصر قصيدة فيه لا تقل عن مئات الابيات .

والشعر في هذا الغرض كما لا يخفى هو من اصعب الاغراض على الشعراء، وذلك لعلو مقامه الشريف صلى الله عليه وسلم وتسامى منزلته التي لا تداني ولا ترام وكل مدح او اطراء في جنابه عليه الصلاة والسلام يعد تقصيرا، ولذلك تجنبه فحول الشعراء المتقدمين كابي تمام والبحترى والمتنبي وغيرهم من صاغة القريض ورواض القوافي ولله در ابن الفارض حيث يقول :

وعلى تفنن واصفيه بمدحه — يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وديوانه هذا بحمد الله هو مما ازدانت به مكتبتنا المتواضعة، وهو بخط جميل فى ست واربعين ومائتى صفحة من القطع الكبير ؛ وذكر لي ان له ديوانا مطبوعا ببيروت سنة ١٨٧٣م ولا ادرى اهو نفس المخطوط الذى ذكرناه ام غيره حيث لم اقف عليه، وا كثر اشعاره رحمه الله فى مدح السلطان ابي عمرو عثمان بن ابي عبد الله الحفصي فله فيه القصائد الرنانة الشائقة .

اما تآليفه من غير الديوان المذكور فله في العروض: تحرير الميزان لتصحيح الاوزان ، وبديعية ميمية سماها مواهب البديع في علم البديع ؛ وله عليها شرح حسن ، ورجز في تصريف الاسماء والافعال سماه جامع الاقوال في صيغ الافعال، وله في علم الفرائض كتاب عمدة الفائض؛ كما يوجد له بمكتبة باريس وبرلين ولندن وبطرسبورج ديوان مخطوط مرتب على حروف الهجاء، وله موشح مستقل في مكتبة برلين ؛ وكانت وفاته رحمه الله بتونس سنة ٨٩٩ هـ - ١٤٩٤ م ودفن هناك بتربة سيدى محرز بن خلف رضي الله عنه .

جدول تاريخي

٦٢٧ - ٩٤٣ هـ (١٢٢٩ - ١٥٣٦م)

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٦٢٧هـ ١٢٢٩م	تأسيس الدولة الحفصية
٦٢٨هـ ١٢٣٠م	اذعان مقاطعتي قسنطينة وبجاية للدولة الحفصية
٦٣٦هـ ١٢٣٨م	نجاح الحفصيين في فتح اعمال الجزائر الغربية
٦٤٠هـ ١٢٤٢م	الاستيلاء الحفصي على تلمسان
٦٤٣هـ ١٢٤٥م	المبايعة بالخلافة
٦٤٧هـ ١٢٤٩م	وفاة السلطان ابى زكرياء الاول ببونة ودفنه بجانب الشيخ ابى مروان ثم نقله الى قسنطينة حيث مدفنه الآن
٦٦١هـ ١٢٦٢م	حوادث ابى القاسم بن ابى زيد الحفصى بالجزائر
٦٦٤هـ ١٢٦٥م	حركة السلطان المستنصر الاول الى قمع المنشقين بالجزائر
٦٦٨هـ ١٢٦٩م	تمكن يغمراسن بن زيان من استرجاع مملكته الغربية
٦٦٩هـ ١٢٧٠م	مشاركة الجـزائريين في دفع عادية الصليبيين عن المغرب ؛ وانتقاض اهل مدينة الجزائر وفتحها
٦٧٧هـ ١٢٧٩م	ولاية ابي اسحاق الاول على بجاية ثم على عرش الملك بمبايعة الجزائريين
٦٩٢هـ ١٢٩٣م	ولادة السلطان ابي بكر الثاني بقسنطينـة
٦٧٨هـ ١٢٧٩م	ولاية بني مزني امارة الزاب الجزائرى
٦٨١هـ ١٢٨٣م	ظهور الزعيم ابن ابى عمارة الجزائرى وقتلـه
٦٨٤هـ ١١٨٥م	انفصال القطر الجزائرى واستقلاله عن السلطة المركزية

تاريخ الحوادث	أهم الحـوادث
٦٨٦هـ ١٢٨٧م	اعتداء الافرنج على الساحل الجزائرى
٦٩٩هـ ١٢٩٩م	ابتداء النزاع بين الحفصيين وبنى مرين على الجزائر
٧٠٣هـ ١٣٠٣م	نشوب الخلاف بين طائفة «السنية» وامير الزاب : ابن مزنى
٧١٧هـ ١٣١٧م	ابطال وضع التاج عند ملوك هذه الدولة
٧٢٩هـ ١٣٢٨م	ولادة السلطان ابى العباس احمد الثانى بقسنطينة
٧٣٧هـ ١٣٣٧م	احتلال السلطان ابى الحسن المرينى لتلمسان
٧٦١هـ ١٣٦٠م	استعادة الحكومة المركزية لمملكة الجزائر
٧٨٦هـ ١٣٤٨م	عصيان ابن مزنى -امير الزاب- وحركة السلطان اليه
٧٩٦هـ ١٣٩٤م	تنازع امراء بنى ابى حفص على ولاية قسنطينة وبجاية
٨٠٤هـ ١٤٠٢م	القضاء على امارة بنى مزنى ببسكرة
٩١٠هـ ١٥٠٤م	ظهور القرصنة الاسبانية بالسواحل الجزائرية
٩١٦هـ ١٥١٠م	اقامة الاسبان لحصن «البنيون» بثغر مدينة الجزائر
٩١٩هـ ١٥١٣م	ظهور الاتراك العثمانيين بالميدان
٩٤٣هـ ١٥٣٦م	سقوط الجزائر الحفصية

الدولة المرينية

٦٦٨_٧٩٦هـ

١٢٦٩_١٣٩٣م

بنو مرين ؟...

المرينيون هم فخذ من بطون القبيلة البربرية العظيمة زناتة؛ كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان جنوبا الى نواحي سجلماسة - تافيلالت - وبصحراء فيقيق الى ارجاء الاغواط؛ وهم قوم مرهوب جانبهم، شديد باسهم، كثير جمعهم يضاهون في مجتمعهم امة العرب والفرس واليونان. وان الذين تولوا الملك منهم فرعان ينتسبان الى جرثومة واحدة: بنووزرير قبيل بني عبد الحق، وبنووطاس. ولقد ابلى قبيل بنى مرين هذا في نصرة الموحدين على خصومهم بني صنهاجة وغيرهم - ثم كانت بينهما ضغائن وحزازات منشأها التزاحم على الملك والتنافس على الرئاسة، ولم يزل هؤلاء المرينيين يثيرون على حين ضعف دولة الموحدين فتنا وغارات بأرجاء المغرب الاقصى حتى اقتحموا تله سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣م) واستمروا في سيرهم الى الامام منتصرين الى ان فتح اميرهم ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش يوم عاشوراء سنة ٦٦٨هـ (٩سبتمبر١٢٦٩م) فقضى بذلك على عرش الموحدين.

نظامها الحكومي

الدولة المرينية مغربية في كل شيء وهي لذلك لم تكن لتختلف او تتخلف في خطتها السياسية بل وفي جميع نظمها الادارية والقضائية والمالية والحربية عن من تقدمها من دول الاسلام بالمغرب الا قليلا (١) فالعاصمة فاس والسلطان هو دائما مصدر السلطة العليا، ويلقب بأمير المسلمين تأدبا وتمييزا له عن لقب الخليفة بالمشرق، وفيهم من تلقب بامير المؤمنين واولهم ابو عنان، والحاجب عندهم يدعونه به «المزوار» وهو المقدم على الجنادرة العاملين في المحافظة على الامن العام ، وله ايضا الاختصاص بالوقوف لدى باب السلطان وحمل الناس على التزام مراتبهم ، ولاعمال الجبايات ديوان تحت ادارة متصرف من بني مرين اليه يرجع تصحيح الحسابات والمحاسبة على جميع دخل الحكومة وخرجها وهو المسؤول عن ذلك كله ، وليس هناك من يتعقبه او يراجعه في عمله الا السلطان نفسه او الوزير الذي يعتبر الرئيس الحربي الاعلى ؛ وللدولة عملة مضروبة باسم ملوكها . وخطة الكتابة منقسمة عندهم الى قسمين : قسم خاص باسرار الدولة وتسيير سياستها الداخلية والخارجية وقسم للمسائل العمومية والمكاتبات والمناشير ، وكثيرا ما تولى هذه الخطة ادباء من الاندلس بخلاف القضاء فانه دائما مقصور على المغاربة وذلك ما يدلنا على شدة عناية ابناء البلاد بالفقه دون الادب، وقد تكون هناك نظرة خاصة بنظام الحكم ؟...

اما نظام الحرب والجيش فإنه كان حسب ما يبدو من تواريخ المغرب والاندلس في ذلك العصر ان لكل ثمانية من الجند ناظرا يعقد له عقدة ولكل خمسة نظار عريف يعقدله بند . وعلى كل خمسة عرفاء نقيب يعقد له لواء ، وعلى كل خمسة نقباء قائد يعقد له علم ، وعلى كل خمسة من القواد امير يعقد له راية وفي العسكر المريني كثير من مرتزقة الافرنج والعبيد . كما انه كان لهذه الدولة اسطول ضخم عظمت شوكته بهذا البحر ، وخاصة على عهد السلطان ابي الحسن

١) راجع الجزء الاول صفحة ٢١٤ و ٣٤٧ و٣٦١

المريني فانه خرج من تونس الى المغرب في ستمائة سفينة ، وذلك ما جعل المؤرخ الفرنسي «اندري جوليان» يصف هذا الملك بانه كان من اقوى الملوك واعظم السلاطين على الاطلاق في القرن الرابع عشر

وللجند شعار يحملونه في المعترك والحرب وهو راية صغيرة من كتان ابيض ، وفي ذهابهم الى القتال يتقدمهم غالبا منشد يتغنى بتلحين خاص وانغام موسيقية منسجمة تدعى عندهم بـ«تاصوكايت» وهي خاصة بوقت البروز للقتال والسير الى الحرب ، وبين يديه طبل يضرب عليه منشدا اشعار الفخر والحماسة ؛ وهو تقريبا صنيع ما تفعله جنود الدول المعاصرة اليوم في خروجها للوغى ؛ وليس هناك ما تمتاز به هذه الدولة في صفة قتالها ومجالدتها العدو في الحرب عن دول المغرب يومئذ سوى انها سبقتهم الى استعمال البارود وهندام النفط القاذف بحصى الحديد وقوس الزيار ، وهي قوس عظيمة النزع توقر على احد عشر بغلا

حدود الجزائر المرينية

ان الحدود الجزائرية في ذلك العصر هي عينها المعروفة اليوم بحدودها الثلاثة : الشمالية والجنوبية والغربية؛ الا ان الحد الشرقي منها فانه كان تارة يمتد الى تونس وتارة لا يتعدى حدود اعمال قسنطينة وبجاية (انظر الخريطة صفحة ٢٧)

المرينيون وبنو عبدالواد

لم تكن دولة بني مرين الناشئة لترضى بمجاورة قبيل بني عبدالواد المنافس وذلك لتحققها بالمكانة التي يتبوأها هذا القبيل في ميدان السياسة والحرب بالمغرب الاوسط؛ فنشأت عن ذلك عداوة بين القبيلتين واحقاد كان مبعثها المنافسة على رآسة زناتة والتشوف الى السلطان المطلق على المغرب الاسلامي ، ومن ذلك لم تر الجزائر طيلة هذه المجاورة الحتمية مسالمة قط !...

الزحف على مملكة تلمسان

ولما اشرفت سفينة العراك والحرب بالاندلس على شفا المنحدر والغرق، وانكشف لملوك بنى مرين ان ساعة انهزام دولة الاسلام هناك قد حانت او كادت، وكان شعور الدولة المرينية بالمسؤولية العظمى الملقاة على كاهلها يومئذ قد تضاعفت بحكم انها سيدة العدوتين وانها وارثة عرش الموحدين الذين طالما خضعت لعرشهم الاندلس بما فيها من رعايا وملوك، وشريف وصعلوك، فساءها ان تقع الكارثة بالاندلس على مرأى ومسمع منها بدون ان تكون قد اتخذت لهذه الحال المتوقعة عدتها، او تحتاط لها على الاقل لكيلا تتهم بين الامم بالاهمال وعدم الصلاحية للملك ، فاهتمت وقتئذ بالعمل على مزيد الاقتراب من الساحل الشرقى باتخاذ عاصمة ثانية لهـا بالمغرب الاوسط ليتيسر لها الدفاع عن ارض الاندلس، فحاولت فتح الجزائر من ناحيتها الغربية ، ويممت تلمسان فهاجمتها عدة مرات فانهزمت وكانت الغلبة دائما حليفة ملوكها بنى زيان ، وذلك ماجعل السلطان ابا يوسف يعقوب المرينى يتوعدهـم بضرب الحصار الشديد عليهم والقضاء على امارتهم بها ، وفعلا نشبت الحرب بين ابى يحيى المرينى ويغمراسن الزيانى بأحواز وجدة سنـة ٦٤٧هـ-١٢٥٠م وكانت الوقائع هائلة انهزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء ؛ وهذه اول حرب نظامية كانت بين بنى زيان وبنى مرين

ثم تجددت المعارك بينهـم بوادى تلاغ فى منتصف المحرم ٦٦٦هـ (اكتوبر ١٢٦٧م) وقد قارب السلطان ابو يوسف الفـتح لولا ان هنالك عزيمة ظهرت من جانب الزيانيين فصابروا على المقـاومة والدفـاع عن حرمهم فمـال يومئذ ابو يوسف الى الصلح وعاد الى فاس

ثم انه فى منتصف رجب سنة ٦٧٠هـ (فيفريى١٢٧٢م)كانت بينهما وقعة وادى ايسلى الآتى تفصيلها ، فحصرت تلمسان مدة ثلاثة اشهر وثلاثة ايام وانطلقت بها ايدى الجيش المرينى فعاث فيها الجند بما شاء!.. ثم كف السطان ايديهم عنها وسعى

فى جمع الشمل ومصالحة يغمراسن امير بنى عبد الواد وتم ذلك بينهم سنة ٦٧٣ھ (١٢٧٤م) فسر لذلك سلطان مرين واظهر سروره بما تصدق به من مال كثير شكراً لله عز وجل على ذلك. ثم انه فى هذه السنة نفسها غزا سجلماسة -تافيلالت- فاقتحمها يوم الجمعة ٣ ربيع الاول (٦ سبتمبر) وقتل بها سادة بنى عبد الواد وامر بصلبهم على اسوار المدينة وفيهم قائدها عبد الملك العبد الوادى ؛ ثم عاد السلطان الى مراكش ؛ وهذا ما حمل يغمراسن على نقض الصلح ومحاربة بنى مرين فى وقعة الملعب المشهورة بأحواز تلمسان سنة ٦٨٠ھ (١٢٨١م) التى ادت الى حصار تلمسان ايضا وانهزام بنى عبدالواد ثم كانت هدنة بين السلطان يعقوب المرينى وعثمان بن يغمراسن الزيانى سنة ٦٨٤ھ (١٢٨٥م)

وفى ربيع الثانى سنة ٦٨٩ھ (ماى ١٢٩٠م) عزم السلطان يوسف بن يعقوب المرينى على المسير الى غزو تلمسان وفتحها بسبب ايواء صاحبها لبعض الثوار على دولة مرين ، ولقد حاول من قبل استسلام هؤلاء الثوار المشاغبين من يد بنى زيان فلم يسمحوا له بذلك؛ وحينئذ تقدم بنو مرين لحصار تلمسان ونصبوا عليها المجانيق واطلقت ايدى الجند فيها فعبثوا بها واخذوها بالنهب والتخريب ثم اقلعوا عنها ؛ وان كل ما كان بعد ذلك من عداوة او ضغينة بين بنى مرين وبنى زيان او واقعة حربية انما كان منشؤها هذه الحادثة

وفى سنة ٦٩٤ھ (١٢٩٤م) استصرخ ثابت بن منديل رئيس مغراوة بالسلطان يوسف بن يعقوب المرينى مستشفعا به لدى ملك تلمسان عثمان بن يغمراسن فى رد هجماته وكف عادية قومه عنه ؛ فأرسل يوسف بشفاعته فى ذلك الى عثمان فرفضها ؛ ويومئذ خرج يوسف لغزو تلمسان سنة ٦٩٥ھ (١٢٩٥م) انتقاما لشرفه ومر فى طريقه على مدينة وجدة فحطم اسوارها وحاصر ندرومة اربعين يوما فامتنعت عنه ثم عاد الى مركزه

وفى السنة بعدها هاجم سلطان مرين اعمال تلمسان مشددا عليها الخناق ثم

نصب عليها قوس الزيار فى رجب سنة ٦٩٧هـ (افريل ١٢٩٨م) وانهالت عليها جنوده فخضعت له يومئذ مدينة ندرومة، وهنين، ووهران ، ومزغران؛ وفتحت مازونة ومستغانم وبرشك وونشريس ومليانة والمدية وتنس وشرشال؛ واذعن ابن علان صاحب مدينة الجزائر لسلطان مرين فجاء مبايعا؛ ومن ثمة اخذ ظل حكومة بنى زيان يتقلص عن مملكة الجزائر ، واخذت البلاد الجزائرية تسقط شيئا فشيئا بيد دولة مرين الى ان امتلكت جميعها سنة ٧٠٣هـ(١٣٠٣م) واصبح المغرب الاوسط يدين بطاعته اليها ما عدا مدينة تلمسان فانها —فى هذه المرة— لوحدها احتفظت بمركزها السياسى واستقلالها الداخلى .

ويلاحظ انه قد كان لهذه الوقائع والحروب اثر كبير فى قفرجهات عديدة ونواح كثيرة من بلاد المغرب وخاصة اصقاع انفا -الدار البيضاء- واقطارها، فأخذ حينئذ السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) فى نقل عدد وافر من سكان الجزائر اليها، وكان اغلبهم من البربر؛ واتخذ منهم رعاة لشياه الدولة وساسة لابلها، ومنذ اشتهرت هذه الطائفة الجزائرية المتنقلة باسم «الشاوية» وتأكد يومئذ امتزاج الشعب الجزائرى بأهل المغرب الاقصى وازداد بذلك ارتباطا وتثبيتا

وقعة وادي ايسلى

ليس هنالك من شيء يحمل على معادات بنى مرين لبنى عبد الواد الزيانيين سوى المزاحمة على الملك وحب الرآسة والاستئثار بها ؛ ومن اجل ذلك مد يغمراسن يده اولا للموحدين وربط صلته بهم تفخيما لدولته وتشحيذا لشوكته وارهابا لمنافسيه

ويومئذ حشد السلطان ابو يوسف يعقوب المرينى جنوده وخرج بنفسه محفوفا بجيشه العظيم غازيا تلمسان غرة صفر ٦٦٩هـ(سبتمبر ١٢٨٠م) وما كاد يتصل بتراب الجزائر ويقترب من تلمسان حتى وافاه سفير السلطان ابن الاحمر يستصرخه لنصر الاسلام وحماية المسلمين ودفع عادية العدو عنهم بالاندلس ، فحال ذلك بينه

وبين المسير الى تلمسان ، وجمع مشيخة الدولة وارباب الشورى يستشيرهم فى الامر ، فاتفقت كلمتهم جميعا على تقديم انجاد الاندلس وحمايتها فعدل السلطان يومئذ عن خطته المرسومة ، وراسل صاحب تلمسان فى الصلح فامتنع واكد متابعة الحرب؛ فالتحمت المعارك الشديدة بينه وبين بنى مرين بوادى ايسلى من بسائط وجدة وعلى مقربة منها ، وذلك فى منتصف رجب ٦٧٠هـ (١٢٧٢م) فانهزم الزيانيون فى هذه الوقعة شر هزيمة وفر يغمراسن عن محلته واضرمت فيها النيران وقتل ولده فارس ، واخذ السلطان ابو يوسف فى استقصاء وتتبع اثر يغمراسن فى البلاد الى ان حال بينهما الظلام فأتى السلطان مدينة وجدة وامر بهدمها فعفت آثارها

وقعة وادي تافنة

ولما حل المرينيون بالاندلس وامتلكوا شطرا منها اخذت عقارب الحسد تدب فى قلوب ملوك الاندلس من بنى الاحمر وانتشر بينهم داء الاثرة فعمد سلطانهم الى يغمراسن الزيانى طالبا مودته وصداقته وواصله بهدايا اندلسية فخمة واموال عظيمة على ان يشغل عنه ملوك بنى مرين بمشاغبتهم واحداث مشاكل لهم بالمغرب ؛ وما كاد يشيع خبر اتصال اهل الاندلس بيغمراسن حتى بادر السلطان ابو يوسف المرينى الى طلب الصلح من صاحب تلمسان وكاتبه فى ذلك سنة ٦٧٨هـ (١٢٨٠م) فتعصب يغمراسن لفكرته متصلبا فى عداوته ، فرابأته مرين مدة ثلاثة اشهر ثم اعادت سعيها فى طلب الصلح ، فامتنع بنو زيان كذلك ولم يقبلوا فى ذلك قولا لبنى مرين فتحرك هؤلاء يومئذ للقتال وكان الميدان بينهم وادى تافنة ، فانتصرت مرين على بنى عبد الواد وانتهبت محلة يغمراسن فتشتت امواله وهدمت قبابه

تأسيس حاضرة المنصورة

لقد كان حصار السلطان ابى يعقوب المرينى لمدينة تلمسان من افضع واشد ما عرفه التاريخ فى حصار مدينة، وقد طال الحصار ثمان سنين وثلاثة اشهر واياما، مات فيها نحو العشرين ومائة الف شخص، واكل الناس يومئذ الجيف والكلاب والقطط والفيران واشلاء الموتى، وبلغ ثمن الفأر عشرة دراهم (١) ....

وفى تلك الاثناء شرع السلطان ابو يعقوب المرينى فى اقامة بناء وأنشاء حاضرة المنصورة على نحو اربع كيلومترات غربى تلمسان، وكان ذلك فى فصل الشتاء من سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) جعلها السلطان معتصما لجنده المعسكر والمحاصر لعاصمة بنى زيان، وسماها «المحلة المنصورة» او تلمسان الجديدة، وكان فيما انشىء بها يومئذ قصر الملك حيال الجامع الذى تخلف منه اليوم جزء او قل هو طلل من انقاض منارته القائمة على بابه، ويقال انه كان بأعلاها تفافيح من الذهب الخالص يقدر ثمنها بسبعمائة دينار، وكان حول القصر سور يفصله عن سكنى الرعية، وحول ذلك السور ابتنيت المنازل والقصور الانيقة والحمامات العمومية والفنادق والاسواق واجريت المياه بالبساتين وانشئت بها دور الاسعاف الخ... ثم احيطت المنصورة هذه بسور انشأته الحكومة المرينية سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢) لحمايتها من الطوارىء فاصبحت بعد ذلك من اعمر الامصار الجزائرية وابدعها جمالا، قال ابن مرزوق الخطيب: «منصورة تلمسان التى لم ير الراؤون مثلها، ولا وصف الواصفون مثل وصفها، واما قصرها ومسكن الامام بها فقد رايت كثيرا ممن دخله من المتجولين ممن راى مبانى العراق ومبانى مصر والشام والمبانى القديمة فى الاندلس ومراكش اجمعوا كلهم على ان الذى اجتمع فيه لم يجتمع فى غيره، وبحق ما قالوه، واما دار الفتح والبستنة وما اتصل بهما والمشور فما اظن المعمور اشتمل على مثلها فلحا الله من خربها»

---

١) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٩٥-٩٦-٩٧

وهو يعنى بذلك بنى عبد الواد حينما خربوها وحطموا قصورها ودمروها سنة ٧٠٧ھ (١٣٠٧م) انتقاما لانفسهم من بنى مرين وطمسا لمعالم الهوان والذل بأرضهم

معركة مرسى الرؤوس

ولما طال الحصار بتلمسان واشتدت وطأته على اهلها بنى عبد الواد ٦٩٨ھ [١٢٩٩م] استجاش السلطان عثمان بن يغمراسن الزيانى بصهره ابى زكرياء الحفصى صاحب بجاية ، فبعث هذا بالنجدة اليه يقودها اخوه يحيى ، وما كادت الحامية تبلغ غايتها حتى اعترضتها جيوش مرين بجبل الزاب فاستلحموا هنالك وكانت الدبرة على حامية بجاية ؛ ولوفرة ما تساقط هنالك من القتلى والجرحى سميت هذه الملحمة بمعركة مرسى الرؤوس ؛ وارتاح لها امراء المملكة الحفصية الشرقية –تونس– فاستنصروا ببنى مرين واستظهروا بهم على حصار بجاية ، وكان ذلك سببا فى تنكر سلطان بنى زيان للاسرة المالكة الحفصية فرفض دعوتهم واسقط ذكرهم من المنابر. وفى ذلك الاثناء كان سقوط مدينة المدية بيد بنى مرين فاحتلوها وبنوا فيها حصنا استمر هنالك قائما الى عهد الاحتلال الفرنسى

تنازل بنى مرين عن ولاية تلمسان

كان اغتيال السلطان ابى يعقوب يوسف المرينى سنة ٧٠٦ھ [١٣٠٦م] سببا مباشرا فى افراج مرين عن تلمسان وانفكاك الحصار عن اهلها؛ فتفرقت يومئذ جنودهم واختلفت كلمتهم بموت ملكهم ابى يعقوب ، وتنازع على العرش المرينى كل من ولده واخيه وحفيده ابى ثابت عامر بن عبد الله ؛ واستند الحفيد هذا الى بنى زيان مستظهرا بهم على مزاحميه ، فحالفهم على تنازل مرين وتخليها عن المملكة التلمسانية ان هو انتصر على خصميه وجلس على العرش؛ فكان الامر كذلك، وبويع ابو ثابت هذا بتلمسان الجديدة -المنصورة- فتخلى يومئذ لبنى زيان عن امارتهم

وذهب يوم ١٥ شوال ٧٠٧هـ [٩ افريل ١٣٠٧م] غازيا عرب رياح المقيمين بقلعة ابى طوبل والجزائر فقضى وطره منهم ثم عاد الى قاعدة فاس

نقض الصلح

وفى سنة ٧١٤هـ [١٣١٤م] نقض السلطان ابو سعيد عثمان المرينى الصلح المنعقد بين امارة تلمسان وحكومة فاس ، واغار على عاصمة الزيانيين فاكتسح اقطارها وبلغ الملعب ، فانتهكت حرمات اهل تلك النواحي واقتحمت بعض المعاقل ، ثم عاد السلطان الى فاس ، واستمر بعد ذلك الزحف المريني على تلمسان ست دفعات

تحالف بنى مرين والحفصيين ضد تلمسان

استغاث السلطان الحفصى بابى سعيد المريني على رد غارة بنى زيان عن الجزائر الحفصية سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م) فتظاهرت الدولتان يومئذ وتحالفتا ضد بنى عبد الواد واحكما هذا التظاهر بالتصاهر، ومات ابوسعيد دون بلوغ امنيته فخلفه ولده السلطان ابوالحسن وبعث من حينه الى ابى تاشفين ملك تلمسان ينافح عن مملكة اصهاره الحفصيين، ويأمره بالتخلى عن كل ما وصلت اليه يده من ملك الحفصيين . وينهاه كذلك عن الاستمرار فى الزحف ؛ فرفض كل ذلك ابوتاشفين واستمر سائرا على خطته، وحينئذ تظافر المرينيون وبنو ابى حفص ضده وتوحدت القوات العسكرية فاكتنفته احدى الدولتين من الشرق والاخرى من الغرب وهجمت الاساطيل المرينية سواحل الجزائر وحملت الجنود على تلمسان فتجاوزتها الى تسالة ـ قرب سيدي بلعباس ـ ونزلت هنالك فى شعبان ٧٣٢هـ (افريل ١٣٣٢م) وبذلك استعادت الدولة الحفصية ملكها المسلوب بالجزائر ما عدا مدينة تلمسان فانها بقيت محافظة على استقلالها

الوثوب على عمالتى الجزائر ووهران

اجمع السلطان ابوالحسن المرينى على اقتحام الاعمال الجزائرية فبرز اليها سنة ٧٣٥ﻫ (١٣٣٤م) وبعد ان حاصر وجدة واستولى عليها تقدم الى ندرومة وهنين -فرضة تلمسان- فبايعته هنالك البطون والقبائل خاضعة، ثم تقدم الى وهران فاحتلها سنة ٧٣٦ﻫ (١٣٣٥م) وخضعت لسلطانه تلك الاصقاع بأجمعها وتبعتها فى ذلك عمالة الجزائر مدينة مدينة سوى تلمسان

القضاء على امارة بنى زيان

وبعد ما انتهى السلطان ابو الحسن عملية الفتح بالجزائر التفت الى مدينة تلمسان حيث بقيت منحازة الى بنى عبد الواد فتجهز اليها سنة ٧٣٧ﻫ (١٣٣٦م) عازما على فتحها، فخندق حولها وضرب عليها الحصار وسكن المنصورة بعد ما ادخل عليها بعض الاصلاحات الضرورية واحاطها يومئذ بسور محكم ثم اوقد نار الحرب على بنى عبد الواد فتعددت المعارك بينهم وكان الحرب فيها سجالا فصبر لها ابوالحسن حتى انتصر فى النهاية واقتحم تلمسان يوم الاربعاء ٢٨ رمضان من سنته (٣٠ افريل ١٣٣٧م) وقضى بذلك على امارة بنى زيان

فتح لاعمال الشرقية

اضطرب حبل الدولة الحفصية اثر موت ملكها ابى يحيى -المتوكل- ٧٤٧ﻫ (١٣٤٦م) فنشأت عن ذاك فتن ومشاكل وخاصة حول تولى الملك، فنشط لذلك امراء البيت الحفصى واخذ كل فى جذب طرف حبل الرئاسة اليه يسعى فى تحصيلها بكل وسيلة؛ وفيهم من ذهب مغريا دولة مرين بالانقضاض على دولة الحفصيين واظهر فى ذلك رغبة شديدة والحاحا، وكان السلطان ابوالحسن المرينى يتحين لها الفرص من قبل لو لا مكان السلطان ابي يحيى من ولايته وصهره . فتجهز يومئذ ابوالحسن لهذا

الفتح بجهازه وجاء محتشدا فاقتحم وهران فى صفر ٧٤٨هـ(ماى ١٣٤٧م) وبنا فيها برجه الاحمر ، وامر بانشاء برج المرسى ايضا ؛ واحتل مدينة الجزائر فعمل على تشريد الثعالبة من بسيط متيجة الى المغرب الاقصى ونزل ولاية قسنطينة وبجاية فعزل عنهما ولاة الحفصيين وولى عليهما قبيله من بنى مرين ، ثم تقدم الى تونس فاحتلها فى موكب عظيم يوم الاربعاء ٨ جمادى الثانية ـ سبتمبر ـ يقول ابن خلدون: انه لم ير يوم مثله فيا علقناه . وفر عنها اذ ذاك سلطانها ابو حفص الثاني فيمن اجتمع اليه من اولاد مهلهل فلحقت بهم جنود ابي الحسن فأوقعت بهم وتردى ابو حفص قتيلا ؛ وفى هذا اليوم تم لبنى مرين ـ كما تم للموحدين قبلهم ـ الاستيلاء على المغرب الاسلامى بأقطاره الثلاثة : المغرب الاقصى والجزائر وتونس

ثورة بني عبد الواد

اخفقت سياسة بني مرين مع العرب فى المملكة التونسية واساء بعض العمال فى سلوكهم ومعاملاتهم للرعية ، فثار الناس على السلطة المحلية واثاروا ضدها نقم الفتنة واصلتوا سيف المقاومة فانهزمت مرين سنة ٧٤٩هـ(١٣٤٨م) بنواحي القيروان وبالاثر اجتمع بنوعبدالواد بظاهر تونس وبايعوا ابا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ، وتحالفوا مع مغراوة وتوجين ، وارتحلوا نحو الجزائر في خمسمائة فارس ولحق بهم فى الطريق من مغراوة ضعف ذلك ، وهم فى سيرهم هذا آخذين في مقاتلة رؤساء بني مرين واستمروا على ذلك منتصرين حتى دخلوا تلمسان يوم ٢٢ جمادى الثانية ٧٤٩هـ (١٧ سبتمبر ١٣٤٨م) فالقوا القبض على عامل المرينيين بها المستبد ابي سعيد عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار العبد الوادى فأودعوه السجن الى ان مات . وفي اثناء ذلك استولى على بن راشد من آل ثابت بن منديل المغراوى على ما كان لسلفه من الملك بوطن شلف،

وغلب على مليانة وتنس وبرشك وشرشال وانتزى اعياص الملك بمواطنهم . ولم يبق يومئذ بيد مرين فى الجزائر سوى مدينة وهران وونشريس ، واتفق ان كان حاضرا بأحواز تلمسان يومئذ ابو عنان بن السلطان ابي الحسن المرينى فأظهر استبداده بالحكم متوقعا انتصار والده عليها فخاب ، واخاف ريعيا مظنته

عودة الجزائر لبنى عبد الواد

عاد السلطان ابو الحسن المرينى من تونس بعد الاستيلاء فى شوال سنة ٧٥٠هـ [ديسمبر ١٣٤٩م] فى ستمائة سفينة يريد الجزائر ، وكانت يومئذ زوابع ورياح وعواصف بحرية فغرقت مراكب السلطان المرينى ما بين سواحل داس وبجاية وكان فيمن هلك من حاشية السلطان ودائرته الخاصة نحو الاربعمائة عالم ، ولم يكن لينجو من هذا الموت الزؤام سوى ابى الحسن فى شرذمة قليلة من رجال بلاطه دفعت بهم الرياح فأوقعتهم بمرفأ الجزائر فكان هذا الحادث اكبر كارثة اصيبت بها الدولة المرينية فى اسطولها ؛ ويومئذ انتهز بنو عبد الواد هذه الفرصة واستعدوا فى شهر ربيع الاول ٧٥١هـ - ماى ١٣٥٠م لاسترجاع مملكتهم وامارتهم الجزائرية فتجهزوا تحت راية زعيمهم ابى ثابت الزيانى فخضعت لطاعتهم يومئذ نواحى مداس والسرسو وتيطرى وحمزة ، ثم قفلوا الى تلمسان فدخلوها فى شهر رجب -سبتمبر- فنهض يومئذ ابو الحسن مع ولده الناصر مقاتلا بنى عبد الواد وكان هؤلاء قد حالفوا قبيلة مغراوة العتيدة ، فانتصر ابو الحسن اولا على اهل المدية ومليانة ونواحيها ، ثم كانت عليه الدبرة فقهره ابو ثابت الزيانى ، كما انهزم ولده الناصر ايضا امام على بن راشد رئيس مغراوة ، وكانت الوقعة الكبرى بينهم بسهول شلف يوم الاربعاء ١٠ شعبان [١٣ اكتوبر] فقتل الناصر المرينى وفر والده السلطان الى جبل العمور ثم اصحر من هنالك الى سجلماسة وانتصر بنو عبد الواد وخلصت لهم ارض الجزائر وجلس على عرشها يومئذ ٧٥٢م (١٣٥١م) السلطان ابو ثابت الزيانى

استيلاء السلطان أبي عنان على أعمال تلمسان

توفي السلطان ابو الحسن المريني سنة ٧٥٢هـ(١٣٥١م) فخلفه ولده ابو عنان فارس ، وان اول ما تقدم اليه من الاعمال وباشره ان غزا يومئذ تلمسان ، وكان ذلك في السنة الثانية من ولايته . فبرز لمقاومته السلطان ابوسعيد عثمان الزياني وكان اللقاء بين الفريقين في سهل «انكاد» في شهر جمادى الاول (جوان) انهزم فيها بنو عبد الواد واسر ملكهم عثمان ثم قتل ، فنهض اخوه ابو ثابت بمغراوة فى نواحي شلف ، واشتد سعير الحرب بينه وبين الوزير فارس بن ميمون المريني فانكسر ابوثابت وذهب منهزما نحو بجاية وهنالك القى القبض عليه واحتل المرينيون مدينة الجزائر في شهر رجب -اوت- ثم حل سلطانهم بالمدية فأطرد منها ولاة بني عبد الواد وعمالهم وقتل هنالك طائفة من وزرائهم ورؤسائهم ثم عاد بالزعيم ابى ثابت الى تلمسان فقتله بها

تملك بجاية

وفد ابوعبد الله الحفصى امير بجاية صحبة وزيره الحاجب فارح على السلطان ابيعنان وهو يومئذ بالمدية في شعبان ٧٥٣هـ (سبتمبر١٣٥٢م) وكان موجب هذه الوفادة : الاستعانة ببني مرين على اهالى بجاية في تمردهم على السلطان وامتناعهم من دفع الجباية ، فاستمع السلطان شكواه هذه واوعز اليه بالواسطة من زين له التنازل عن ولاية بجاية على ان يعوضه السلطان عنها غيرها ما شاء من بلاد المغرب: فكان الامر كذلك ونزل ابو عبد الله عن ولايته فعقد له السلطان ابو عنان على مكناسة الزيتون وصارت بجاية لعمر بن على الوطاسى

انتقاض بجاية ، وفتح قسنطينة وبونة

اغتاض اهل بجاية من استلاء السلطان المريني عليهم وساءهم منه ايضا سلوكه السياسى معهم ، فبيتوا على الثورة ، واتفق ان قدم عليهم الحاجب فارح في مأمورية له من طرف اميره الحفصى ، فاجتمع به اهل بجاية وائتمروا بحاكمها الوطاسى فقتلوه في ذى الحجة ٧٥٣ﻫ (جانفيى ١٣٥٣م) وكانت هنالك غارة شعواء بين الفريقين ، فقبض سلطان مرين على ابى عبد الله الحفصى بتهمة المداخلة مع وزيره فارح ، واعتقل معه طائفة من اشراف بجاية وسادتها ممن كان ملتزما بابه ؛ ثم لحق اهل بجاية ندم على ما فرط منهم فخشوا بوادر ابى عنان وفتكه فانقلبوا على الحاجب فارح فاغتالوه في جماعته وبعثوا براسه الى السلطان ابى عنان ؛ فعقد يومئذ لحاجبه ابى عبد الله محمد بن ابى عمرو على بجاية فجاءها في كتائبه مفتتح سنة ٧٥٤ﻫ (فيفريى١٣٥٣م) فضبط شؤون الحكومة بها واصلح من امرها واخمد الفتن القائمة يومئذ بأحوازها وقبض على رؤوس الفتنة وموقديها من اهل بجاية فاعتقلهم وشردهم الى اقصى المغرب وكان عددهم يناهز المائتين

وفي العشرين من رجب ٧٥٨ﻫ (١٠ جوليط ١٣٥٧م) نازل الوزير فارس بن ميمون مدينة قسنطينة ثم لحق به السلطان ابوعنان في جم غفير من الجند فاحتلها يوم ثاني عشر شعبان -فاتح اوط- واطرد منها اميرها ابا العباس احمد بن محمد بن ابى بكر الحفصى ، وتولى عليها يومئذ المنصور بن الحاج خلوف اليابانى من رجال الشورى بدولة مرين فنزل بقصبها في شعبان من هذه السنة ؛ وفي هذه الاثناء كان استيلاء مرين ايضا على بونة -عنابة-

الجزائر بين بني عبد الواد وبني مرين

انتصر محمد الحاجب المريني فتغلب على امير قسنطينة سنة ٧٥٥ﻫ (١٣٥٤م) وبقي يتقلب في وظائف مختلفة بأعمال هذه الولاية، فدخل ميلة وبلغ الى المسيلة؛ ثم امتلك سلطان مرين بعدها بجاية وبونة الخ .. وفي سنة ٧٦٠ﻫ (١٣٥٩م) انتصر السلطان ابو حمو الزياني على بني مرين فانتزع منهم تلمسان؛ وفي السنة بعدها حمل السلطان ابو سالم المريني على تلمسان انتقاما من سلطانها الزياني لايوائه الزردالي عامل درعة وقاتل اخ السلطان، فاحتشد لتلمسان في حملة شديدة في شهر رجب -ماي- واقتحمها يوم ٦ شعبان -٢٣ جوان. فقاومه ملكها ابو حمو الثاني وابعده عنها يوم ٨ رمضان -٢٣ جوليبط-

وفي سنة ٧٧١ﻫ (١٣٦٩م) وفد على السلطان عبد العزيز المريني طائفة من خواص اهل مدينة الجزائر ونواحيها يشكون اليه حيف دولة بني زيان وشططها في رسم المغرم؛ فكانت هذه فرصة سانحة لزحف عبد العزيز الى تلمسان واحتلالها يوم عاشوراء ٧٧٢ﻫ (اوط ١٣٧٠م) واستولى بذلك على ملك بني زيان، وانتزع من العرب اقطاعاتهم وفرق يومئذ عماله في بلاد المغرب الاوسط بوهران ومليانة والجزائر والمدية ووانشريس الخ ..... واقام السلطان المريني بتلمسان الى ان ادركه حينه ووافاه حمامه بها سنة ٧٧٤ﻫ [١٣٧٢م] فبويع آن ذاك ولده محمد الثاني بفاس؛ ومكث ابو سعيد عثمان بن جرار واليا على تلمسان من قبل مرين الى ان اقتحم عليه المدينة السلطان ابو حمو الثاني في شهر جمادى الاولى سنة ٧٧٦ﻫ [نفمبر ١٣٧٤م] فخرج منها يومئذ ابو سعيد وعادت الجزائر الى بني عبد الواد

انقسام بني مرين وتملك بنى عبد الواد

كان استبداد عبد الرحمن المرينى بملك مدينة مراكش وجلوسه على عرشها سنة ٧٧٦هـ [١٣٧٤م] وخروجه عن طاعة ابن عمه سلطان فاس ابي العباس احمد بن سالم سببا فى استقلال بنى عبد الواد بملك تلمسان ، وذلك لانتصار سلطانهم ابي حمو لصاحب مراكش ، وفى منتصف السنة هذه غلب صاحب فاس على ابن عمه فدخل عليه مراكش ثم التحق بتلمسان منتقما من صاحبها فانهزم ابو حمو سنة ٧٨٥هـ[١٣٨٣م] وهدمت يومئذ اسوار المدينة وقصور الملك بها وقد كانت بحيث لا يعبر عن حسنها !... وبعث ابو العباس بولده فاحتل مدينة مليانة والجزائر ودلس ثم استرجع ابو حمو مدينة تلمسان فى السنة التالية ، فعمد يومئذ ابو العباس الى الحيلة والدهاء فأوحى الى ابي تاشفين الزياني بغدر والده وقتله ليتملك ، فزين الشيطان لهذا الشق تنفيذ هذه المؤامرة الشنيعة فمات والده شهيد الغدر والخيانة واقام ابو تاشفين بتلمسان الى سنة ٧٩٥هـ [١٣٩٢م] فامتلكها يومئذ ابو العباس سنة واحدة ثم مات فخلفه والده عبد العزيز الثانى ، وهو الذى اطلق وثاق السلطان ابى زيان من السجن واعاد اليه امارة تلمسان ، فانفردت بملكها يومئذ هذه الاسرة الزيانية من بني عبد الواد واستمرت تحكم بها الى الفتح التركي العثماني

المذاهب والمعتقدات

كان انتصار بنى مرين الزيانيين على المصامدة الموحدين فرصة لفقهاء المالكية ، فعملوا على اعادة ريعان المذهب المالكى ونصرته بالمغرب بعد ان قضى عليه الموحدون واستبدلوه بالمذهب الظاهرى او ما سموه اجتهادا ؛ فتأسست يومئذ المدارس الحكومية وانتشر التعليم مجانا بها، واقبل عليها الطلبة يغرفون من معينها، ولقد نجحت الحكومة بعملها هذا يومئذ في القضاء على بعض الشخصيات والاسر النبيلة المتطلعة الى الرئاسة باسم التصوف وخدمة العلم فقضت على ما انشىء من طرف هؤلاء من الزوايا والربط ؛ ونشأ عن هذا التزاحم بين مدارس الحكومة وزوايا المتصوفة ماكان فيه خير للعلم والدين فكان لكل من هاتين الناحيتين فضل كبير على المجتمع المغربى من حيث خدمة الفقه المالكى بالخصوص ، فنبغ فيه فطاحل من رجال الشريعة والقانون وان لم يأخذوه بتنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب فى المشرق ، ذلك كما يقول ابن خلدون اتغلب البداوة على اهل المغرب ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضا عندهم (١)

ومن نبغاء الفقه بالمغرب يومئذ : عيسى التادلى الفاسى ، فانه كتب المدونة من حفظه بعد ما استأصلها الموحدون واحرقوها كما املاها ابو الحسن على بن عشرين على طلبة العلم من حفظه ايضا ، وقوبلت هذه النسخة على اصول المدونة فلم تختلف عنها الا بواو او فاء !...

واطردت يومئذ حركة التاليف في الفقه وتوسع الفقهاء في الفروع استنباطا وتخريجا على مقتضى قواعد المذهب المالكى. اما العقائد فانها لم تحد يوما قيد انملة عن ما تركها عليه ابن تومرت منذ جاء من المشرق بمذهب الامام الاشعرى

---

١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤م

فخامة بلاط بنى مرين

يذكر المؤرخون انه كان للسلطان ابى الحسن المرينى تعلق شديد بالحرمين الشريفين وانه اهدى للحرم الملكى فى موسم الحج لسنة ٧٣٨هـ (١٣٣٨م) مصحفا سنيا خطه بيمينه متقن الوراقة مهذب الصنعة ، جمع له نبغاء الفنون الجميلة فصنعوا له وعاء مزخرفا من آبنوس مطعما بالعاج والصندل مغشى بصفائح من ذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ، واتخذوا له اصونة الجلد المحكمة مرقومة بخطوط ذهبية يعلوها غلاف من الحرير والديباج الرفيع وبعث مع وفد الحاج عددا وافرا من المال لشراء ضياع وحقول بالمشرق وتحبيسها وقفا على القراء

خرج هذا الوفد السلطانى من تلمسان وركب البحر من مرسى هنين مصحوبا بهدايا اخرى فخمة ضاخمة ارسل بها السلطان الى صاحب مصر الملك الناصر محمد بن قلاون . وكان من جملة محتويات هذه الهدية الملكية [٨٢٥] حجرا من ياقوت ، و[١٢٨] من زمرد ، ومثلها زبرجدا ، و[٣٦٤] قطعة من المجوهرات النفيسة ؛ وحلل كثيرة منها [١٣] مذهبة ، ومن الاثان [٢٠] مذهبة ايضا ، ومن الخلادى [٤٦] ، ومن القنوع المذهبة [٢٦] ، ومن المحررات المختمة [٨٠٠] ، ومن الرصان [٢٠] شقة ، ومن الاكسية الحريرية [١٨] ، ومن المشققات [١٥٠] ، ومن احارم الصوف المحررة [٢٠] ، ومن شقق الملف الرفيع [١٦] ، ومن الفضالى المتنوعة والفرش والمخاد المنبوقة والحلل [٨٠٠] ، ومن اوجه واحسن اللحف المذهبة [٢٠] ، وحائطان حلة وحنابل [١١٢] كلها من حرير ، وفرش جلد مطرزة بالذهب والفضة ، و[١٠] سيوف محلات بالذهب منضدة بالجواهر ، واغمدتها كذلك مرصعة ، و[١٠] سروج بركاب من ذهب ، ومثلها عشرة مطروزة بالفضة ، ومهاميز من ذهب ، وثلاث ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ايضا ، ومضمتان من ذهب وخوذة حديد بذهب مكلل بالجواهر ، و[١٠] من لزمات الفضة ، و[١٠] علامات مغشاة بالذهب ، ومثلها رايات مذهبة و[١٠] امثلة

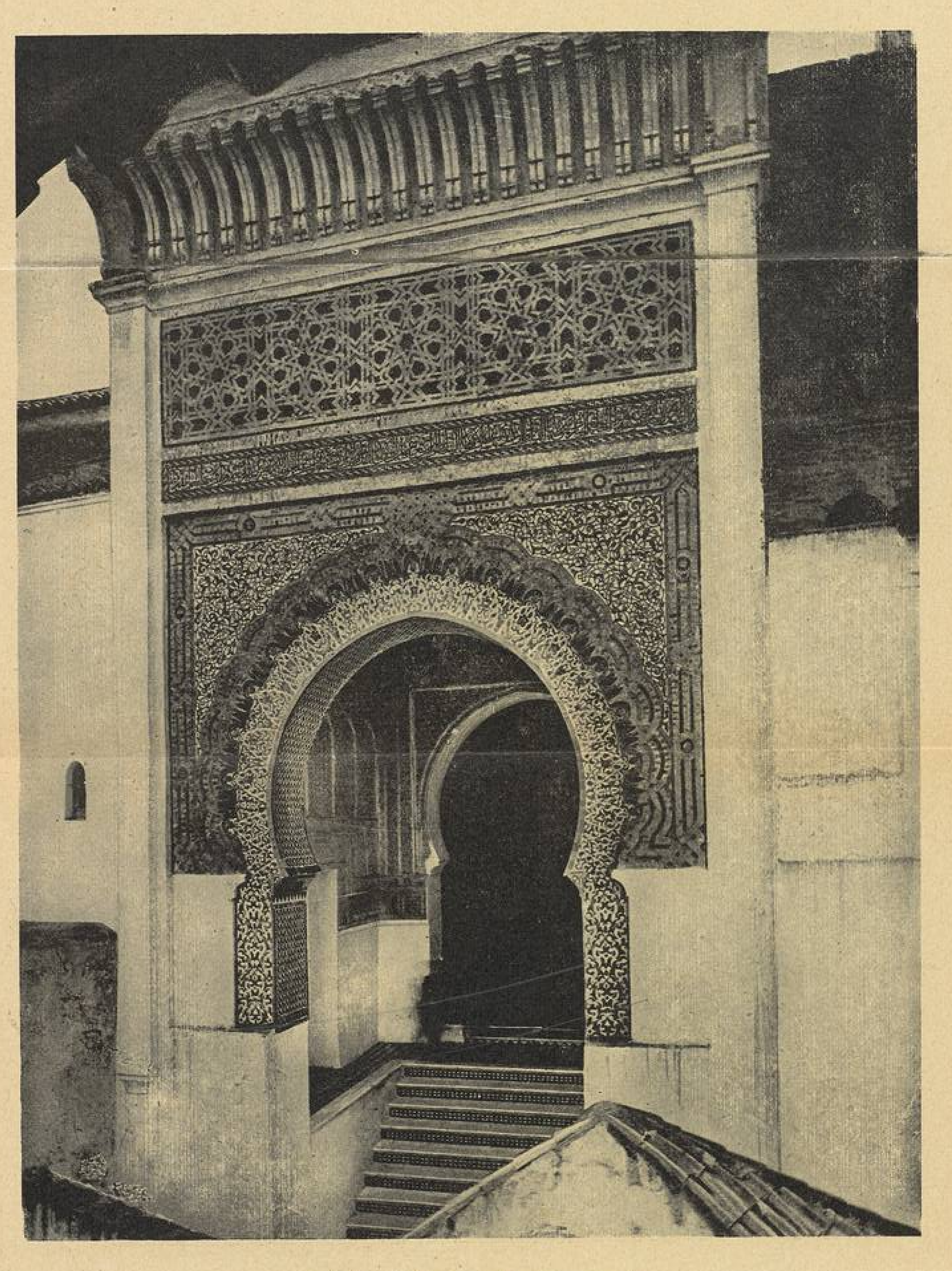
مرقومة ، و[٣٠] جلد اشرك ، و[٤٠٠٠] درقة لمطية منها مئتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة ؛ وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها اربعة ابواب ، وقبة اخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة ، وهي من حرير ابيض ومرابطها من حرير ملون وعمودها من عاج وآبنوس واكبارها من فضة مذهبة؛ ومن البزات الاحرار المنتقات [٣٤] بزة ، ومن عتاق الخيل العراب [٣٣٥] حصانا ، ومن البغال [١٢٠] ذكورا واناثا ، و[٧٠٠] جمل ، و[٣٢] بازا . مما كان يقدر يومئذ جميعه بمائة الف دينار . وكان اتصال هذا الوفد بالديار المصرية في اليوم الثاني من رمضان ٧٣٨هـ (٢٤ مارس ١٣٣٨م) فتلقاه مهندمار السلطان الناصر بحفاوة واجلال مما جعل هذا اليوم في التاريخ من ايام مصر المشهودة ، وحملت الهدايا على ثلاثين قطارا من بغال النقل - عدا الجمال - وكفانا هذا حجة ودليلا في سياق الاستشهاد على فخامة بلاط الدولة المرينية وضخامة سلطانها

وكافأ الملك الناصر عن هذه الهدية الملكية الفخمة العظيمة بما يقاربها من التحف النفسية والاشياء الثمينة، وفيما يستغرب جنسه وشكله فازدادت العلائق الودية بذلك بين ملوك المشرق والمغرب تأكيدا كما ازداد التضامن والارتباط الاسلامي بينهم ميثاقا وعهدا (١)

ومما يعد كذلك من رفاهة هذه الدولة وتقدمها في الميدان الفني ما وجد بقصر السلطان ابي عنان من ذلك النموذج العجيب الفريد الذي يمثل شكل قلعة جبل الفتح - جبل طارق - بجميع ما احتوى عليه هذا الجبل من الابراج والحصون وغير ذلك من مظاهره العمرانية واسواره الخ.... فلا غرو اذا كان يومئذ هذا البلاط يفوق غيره من قصور قرطبة وبغداد والقاهرة، وهذا معنى قول ابن خلدون: ان الحضارة الاندلسية انتقلت بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة

١) انظر تفاصيل هذه الهدايا والعلائق الودية والسفارات السياسية التي كانت تقع بين ملوك المشرق والمغرب في تاريخ ابن خلدون ج٥ ص٤٢٠ و٤٤٠ و٤٧٩ و٥٠١ وفي التعريف بابن خلدون ص ٣٤١ و٣٤٥ ط القاهرة ١٣٧٠هـ وكتاب الاستقصا ج١ ص ١٧٤ وج ٢ ص ٤٠ - ٤١ وكتاب الروضتين لابي شامة ج٢ ص ١٧٣ ط مصر ١٢٨٨هـ

تصوير اوفالاك ـ الجزائر



باب مسجد سيدى ابى مدين بالعباد — تلمسان

الثقافة والحضارة والعمران

انقضى القرن الثامن الهجرى بالمغرب وكله عراك وفتن وحروب واضطرابات سياسية مختلفة اثارتها النزوات السياسية والعصبية القبلية بين بنى مرين ومجاوريهم من بنى عبد الواد والحفصيين، ولذلك لم نكد نظفر بأثار عمرانية باقية تذكر لهذه الدولة بالجزائر سوى ما سجله التاريخ من التخريب والتدمير والنسف لما شيدته يد الحضارة الاسلامية بهذه الديار من قبل !...

واذا حاولنا تعليل هذه الظاهرة المتجلية يومئذ فى سكان المغرب ، فاننا لانكاد نجدلها تعليلا معقولا اوحالا مطابقا للواقع سوى فقر بعض النواحى النائية عن الحضارة ومواطن الرفاهية بالمغرب. مما جعل اهلها يزدحمون على الاماكن الخصبة ومواقع الخير

ورغم ذلك كله فانها لا تزال بعض معالم المدنية من آثار هذه الدولة ماثلة للعيان قائمة بالمغرب الاقصى والجزائر ؛ ممتازة برشاقتها وشكلها الاندلسى البديع؛ فمنها بفاس المدرسة العنانية ومدرسة العطارين ومدرسة الصفارين ومدرسة الصهريج والمدرسة المصباحية الخ .... ومنها بالجزائر وهى قليلة جدا كما ذكرنا لا تكاد تذكر بالنسبة الى عظمة هذه الدولة وفخامة سلطانها واتساع عمرانها ـ : المسجد الجامع المتصل بضريح الشيخ ابى مدين شعيب بن الحسين الاندلسى ضاحية العباد فى تلمسان ، وكذلك المدرسة المجاورة له ، وكلاهما من منشآت السلطان ابى الحسن المرينى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) وكلاهما آية فى فن المعمار والزخرفة والنقش ؛ اما الضريح نفسه فهو من بقايا ما انشأه خليفة الموحدين محمد الناصر بن المنصور بالجزائر؛ ومنها البرج الاحمر وبرج المرسى بوهران الذان انشأهما ابو الحسن ايضا في تلك السنة ، والمسجد الجامع بمستغانم ٧٤٢هـ (١٣٤٠) ؛ ويذكران بالجامع الاعظم فى الجزائر جناحا منه هو من زيادات ابى الحسن. وذلكم الجامع الجميل مسجد سيدى الحلوى بتلمسان فانه مما اخرجته يد الفن المغربي

على عهد السلطان ابي عنان ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) وكذلك ما اتصل به من البناء هو مما انشىء فى ذلك العصر، كما يذكران الجامع الكبير بقسنطينة هو ايضا من آثار ابى عنان. وتدلنا الابحاث التاريخية على ان الجامع الجديد مركز ديوان الافتاء الحنفى اليوم بالجزائر المؤسس سنة ١٠٧٠هـ (١٦٦٠م) انما بنى على انقاض المدرسة العنانية؛ وانه كان يعرف من قبل بجامع زاوية سيدى ابى عنان او جامع المدرسة العنانية؟... ولا ادرى ما العلاقة فى ذلك؟ .... وكذلك قصبة بلدة المدية فانها انشئت سنة ٧٠٤هـ(١٣٠٤م) على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المرينى، ولا تزال الى اليوم بقايا من اطلال مدينة المنصورة التى أقامها هذا السلطان نفسه غربى تلمسان سنة ٦٩٨هـ(١٢٩٩م) تشهد بمنتهى ما بلغه فن المعمار المغربى الجزائرى من الابداع والاتقان فى ميدان الزخرفة والنقش واحكام البناء، قال ابن مرزوق الخطيب «منصورة تلمسان التى لم ير الراؤون مثلها، ولا وصف الواصفون مثل وصفها..(١)

اما عن سير الحياة الاقتصادية والحركة التجارية، فقد كادت المنتوجات المغربية ان تنحصر يومئذ فى صناعة الجلد ونسج الصوف والحرير المزركش، ولقد اشتهرت معامل الصوف المغربية فى العالم حتى اشتق لها فى لغة اوروبا اسم Merinos — ميرينوس — وهو خاص بالنوع الجيد من الصوف، وهى كما لا يخفى نسبة الى المرينيين، وكذلك صناعة الجلد اشتهرت فى اوروبا بنسبتها الى المغرب Maroquinerie ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى الآن.

واذا اردنا ان ننظر الى خصوصية الاقليم الجزائرى فى ذلك فانه يكفينا ان نعلم ما حكاه ابن خلدون عن الحياة العامة فى مدينة المنصورة التى هى قرب تلمسان ونجعله كنموذج مصغر نطلع به على سير الحركة الاقتصادية بالجزائر فى ذلك العصر، قال:

---

١) انظر ص ٧٦ من هذا الجزء والجزء السابع من تاريخ ابن خلدون صفحة ٢٢١

واختط بمكان فسطاط المعسكر قصرا لسكناه واتخذ به مسجدا للصلاة وادار عليها السور وامر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين واجروا المياه ثم امر بادارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعين وصيرها مصرا فكانت من اعظم الامصار والمدن واحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق اسواق واحتفال بناء وتشييد منعة ، وامر باتخاذ الحمامات والمارستان وابتنى مسجدا جامعا وشيد له مأذنة رفيعة فكان من احفل مساجد الامصار واعظمها وسماها المنصورة واستبحر عمرانها ونفقت اسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت احدى مدائن الغرب (١)

اما عن سير الحركة العلمية ونظام التعليم، فأنه يكفي ان قد عرف هذا العصر عند المؤرخين بعصر انشاء المدارس والمعاهد وترسيم العلماء والمدرسين بها، غير اننا نرى القوم يومئذ تغلب عليهم علوم الشريعة والدين ، ولا حظ لهم في غيرها من الفنون العقلية الا قليلا مما جاءهم عن علماء اندلسيين او مشارقة ، وذلك لان العلوم الفلسفية نشأت هنا على ايدى افراد متفرقين حركتهم الرغبة اليها فهم متفرقون لا تربطهم مجالس، وهم فوق ذلك تحت رقابة من علماء الرسوم المتزمتين

ونكاد نلمح سير الحياة العلمية ببرامجها وفي جميع مظاهرها بالمغرب يومئذ فيما سطره ابن خلدون عن نظام التعليم وطريقة المغاربة في ذلك حيث قال :

«وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم يطالبونه باحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل ان يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا ، ويكون المتعلم اول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٢١

والاجمال وبالامثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذى فوقه حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم فى التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن ؛ واذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه وانما اتى ذلك من سوء التعليم»

«وكادت ان تنقرض وتنقطع صناعة التعليم هذه بالمغرب لولا ان ارتحل الى المشرق من افريقية – يعنى تونس – القاضى ابوا القاسم بن زيتون لعهد اواسط المائة السابعة، فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب – الفخر الرازى – فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن...

ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة ابو على ناصر الدين المشدالى وادرك تلميذ ابى عمرو بن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرا مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه فى طلبتها، وربما انتقل الى تلمسان عمران المشدالى من تلميذه واوطنها وبث طريقته فيها، وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل اواقل من القليل ؛ وبقيت فاس وسائر اقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم»

وفي بيان سلوك الطلبة فى تعلمهم وخطتهم المتبعة المرسومة في تلقيهم للعلم يقول:

«انك تجد طالب العلم منهم – المغاربة – بعد ذهاب الكثير من اعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى نفسه منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض

او ناظر اوعلم ، وما اتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، والا فحفظهم ابلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك؛ ومما يشهد بذلك فى المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ، وهى بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هى اقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال امدها في المغرب لهذه المدة لاجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة لامما سوى ذلك . وان ايسر الطرق للحصول على هذه الملكة العلمية والحذق فى العلوم هو فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها »

ورغم هذا الالتواء والتعقيد في طرق التحصيل يومئذ فانه نبغ بالجزائر في هذا العصر علماء فطاحل اشتهروا بالزعامة فى العلم والرئاسة فى الدين كبيت العقبانى والمشدالى وابن مرزوق والعبدرى وابن قنفذ القسنطينى وشقرون الوهرانى شيخ الحافظ الذهبى وغيرهم من اعيان علماء الجزائر

ولقد اشتهر ملوك هذه الدولة المرينية بنصرة العلم والاخذ بيد العلماء فان مجالسهم كانت لا تخلوا من طائفة كبيرة منهم وفيهم من كان لا يستغنى عنهم حضرا وسفرا كالسلطان ابى الحسن وولده ابى عنان مثلا ؛ وخزائنهم مملوءة بمختلف المؤلفات النفيسة في شتى انواع الفنون ولم يكن ليشغلهم عن جلب الكتب الى المدارس والمساجد وتوزيعها على المعاهد العلمية شيء، بل وحتى فى احرج المواقف واشدها فان عنايتهم دائما وابدا مصروفة الى العلم، فها انت ترى السلطان ابا يوسف يعقوب المرينى كيف اشترط على ملك الاسبان «سانشو الرابع» في معاهدة الصلح التى عقدها معه : ان يعيد اليه جميع المخطوطات العربية التى حازها ايام استيلائه على قرطبة واشبيلية ، فبعث اليه سانشو المذكور بثلاثة عشر حملا من الكتب ، فرقها ابو يوسف ووزعها بين خزائن مساجد المغرب ؛ وكان رحمه الله يعد ذلك

في نفسه انتصارا عظيما ما يفتخر به وانه لا يقل عن انتصاراته العظيمة في الحروب والغزوات

ويعود ابن خلدون فيحدثنا عن سير التعليم الابتدائي بالمغرب ايضا فيقول بعد تقديم الكلام على اختلاف مناهجه وطرقه وتنوع اساليبه عند الامم : « ... فأما اهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، واخذهم اثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى ان يحذق فيه او ينقطع دونه فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب اهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر امم المغرب فى ولدانهم الى ان يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا فى الكبير اذا رجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره ، فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .....

« واما اهل افريقية –تونس– فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها ، الا ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته اكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع ذلك ، وبالجملة فطريقهم فى تعليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم اخذ ولدانهم بعد ذلك » ويذكر لنا ابن خلدون نتيجة ملاحظته الدقيقة فى خصوصية نظام التعليم هذا بتونس والمغرب فيقول :

« فأما اهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ؛ وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة لما ان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على اساليبه

والاحتذاء بها وليس لهم ملكة فى غير اساليبه فلا يحصل اصاحبه ملكة فى اللسان العربى وحظه الجمود فى العبارات وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان اهل افريقية في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخاطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان اكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة »

وكما يحدثنا مؤرخنا العظيم عن حالة الخط العربي بالمغرب وسقوط صناعة نسخ الكتب يومئذ بتدهور الخط وانحاطه فيقول آسفا :

« صارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة ، وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرا الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول »

اما عن صناعة الطب وفنون الحكمة فانها نقصت كذلك في هذا العصر لوقوف العمران وتناقصه؛ واما الغناء وفن الموسيقى فقد بقيت منه صبابة كما يقول ابن خلدون تناقلت عن بلاد الاندلس بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب، وانقسم على امصارها على تراجع عمرانها وتناقص دولها (١) والمعروف عن اهل الاندلس انهم اخذوا فن الغناء وورثوه عن زرياب غلام الموصليين فاليه يرجع سند فن الغناء وموسيقى اهل العواصم من الحضر باقطار المغرب الثلاثة

---

١) مقدمة ابن خلدون ص٢٠٥ و٢١٠-٢١١ و٢٤٠ و٢٧٥-٢٧٧-٢٧٨ط بولاق ١٢٧٤هـ

انهيار الجزائر المرينية

امضت دولة مرين كل ايامها بالجزائر في عراك ومقاتلة ضد مزاحميها من بني ابي حفص وبني عبد الواد ، بله ما كان يتجاذبها من حوادث الثوار بالمغرب الاقصى والاندلس ومحاربتها المتواصلة في رد هجوم القشتاليين والبرتغال والايطاليين عن بوغاز جبل طارق وسواحل المغرب الخ.... فظهر يومئذ عجزها على القبض بادارة المغرب الاسلامي كله

ولما افضى امر الدولة الى السلطان ابى سالم ابراهيم بن ابي الحسن نفض يده من شرق مملكة الجزائر وكتب في ذلك الى المنصور بن خلوف ليسلمها الى ابي العباس الحفصي؛ فتسلمها بنوابى حفص في رمضان سنة ٧٦١هـ(جوليط ١٣٦٠م) وبقي غرب الجزائر متصلا بالمملكة المرينية الى ان انتصب السطان ابو زيان بن ابى حمو الثانى على عرش تلمسان سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) فقطع دعوة المرينيين عنها كما المعنا الى ذلك فيما تقدم ، وكما سنوضحه فيما يلي ان شاء الله من تاريخ دولة بني زيان

ويومئذ انحازت دولة مرين الى المغرب الاقصى الى ان صار ملكها الى ابى سعيد عثمان فأخذ البرتغاليون يومئذ في بسط نفوذهم ونشر سلطتهم على الشواطىء المغربية بدافع التنافس والتزاحم بينهم وبين الاسبان في سبيل الوصول الى الهند فسقطت بعض الموانى المغربية بيد الاجانب واحتلت معظم المرافيء واهمها ، وساءت يومئذ سياسة السلطان عبد الحق بن ابى سعيد فاقتسم الوزراء النفوذ بينهم والسلطة وتسلط اليهود على الادارة العليا فحازوا اسمى مناصب الدولة فكان هارون وزيرا وشاويل حاكما بفاس ، فسقطت بذلك هيبة السلطان من نفوس الرعية ووهت العلائق بينهما وتضعضعت دعائم الملك فانحل تماسكها وعم الاضطراب والفشل سائر اعضاء الدولة ورجالها المسؤولين فثارت الرعية ساخطة على السلطان عبد الحق فقتلته وقتلت معه ولاته اليهود ٨٦٩هـ (١٤٦٥م) وبقتله انتهى دور اسرة بنى عبد الحق ، وانتصب مكانها بنووطاس .وهم من بني مرين ايضا ،

فبقى الامر فيهم الى ان تغلب عليهم ابوعبدالله محمد الشيخ القائم بأمر الله السعدى فاحتل مدينة فاس سنة ٩٦١هـ(١٥٥٤م) فانقرضت يومئذ دولة بنى مرين بالمغرب الاقصى وحلت محلها الدولة السعدية، وذلك لثلاث وتسعين ومائتي سنة قضتها هذه الدولة في حكم المغرب الاسلامى، امضت منها بالجزائر ١٢٤ سنة، وباشرت الحكم فيها بنفسها نحو ربع قرن ثم تركتها لبنى عبد الواد فحكموها طيلة بقية هذه المدة تحت امرها وطاعتها الى ان انفردوا بها

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة الجزائر على عهد المرينيين يحيى بن سليمان العسكرى عقد له السلطان ابوالحسن على فتح القطر الجزائرى فسار اليه سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) وفتح امصاره حتى انتهى الى بلدة المدية؛ وكما عقد هذا السلطان لولديه عبد الله على مدينة الجزائر وابى عنان على تلمسان وسائر المغرب الاوسط، فتولى ذلك ابو عنان سنة ٧٤٧هـ (١٣٤٦م) وكانت اليه جبايته، كما تولى نفس هذه الولاية محمد المهدى على عهد والده ابى عنان ايضا: ولما ظهر انتصار بنى زيان على المرينيين وخرج ابوعنان من تلمسان سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) ترك على ولايتها عثمان بن يحيى بن جرار فدعا لنفسه اشهرا الى ان دخل عليه بنو عبد الواد فاستأمن فأمنوه بعد ما عزلوه ومات من سنته، وكثيرا ما تولى مشيخة بنى عبد الواد هذه الولاية تحت طاعة بنى مرين. واشتهر من ولاة الثعالبة بمتيجة ابو الحملات بن عايد بن ثابت بن محمد بن سباع الثعالبى هلك فى طاعون سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) فخلفه ابراهيم بن نصر بن حنيش بن ابى حميد ثابت، ولما هالك ايام ابى عنان تولى مكانه ابنه سالم. وعقد السلطان ابوعنان للحاجب محمد بن ابى عمرو على بجاية وسائر اعمالها وعلى حرب الموحدين بقسنطينة. وقد جمع له من قبل ما بين الحجابة والقيادة والعلامة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر القاب وظائف الدولة، وحتى خصوصيات الدار. فسار ابن ابى عمرو والى بجاية

سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) وتولى زمامها الى وفاته فى المحرم ٧٥٦هـ [جانفيى ١٣٥٥م] فتولى بعده الوزير عبد الله بن على بن سعيد اليابانى : ثم عزل واعتقل ، فتولى مكانه القائد يحيى بن ميمون بن امصمود فتغلب عليه الحفصيون واعتقلوه بتونس سنة ٧٦٠هـ - ١٣٥٩م كما تولى على بجاية ايضا كل من محمد بن النوار - وهو من طبقة الوزراء - وعمر بن على بن الوزير بن ابى وطاس ؛ وابى عبد الله محمد بن الامير ابي زكرياء ولاه ابو عنان اقليم بجاية ليدفع عنه حملة ملوك تونس يومئذ ، كما انه ولى على قسنطينة يوم أن فتحها ٧٥٨هـ [١٣٥٧م] المنصور بن الحاج خلوف اليابانى المرينى ، ثم امره بالنزول عنها سنة ٧٦١هـ - ١٣٥٩م وتركها للامير ابى العباس الحفصى ؛ وكان على ولاية بونة الفضل بن يحيى فثار ضد الحكومة المركزية سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) وغلب على قسنطينة وبجاية ؛ وكان على ولاية دلس يحياتن بن عمر شيخ بنى ونكاسن المرينيين ، وعلى ولاية الجزائر ابن علان ، وجعلت جبايتها للمسعود بن ابراهيم اليرنانى من طبقة الوزراء ؛ وكان على اعمال قسنطينة محمد بن العباس ، وعلى ولاية بسكرة يوسف بن مزنى وهو صاحب زمام رياح ، ورآسة مليانة كانت لعلى بن حسون بن ابي على الهساطى - او الباطى ؟... - وهو احد قادة السلطان ومواليه ، اجتمع به ابن خلدون في دار حكمه بمليانة سنة ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) ؛

وكانت رآسة قبائل احياء العطاف في اولاد يعقوب ، ورآسة بنى عامر اصغير بن على ، ورآسة كومية لابراهيم بن عبد الملك الولهاصى نسبة الى قبيلة ولهاصة بساحل التافنا فاستبد بهذه الولاية برهة واضرمها على بنى مرين وبنى عبد الواد نارا تلظى الى ان قضى عليه بنو عبد الواد فكان حاله مثل ابى سعيد عثمان بن جرار حين ولاه ابو عنان تلمسان

وكانت رآسة سدويكش - البسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية - لبنى علاوة بن سواق، واشهرهم مهنا بن تازير بن طلحة بن على بن علاوة بن سواق؛ فقتله بنوعمه اولاد يوسف بن حمو بن سواق، وحينئذ تراس عليهم عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن على بن علاوة، ثم هلك فافترق بعده امرهم . وبقيت رآسة سدويكش لاولاد يوسف المذكور ؛ قال ابن خلدون « ويرادف اولاد سواق في الرآسة على بعض احياء سدويكش بنو سكين . ومواطنهم جوار لواته بجبل بابوروما اليه من نواحى بجاية ، ورآستهم في بنى موسى بن ثابر ادركنا ابنه صخر بن موسى» (١)

وكان على رآسة بنى يزيد بسهل حمزة موسى بن ابى الفضل ، وعلى رآسة وانشريس نصر بن عمر بن عثمان ، وكانت رآسة مسراته بالقلعة المطلة على البطحاء من نواحى سيق غربى نهر مينة ، لبنى عبد العزيز ، ثم انتقلت الى بنى عمهم بنى اسحاق ؛ وكانت رآسة قبيلة ونيفن الهوارية مما يلى نبسة لاولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد بن بعرة ، وكانت قبلهم لسارية

وكان على ولاية وهران القائد عبوس بن سعيد من صنائع بنى مرين ، واقطع ابو عنان وزيره ابا يعقوب ونزمار بن عريف سهل «السرسو» وقلعة ابن سلامة ومواطن من بلاد توجين - ما بين قلعة سعيدة غربا الى المدية شرقا -

واما عن امراء البحر فانه لم يحضرنى الآن من اسمائهم سوى القائد ابي عبد الله محمد الاحمر

---

١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩-١٥٠

ملوك الدولة المرينية

بنو عبد الحق :

	تاريخ التولية
ابو محمد عبد الحق بن ابى خالد محيو	٥٩٢هـ ١١٩٦م
ابو سعيد عثمان بن عبد الحق (ادغال)	٦١٤هـ ١٢١٧م
محمد (الاول) بن عبد الحق	٦٣٧هـ ١٢٣٩م
ابو يحيى ابو بكر بن عبد الحق	٦٤٢هـ ١٢٤٤م
ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦هـ ١٢٥٨م
ابو يعقوب يوسف بن يعقوب ، الناصر لدين الله	٦٨٥هـ ١٢٨٦م
ابو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف	٧٠٦هـ ١٣٠٧م
ابو الربيع سليمان بن ابي عامر	٧٠٨هـ ١٣٠٨م
ابو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب	٧١٠هـ ١٣١٠م
ابو الحسن على بن عثمان	٧٣٢هـ ١٣٣١م
ابو عنان فارس المتوكل بن على	٧٤٩هـ ١٣٤٨م
ابو زيان محمد بن فارس ابي عنان – ولى ثم عزل فى الحال –	٧٥٩هـ ١٣٥٨م
محمد السعيد بن ابي عنان	٧٥٩هـ ١٣٥٨م
ابو سالم ابراهيم بن على	٧٦٠هـ ١٣٥٩م
ابو عامر تاشفين بن على	٧٦٢هـ ١٣٦١م
عبد الحليم بن ابي على عمر – انفرد بسجلماسة منذ ربيع الاول –	٧٦٣هـ ١٣٦١م
ابو زيان محمد (الثاني) المنتصر بن ابي عبد الرحمن	٧٦٣هـ ١٣٦٢م
ابو فارس عبد العزيز المستنصر بن على	٧٦٨هـ ١٣٦٦م
ابو زيان محمد (الثالث) السعيد بن عبد العزيز	٧٧٤هـ ١٣٧٢م

ابوالعباس احمد المستنصر بن ابراهيم	٧٧٦هـ ١٣٧٤م
موسى بن ابىعنان	٧٨٦هـ ١٣٨٤م
ابوزيان محمد (الرابع) المنتصر بالله بن احمد	٧٨٨هـ ١٣٨٦م
ابوزيان محمد (الخامس) الواثق بالله بن ابى الفضل	٧٨٨هـ ١٣٨٦م
المستنصر –للمرة الثانية–	٧٨٩هـ ١٣٨٧م
ابوفارس احمد	٧٩٦هـ ١٣٩٣م
عبد العزيز بن احمد	٧٩٩هـ ١٣٩٦م
عبد الله بن احمد	٨٠٠هـ ١٣٩٧م
ابوسعيد عثمان (الثانى) بن احمد	٨٠١هـ ١٣٩٨م
ابومالك عبد الواحد بن موسى	٨٣١هـ ١٤٢٧م
ابومحمد عبد الحق بن ابىسعيد عثمان (الثانى)	٨٣١هـ ١٤٢٨م

بنو وطاس:

ابوزكرياء يحيى بن زيان الوطاسى	٨٣١هـ ١٤٢٨م
على بن ابىالحجاج يوسف بن منصور	٨٥٢هـ ١٤٤٨م
محمد (الاول) – ابوزكرياء يحيى بن يحيى	٨٦٣هـ ١٤٥٨م
محمد (الثانى) الشيخ البرتقالى بن محمد (الاول)	٨٧٥هـ ١٤٧٠م
احمد بن محمد (الثانى)	٩٣١هـ ١٥٢٤م
محمد بن احمد	٩٥٧هـ ١٥٥٠م

مشاهير الجزائريين

ابو الحسن على الخزاعى التلمسانى

٧٨٩هـ — ١٣٨٧م

هو الكاتب الكبير والاديب الشاعر المؤرخ العلامة الشيخ ابو الحسن على بن محمد بن احمد بن موسى بن مسعود الخزاعى التلمسانى، ينتمى الى اسرة هى من اعيان الاسر الاندلسية المنتقلة الى الجزائر ، المشهورة هنالك بالرئاسة فى السياسة والعلم والقضاء ، كان والده فقيها كاتبا بارعا فحظى عند ملوك وامراء تلمسان وجمع بين خطتي السيف والقلم فاشتهر بلقب ذى الوزارتين ، انجب ولده عليا —صاحب الترجمة— بتلمسان سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) فنشأ مقتفيا خطة آبائه واجداده النبلاء جادا فى تحصيل العلم والادب ، وكان من مشائخه ابن مرزوق الخطيب ، والقاضى البلفيقي ....

برز رحمه الله فى الادب والفقه والحساب والتاريخ ؛ واشتهر بالايثار وكرم الاخلاق وحسن السيرة، فتنافس فى مصاحبته ملوك المغربين: الاوسط والاقصى، فكتب اولا العلامة للسلطان ابى سالم ابراهيم المرينى ، ثم كتب فى بلاط بنى زيان بتلمسان واخيرا استقر فى بلاط بنى مرين كاتبا للاشغال فحاز لديهم رئاسة قلم الدولة ونال من الحضوة ما يستحقه امثاله النبغاء من العلماء عند الملوك

وله من الشعر قوله لما كبا بموسى بن ابى عنان المرينى فرسه بالشماعين اثر صلاة الجمعة

مولاى لا ذنب للشقراء ان عثرت ومن يلمها لعمرى فهو ظالمها
وهالها ما اعتراها من مهابتكم من اجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا تكبو الجياد ولم تنبو عزائمها
وفي النبى رسول الله اسوتنا اعلا النبيئين مقدارا وخاتمها

كبابه فرس ابقى بسقطته   في جنبه خدشة تبدو مراسمها
حتى لصلى صلاة جالسا ثبتت   لنا بها سنة لاحت معالمها
صلى عليه الاله دائما ابدا   ازكى صلاة تحييها نواسمها

ولم اقف على تأليف له رحمه الله سوى ذلك الكتاب العجيب الذي انفرد به بين علماء الاسلام بتدوين تاريخ الحضارة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واعنى به كتاب «تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» وهو لعمرى كتاب نفيس فريد في بابه مستوعب لموضوعه، لم يترك فيه خطة او وظيفة او رتبة اوصناعة او حرفة او اى عمل من اعمال المجتمع الاسلامي في ميدان المصالح الادارية عسكرية كانت او مدنية ، او شرعية او علمية، الخ... الا واثبت اصلها في الاسلام ودليلها من السنة وعمل الخلفاء الراشدين فيها مع التعرض الى ذكر اول من باشر تلك الاعمال بنفسه من الصحابة او كان ممن ولاه رسول الله عليها ؛ فكان الخزاعي بذلك من اسبق العلماء الى تدوين تاريخ المدنية الاسلامية وتفصيل الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في صدر الاسلام فجاء عمله هذا مفخرة من مفاخر الجزائر التى يحق لها ان تباهي بها وتتطاول !...

وكان تاريخ وضعه لهذا الكتاب الجليل سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) اى قبل وفاته بثلاث سنوات ، الفه برسم السلطان المتوكل على الله ابى فارس المريني، وكان من حسن الاتفاق ان عثر الشيخ عبد الحي الكتاني على نسخة مخطوطة منه بخزانة جامع الزيتونة المعمور في تونس تحت عدد ٧٥٧٢ فادمجها في كتابه الجامع «التراتيب الادارية....» المطبوع في جزئين برباط الفتح سنة ١٣٤٦هـ وكانت وفاة الخزاعي بمدينة فاس بعد عصر يوم الاحد الخامس من ذى القعدة سنة ٧٨٩هـ (١٧ نوفمبر ١٣٨٧م) ودفن غداة يوم الاثنين تغمده الله برحمته

ابن مرزوق الخطيب

٧٨١هـ — ١٣٧٩م

هو شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر بن مرزوق التلمساني الشهير بلقب الخطيب والجد والرئيس

كان رحمه الله آية في فنون العلم والادب والسياسية والدين ومن ابرز الشخصيات الجزائرية التى عرفها العالم في القرن الثامن الهجرى ولاسيا بالمغرب والاندلس ومصر والشام ؛ كان موطن اسرته بعجيسة بزاب افريقية ، فانتقلت الى تلمسان صحبة الشيخ ابى مدين شعيب بن الحسين الاشبيلي في اواخر القرن السادس الهجرى، نزلت ضاحية العباد وسكنت هنالك ملتزمة خدمة ضريح الشيخ وسدانة رباطه الى ان علا شأنها بعدذلك وارتفع كعبها بالعلم فنبه ذكر الكثير من ابنائها وكان من بينهم مترجمنا ابوعبد الله محمد بن مرزوق

ولد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠هـ–١٣١٠م وبها نشأ وتربي وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادى العلوم حتى اذا بلغ الثامنة عشرة من عمره ارتحل مع والده الى الحجاز فحج وزار وجاور وهناك اجتمع بالمشيخة فأخذ عن كثيرين من اهل الحجاز وغيرهم من قصاد تلك البقاع المطهرة ، ثم سافر منفردا بنفسه عن والده فدخل بلاد الشام ومصر فسمع وروى عن عدد عظيم من علماء المشرق هنالك كما اخذ عن علماء بجاية وفاس وتونس فكان عدد شيوخه يفوق الالفين ، وقد اودعهم كلهم فهرسته المسماة «عجالة المستوفز المستجاز ، في ذكر من سمع من المشائخ دون من اجاز ، من ائمة المغرب والشام والحجاز ،» فبرز قدس الله روحه في علوم متنوعة كثيرة وخاصة منها الحديث الشريف فانه اشتهر به اكثر من غيره ، والف فيه اكثر من سواه ؛ وقد كتب من محبسه في احدى نكباته التى نكب بها: انه لا يوجد اليوم من يسند احاديث الصحاح قراءة وسماعا من باب الاسكندرية الى البرين والاندلس غيره : كما انه ذكر في احدى رسائله التى كتبها من السجن

ايضا سنة ٧٦٢هـ - ١٣٦٠م انه خطب على ثمانية واربعين منبرا في بلاد الاسلام شرقا وغربا واندلسا

وبعد ان ملا وطابه بالعلم امره والده بالعودة الى بلده لتانيس عمه محمد بن مرزوق خطيب جامع السلطان ابى الحسن بالعباد ، فانكفا راجعا الى وطنه ، وصادف ان كان يومئذ السلطان ابو الحسن المرينى محاصرا لتلمسان سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م فنزل الشاب العالم على عمه ولم يلبث عمه هذا ان توفي الى رحمة الله فاقامه السلطان مقام عمه المرحوم ، فابان الشاب الخطيب يومئذ عن علم واسع وادب جم ، وسياسة فائقة وحصافة نادرة وحكمة باهرة ، منقطع النظير في ذالك بين اقرانه من العلماء فاستخلصه السلطان لنفسه واصطفاه لحضرته فكان لا يفارقه حضرا وسفرا حربا وسلما ، وغدا معه الى الحرب في وقعة طريف ٧٤٠هـ-١٣٤٠م وبعث به سفيرا الى صاحب قشتالة النصرانى فغدا اليه سنة ٧٤٨هـ-١٣٤٧م وعقد معه الصلح وفك منه الاسرى

ولما عادا بن مرزوق من سفارته الى قشتاله طلب من السلطان ابى عنان المرينى اعفاءه من الخدمة وتسريحه فاعفاه ، وعاد يومئذ الى بلده تلمسان ، وقد تملكها يومئذ بنوزيان فاوفده الملك ابوسعيد الى دولة بنى مرين في مهمة سياسية ، وماكاد يتصل بالبلاط المرينى حتى لحق به خصوم ابي سعيد ومنافسوه في الملك فاسروه ونكبوه واودعوه السجن الى ان تداركه الله بلطفه فأجيز الى الاندلس ودخل غرناطه سنة ٧٥٢هـ-١٣٥١م فنزل على سلطانها ابي الحجاج بن الاحمر فقربه منه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء فبقى عليها مدة سنتين الى ان استدعاه ابو عنان بعد مهلك ابيه واستلائه على تلمسان واعمالها فنظمه في اكابر اهل مجلسه ثم بعثه الى تونس عام ٧٥٨هـ-١٣٥٧م ليخطب له بنت السلطان ابي يحيى ابى بكر الحفصى فردت الخطبة : ويومئذ وشى بابن مرزوق فاودعه ابو عنان السجن فكانت هذه نكبته الثانية ثم اطلقه السلطان بين يدى موته

ولما تولى السلطـان ابو سالم ملك مرين اعاد للشيخ مكانته وحرمته العلمية وعلت منزلة عنده وعند رجال كامل البلاط حتى صار زمام الدولة بيده، ثم كانت حوادث الانقلاب الحكومى سنة ٧٦٢هـ-١٣٦٠م فذهب الشيخ ضحيتها فسجن للمرة الثالثة ، ثم اطلق عقاله فالتحق يومئذ بتونس سنة ٧٦٤هـ-١٣٦٢م فاكرمه سلطـانها ابو اسحاق وصـاحب دولته ابو محمد بن تافراكين وولياه خطابة جامع الموحدين فأقام الشيخ بتونس سنوات الى ان دفعته السياسة وحملته على مفارقتها فركب البحر فى شهر ربيع الاول ٧٧٣هـ - سبتمبر ١٣٧١م ملتحقا بالبلاد المصرية فنزل الاسكندرية ومنهـا ذهب الى القـاهرة فتلقـاه هنـالك العلماء واكابر اعيان الدولة والامراء فأوصلوه الى السلطان الاشرف شعبان بن حسين فـأجرى عليه الملك من الخيرات والمبرات ما يليق بمقـامه وولاه الوظائف العلمية فخطب ودرس فى اكبر المدارس واشهرها كالشيخونية والضرغشية والنجمية الخ... ولم يزل موفور الكرامة محترما مرشحـا للقضاء الى ان وافاه حمامه رحمه الله فى شهر ربيع الاول سنة ٧٨١هـ (جوان ١٣٧٩م) ودفن بمقبرة القرافة الصغرى بين الامامين ابى القاسم واشهب رحم الله الجميع

ولقد ترك رحمه الله ثروة علمية عظيمة اودعهـا بطون مؤلفـاته الجليلة التى نأسف كثيرا لذهاب اكثرها فلم يبق لنا اليوم منها سوى قائمة اسمائها؛ منها كتابه النفيس - المسند الصحيح الحسن فى محاسن مولانا ابى الحسن - وضعه فى توريخ سيرة مخدومه السلطـان ابى الحسن على بن عثمان المرينى، توجد منه نسخه بمكتبة الاسكوريال قرب عاصمة مادريد تحت عدد (١٦١٦). ومنها فهرسته المستوفز، المتقدمة الذكر... وشرحه على كتاب الشفاء للقاضى عياض لم يكمل ، وشرح عمدة الاحكام فى اسفار خمسة ، جمع فيه بين الفاكهانى وابن دقيق العيد مع زوائد كثيرة؛ وشرح الاحـكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلى ، وازالة الحاجب عن فروع ابن الحـاجب ، وكتاب تحفة الطرف ، الى الملك الاشرف ؛ والاربعين المسندة فى

الخلافة والخلفاء ، وكتاب الامامة ، وديوان خطب وقصائد ، وايضاح المراشد ، فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد، وشرح لصحيح البخارى، وكتاب جمع فيه ما قيل فى الصبر واربعون حديثا خرجها من مرويات السلطان ابى الحسن ، وكتاب فى التنجيم وكتاب ضاهى به كتاب العفو والاعتذار ، وجنى الجنتين فى فضل الليلتين : ليلة القدر وليلة المولد ؛ توجد منه نسخة بمكتبة خاصة فى مدينة فاس ....

ومن شعره برد الله ضريحه قوله لما ركب مع السلطان ابى الحجاج بن الاحمر خارج الحمراء فى ايام الربيع مرتجلا :

انظر الى النوار فى اغصانه	يحكى النجوم اذ تبدت فى الحلك
حبى امير المؤمنين وقال قد	عميت بصيرة من بغيرك مثلك
يا يوسفا حزت الجمال بأسره	فمحاسن الايام تومى هيت لك
انت الذى صعدت به اوصافه	فيقال فيه ذا مليك او ملك

وله فى اغراض الشعر وفنون النثر كثير من القطع والفصول الجميلة التى تكفلت بها كتب التراجم والادب فلتراجع هنالك

احمد المغراوي

٨٢٠هـ — ١٤١٧م

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عبد الله المغراوى (نسبة الى قبيلة مغراوة الجزائرية)، كان رحمه الله عالما فقيها اصوليا نحويا، برز على كثير من كبار علماء المشرق فكانوا يحترمونه كثيرا حتى قال التقي بن قاضي شهبة « ما تركت بمصر والشام فى المالكية مثله »، كان يناظر ابن خلدون ويفتى عليه، وكان العز بن جماعة يعظمه كثيرا، واما هو فيقول : متى كان العز ؟ انما اشتغل على كبر وكان جنديا، وانا اشتغلت قبله بزمان، وروى على الشرف عيسى المالكى القاضى قال : ان المغراوى بحث مع البساطى يوما في مسألة، فقال له اعرفها وانت في مغراوة خلف البقر !... فأجابه المغراوى بقوله : ياجاهل، يا ولد (كذا) مغراوة ما فيها بقر قط، اولئك عرب اصحاب ابل ترحل وتنزل، واما انا فوالله العظيم هو ذاك الذى اعرفها وانت فى بساط ترعى البقر !....

ومع فضله كما يقول السخاوى فى ضوئه : كان خاملا جدا لامور، منها انه كان ممن صحب السالمي وتمكن منه وعادى بسببه اكابر الدولة، فلما ذهب السالمي آذوه سيما مع عدم تردده للاكابر وتحامقه عليهم، وقدم دمشق سنة ٨١٤هـ ١٤١١م ونزل بالمدرسة الزنجية واخذ عنه الطلبة وعين مدة للقضاء فلم يتم ذلك ثم عاد الى بلده وترك الاشتغال بحيث قل استحضاره، وتوفي رحمه الله في شوال سنة ٨٢٠هـ-نوفمبر ١٤١٧م

ابراهيم بن فائد الزواوى

٨٥٧هـ - ١٤٥٣

هو العالم المتفنن ابو اسحاق ابراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبرولى الزواوى ، ولد بجبل جرجرة سنة ٧٩٦هـ-١٣٩٤م وانتقل الى بجاية وبها قرأ القرآن الكريم، واشتغل بها في الفقه على ابى الحسن علي بن عثمان المنجلاتي فقيه بجاية ، ثم ارتحل الى تونس فأخذ الفقه والمنطق عن ابى عبد الله الابى ، والفقه ايضا عن يعقوب الزغبي ، كما انه اخذ التفسير والفقه كذلك عن القاضى القلشانى، والاصول عن عبد الواحد الغريانى؛ ثم عاد الى جبال بجاية فأخذ علوم اللغة عن عبد العالى بن فراج ، ثم دخل قسنطينة فسكن بها، وفيها اخذ الاصلين والمنطق عن حافظ المذهب ابى زيد عبد الرحمن الباز ، وعلم المعاني والبيان عن ابي عبد الله محمد القيسى الحكيم الاندلسى ورد عليهم حاجا ؛ والاصلين والمنطق والبيان كذلك والفقه وغالب العلوم المتداولة يومئذ بين علماء الاسلام عن ابى عبد الله بن مرزوق عالم المغرب لما قدم عليهم قسنطينة فأقام بها نحو ثمانية اشهر

ولم ينفك المترجم رحمه الله عن مزاولة العلم تعلما وتعليما حتى برع فى جميع هذه الفنون المؤمى اليها لا سيما الفقه. والف تفسيرا للقرآن الحكيم، وشرحا لمختصر خليل فى ثمان او ثلاث مجلدات ؟... سماه : تسهيل السبيل، لمقتطف ازهار روض خليل ، وشرحاه اخر فى جزئين ، سماه فيض النيل ؛ وله شرح على الفية ابن مالك فى مجلد واحد ، وشرح على تلخيص المفتاح سماه تلخيص التلخيص فى مجلد؛ وحج رحمه الله مرارا وجاور ، ولقيه البقاعي فى سنة ٨٥٣هـ حين حج ايضا وقال انه رجل صالح من المشهورين بين المغاربة بالدين وعليه سمت الزهاد وسكونهم ؛ وتوفي رحمه الله فيما قال ابن عزم سنة ٨٥٧هـ-١٤٥٣م

سالم بن ابراهيم الصنهاجي
اواسط القرن التاسع الهجري ؟....

هو العالم النظار الامام القاضي سالم بن ابراهيم بن عيسى الصنهاجي المغربي، ولد كما ذكره السخاوي بمشدالة بعد السبعين وسبعمائة تقريبا ونشأ ببجاية واشتغل بتونس الى ان تضلع في العلم وفضل فارتحل عنها سنة ٨٣٤هـ فوقع في اسر الكفار وناظر الاساقفة ببلادهم فافحمهم ودام عندهم مدة ثم اخرجوه، وسمع بالحجاز ومصر ودمشق، قال السخاوي : وقد رايته فيمن عرض عليه ابن ابي اليمن بمكة، وحدث ودرس وافتى وكان من محفوظاته كتاب الشفاء رواه بالسماع عن الجمالين المحمدين ابن علي النويري وابن ابي بكر المرشدي رحمهما الله

تولى رحمه الله قضاء المالكية بدمشق ثم قضاء القدس ثم عاد الى الشام ، ولقد شهد له التاريخ بحسن السيرة والصرامة والحرمة ونفوذ الكلمة في القضاء مع عفة ونزاهة ؛ ولم اقف على زمان ولا مكان وفاته بالضبط رحمه الله

محمد بن عمر المليكشي
٧٤٠هـ - ١٣٣٩م

الاديب الكبير والشاعر الناثر ابو عبد الله محمد بن عمر بن على بن محمد بن ابراهيم بن عمر المليكشي البجائي ثم التونسي الجزائري ، هكذا كتب نسبه بخطه رحمه الله

اخذ عليه وادبه بالجزائر وله رحلة الى المشرق فحج وروى عن جماعة بالحجاز ومصر والاسكندرية كالرضى الطبرى سمع عليه الكتب الخمسة ، والسراج محمد بن طراد قاضى المدينة وخطيبها ، وابي محمد الدلاصى والنجم الطبرى وغيرهم

ذكره الحضرمي في مشيخته فقال : كان صدرا في الطلبة والكتاب فقيها كاتبا اديبا حاجا راوية متصوفا فاضلا صاحب خطة الانشاء بتونس ذا تواضع وايثار وقبول حسن ، له شعر رائق ، ونثر فائق ، وكتابة بليغة . وتآليف مستظرفة ، وعرفه المقرى في نفحه نقلا عن كتاب الاكليل الزاهر لابن الخطيب فقال بعد ما ذكر اصله ونسبه حسب ما تقدم ... «كاتب الخلافة ، ومشعشع الادب الذى يزرى بالسلافة . كان بطل مجال ، ورب راوية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عطنه ؛ فتلوم به تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة ، ومبرة يانعة ، ثم آثر قطره ، فولاه وجهه وشطره ، واستقبله دهره بالانابة ، وقلد خطة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحطت رحاله ، وله شعر انيق ، وتصوف وتحقيق ، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق ..

«حدث بعض من عنى بأخباره ، ايام مقامه بمالقة واستقراره ، انه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد ، فأبقى على نفسه وامسك ، وانف من خلع العذار بعد ما تنسك وقال :

لم انس وقفتنا بباب الملعب ... بين الرجا واليأس من متجنب
وعدت فكنت مراقبا لحديثها ... بأذل وقفة خائف مترقب
وتدللت فذللت بعد تعزز ... يأتي الغرام بكل امر معجب
بدوية ابدى الجمال بوجهها ... ما شئت من خد شريق مذهب
تدنو وتبعد نفرة وتجنبا ... فتكاد تحسبها مهاة الربرب
ودنت بلحظ فاتن لك فاتر ... انضى وامضى من حسام المضرب
وارتك بابل سحرها بجفونها ... فسبت وحق لمثلها ان تستبي
وتضاحكت فحكت بنير ثغرها ... لمعان نور ضياء برق خلب
بمنظم في عقد سمطى جوهر ... عن شبه نور الاقحوان الاشنب
وتمايلت كالغصن اخضله الندى ... ريان من ماء الشبيبة مخصب
تثنيه ارواح الصبابة والصبا ... فتراه بين مشرق ومغرب
ابت الروادف ان تميل بميله ... فرست وجال كأنه في اولب
متتوجا بهلال وجه لاح في ... حلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من راى فيها محبا مغرما ... لم ينقلب الا بقلب قلب
ما زال مذولي يحاول حيلة ... تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى اوقدت ... في القلب نار تشوق وتلهب
فتلاقت الارواح قبل جسومها ... وكذا البسيط يكون قبل مركب

وتوفي رحمه الله بتونس غرة المحرم سنة ٧٤٠ه‍(٩ جوليط ١٣٣٩م)

جدول تاريخي

٦٦٨-٩٦١هـ

١٢٦٩-١٥٥٤م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٦٦٨هـ١٢٦٩م	تأسيس الدولة المرينية وتملكها المغرب
٦٧٠هـ١٢٧٢م	وقعة ايسلي الشهيرة
٦٧٨هـ١٢٨٠م	انتصار مرين بوقعة وادي التافنة
٦٨٠هـ١٢٨١م	انهزام بني عبد الواد في وقعة الملعب
٦٩٧هـ١٢٩٨م	فتح اعمال الجزائر
٦٩٨هـ١٢٩٩م	انشاء حاضرة المنصورة ومعركة مرسى الرؤوس
٧٠٦هـ١٣٠٦م	تنازل مرين عن مملكة تلمسان
٧١٤هـ١٣١٤م	ابتداء الزحف على مملكة تلمسان
١٣٠هـ١٣٢٩م	تحالف بني مرين وبني ابي حفص ضد امراء تلمسان
٧٣٦هـ١٣٣٥م	فتح عمالتي الجزائر ووهران
٧٣٧هـ١٣٣٧م	القضاء على امارة بني زيان
٧٤٨هـ١٣٤٧م	فتح اعمال قسنطينة وبجاية
٧٤٩هـ١٣٤٨م	ثورة بني عبد الواد
٧٥١هـ١٣٥٠م	عودة الجزائر لبني عبد الواد
٧٥٢هـ١٣٥١م	استلاء السلطان ابي عنان على اعمال تلمسان
٧٥٣هـ١٣٥٢م	امتلاك بجاية وثورة اهلها
٧٧٦هـ١٣٧٤م	انقسام دولة مرين بين حكومتي فاس ومراكش
٧٩٦هـ١٣٩٣م	نهاية حكومة مرين بالجزائر
٩٦١هـ١٥٥٤م	سقوط الدولة المرينية في قبضة السعديين

الدولة العبد الوادية - الزيانية -

٦٣٣ - ٩٦٢ هـ

١٢٣٥ - ١٥٥٤ م

منشأها ونشأتها

منتمى هذه الدولة الى قبيل بنى عبد الواد (١) احد بطون القبيلة الجزائرية العتيدة - زناتة - (٢) كانت مواطنهم ما بين جبال سعيدة شرقا ووادى ملوية غربا؛ ومنهم فصيلة متوطنة بجبل اوراس، وهم من اهل الوبر يعيشون معيشة النجعة يرتادون صحراء المغرب الاوسط ما بين مصاب - مزاب - الى ملوية وفيجيج ثم الى سجلماسة - تافيلالت - ومنها كذلك الى ارض الزاب، وهم تلو بنى مرين فى الكثرة والقوة، ولم يزالوا كذلك الى ان فتح الموحدون المغرب الاوسط فكانوا عونا لهم على ذلك، واستقروا منذ ذلك العهد بأحواز تلمسان (٣) فامتازوا هنالك ببطولتهم الحربية وشجاعتهم الادبية وحنكتهم السياسية فأحرزوا يومئذ على ثقة الموحدين، ومنهم ملوك هذه الدولة - بنى زيان -، واولهم يغمراسن بن زيان بن ثابت .... ولا مستند لمن عزاهم الى آل البيت، فان يمغراسن نفسه لما ذكر له ذلك ورفع نسبه الى ادريس بن عبد الله الكامل، قال برطانتهم ما معناه: «ان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله، واما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا» (٤)

---

١) أصله عابد الوادى صفة لجدهم المتبتل بواد هناك

٢) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا ص ٥١ و ١٩٦

٣) اسم بربرى مركب من كلمتين اثنتين، اولاهما: تلم، بكسر التاء ومعناها تجمع، والثانية: سان، ومعناها اثنين، فهو كما ترى اسم وصفى للمدينة بالنظر الى موقعها الطبيعى حيث كانت جامعة بين الصحراء والتل

٤) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٢

اشتهر هذا القبيل فى اول امره بمقاومته لانتشار نفوذ الموحدين ، ولما ظهر عجزه امام تيار قوات دولة بنى عبد المؤمن ووجد نفسه كناطح صخرة اذعن فى النهاية واخلص فى طاعته للموحدين واستعمل فى ذلك براعته السياسية فأذهب عنه السخائم ونال حظوة عظيمة لدى ملوك هذه الدولة فاقطعته بلاد بنى «وامانو» وبنى «يلومى» بنواحى «وادى ميناس» واحواز غيليزان ، فتمكن بذلك يومئذ من تثبيت قدمه بتلك الجهات فمكث بها محافظا على مكانه ووحدته الذاتية والسياسية ؛ وهكذا بقي يعمل لصالحه الى ان استأنس من الحكومة ضعفا حيث اخذت ايامها فى التدهور واشرفت الدولة على النهاية كما تقدم تفصيله فى الجزء الاول . فتطلع بنو عبد الواد يومئذ الى التملك على المغرب الاوسط ، وعملوا على حمل الدولة الموحدية على التنازل لهم عن امارة تلمسان ، وقد نالوا ذلك بعقد الامارة لشيخ قبيلهم عهدئذ جابر بن يوسف ٦٢٧هـ-١٢٣٠م فانتصب للحكم وادارة شؤون البلاد بنفسه وبادر الى الاشتغال بجمع فصائل بنى عبد الواد وفروعهم فأدخلهم تحت رايته فبايعه جمعهم منضويا تحت حكمه وسلطته ولم يفلت عنه يومئذ الا مدينة ندرومة فتوجه اليها سنة ٦٢٩هـ-١٢٣٢م مشددا عليها الحصار فرماه من سورها يوسف الغفارى التلمسانى بسهم فقتله ، فجلس ولده الحسن مكان ابيه محتميا في الظاهر بدولة الموحدين ثم بعد ستة اشهر من ولايته تخلى عنها لعمه عثمان بن يوسف فمكث بها نحو سنة ونصف فظهر منه زيغ في سياسته فعزله قومه وولوا مكانه اباعزة زيدان بن زيان ، فأطاعه قومه ولم يخرج عن مبايعته يومئذ سوى بنى مطهر من بنى عبد الواد فذهب لمقاتلتهم فقتلوه خارج تلمسان سنة ٦٣٣هـ(١٢٣٥م) فكانت ايامه نحو ثلاث سنوات ، وبموته انقطع نفوذ الموحدين تماما من تلمسان وبويع لاخيه يغمراسن

تملك يمغراسن بعد اخيه ابى عزة واظهر شارة الملك والسلطان واعلن استبداده واستقلاله بهذه الامارة ٦٣٣هـ(١٢٣٥م) ولم يبق للموحدين بها سوى

الخطبة ؛ فاستاء لذلك خليفة الموحدين ابوالحسن السعيد الملقب بالمعتصم وكان اهل المغرب يومئذ في ثورة عامة ضد حكومة المعتصم هذا: بنوابي حفص شرقا وبنو مرين غربا ، فخرج المعتصم من مراكش ٦٤٥هـ (١٢٤٧) حاشدا الجموعه الكثيرة فقصد اولا مكناسة الزيتون وبلغ الى تازا فى المحرم ٦٤٦هـ (افريل ١٢٤٨م) فأطاعته مرين، ثم تقدم الى تلمسان فخرج اليه يغمراسن في قومه واهاله معتصما بقلعة تامزدكت ـ تامرجديبةـ بجنوب وجدة وعلى مقربة منها ، ومن هناك بعث يمغراسن فى طلب الصفح من الخليفة معتذرا اليه عما فعل فرفض المعتصم اعتذاره مجمعا الانتقام منه واسرع الى القلعة فحاصرها ثلاثة اثام ، وفى الرابع : الثلاثاء ١٠ صفر ٦٤٦هـ (٤ جوان ١٢٤٨) امتطى الخليفة بنفسه ظهر فرس له وخرج فى وقت الظهيرة مستكشفا عورة يتوصل منها الى الاستيلاء على القلعة المذكورة ، فتسلق الجبل واخذ يبحث ويتجسس خلال الديار ، وبينما هو كذلك اذ رآه يوسف الشيطان احد فرسان بني عبد الواد المنيخين بساحة القلعة للحراسة ، واتفق ان كان يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه فعرفوا الخليفة فانقضوا عليه امثال العقبان وطعنه يوسف فكبه عن فرسه ثم قضى من جراحه فدفن هنالك بالعباد ، واستلحم القوم مواليه وبعض اولاده واضطرب يومئذ جيش الموحدين وانتشرت الفوضى بينهم وعمهم القلق فتفرقوا شذر مذر فاستولى بنوعبد الواد يومئذ على ما كان هناك من الاسلاب والغنائم والاثاث ، واختص يغمراسن بفسطاط الخليفة فكان له خاصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه ومنها المصحف الشريف (١) الذي يقال انه احد المصاحف الاربعة التى نسخت فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه وبعث بها الى الامصار ؛ ولم يثبت انها منسوخة بخط يده

١) كان اول ما ظهر هذا المصحف الشريف بالمغرب ان وجد بخزائن قرطبة عند ولد عبدالرحمن الداخل، ثم صار فى خزائن دولة المرابطين فيما صار اليها من دخائر ملوك الطوائف بالاندلس، ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة ، فانتقل في حادثة قلعة ، «تامزدكت»

المذكورة اعلاه الى يغمراسن بن زيان وبنيعبد الواد من ملوك تلمسان ثم صار الى ملوك بنى مرين فيما استولوا عليه من دخائر آل زيان، وذلك عند ما تغلب السلطان ابوالحسن المرينيعلى تلمسان سنة ٧٣٧هـ—١٣٣٦م فحصل المصحف الشريف عنده فكان يتبرك به ويحمله في اسفاره على العادة الى سنة ٧٥٠هـ—١٣٤٩م حيث ركب السلطان ابوالحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب بعد استيلائه على افريقية وكان ذلك فى ابان ثورة البحر وهيجانه ففرقت مراكبه وهلكت نفوس كثيرة وفقدت نفائس يعز وجود مثلها، ومن ضمنها هذا المصحف الكريم فاستأثر البحر به، وكان ذلك آخر عهد المغرب ببركته، واليك تفاصيل ملخصة مما ذكره المقرى في النفح نقلا عن رحلة ابن رشيد فيما وصف به شكل هذا المصحف الجليل وما ابدعه في صنعته وخدمته اهل الفنون الجميله وارباب الصناعات الميكانيكية والهندسية مما يدلك على مبلغ اوج الحضارة والمدنية الباهرة يومئذ بالمغرب، قال :

« ثم انهم — اى بنيعبد المؤمن الموحدين — لما أرادوا من المبالغة فى تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزيز، شرعوا في انتخاب كسوته، واخذوا في اختيار حليته، وتأنقوا في استعمال احفظته، وبالغوا في استجادة أصونته، فحشروا له الصناع المتقنين، والمهرة المتفننين، ممن كان بحضرتهم العلية، وسائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة، من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين، والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة، او ينسب الى الحذق فى صناعة، الا أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مبتدعة، وظمنوها من غرائب الحركات، وخفي امداد الاسباب للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جهد قوتهم ....

« فكسى المصحف كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له في العصر الاول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم، قد أسلست للتحرك اعطافها، واحكم انشاؤها على البغية وانعطافها، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد .... فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلألؤه واتقاده، واشبه الروض المزخرف غب سماء اقلعت عن امداده، واتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر، آخذاً بمجامع القلب والبصر، مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور، يدهش العقول بهاء ويحير الالباب رواء، ويكاد يغشى الناظر تألقا وضياء ...

وتلطف القوم في وجه يكون به هذا الصوان المذكور طورا متصلا وطورا منفصلا، ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم ان يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا اذ معارج الناس

فى الاستبصار تختلف ، وكل له مقام اليه ينتهى وعنده يقف فعمل فيه على مشاكلة هذا القصد وتلطف فى تتميم هذا الغرض المعتمد

وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الاخضر ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر ؛ ورتب ترتيبا يتأتىمعه ان يكسى بالصوان الاكبر ؛ فيلتئم به التئاما يغطى على العين من هذا الاثر ، وكمل ذلك كله على اجمل الصفات واحسنها ، وابدع المذاهب واتقنها

وصنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصبغة، ذو مفاصل ينبوعن دقتها الادراك، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك، مغشى كله بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع، في قطع من الآبنوس والخشب الرفيع، لم تعمل قط فى زمان من الازمان، ولا انتهت قط الى ايسره نوافذ الاذهان، مدار بصنعة قد اجريت في صفائح الذهب، وامتدت امتداد ذوائب الشهب، وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال، ويشاركه في اكثر الاحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب

وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على انوارها، والصدور على محفوظ افكارها، مكعب الشكل سام في الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم فى اوصاله والتكميل جار مجرى المحمل فى التزيين والتجميل، وله في احد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد احكم ارتتاجهما، ويسر بعد الابهام انفراجهما ، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسى من تلقائه وتركب المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية ، وتلقيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية ؛ وذلك ان بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد اعد له مفتاح لطيف يدخل فيه، فاذا ادخل ذلك المفتاح فيه وادبرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسى من ذاته بما عليه الى اقصى غايته، وفي خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته، يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا الى مقدمه ، فاذا كمل الكرسى بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما دون ان يمسهما احد ، وترتيب هذه الحركات الاربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فاذا ادبر المفتاح الى خلاف الجهة التى ادبر اليها اولا انفتح اولا الباب، واخذ الكرسى فى الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسى الى مؤخره، فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين ايضا من تلقائه، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذي كان في حال خروجه، وصحت هذه الحركات اللطيفة على اسباب ومسببات غائبة عن الحس فى باطن الكرسى، وهى مما يدق وصفها، ويصعب ذكرها.....

[راجع نفح الطيب ج٥ص١٥٢-١٨٤ نشر دار المأمون بمصر ١٣٥٥هـ—١٩٣٦م]

نظامها الحكومي

اشتهرت هذه الحكومة الجزائرية فى اول نشأتها باسم «دولة بنى عبد الواد» الى ان كان عصر الاستيلاء المرينى على تلمسان سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٧م) فعرفت بعد ذلك فى عصر الانبعاث على عهد السلطان ابى حمو الثانى باسم «الدولة الزيانية» نسبة الى والد يغمراسن بن زيان اول ملوك هذه الدولة

عاشت هذه الدولة مستقلة بالحكم بعيدة عن سيطرة الغير ، وعاصمتها دائما «تلمسان»، والنفوذ الادارى فيها يعود الى السلطان الملقب بأمير المسلمين وهو دائما من بيت آل زيان ، وولايته تكون غالبا بالعهد من الملك السابق وقد تكون بالغلبة والقهر والسطوة او العصبية القبلية ، ولم يثبت عن ملوك هذه الدولة دعوى الخلافة الا في ايام قلائل دعت اليها الظروف وحملتهم عليها تقلبات السياسة

واشهر الموظفين فى هذه الحكومة هم الوزراء والقادة والكتاب والحجاب واصحاب الاشغال والقضاة والعمال والمحتسبون وشيوخ المدن والمحافظون ورؤساء الحاميات والشرطة؛ ولكل من هذه المناصب ديوان ـ او ادارة ـ خاصة بهذه المصلحة، واعلاها عندهم وظيفة الحجابة ؛ فللحاجب الاتصال بشخص السلطان نفسه متى شاء وهو الذى ينوب عن الملك فى غيبته حربا او سلما ، ويسمى صاحب هذه الوظيفة به «المزوار»

واما الجيش فانه يتألف من اربعة اصناف : الاعيان وهم الرؤساء والقواد ، والقبيل وهم من مطلق رعايا بني عبد الواد ورئيسهم يعرف باسم «الشيخ»، والانصار وهم نخبة الجيش وخلاصته، ومكانهم في الزحف دائما حول السلطان محدقين به ؛ والرابع المماليك وهم خليط من العرب والبربر والزنوج وغيرهم ؛ ولقد بلغ عدد الجنود من قبيلة بنى راشد فقط ما يفوق الخمسة والعشرين الف نسمة ؛ وكان للنصارى العلوج فى اول نشأة الدولة مشاركة فى الجندية وذلك ما يشبه

الفرقة الاجنبية المختلطة فى الجيش الفرنسى اليوم ؛ وقد بلغ عددهم يومئذ نحو الالفى فارس ، واستمرت هذه الفرقة تعمل فى الجيش الزيانى الى ان افتضحت وظهرت خياناتها بقتل الامير محمد اخ السلطان يغمراسن ، فحذفت اذ ذاك من سلك الجيش الزيانى سنة ٦٥٢هـ (١٢٥٤م)

وكان لجميع فرق الجيش هذه جراية يتسلمها الجند من خزينة الدولة كل بحسب مقامه ورتبته ، فان اقل ما كان يعطى الجندى الزيانى : ثلاثمائة دينار شهريا، وكان للفارس على عهد ابى حمو الثانى ثلاثة من الذهب ؟... وعشرون برشالة من القمح، وثلاثون من الشعير؛ ويعطى له فرس ومهماز وسيف ورمح، وكان عدد هؤلاء الفرسان يومئذ يفوق الخمسة عشر الف فارس

ولجميع هذه الفرق والكتائب رايات خاصة تتميز بها عن سواها وتعرف بها فى يوم العرض العام بين يدى الملك في ايام معلومة من السنة ؛ وفيها يمنح الجند درجاته وترقياته في مراتب الجندية وفيها يبدى السلطان ملاحظاته العسكرية على الجند فيأخذ بأحسنها

واما التعبئة الحربية فهى يومئذ على ما تعارفه الناس بينهم من التراتيب العسكرية المعهودة في الجيش العربى : المقدمة ، ومكانها في الحرب دائما امام الملك او نائبه، والميمنة عن يمينه ، والميسرة عن يساره، والقلب وفيه يكون القائد الاعلى، ووراءهم الساقة ، وبهذا سمى الجيش خميسا

واما الخزينة المالية فانها متكونة من الجباية والغنائم والمكوس والاجلاب، وللدولة عملتها الخاصة المضروبة بتلمسان وعليها اسم ملوكها

وللحكومة علاقات ومعاهدات سياسية واقتصادية مع غيرها من دول الشرق والغرب حسبما دلت على ذلك الوثائق الديبلوماسية

حدود الجزائر الزيانية

تمتد مملكة الجزائر الزيانية غربا الى مدينة وجدة وتبلغ فى بعض الاحيان شرقا الى اعمال قسنطينة ودلس وبجاية وهي في ذلك تسير حسب تقدم الدولة وانتصاراتها على منافسيها ومزاحميها من بنى ابى حفص وبنى مرين ، وبلغت حدودها الجنوبية الغربية الى سجلماسة ـ تافيلالت ـ

□

ولاية السلطان يغمراسن

هو ابويحيى يغمراسن بن ثابت من بنى «اطاع الله»، العبد الوادى راس الاسرة الملكية الزيانية، ولد سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) وبويع بالملك يوم ان توفى اخوه الامير ابوعزة زيدان : الاحد ٢٤ ذى القعدة ٦٣٣هـ (٣١ جوليبط ١٢٣٦م) وكان معروفا بين قومه بالدهاء السياسى والشجاعة والحزم وجزالة الراى ومكارم الاخلاق وايثار ذوى الفضل والعلم

تولى الملك وامر الرعية فى اضطراب وقلق من ظلم الرؤساء المستبدين، وجور الولاة والحكام المعتسفين، فساس الشعب الجزائرى بحكمة وجدارة حتى اطمأن اليه الناس وخضعوا لحكمه العادل فبايعوه البيعة العامة واذعن اليه القاصى والدان ، ولم يمنعه يومئذ حداثة دولته الناشئة ولا ضعفها المادى من القبض على ايدى الاعداء والخصوم والاعلان بتأسيس الدولة العبد الوادية واستقلالها بالحكم رغم ما كان يحيط بها من الخطر المهدد لها من طرف الامارات المحدقة بها شرقا وغربا، فأظهر بذلك مقدرة عظيمة وسياسة صائبة فى تسيير دفة المملكة الجزائرية وسط تلك العوائق والعراقيل وقادها الى النصر

اغارة الحفصيين على تلمسان

كان من دهاء يغمراسن وحسن سياسته ان عمل على توثيق عرى الصداقة واحكام اسباب الولاء بينه وبين سلطان الموحدين سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) فحصلت المؤانسة بين العاهلين وصفا بينهما الجو ؛ فاستشعر سلطان الحفصيين يومئذ ابو زكرياء بمؤامرة دبرت ضد مملكته الشرقية فكتم شعوره وعواطفه نحو يغمراسن واخذ في الاستعداد الى مهاجمة النواحي الغربية ؛ ولما استكمل استعداده خرج بجيوشه بغتة فنازل تلمسان يوم الاربعاء ٢٩ المحرم ٦٤٠هـ (٢٩ جوان ١٢٤٢م) واحاطها باثنتي عشر الف رام مترجل من غير ما كان معه يومئذ من عدد الفرسان والركبان ، فانحاز بنو عبد الواد عنها الى جبال بني يزناسن ، ويقال انهم وقفوا لصق البلد بجبل ترني من بني ورنيد ، واحتل الحفصيون تلمسان ، ثم كانت الهدنة ووقعت المفاوضة في عقد الصلح بانتداب والدة يغمراسن — سوط النساء — فقامت بذلك كنائبة عن دولة بني زيان احسن قيام ؛ وكان فيما اشترطه الحفصيون على هذه الدولة : سهام بمائة الف دينار سنويا ، وان يذكروا بالدعاء لهم على منابر الجمعة ؛ فرضي يغمراسن بذلك وقال : تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا ، واستمر على ولايته (١)

اخفاق الموحدين في حملتهم على تلمسان

اثار هذا التعاقد او الحلف الواقع بين دولة بني زيان الناشئة ودولة بني ابي حفص سخائم واحقادا في صدور رؤساء الدولة الموحدية وساءها انفرادهما دونها بذلك ؛ فخشيت من اتحادهما ضدها واحفظ ذلك الخليفة ابا الحسن السعيد بمراكش ، فتحرك من هنالك بجيوشه سنة ٦٤٥هـ — ١٢٤٧م بقصد الايقاع بالدولتين المتعاقدتين فكانت يومئذ بينه وبين يغمراسن الوقعة المشهورة حول قلعة «تامزردكت» فانهزم فيها الموحدون كما ذكرناه قريبا

---

١) راجع ص ١٥ من هذا الجزء

منشأ الخلاف بين بني عبد الواد وبني مرين

لا يخفى وان المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ كان في ايام نشأة امارة بني عبد الواد الزيانية ملحقا بالدولة الحفصية، وان هذه الامارة الجزائرية كانت تابعة للحفصيين؛ وكان المرينيون يومئذ يحاولون التوسع شرق مملكتهم المغربية، فوقف في وجههم هؤلاء بنو عبد الواد الذين استشرفوا لحكم هذه الاوطان منذ ان نزل بها سلفهم صدر دولة الموحدين؛ فكان لذلك نرى استمرار الحروب والفتن بين هذين القبيلين طيلة مجاورتهما حسبما توجبه السنة الطبيعية في تنازع البقاء؛ وكثيرا ما انتصرت مرين على عدوتها المزاحمة غير انها لم تستطع القضاء عليها نهائيا بسبب احتمائها بقبائل من زناتة كمغراوة وبني توجين

طموح يغمراسن نحو المغرب الاقصى وخيبته

استمر النزاع والخلاف بين دولة الموحدين المدبرة ودولة بنو مرين المقبلة واشتد ذلك بينهما سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) فتوترت العلائق وحمى الوطيس الى ان افضى الامر بينهما الى ايقاد نار الحرب، فاستجاش الموحدون جيوش بني زيان؛ وكان ليغمراسن يومئذ غرض في مناهضة دولة بني مرين والقضاء عليها فمد يده الى الموحدين، وكانت الملحمة عظيمة بوادي اسلي ـ من بسيط وجدة ـ انهزم فيها يغمراسن وترك محلته للنهب والسلب؛ ثم كان استيلاء محمد بن عبد القوى سنة ٦٤٧هـ ـ ١٢٤٩م على جبال ونشريس وبرشك وشرشال؛ وفيها تملك ايضا محمد بن منديل المغراوى بمدينة مليانة وغيرها من الاعمال الشرقية الى سنة ٦٦٨هـ ـ ١٢٦٩م فاستردها منه يغمراسن قهرا

وفي سنة ٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م نهضت مرين منتقمة من بني زيان لانحيازهم الى خصمائهم الموحدين، وكانت المعركة بينهما بأبي سليط، فانهزم يغمراسن بها وتكررت عليه الهزائم فيمم نحو سجلماسة ودرعة عله يعوض بفتحهما ما فاته

من النصر هناك؛ وما كاد يبلغ مقصده حتى كانت مرين قد سبقته الى تلك النواحى بيوم قبله، فسقط فى يده وحاول التغلب عليهم بسلاحه فلم يفلح

ويوم ان توفى السلطان ابو بكر او ابويحيى المريني ٦٥٦هـ-١٢٥٨م حاول يغمراسن الاستيلاء على عرش المغرب الاقصى فقاتل بنى مرين، فرده السلطان يعقوب منهزما على اعقابه، ثم تكررت الوقائع والحروب بينهم واشهرها وقعة وادى تلاغ سنة ٦٦٦هـ(١٢٦٧م)، ووقعة ايسلى قرب وجدة ٦٧٠هـ(١٢٧١م)، ووادى التافنا، وتامسونت، وبني بهلول.... ولقد كان النصر في جميعها لبنى مرين

المنافسة وحب الاستئثار

لقد اثار تتابع انتصارات السلطان ابى يوسف يعقوب المرينى بالاندلس امتعاضا شديدا وحسدا في قلوب ملوك غرناطة من بنى الاحمر حيث توهموا بذلك القضاء على مملكتهم الاندلسية، فسعوا حينئذ في مشاغبته وعملوا على إقصائه بربط صلتهم بملك الاسبان واوعزوا الى يغمراسن باشغال مرين عنهم وترددت بذلك الرسل والسفراء بين تلمسان والاندلس، فارتاح لذلك يغمراسن لحاجة في نفس يعقوب، ووجد فيها شفاء نفسه فسعى يومئذ بكل جهوده في انزال العراقل والعوائق ببني مرين وشغلهم عن الجهاد بمشاغباته ومناوآته، فالح عليه يومئذ السلطان ابو يوسف المرينى في الكف عن غيه فأبى، وحينئذ نهضت مرين فاوقعت ببنى زيان في معركة خرزونة سنة ٦٧٩هـ (١٢٨٠م) ثم توالت بعدها هجمات اخرى

حزم يغمراسن ونشاطه

قضى موقع دولة بنى زيان ووضعيتها الطبيعية بين مملكتي مرين غربا والحفصيين شرقا بأن تكون مسرحا وميدانا فسيحا للمبارات بين هاتين الدولتين في جمع اقطار المغرب الاسلامى والاستيلاء على طرفيه؛ وكانت هذه الوقائع المتكررة بين دول المغرب والحوادث السياسية المتجددة هناك درسا عمليا ليغمراسن، فاخذ حينئذ في تحصين بلاده واحاطتها بما يدرأ عنها العدو ، فجاء بقبيلة بنى عامر العربية من صحراء بنى يزيد واقطعها نواحي وهران وتلمسان، وكانت له هنالك خير وقاية احتمى بها عن مهاجمة خصومه المعاقيل المقيمين بسهول متيجة؛ وجاء كذلك بقبيلة حميان الهلالية فاقامها بصحراء تلمسان فكانت له حصنا منيعا من بني مرين، واسكن فريقا من عكرمة بجبل « كركرة » قبلة « السرسو » وعمل كذلك على ربط صلته بالسلطان ابي اسحاق ابراهيم الحفصي ، واكد هذه الصلة بالمصاهرة فخطب كريمته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان

ثم تفرغ يغمراسن بعد ذلك لاخضاع القبائل المنشقة والمخالفة عنه من مغراوة وتوجين (١) فناهضها عدة مرات حتى استقامت له وجنحت الى السلم فكف عنها بأسه ، ونزل له يومئذ عمر بن منديل المغراوى عن مدينة مليانة ـ عاصمة مغراوة ـ فاحتلها يغمراسن سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)

وكانت مبايعة اهل سجلماسة سنة ٦٦٢هـ(١٢٦٣م) ثم خرجوا عن الطاعة منسلخ صفر سنة ٦٧٣هـ (٦سبتمبر١٢٧٤م) واحتلتها يومئذ مرين عنوة، وفى سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) نزل عائد بن منديل واخوه ثابت اميرا مغراوة عن مدينة تنس واحوازها ليغمراسن فضمها الى ملكه

---

(١) مواطن مغراوة هى بشمال والشريس ووادي شلف الى البحر ، وتنتهى شرقا الى وادى السبت قرب متيجة وغربا الى البطحاء بناحية نهر مينة . اما مواطن توجين فشرقى بنى عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة والمدية ؛ ولقد بقي هاتان القبيلتان على ثورتهما طيلة ملك بني زيان

غدر الفرقة الافرنجية بالسلطان

كان من بين الجيش الزياني فرقة من علوج النصارى تعمل مع الجند فحازت بطول مرانها ثقة السلطان وتقديره فكان يباهي بها بين جموعه في جميع مواقفه الحربية وفي السلم ايضا، وهي مع ذلك تعمل في الخفاء لقلب نظام الحكومة والقضاء على السلطان فتربصت به الدوائر حتى اذا كان يوم استعراض الجيوش على السلطان ضحى يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني ٦٦٢هـ (٢٥ فيفري ١٢٦٤م) وكان يغمراسن يومئذ قائما بباب القرمادين بعاصمة تلمسان فاعتدى عليه رئيس هذه الفرقة الاجنبية وحمل عليه السلاح وبادرت الفرقة المذكورة الى محمد بن زيان اخ يغمراسن فقتلته غدرا ونجا السلطان، وكان هنالك فزع واضطراب عظيم في الجيش فاندفع الناس حين ذاك الى القضاء على هذه الفرقة المشتملة على نحو الفي فارس ، فكان ذلك آخر العهد بهذه الفرقة الافرنجية ولم يستخدم بعدها أحد من نصارى الافرنج بالجندية في دول المغرب

وفاة يغمراسن

تقدم ان ذكرنا اصهار يغمراسن الى السلطان الحفصي في ابنته لولي عهد المملكة الزيانية ابي سعيد عثمان ولد يغمراسن ، وكان موعد الزفاف في ذي القعدة سنة ٦٨١هـ (مارس ١٢٨٣م) فخرج موكب العروس من تونس برئاسة الامير أبي عامر بن يغمراسن، وما كاد ليقترب الموكب من الحدود حتى خرج السلطان نفسه لاقتباله وحمايته من غارات توجين ونزوات مغراوة ، فاتصل بالقافلة في مليانة وفي منصرفه الى تلمسان ادركه حمامه فمات بوادي «رهيو» بشلف، وذلك يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة سنة ٦٨١هـ (٢٨ مارس ١٢٨٣م) فكتمت الخاصة وفاته حتى بلغت به تلمسان فاعلنت وفاته واشتغلت حينئذ بدفنه ، فكان وعمره يومئذ ٧٦ سنة، ومدة حكمه ٤٤ سنة وخمسة اشهر واثنا عشر يوما ، فبايع الناس يومئذ لولده ابي سعيد عثمان .

□

ولاية السلطان ابي سعيد عثمان

ولد السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) وكانت مبايعته بالملك بعد وفاة والده فى اوائل شهر ذى الحجة سنة ٦٨١هـ(مارس١٢٨٣م): وكان ملكا شهما حسن السياسة والتدبير مقداما صبورا على حوادث الدهر وضرباته

اشهر فتوحاته ووقائعه

وفق أبو سعيد في سلوكه السياسى الى جمع كلمة قومه واكتساب قلوب الرعية؛ وذلك بحسن التدبير ومعرفته للاساليب المنجية والطرق المجدية، فانتشر بذلك سلطانه على نواح كثيرة كانت متمردة عليه بالقطر الجزائرى ، وكان من غزواته الموفقة حملته على مازونة وانتزاعها من مغراوة وفتحها فى منتصف رمضان ٦٨٦هـ [اكتوبر ١٢٨٧م] واستيلاؤه ايضا على « تفرجينت » التي كانت لتوجين ؛ واناخ في هذه السنة بعساكره على بجاية ثم افرج عنها ، واستولى على وانشريس واخرج منها ملكها التوجينى ، واحتل مدينة تنس والمدية يوم ٢٦ ربيع الثانى ٦٨٨هـ (٢٠ ماي ١٢٨٩م) ، ثم تقدم فى السنة بعدها الى تدويخ بلاد مغراوة فاخضعها كلها ، وحاصر مدينة برشك — بين تنس وشرشال — مدة اربعين يوما ففتحت عليه سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) وفر عنها صاحبها ثابت بن منديل المغراوى فالبحر الى حيث لا يعلم مكانه

ولهذا السلطان ايام ووقائع كثيرة ومواقف حازمة وقفها ضد توجين لتحالفها وتآلفها مع خصومه بني مرين .

محاصرة تلمسان ووفاة ابي سعيد

لقد بلغ من امر العداوة المستمرة بين بنى عبد الواد وبنى مرين انه كلما سنحت فرصة لاحد الطرفين للايقاع بصاحبه الا وانتهزها أخذا بثاره واخماداً لغلته، فتعددت الوقائع والحروب بين القبيلين، وكان منها هذا الحصار الطويل الذي ضربه ابو يعقوب يوسف المرينى على تلمسان بسبب ما قامت به هذه الدولة من ربط صلتها بملوك بنى الاحمر ومشاغبتها على بنى مرين.

تحرك ابو يعقوب من مدينة فاس فى جمادى الثانية ٦٨٩هـ [جوان ١٢٩٠م] فنزل بذراع الصابون من ظهر تلمسان يوم الثلاثاء ٢٥ جمادى الثانية — ٦جوليت — ومكث محاصرا للمدينة نحو ثلاثة اشهر، فكانت هناك حروب طاحنة اشتد فيها الامر على الفريقين فانكسر فيها اولا ابو يعقوب فاقلع عن الحصار مدبرا الى مركزه بالمغرب الاقصى، ثم تكرر منه الهجوم على تلمسان اربع مرات، ثم كانت الخامسة بعد انتقاض زكرياء بن يخلف المطغرى(١) قائد ندرومة فى هذه المرة شرع ابويعقوب في بناء المحلة المنصورة ٦٩٨هـ(١٢٩٩م) فاشتد يومئذ الكرب ببنى عبد الواد الزيانيين ونال منهم الجهد والعناء بما لا نظير له في تاريخ المغرب قبله ولا بعده، بل ولا فى تاريخ غيره من الامم فيما علمناه، وناهيك انه قد طال بهم ذلك الحصار الشديد ثمانية سنين وثلاثة اشهر !..، أضطروا فيها الى اكل الجيف والقططة والفيران حتى قيل انهم اكلوا اشلاء الموتى من الناس ؟! وخربوا السقف للوقود وغلت اسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود

---

١) كثيرا ما يشتبه على الكتاب كتابة هذه الكلمة ويختلفون فى رسمها، فيكتبها بعضهم كيفما اتفق: تارة بالطاء وتارة بالدال بدون ترو ولا تثبت؛ والصحيح انهما اسمان مختلفان لفظا وخطا لاماكن ثلاثة مختلفة، فاما بالدال فهو اسم مكان باعمال سجلماسة يقال له «مدغرة» واما بالطاء فهو اسم يقع على موضعين مختلفين؛ احدهما بعمل تلمسان والاخر بعمل تازا وكلاهما يقال له «مطغرة»

العوائد وعجز وجدهم عنه ، فكان ثمن مكيال القمح الذى يسمونه البرشالة ويتبايعون به مقداره اثنا عشر رطلا ونصف مثقالين ونصفا من الذهب العين ، وثمن الشخص الواحد من البقر ستون مثقالا، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف واثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم تكون عشر المثقال ، والرطل من الجلد البقرى ميتة او مذكي بثلاثين درهما ، والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفار بعشرة دراهم والحية بمثله!!!. والدجاجه بثلاثين درهما والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثنى عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة ومن الحطب كذلك ؛ والاصل الواحد من الكرنب بثلاثه اثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ، ومن اللفت بخمسة عشر درهما، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما ، والخيار بثلاثة اثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما ، والحبة من التين والاجاص بدرهمين، واستهلك الناس اموالهم وموجودهم وضاقت احوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق واستبحرت فى في العمران بما لم تبلغه مدينة (١) ولقد هلك فى هذا الحصار من بنى عبد الواد نحو العشرين ومائة الف شخص

ورغم كل هذه الشدائد فقد ثبت بنو عبد الواد تجاه بنى مرين ثبوت الجبال الراسيات مدافعين عن حرمهم بالمهج الى ان جاءهم الفرج؛ وفى اثناء ذلك هلك السلطان ابو سعيد عثمان الزيانى وذلك لخمس سنين من الحصار ، وقد قيل انه داف السم في شرابه تفاديا من معرة الهزيمة والانكسار ، وكانت وفاته يوم السبت غرة ذى القعدة سنة ٧٠٣هـ(٥ جوان ١٣٠٤م) فبويع لولده ابي زيان الاول

---

١) ابن خلدون ج ٧ ص٩٥-٩٦

ولاية السلطان ابي زيان الاول

هو ولد السلطان ابي سعيد عثمان ، واسمه محمد ، ولد سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وكانت مبايعته اثر وفاة والده يوم الاحد ثاني شهر ذي القعدة سنة ٧٠٣هـ (٦ جوان ١٣٠٤م) وكان مشتهرا بالنشاط والحزم ورقة الحاشية ودماثة الطبع فاضلا حسن التدبير

تولى الملك في احرج الظروف واعسر الاوقات ؛ فلقد ولي عرش بني زيان وعاصمتهم مهددة بالانقراض ودولتهم بالانهيار وحياتهم بالاضمحلال وذلك لما نزل بهم من الحصار المريني وما نكبهم من الرزايا والفجائع والآلام ؛ فتحمل عبء كل ذلك ابوزيان وحده وتزعم قومه مجمعا رايه على الكفاح والمقاومة الى النهاية فاما ملك واما هلك !.... وصرخ في قومه اثر مبايعته بكلمته الخالدة : تعالوا نخرج في قومنا فنستميت !.... وبينما هو كذلك مزمعا على الحرب اذا بصوت الناعي ينعى سلطان بني مرين ابا يعقوب يوسف صاحب الحصار !...

قال ابن خلدون : «وحدثني شيخنا محمد بن ابراهيم الآبلي قال جاس السلطان ابوزيان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الاربعاء في خلوة زوايا قصره واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة ؟... فقال له انما بقي عولة اليوم وغد !!.. فاستوصاه بكتمانها ، وبينما هم في ذلك دخل عليه اخوه ابوحمو فأخبروه فوجم لها وجلسوا سكوتا لا ينطقون !... واذا بالخادم «دعد» قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان ابي اسحاق وحظية ابيهم خرجت من القصر اليهم وحيتهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء ؟!.. وقد احيط بكم واسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الافواق بكية لمصارعكم ، فأريحونا من معرة السبي واريحوا فينا انفسكم وقربونا الى مهالكنا ، فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم !... فالتفت ابوحمو الى اخيه وكان من الشفقة بمكان ، وقال قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن ؟...

فقال يا موسى ارجئني ثلاثا لعل الله يجعل بعد عسر يسرا !.. ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن !.. وتعالى الي نخرج مع قومنا الى عدونا فنستميت ويقضي الله ما يشاء؛ فغضب ابو حمو وانكر الارجاء في ذلك، وقال انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضبا وجهش السلطان ابو زيان بالبكاء !... قال ابن حجاف ـ خازن الزرع ـ وانا بمكاني بين يديه لا املك متأخرا ولا متقدما الى ان غلب عليه النوم، فما راعني الاحرسي الباب يشير الى ان اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسدة القصر، فلم اطق رجع جوابه الاباشارة، وانتبه السلطان من خفيف اشارتنا فزعا فأذنته واستدعاه فلما وقف بين يديه قال له: ان يوسف بن يعقوب هلك الساعة !.. وانا رسول حافده ابي ثابت اليكم؛ فاستبشر السلطان واستدعى اخاه وقومه حتى ابلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، وكانت احدى المغربات في الايام» (١)

كان اغتيال السلطان ابي يعقوب المريني على يد خصي من العبيد اسخطته بعض النزغات الملوكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه وطعنه بخنجر قطع امعاءه؛ وقد وقع ذلك يوم الاربعاء ٧ ذي القعدة ٧٠٦هـ(١٠ماي١٣٠٧م) فاختلفت بعده كلمة اصحابه وتشتت قومه حسب تشتت اغراض رؤسائهم فكان منهم من اعتصم بالفرار، ومنهم غير ذلك. فذهب يومئذ العناء عن آل زيان وقومهم وجميع سكان عاصمتهم فكأنما نشروا من اجداث، وكتبوا لها في سكتهم « ما اقرب فرج الله » استغرابا لحادثتها

ثم كان الصلح بين الدولتين، واعيدت لبني عبد الواد جميع البلاد والثغور التي احتلها المرينيون بالجزائر؛ واوصى ابو ثابت المريني بعدم التعرض لمدينة المنصورة بسوء؛ غير ان بني عبد الواد لم يكن ليستطيعوا تحمل رؤية شبحها المشؤوم فحطموها تحطيما

---

١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٦ـ٩٧

مقاومة القبائل المشاقـة

نشط السلطان ابوزيان الاول بمرافقة اخيه ابى حمو الى بسط نفوذ الدولة العبد الوادية على كامل الوطن الجزائرى بدون استثنـاء ؛ وكان اندفاعهـما من تلمسان يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة ٧٠٦هـ-٢٢ جوان ١٣٠٧م فحـلا بمواطن مغراوة من نواحي القطر الجزائرى الغربى ؛ فأجفلت بطون مغراوة يومئذ الى الصحراء ؛ فاستولى ابوزيان على ارجاء «شلف» وذلل قبائل توجين فانضوت بأجمعها تحت طاعته ؛ وأستمرت الحروب بين بنى عبد الواد وبنى راشد ، وما كانت لتنتهي الا لتتكرر وتسوء العلائق بينهما من جديد (١) ....

وعاد السلطان الى عاصمته فى رمضان ٧٠٧هـ-فيفرى ١٣٠٧م وفي نفس هذه السنة كان القـضاء على حـاضرة المنصورة التى اشادهـا المرينيون قرب تلمسان ، فطمسها بنو زيان ومحوا آثارها تفاديا من بقاء معالم العدو بينهم قائمة مرئية

وفي شهر شوال -مارس- من هذه السنة توفي السلطان ابو زيـان الاول اثر مرض لم يمهله اكثر من اسبوع فقط ، فدفن صبيحة يوم الاحد ٢١ شوال -٢٦ افريل - وبويع لاخيه ابى حمو الاول

□

---

١) راجع تفاصيل هذه الحوادث في تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص١٣٣و٣٣٠-٣٣١

ولاية السلطان ابى حمو الاول

هو السلطان ابو حمو بن السلطان ابى سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان، ولد سنة ٦٦٥هـ-١٢٦٦م وبويع بتلمسان يوم وفاة اخيه السلطان ابى زيان الاول : الاحد ٢١ شوال ٧٠٦هـ-٢٦ افريل ١٣٠٧م - وكان شجاعا شديدا في غير قساوة : لينا في غير ضعف ؛ حازما صارما؛ وهو اول من احدث فى هذه الدولة مراسيم الملك ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته Protocole

غارات ابي حمو وفتوحاته

كان اول ما افتتح به ابو حمو اعماله الادارية ان سعى فى مسالمة بنى مرين ومهادنتهم: ثم لما اطمأن على ملكه من الناحية الغربية اشتغل بتطهير الحواشي والجوانب المحيطة به فأخذ فى تذليل القبائل المنشقة عنه كمغراوة وتوجين ، فانتصر عليهم ولكنه لم يظفر بالامير المغراوى راشد بن محمد افراره ، ثم التفت نحو الشرق ، فبعث بجنوده اولا الى الزاب الجزائرى فاستولى عليه سنة ٧١٠هـ-١٣١٠م واذعنت لطاعته بلاد الجزائر الشرقية، فتقلص عنها ظل بنى ابى حفص ثم بعد سنتين خرج السلطان ابو حمو بنفسه متوجها نحو مدينة الجزائر، فاحتل بلدة تدلس -دلس- وخضع له اميرها ابن خلوف ؛ ثم تمكن من مدينة الجزائر فاقصى عنها حاكمها ابن علان بعد ما استبد بها مدة اربع عشرة سنة : ودوخ جبل ابى ثابت واشاد قصر «اصفون» في مدة لا تتجاوز اربعين يوما، وهو نفس مكان المدينة المعروفة اليوم بالساحل الشرقي الجزائرى باسم -ازفون- واقام به الحامية ثم تركه منصرفا الى غزواته

القضاء على أمارة الثعالبة بمتيجة

يذكر المؤرخون انه كان بسهول متيجة نحو الثلاثين مدينة وكلها كانت للثعالبة الذين هم من عرب المعقل؛ وكان موقف هؤلاء السياسى دائما فى جانب المرينيين ضد بنى عبد الواد ، ولا سيما ايام الحصار الشديد الذى ضربه السلطان ابو يوسف يعقوب على تلمسان، وقد لاحظ ذلك منهم بنو عبد الواد فكاتموهم العداوة مصانعة الى ان حانت لهم الفرصة فى هذه المرة وطعن سلطان مرين وارتفع الحصار واسترد الزيانيون مملكتهم الجزائرية فجهز يومئذ السلطان ابو حمو الاول عساكره بقيادة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن ووجههم الى متيجة فانقضوا على الثعالبة فخربوا قصورهم وحطموا ديارهم وقضوا على اكثريتهم ، ولم ينجو منهم يومئذ في هذه الوقعة سوى نفر قليل التجأ الى احلافه بنى مرين بالمغرب الاقصى ، ومنهم من ذهب الى الصحراء ومنهم من اقام بجبال وانشريس؛ ثم حاصر الجيش العبد الوادى مدينة بجاية وضيق على صاحبها يومئذ ابى زكرياء الاوسط حليف مرين

اغارة بنى مرين وثورة الاعراب

اشتعل المغرب الاوسط في هذه الآونة نارا بسبب مهاجمة مرين على مراكز اعدائهم وخصومهم الملتجئين الى تلمسان المحتمين بملوكها ، فنزل السلطان ابو سعيد المرينى مدينة وجدة واكتسح بسائط تلمسان، فالتجأ بنو زيان يومئذ فى صرفه عنهم الى استعمال الحيلة والدهاء، ثم كان اندلاع الثورة من البربر والاعراب فعمت الفتنة جميع اعمال وهران، فانبرى لاطفائها يومئذ السلطان ابو حمو الاول ونزل بوادى «نهل» من شلف وهناك ابتنى قصره المعروف الى اليوم باسمه «حمو موسى» قبل ان تحرفه العامة الى –عمى موسى– وهو بالجنوب الشرقى من موقع «عين كرمان» ، ويومئذ فر امامه راس الثوار راشد بن محمد المغراوى فذهب الى بلاد القبائل ؛ فأمر ابو حمو بغزوها ايضا ، فاحتلتها جيوشه ودخلت بجاية فجاست هنالك خلال الديار ،

واشيدت هنالك يومئذ مدينة «آقبو» الباقية الى اليوم واذعنت جميع تلك النواحى لبنى زيان ، ثم وقعت بقبضتهم مدينة المدية ومليانة سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)

وفى هذا العهد اخـذ الضعف يسرى في عروق القبيلة الجزائرية العتيدة : زناتة ، فابتدرها الهرم الذى هو سنة الكون في الكائنات افرادا وجماعات، وحلت محلها الجاليات العربية المهاجرة

مصرع السلطان ابي حمو الاول

لقد عملت عوامل الغيرة والانفة اعمالها في الامير ابى تاشفين بسبب ما كان عليه والده ابو حمو من تقديم ابن اخيه ابى السرحان عليه وتدنية مجلسه منه، بل وكثيرا ما كان يظهر ذلك امام ولده ابى تاشفين فيستشير ابا السرحان ويحادثه في شؤون الدولة واعمالها وابو تاشفين جالس بدون ان يلتفت اليـه ؛ فاستنكف ابو تاشفين لهذه الاهانة واغتاظ لذلك فسخط على والده ودبر له مكيدة ذهب السلطان ضحيتها فاغتاله بعض العلوج بقصره يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الاولى سنة ٧١٨هـ(٢٢جوان ١٣١٨م) وتملك بعده ولده ابو شفين

□

ولاية السلطان ابى تاشفين عبد الرحمن الاول

هـو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن بن السلطان ابى حمو الاول ؛ ولد سنة ٦٩٢هـ(١٢٩٣م) وبويع صبيحة الغـد من يوم اغتيـال والده : الخميس٢٣ جمـادى الاولى ٧١٨هـ(٢٣جوان ١٣١٨م)

عرف ابوتاشفين بين ملوك هذه الدولة بميله الشديد وتعلقه بالفنون الجميلة ولا سيما فن المعمار فان له به شغفا كبيرا فأشاد الدور والقصور، مع ما كان عليه من الامعان فى الهو والقصف ؛ ولم يكن هذا كله ليمنعه من التحمل بأعبـاء الدولة والقيام بمهامها احسن قيام

ولما كان توليه الملك على الصفة المرعبة المتقدمة، اشتد به الحذر وخشى من الفتك به فأسرع بابعاد جميع قرابته وذويه من ابنـاء يغمراسن عن حاضرة ملكه وبعث بهم الى الاندلس ، واعتقل عمه السعيد بن عثمان عنده لهذا الغرض نفسه فأبقاه بالسجن الى ان هلك فيه

القضاء على سلطة مغراوة

كان كلما تولى احد من ملوك بنى زيان الا وجعل همه الوحيد القضاء على سلطة مغراوة ، تلك القبيلة المناهضة لسلطان بنى عبد الواد ، وسـار ابو تاشفين الاول على خطة اسلافه من ملوك بنى زيان ، فكان اول ما قـام به من الاعمال ان اغار على هـذه القبـيلة المنشقة سنـة ٧١٩هـ (١٣١٩م) وحاصرهـا فى ربوة «تاوكالال» من جبل وانشريس وشدد عليها الخناق فانقطعت عنها جميع المواصلات ونفدت الميرة حتى لم يبق هنالك عندهم ما يسد به الرمق فانتشرت المجاعة بتلك الارجاء ثمانية ايام وفر زعماء مغراوة من الميدان فاقتحم ابو تاشفين البلاد واخذ رئيسهم محمد بن يوسف المغراوى فقتله، ثم نازل بجاية ومنها عاد الى مركزه

فتح اعمال قسنطينة وبجاية

ما كان ليغفل بنو عبد الواد او يتناسوا تلك الحملة الشنعاء التي شنهـا عليهم الحفصيون على عهد ابى زكرياء الاول سنة ٦٣٩هـ (١٢٤٢م) ، وما كانوا كذلك لتجاوزوا عن انكسار مؤسس دولتهم السلطان يغمراسن وانهزامه امام هذه الغارة الحفصية ، فمكثوا فى انتظار الفرصة ليثأروا من خصمهم حتى ايـام ابى تاشفين الاول هذا حيث حدث اضطراب بين سكان اعمال قسنطينة تقوضت منـه اركان الدولة الحفصية ، فخف لذلك سلطان بنى زيان وبعث بطائفة من الجند لاستطلاع احوال التخوم الشرقية وهو بذلك —فى آن واحد— يختبر قوات الخصم الحربية المقيمة بالحدود ، فذهبت الطليعة الزيانية الى غرضها ثم عادت بالظفر والغنيمة

ويومئذ نهض ابو تاشفين ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) فأوقع بأهـل قسنطينة وحاصر بجاية مرتين ؛ ثم تعددت الوقائع بين بني ابي حفص والزيانيين الى ان كان النصر فيها لبني زيان سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) ، فأقاموا لذلك «قصر بكر» ببجاية كذكرى لهذا الانتصار الباهر الذي عم القطر الجزائري ، وخلص يومئذ ابو يحيى ابو بكر الثاني الحفصي الى مدينة بونة جريحا ؛ ثم كان بعد ذلك بسنة الدولة استيلاء العبد الوادية على تونس

ظهور الدعوة الموحدية بوهران

نهض ابراهيم بن عبد الملك الكوفي الثائر بجبال «ترارة» من مركزه سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) متظاهرا باعادة عودة الموحدين واقامتها بالغرب الاوسط ، فاستولى على الساحل الوهراني واحتل فرضة هنين وندرومة وحاصر مدينة وهران وكان بها يومئذ عبو بن سعيد بن اجانا واليا عليها من قبل الدولة الزيانية ، وجاءت الحامية من تلمسان لرد حملة الثائر ابراهيم فاخفقت وسقطت وهران بيده ، فأقام بها الدعوة الموحدية الى ان اغار عليها الزعيم ابو ثابت وفتحها عنوة في جمادى الاولى سنة ٧٥٠هـ (جوليبط ١٣٤٩م) وقضى على دعوة الكوفي بها وعفا عن اهلها ثم عاد الى مركزه

نهاية الدور الزياني الاول

لقد كان لانهزام الدولة الحفصية امام قوات الزيانيين سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) اثر شديد ووقع كبير في نفوس الحفصيين فاستظهروا يومئذ بالسلطان ابي سعيد المريني وتوسلوا به لاسترجاع مملكتهم من بني عبد الواد فاستشفع لهم هذا السلطان في ذلك لدى بلاط بني زيان فلم ينجح ؛ ثم لما تولى ولده من بعده ابو الحسن —صهر بني ابي حفص— اعاد عليه الحفصيون اقتراحهم في التوسط لدى ملوك بني زيان في التخلي لهم عن المملكة الشرقية ففعل ابو الحسن مثل والده وقام بعرض القضية على ملوك تلمسان فاخفق في وساطته هذه ايضا ؛ ويومئذ نشأت —او قل تجددت— العداوة

والبغضاء بين بني مرين وبني عبد الواد ، واخذ ابوالحسن فى الاستعداد للغزو ، وجاء الاسطول المريني غازيا سواحل تلمسان ومدافعا عن احواض بجاية ؛ ونهض ابوالحسن اواسط سنة ٧٣٥هـ(١٣٣٥م) مغيرا على المغرب الاوسط فاحتل ندرومة وهنين — فرضة تلمسان — ونزل اتسالة — بالقرب من سيدى بلعباس — وفتح وهران ومليانة وتنس والجزائر ومثلها النواحي الشرقية ، ثم نزل بالمنصورة يوم ١١ شوال — ٤ جوان — من هذه السنة ، وادار نطاق الحصار على تلمسان فاحتلها يوم الاربعاء ٢٧ رمضان ٧٣٧هـ(٢٩ افريل ١٣٣٧م) وخرج منها يومئذ ابوتاشفين فى حاشيته وابنائه مدافعا بنفسه عن حرمه ؛ ولزم الجميع مكانهم فى الدفاع الى ان استشهد جميعهم فى الميدان وبقى ابوتاشفين منفردا فألقى عليه القبض ثم قتل يوم ٣٠ رمضان — ٢ ماى — بأمر الامير عبد الرحمن بن السلطان ابى الحسن المريني ؛ فكان ذلك آخر العهد بالدور الاول من ملك بني زيان ، وعادت الجزائر الى سيادة بني مرين وطاعتهم

ملوك الدولة الزيانية

– فى الدور الاول –

	تاريخ التولية
ابويحيى يغمراسن بن زيان	٦٣٣هـ ١٢٣٦م
ابوسعيد عثمان بن يغمراسن	٦٨١هـ ١٢٨٣م
ابوزيان محمد (الاول) بن عثمان	٧٠٣هـ ١٣٠٤م
ابوحمو موسى (الاول) بن عثمان	٧٠٧هـ ١٣٠٨م
ابوتاشفين عبدالرحمن (الاول) بن موسى	٧١٨هـ ١٣١٨م

مشاهير الجزائريين

الاخوان ابنا الامام { ابوزيد عبدالرحمن ٧٤١ﻫ ١٣٤٠م
ابوموسى عيسى ٧٤٩ﻫ ١٣٤٩م }

للامام محمد بن عبد الله التلمساني ابنان ، هما ابوزيد عبد الرحمن وابوموسى عيسى، اجمع علماء التاريخ والسير والتراجم بالمغرب العربى بانه لم يكن فى زمنهما اعظم رتبة ولا اعلم منهما ، واكبرهما ابوزيد عبد الرحمن، كلاهما اشتهر بالامامة والرئاسة فى العلم ورسوخ القدم فيه وكلاهما نشأ بمدينة برشك (١) بالساحل الغربى الجزائرى ما بين مدينة شرشال وتنس ، حيث كان والدهما اماما باحد مساجد هذه المدينة فاشتهرا يومئذ بهذه النسبة وعرفا بها

ولما استولى زيرى بن حماد المكلاتي المعروف بزيرم على مدينة برشك واستبد بها سنة ٦٨٣ﻫ ١٢٨٤م رمى امام المدينة وهو والد الاخوين العالمين بتهمة احتوائه على وديعة مالية لبعض اعداء زيرم وطالبه بها فامتنع الامام فقتله زيرم غيلة، ويومئذ تكدر الجو واكفهرت الدنيا بعين الاخوين فحزنا لذلك وارتحلا فى اواخر القرن السابع الهجرى الى تونس حيث لقيا هنالك الاجلة من علمائها كابن القطان وابن جماعة والمرجانى الخ... كما اجتمعا بفاس بالشيخ السطى والطنجى واليفرنى وتلاميذ ابن زيتون واصحاب ابى عبد الله بن شعيب الدكالى وغيرهم

وبعد ان انهى الاخوان رحلتهما العلمية بالمغرب العربى وانتهيا من الطواف بمجامع العلم واندية الادباء توجها الى بلدهما ومسقط راسهما برشك ، فلما

١) ضبطها ابن خلدون بقلمه بفتح الباء الموحدة وكسر الراء وسكون الشين

بلغا اليها امتنعت عليهما لحلول زيرم المستبد بها، فانصرفا عنها الى مدينة الجزائر فأقاما فيها يبثان العلم وينشران ما طوى بها من معالمه، وكان السلطان ابو يعقوب يوسف المريني يومئذ محاصرا لتلمسان ذلك الحصار الطويل الشهير، وانتشرت جنوده مستحوذة على اكثر عواصم القطر الجزائري وامصاره، فارتحل الاخوان من مدينة الجزائر الى مليانة عاصمة مغراوة وكان بها الكاتب منديل بن محمد الكناني ضابط جباية مرين، فعرف منزلتهما وعلو كعبهما فى العلم فاصطفاهما وقربهما منه واتخذهما لتعليم ولده محمد، ثم استعملهما على خطة القضاء بمليانة

وبعد مهلك السلطان ابى يعقوب المريني وتأكد الصلح بين بنى مرين وبنى عبد الواد وارتفع الحصار عن تلمسان انتقل الاخوان صحبة الكناني المذكور وحلا بتلمسان فاتصلا بالسلطان ابى حمو موسى الاول فاغتبط بهما وابتنا لهما مدرسة بناحية المطهر كما يقول ابن خلدون، - او داخل باب كشوط كما عند ابن ابى مريم - وجعل لهما فيها ايوانين معدين للتدريس، وابتنى لهما بجانب المدرسة دارين للسكنى، واختصهما بالفتوى والشورى وضمهما الى خاصته واعيان مجلسه، فاقاما هنالك ملحوظين ممتازين بين اهل العلم والفضل

ولما انتصر ابو حمو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته الآفاق توجس منه خيفة زيرم المكلاتي فخطب مودته وامل منه الامان لنفسه ونزل له عن ولايته، وكان ابو زيد عبد الرحمن بن الامام هو سفير السلطان الى زيرم ببرشك، وكانت بينهما طائلة كما ذكرناه فاستأذن السلطان فى اخذ ثأره منه فأذن له، واخذ ابوزيد يومئذ فى التردد على زيرم ببرشك حتى تمكن منه فثار منه بأبيه القتيل، وكان ذلك سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) وصار امر برشك يومئذ لبنى زيان

استمر الاخوان العالمان على صحبتهما لابى حمو الاول بتلمسان الى وفاته فقربهما اليه يومئذ ولده السلطان ابو تاشفين الاول فلازما مجلسه مدة سنتين ثم غادراه

الى المشرق ، سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) وهناك اجتمعنا بأكابر العلماء كالشيخ علاء الدين القونوى الذى كان يقال عنه انه لا نظير له فى العلم فى عصره ، واخذا عن الجلال القزوينى صاحب التلخيص في البلاغة ، وسمعا صحيح البخارى عن الشيخ الحجار ، واجتمعا هنالك بشيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية فناظراه وظهرا عليه ، فكان ذلك مما زاد فى محنة الشيخ

عاد ابنا الامام من المشرق وقد طار صيتهما فى الآفاق واشتهرا بالتبحر فى العلم حتى صارا يعرفان بالامامة والاجتهاد المطلق والتفرد بالرئاسة، فانهال يومئذ عليهما الطلبة من كل حدب وصوب ، وكثر المنتسبون اليهما واللائذون بهما والآخذون عنهما حتى غصت رحاب مجالسهما العلمية بالطلبة ، فتخرج عليهما اعلام منهم العلامة الشريف التلمسانى والعلامة الخطيب ابن مرزوق –الجد– والامام المقرى جد صاحب النفح ، وابوعثمان العقبانى ، وابوعبد الله اليحصبى فى جماعة كثيرة ممن اخترقت شهرتهم الآفاق

عاش ابنا الامام يومئذ في كنف السلطان ابىتاشفين الاول مبالغا في اكرامهما وتقديرهما فلازماه في قصره الى آخر نفسحيث استشهد في وقعة سقوط تلمسان بيد المرينيين سنة ٧٣٧هـ - ١٣٣٧م

وبعد ان استولى السلطان ابو الحسن المرينى على تلمسان جاء بابنى الامام الى قصره وازدادت حضوتهما عنده حتىكاد لا يفارقهما البته، واحضرهما معه وقعة طريف بالاندلس آخر سنة ٧٤٠هـ–١٣٤٠م

ورغم كل هذا التفوق العلمى وبعد الصيت ، فانه لم يبلغنا عن مؤلفاتهما شىء سوى ما اشار اليه أصحاب التراجم من شرح ابى زيد عبد الرحمن على مختصر ابن الحاجب الفرعى ، ويقول ابن فرحون ان لهما التصانيف المفيدة ؛ ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التى مني بها المغرب العربى يومئذ !؟...

ويذكر اهل السير ان ابا زيد عبد الرحمن اورع من اخيه موسى وانه كان يمتاز عليه بالخشية ، فقد حكي عنه ابوالفضل بن ابى مدين الكاتب وقد رآه يوما بباب السلطان ينتظر خروجه فسأله عن حاله ، فأجابه بقوله : اما الآن فأنا مشرك !.... فقال الكاتب : اعيذك من ذلك !... فقال الشيخ : لم ارد الشرك فى التوحيد ، لكن فى التعظيم والمراقبة ، والا فأى شىء جلوسى هاهنا ؟...

وكانت وفاة ابى زيد فى العشر الاوسط من رمضان سنة ٧٤١هـ-اوائل مارس ١٣٤٠م ودفن ببلدته برشك ، وبفقده ازداد مقام اخيه رفعة عند السلطان ابي الحسن، فعاش فى اكنافه عزيز الجانب مكرما الى ان شغل السلطان بحوادث تونس والقيروان فسرحه الى بلده فذهب اليها واقام بها قليلا فوافاه اجله فى الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ – ١٣٤٩م رحمهما الله ، ويذكر ابن خلدون ان الشيخين اعقابا بقوافى تلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ومتوقلين قللها طبقا عن طبق الى هذا العهد .

محمد بن ابراهيم الآبلي

٧٥٧هـ - ١٣٥٦م

هو ابوعبد الله محمد ابراهيم بن احمد الآبلي ، اصله من مدينة آبلة بالشمال الغربي لمقاطعة مجريط من بلاد الاندلس ، اجاز ابوه وعمه احمد الى تلمسان فاستخدمهما السلطان ابويحيى يغمراسن بن زيان فى الجندية فكان ابوه قائدا بهنين -مرفأ تلمسان-

اصهر والده ابراهيم الى ابى الحسن محمد بن غلبون المرسى قاضى تلمسان في بنته فأنجبت له مترجمنا محمدا

ولد المترجم بتلمسان سنة ٦٨١هـ-١٢٨٢م وبها نشأ في كفالة جده القاضى فحبب اليه العلم ورغب فيه معرضا عن الجندية التى كان عليها والده ، فبرع في فنون الحكمة والتعاليم واشتغل بالمعقولات فكان فيها احد زمانه وعالم عصره واوانه وعكف الناس عليه في تعلمها وهو لا يزال في سن المراهقة

اخذ الاصلين والمنطق عن ابي موسى ابن الامام وعن جده القاضى وقرأ على ابي الحسن التنسى . ولما امتلك يوسف بن يعقوب تلمسان استخدمه فكره ذلك وسافر الى الحج آخر القرن السابع الهجرى فدخل مصر والعراق ولم يتح له القدر الانتفاع بعلماء المشرق لمرض لازمه فى سفره فعاد الى بلده تلمسان، وكان السلطان ابوحمو الاول قد استفحل ملكه وقد بلغه عن الآبلى تقدمه في علم الحساب فدفعه الى ضبط امواله ومشارفة عماله ، فتفادى منها الشيخ ، فأكرهه السلطان على العمل فى قيادة بنى راشد من كور بلده فشمخ الآبلي بأنفه وربأ بنفسه من ان يسخر عمله في خدمة الحكومة والمشى في ركابها ، فأعمل الحيلة في الفرار ولحق بفاس في حدود سنة عشر وسبعمائة للهجرة مختفيا عند شيخ التعاليم بها خلوف المغيلى اليهودي فاستكمل عليه فنونه الحكمية ، ثم دخل مراكش فلازم العلامة الامام

ابا العباس احمد بن البناء ، فكرع يومئذ من علومه على اختلاف انواعها، واستدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترميت للقراءة عليه فصعد اليه الشيخ واقام عنده مدة انتفع فيها ونفع وكثر حوله الطلبة واجمع الناس على محبته وتعظيمه وامتثال امره واطاعته

ثم نزل الشيخ مدينة فاس وبهـا انتشر ذكره وذاع صيته وفضله وصار يعرف بعالم الدنيا .... وينعت بأعلم خلق الله فى فنون المعقول .... ويذكره اهل التراجم بقولهم : المجمع على امامته .... الخ... ويومئذ انثال عليه طلبة العلم من كل جهة وصوب فكثر الانتفاع به وعم نفعه البلاد

ولما فتح السلطان ابوالحسن المرينى مدينة تلمسان ولقى بها العلامة موسى بن الامام ذكره له الآبلي واثنى على علمه وفضله ووصفه بالتقدم على اقرانه في العلوم وذكره بأطيب الذكر فظمه يومئذ ابوالحسن الى مجلسه ونظمه في سلك طبقة العلماء، وعكف الشيخ حينئذ على التدريس ومصاحبة السلطان وحضر معه وقعتى طريف والقيروان، وفي هذه المرة كان اتصال اهل تونس بالشيخ وتيسر لهم الانتفاع به

ثم طلبه السلطان ابوعنان من صاحب تونس فجاء الشيخ الى بجاية مكث بها نحو شهر أخذ عليه طلبتها كتاب مختصر ابن الحاجب في الاصول ثم التحق بابي عنان في تلمسان فنظمه في طبقة العلماء وجعله من اشياخه

ولكثرة تلاميذته قال يحيى بن خلدون وهو احدهم : انى لا اعرف بالمغرب وافريقية فقيها كبيرا الا وله عليه مشيخة . ومن اشهر تلامذته السلطان ابوعنان ـ والمؤرخ الكبير ابن خلدون ـ واخوه يحيى ـ وابن الصباغ المكناسي ـ والشريف التلمساني ـ والشريف الرهوني ـ وابن مرزوق الجد ـ وابوعثمان العقباني ـ وابن عرفة ـ والولى بن عباد في آخرين لا يعدون كثرة ، اما تآليفه فلم يرو لنا التاريخ عنها شيئا؟.. الا انه كان يقول : انما افسد العلم كثرة التآليف واذهبه بنيان المدارس

ومن كلامه المأثور قوله رحمه الله : لولا انقطاع الوحى لنزل فينا اكثر مما نزل فى بنى اسرائيل، لاننا اتينا اكثر مما أتوا.

وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس فى ذى القعدة سنة ٧٥٧هـ (اكتوبر ١٣٥٦م)

محمد بن خميس

٧٠٨هـ (١٣٠٩م)

هو ابوعبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني ، منتماه الى حجر ذى رعين ابى قبيلة من اليمن ولد رحمه الله سنة ٦٥٠هـ -١٢٥٢م ولم يلبث ان نبغ واشتهر بين قومه بالعلم والادب والزهد وبعد الهمة ، فكان اوحد زمانه وعالم قطره واوانه ، عارفا بفنون الفلسفة والحكمة والنجامة والسيمياء مؤرخا مطلعا على اخبار الفرق والطوائف على اختلاف مللها ونحلها، كاتبا بليغا وشاعرا مفلقا وكان لغزارة علمه يوصف بين اهل العلم بشيخ الادباء

قال عنه ابن خلدون «كان لا يجارى في البلاغة والشعر» وقال ابن الخطيب في «عائد الصلة» : كان رحمه الله نسيج وحده زهدا وانقباضا وادبا وهمة ، حسن الشيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيدا عن الرياء والهوى، عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة ، مضطلعا بتفاريق النحل ، قائما على العربية والاصلين ، طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الاوان في المطول ، اقدر الناس على اجتلاب الغريب . وقال ابن خاتمة : «كان رحمه الله من فحول الشعراء واعلام البلغاء ؛ يصرف العويص ويرتكب مستصعبات القوافي ويطير في القريض مطار ذوى القوادم الباسقة والخوافي . وقل في مدحه ابو بكر بن خطاب من ابيات

لك فى البلاغة والفصاحة بعض ما ... تحويه من اثر محل رسيس
نظم ونثر لاتجارى فيهما ... عززت ذاك وذا بعلم الطوسى

ويعنى الشاعر بالطوسى هنا الامام ابا حامد الغزالى ، وذاك لمكانة ابن خميس وتضلعه من الفلسفة والتصوف

حدث عنه ابن خاتمة فى كتابه «مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية» فقال انه علاوة على علمه وفضله : كان صنع اليدين حاذقا ماهرا فيما يصنعه بيده، فلقد صنع قدحا من الشمع ابدع في شكله ولطافة جوهره واتقان صنعته، وكتب بدائر شفته ما يلى حاكيا لسان حال القدح :

وما كنت الا زهرة في حديقة   تبسم عنى ضاحكات الكمائم
تنقلت من طور لطور فها انا   اقبل افواه الملوك الاعاظم

قال واهداه الى صديقه ابى عبد الله بن الحكيم وزير ملك غرناطة محمد الثالث وذلك ايام اقامة ابن خميس عنده فى آخر حياته

ولقد حل ابن خميس بغرناطة اواخر سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) بعد ما تجول وطاف اقطار المغرب وجلس فيها لاقراء العربية فارتفع بها صيته ، ونبه ذكره، فضمه الوزير المذكور الى مجلسه وخصه بكرمه واحسانه

ومن شعره قوله رحمه الله مفتخرا بعروبته واسلاميته

انا بنى قحطان لم نخلق لغيـ   ـر غياث ملهوف ومنعة لاجي
نقرى طلا الاعراب فى الهيجا فى   اللاواء (نقريهم على منهاج)
بسيوفنا البيض اليمانية التى   طبعت لحز غلاصم ووداج
تأبى لنا الاحجام من اعدائنا   يوم اللقاء طهارة الامشاج
انصار دين الهاشمى وحزبه   وحماته فى الجحفل الرجراج
وحماته بنفوسهم ونفيسهم   من غدر مغتال وسورة هاج
هم صفوة الخلق التى اختيرت له   وسواهم همج من الاهماج
وكفى بحكمتنا اقامة حجة   وبركتنا من كعبة الحجاج

منا التبابعة الذين ببابهم	كانت تنيخ جباة كل خراج
ولامرهم كانت تدين ممالك الـ	ـدنيا بلا جبر ولا احراج
من يقتدح زندا فان زنادهم	فى الجود وارية بلا اخراج
ابوابهم مفتوحة لضيوفهم	ابدا بلا قفل ولا مزلاج

وكان السلطان ابوعنان المرينى كثير العناية بحفظ شعره ورواية اخباره، وحدث عنه يوما فقال :

اخبرني شيخنا الامام العالم العلامة وحيد زمانه ابوعبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني فقال : لما توجه الشيخ الصالح الشريف ابواسحاق التنسى التلمساني الى بلاد المشرق، اجتمع هناك بقاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم ابى عبد الله بن خميس ؟... وجعل يحليه بأحسن الاوصاف وبطنب في ذكر فضله، فبقي الشيخ ابواسحاق متعجبا !... وقال: من يكون هذا الذى حليتموه بهذا الحلى ولا اعرفه ببلده ؟.. فقال له ابن دقيق العيد هو القائل :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها	من ليس يأمل ان يمر ببالها

وتلا عليه القصيدة بطولها، وهى تحتوى على ست واربعين بيتا ؛ قال فقلت له ان هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التى وصفتم، انما هو عندنا شاعر فقط؛ فقال له : انكم لم تنصفوه، وانه لحقيق بما وصفناه به . قال ابو عنان واخبرنا شيخنا الآبلى المذكور ان ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلو موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها، ولقد تعرفت انه لما وصلت هذه القصيدة اليه لم يقراها حتى قام اجلالا لها !...

قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي ابوعبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي في جزء سماه «الدر النفيس» في شعر ابن خميس» وعرف به صدر الجزء

وكانت وفاته رحمه الله اغتيالا بغرناطة ضحوة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨هـ (١٤ مارس ١٣٠٩م) طعنه الرئيس على بن نصر الشهير بالابكم فأصماه وذلك اثر الانقلاب الحكومي الذى اودى بصديق ابن خميس الوزير ابن الحكيم

ومن غريب الاتفاق وعجائب الصدف ما يقال ان الوزير المذكور كان قد اقترح على ابن خميس نظم قصيدة هائية ، فنظم مطلعها

لمن المنازل لا يجيب هواها   محيت معالمها وصم صداها !...

وكان ذلك آخر شهر رمضان ، وما كادت شمس يوم العيد تذكو وتحسر قناعها الا وهما مقتولين رحمهما الله ؛ فكان هذا البيت آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد اشار معناه الى منعاه

جدول تاريخي

٦٣٣–٧٣٧هـ

١٢٣٦–١٣٣٧م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٦٣٣هـ١٢٣٦م	تأسيس دولة بنى عبد الواد الزيانية
٦٤٠هـ١٢٤٢م	اغارة الحفصيين على تلمسان ومصالحتهم لبنى زيان
٦٤٥هـ١٢٤٧م	انهزام الموحدين فى زحفهم الى تلمسان
٦٥٥هـ١٢٥٧م	انهزام يغمراسن بن زيان فى وقعة ابي سليط
٦٥٦هـ١٢٥٨م	خيبة يغمراسن فى نهضته الى المغرب الاقصى
٦٦٢هـ١٢٦٤م	حادثة غدر فرقة الجيش الافرنجي بالسلطان ومبايعة اهل سجلماسة
٦٦٦هـ١٢٦٧م	انهزام بني عبد الواد فى وقعة وادى تلاغ
٦٦٨هـ١٢٧٠م	فتح مدينة مليانة عاصمة مغراوة
٦٧٠هـ١٢٧١م	هزيمة وادى اسلى
٦٨١هـ١٢٨٣م	وفاة السلطان يغمراسن وولاية ابنه ابي سعيد عثمان
٦٨٦هـ١٢٨٧م	غزو بجاية وفتح مازونة وتفرجينت
٦٨٧هـ١٢٨٨م	الاستيلاء على جبال وانشريس
٦٨٨هـ١٢٨٩م	فتح مدينة تنس والمدية
٦٨٩هـ١٢٩٠م	ابتداء حصار المرينيين لتلمسان
٦٩٣هـ١٢٩٤م	حصار الزيانيين لمدينة برشك وفتحها
٦٩٨هـ١٢٩٩م	محاصرة بني مرين لتلمسان واشادة «المنصورة»
٧٠٣هـ١٣٠٤م	وفاة السلطان ابى سعيد عثمان وولاية ولده ابى زيان محمد الاول

٨٠٦هـ١٣٠٧م	اغتيال السلطان ابى يعقوب المريني، وارتفاع الحصار عن مدينة تلمسان ؛ ومناهضة القبائل المنشقة ؛ ووفاة السلطان ابى زيان محمد الاول وولاية اخيه ابى حمو الاول
٧٠٧هـ١٣٠٨م	طمس معالم مدينة «المنصورة»
٧١٠هـ١٣١٠م	فتح اعمال الزاب وتخطيط مدينة اصفون ـ ازفون ـ بالساحل الشرقي من مدينة دلس
٧١٢هـ١٣١٢م	امتلاك تدلس ـ دلس ـ ومدينة الجزائر وسهل شلف
٧١٤هـ١٣١٤م	رد هجمات بني مرين عن الجزائر وبناء قصر حمو موسى ـ عمي موسى ـ بالجنوب الشرقي من عين كرمان ؛ وانشاء مدينة آقبو
٧١٧هـ١٣١٧م	امتلاك مدينتي المدية ومليانة
٧١٨هـ١٣١٨م	مصرع السلطان ابى حمو الاول وولاية ولده ابي تاشفين الاول
٧١٩هـ١٣١٩م	القضاء على قبيلة مغراوة
٧٢٠هـ١٣٢٠م	طلائع بني زيان بأعمال قسنطينة
٧٢٩هـ١٣٢٨م	الاستيلاء على شرق القطر الجزائرى وتونس
٧٣٧هـ١٣٣٧م	انتهاء الدور الزياني الاول باستيلاء السلطان ابى الحسن المرينى على تلمسان

سيادة بني مرين

٧٣٧ - ٧٦٠هـ

١٣٣٧ - ١٣٥٩م

اعاد المرينيون فى هذه المرة كرتهم على شرقى المغرب الاسلامى كله، واستولوا عليه برهة من الزمن ولم تطل ايامهم بالمغرب الاوسط اكثر من ثلاث وعشرين سنة؛ ولقد حقق المؤرخون ان استيلاءهم فى هذه المرة كان فى صالح الوطن الجزائرى ماديا وادبيا وانهم لم يعملوا يومئذ على تقويض كيان الشخصية الجزائرية كما فعلوا اول مرة بل حافظوا على جميع مظاهرها ونظمها ومقوماتها وسائر مراسيم الدولة الناشئة بها مع مسايرة رؤساء القبائل والمشيخة غير ان ذلك كله لم يكن ليرضى دولة بني عبد الواد الجزائرية الحرة الابية ، فسكنت مرغمة وكلما سنحت لها فرصة المقاومة نشطت لها

نهضة بني عبد الواد

ولما استقر شأن المغربين الاوسط والاقصى لبنى مرين حاولوا فتح القطر التونسى ليتم لهم الاستيلاء على المغرب العربي بتمامه ؛ فنهض لذلك سلطانهم ابو الحسن المرينى فى صفر سنة ٧٤٨هـ (ماى ١٣٤٧م) واتخذ معه جنودا من بني عبد الواد ومغراوة وتوجين، فاحتل بهم قسنطينة واعمالها ، وبينما هو سائر في طريقه الى تونس اذا انعزلت عنه جيوش المغرب الاوسط وتركته فى قومه ذاهبا الى الحرب فانهزم فى وقعة القيروان المشهورة فى المحرم ٧٤٩هـ (افريل ١٣٤٨م) فاستثمر بنو عبد الواد يومئذ انهزام اعدائهم بني مرين وبادروا بمبايعة ابى سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن ، واهدروا كل ما كان بينهم وبين مغراوة وتوجين من دفائن الضغائن والاحقاد وارتحلوا باجمعهم نحو اوطانهم بالمغرب الاوسط ، وكانوا يومئذ في نحو الخمسمائة فارس ،

ولقد انضم اليهم فى ممرهم على بجاية نحو هذا العدد نفسه من الناقمين على سياسة مرين؛ ورغم كل ما بذله يومئذ المرينيون فى رد هؤلاء المنشقين الى الطاعة فانهم لم ينجحوا فى ذلك، واستمرت الحملة الجزائرية سائرة فى طريقها موفقة منتصرة الى ان بلغت سهول شلف فذهب المغراويون الى اوطانهم، وانسلت عنهم توجين كذلك منحازة الى مراكزها، وانفرد بنوعبد الواد بحمل راية المقاومة فشنوا غارتهم الشعواء على تلمسان المحتلة ففتحوها عشية يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الثانية -١٨ سبتمبر- من نفس هذه السنة، وقضوا على عاملها المرينى ابن الجرار، وتوزع عندئذ الاخوان: ابوسعيد وابوثابت السلطة بينهما واقتسما ادارة الحكومة العليا، فاستقل ابوسعيد بالادارة المدنية، وجعل لاخيه النفوذ المطلق فى ادارته العسكرية

وسرعان ما نهض ابوثابت مضطلعا بمحاربة الثوار ومقاومة المنشقين عن الدولة من فصائل مغراوة وغيرها، فاستعاد بذلك الى حكومته كلا من مدينة وهران وندرومة ومازونة ومواطن مغراوة وعاصمتهم مليانة، والمدية وتنس وبرشك وشرشال والجزائر وتدلس -دلس-؛ وكانت هنالك حروب طاحنة بنواحي وادى شلف ووادى ريهيو والعطاف وفحص حمزة، وطالما حاولت حكومة مرين اعتراض بنىعبد الواد ملحة فى دفع صولتهم عن مغراوة فلم تنجح

وما كاد يطمئن بنوعبد الواد الى هذا النصر الباهر حتى فاجأهم السلطان ابو عنان فارس المرينى آخر شهر ربيع الثانى ٧٥٣ﻫ (١٤ جوان ١٣٥٢م) بحملة عنيفة كان النصر فيها لبنى مرين بوقعة وادى القصب المشهورة وظفر القوم يومئذ بالامير ابىسعيد الزيانى فاعتقلوه ثم بعد اسبوع قتلوه، وحينئذ انتقل الميدان الحربى الى سهول متيجة واحواز الجزائر، ثم عادت الحرب الى سهل شلف، وهنالك انكسرت جيوش الامير ابي ثابت الزياني فخرج متنكرا الى مدينة الجزائر ثم حل ببجاية، وكان بصحبته يومئذ جماعة منهم ابوزيان ولد اخيه ابى سعيد، وموسى بن يوسف ووزيرهم يحيى بن داود، فاعترضهم قوم من زواوة فانزلوهم

عن خيلهم وانتهبوا اسلابهم وتركوهم حفاة عراة يسعون على الاقدام ، ويومئذ ظفر بهم اشياع بني مرين، فاعتقلوهم وجاؤا بالامير ابى ثابت ووزيره يحيى فأسلموهما الى سلطان بني مرين وكان وقتئذ حالا بالمدية فنقلهما الى تلمسان حيث قتلا معا هنالك، وبقى ابوزيان فى السجن

انبعاث الدولة الزيانية

رغم كل ما تقدم ذكره من الحروب والوقائع والانهزامات التى توالت على هذه الدولة الجزائرية فانه لم يقع خور ولا فشل فى صفوف ابنائها البررة الذين قد وطدوا عزمهم على استرجاع سيادتهم بهذه البلاد وفكها من ايدى مرين ؛ وكان استرجاع هذا المجد على يد احد افراد الاسرة الزيانية، وهو البطل المغوار ابو حمو موسى بن يوسف «الثانى»

كان ابو حمو هذا ملتجئا فى تونس منذ ايام حرب ٧٥٣ﻫ (١٣٥٢م) مستجيرا بالوزير الحاجب محمد بن تافراكين ؛ ولقد بعث ابوعنان المرينى الى هذا الوزير فى طلب ابى حمو فيمن معه من بطانته فأبى الوزير تسليمهم اليه وجاهر باجارتهم، ولما وقعت تونس بيد الدولة المرينية فى اواخر شعبان سنة ٧٥٨ﻫ (اوط ١٣٥٧م) خرج منها ابو حمو فى زمرة سلطانها ابى اسحاق ابراهيم الثانى الملقب بالمستنصر الى ناحية الجريد، ثم حل بكورة تبسة، ومنها تحرك فى طائفة من الدواودة وبنى عامر الى انقاذ قسنطينة من الاحتلال المريني؛ فامتنعت عنه، فاحتل مدينة ميلة فى شوال -سبتمبر- ثم قرية «بني ورا» من كور بجاية ، ومن هنالك دعى ابو حمو من طرف قومه لانقاذ تلمسان والجلوس على عرش آبائه الزيانيين، فتجهز لذلك مستعينا بالحفصيين مؤيدا بكل ما تدعو اليه الحرب من عتاد واسلحة وجند، فسار اذ ذاك ابو حمو بين جبلي عياض واوراس مصحرا فنزل الزاب ثم ريغ ووارجلان، ثم غرب الى جبل مصاب ثم الى وادى زرقون فنزل وادى يسر ثم سلك قنطرة وهران

وهو في ذلك كله يشن غاراته على بني مرين وانصارهم، وكانت له يومئذ وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه فبايعه العرب واذعنوا له ، واستولى حينئذ على نواحي تلمسان واطرافها، وبعد ما نازل العاصمة الزيانية مدة ثلاثة ايام اقتحمها في جموعه صبيحة اليوم الرابع : الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٧٦٠هـ (٧ فيفريي ١٣٥٩م) وكان دخوله الى المدينة من باب كشوط ، فتلقاه الولاة والرؤساء بالبيعة والتسليم عليه بالامارة؛ وفي وصف هذه الحرب يقول السلطان ابو حمو في قصيدته التي طالعها :

جرت ادمعي بين الرسوم الطواسم — لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها — واى خطاب للصلاد الصلادم

ومنها :

قطعت الفيافي بالقلاص وانما — تجاب الفلى بالخف او بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا — تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الاحقاد فيها هشاشة — مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوى بها الفلى — يرون المنايا بعض تلك الغنائم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد — لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى — نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال اغر محجل — مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر — ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش الوطيس تراهم — اسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة — وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لارض الزاب تذرف ادمعي — لتذكار اطلال الربوع الطواسم
وشبكت عشري فوق راسي فلم اجد — بها مخبرا غير الربى والمعالم
وجاوزتها ما بين هوج هجائن — رقاق الهوادى عاليات القوائم
وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها — ببلقعة قفر قفتها عزائمي

والقصيدة طويلة تحتوى على اثنين وتسعين بيتا (١) !

ثم انه ليس عندنا ما نسجله من حوادث هذه السنة مما يستحق الذكر سوى ذلك الزلزال الهائل الذى حطم مدينة الجزائر فى اليوم الثالث من شهر ربيع الثاني ٧٦٠هـ (٤ مارس ١٣٥٩م)

□

ولاية السلطان ابي حمو موسى «الثاني»

هو ابو حمو موسى «الثانى» بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ولد بالاندلس سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) وكانت نشأته بتلمسان آخذا بحظ وافر من علم وادب وسياسة وحزم وسداد وفروسية، وكان شاعرا مفلقا له القصائد الغراء الطويلة، فما كانت تمر ليلة من ليالى المولد النبوى الشريف الا ونظم فيها قصيدا جيدا فى الموضوع ؛ وهو مؤلف كتاب «واسطة السلوك فى سياسة الملوك» لخص فيه كتاب «سلوان المطالع» لابن ظفر وألحقه بفوائد كثيرة من عنده واورد فيه من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بنى مرين وغيرهم من مشائخ العرب وزعماء المغرب الخ... صنفه برسم ولده وولى عهده ابى تاشفين عبد الرحمن. والكتاب مطبوع بتونس سنة ١٢٧٩هـ

وكان رحمه الله شهما غيورا وبطلا باسلا ذا كرم ومروءة، لين العريكة كريم الاخلاق؛ يتبرع فى كل سنة على اهل الاندلس بالمال والخيل والزرع الكثير، ويرى ذلك كله من الجهاد فى سبيل الله تحريرا لارض الاندلس من ازمة الاسبان وكانت له مواقف شريفة فى انقاذ اهل الاندلس من الهلاك ؛ قال يحيى بن خلدون:

«وفي هذه السنة -يعنى سنة ٧٦٣هـ (١٣٦١)- وصل الى الباب العلى الفقيه الكاتب ابراهيم بن الحاج رسولا من الاندلس يطلب من امير المسلمين ايده الله ارفاد المسلمين بالاندلس واعانتهم على مجاورة عدو الله ورسوله حسبما جرت

---

١) راجع بغية الرواد، ج٢ ص ٣٠ - ٣٦

عادته بذلك، فوجه اليهم خمسين الف قدح من الزرع، وثلاثة آلاف من الذهب للكراء عليه في البحر، وكان ممن وصل معه الفقيه ابو محمد عبد العزيز بن على بن يشت فرفع لمولانا امير المسلمين ايده الله قصيدتين غراوين .... (١)

والسلطان ابو حمو «الثاني» هذا هو الذي امر باطلاق اقب «الدولة الزيانية» بعد انبعاثها بدل النسبة العبد الوادية، التي كانت اشتهرت بها قبل ذلك، واظهر ابهة الملك وصولة السلطان، فاستعادت الدولة يومئذ شبابها ومجدها المفقود

فتح مدينة وهران

كان من اوليات اعمال الفتح التي قام بها ابو حمو الثاني، ان بعث بوزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث الى فتح مدينة وهران وافتكاكها من بني مرين، فغزاها الوزير المذكور يوم ٢٨ ربيع الاول ٧٦٠هـ (٢٧ فيفريى ١٣٥٩) فانهزم ووقع اسيرا في قبضة قائد حامية مرين عامر بن ابراهيم بن ماسا، فبعث به بحرا الى المغرب الاقصى؛ وفي يوم الاثنين ١٣ شوال ٧٦٣هـ (٧ سبتمبر ١٣٦١م) اغار ابو حمو بنفسه على وهران فهدم اسوارها واستولى عليها

مقاطعات ومشاغبات بني مرين

ولما استوثق الامر للسلطان ابي حمو الثاني انضم اليه الزرد الى المريني عامل درعة وجاءه بقومه وثروته واحلافه العرب طائعا، فسخطت لذلك دولة مرين واخذت في شن غاراتها المتكررة على مملكة بني زيان الجزائرية واثارت العرب والبربر على سياسة ابي حمو وبالغت في مقاومته فأوعزت الى من نازعه الملك من اسرته فانتصر عليه ابو حمو اولا ثم قهرته مرين وهزمته منتصف سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م) واحتلت تلمسان يوم ثالث رجب — ٢٠ماي — وخرج منها يومئذ ابو حمو منتقما لدولته وشرفه فخرب مواطن كثيرة وحطم امصارا من بلاد المغرب الاقصى، فأحفظ

١) انظر بغية الرواد ج٢ ص ١١٤

ذلك السلطان ابا سالم المريني فأسرع بتولية ابن زيان محمد الفتى بن ابى سعيد عثمان بن ابى تاشفين الاول على تلمسان بعد ما امده بالاموال والعساكر واقامه هنالك حاجزا لابى حمو عن دخول تلمسان واغذ ابوسالم السير الى المغرب فأجفل امامه ابوحمو متفلتا الى تلمسان فاحتلها ويومئذ جاءته بيعة اهل الآفاق ، كأهل ندرومة ووجدة وهنين ومستغانم وتمزغران الخ ... وبعث من هنالك فى فتح وهران وتنس والمدية ومليانة ومتيجة ؛ وحوصرت الجزائر مرتين، وفى الثالثة تنازل عنها بنومرين فاحتلها ابوحمو فى اليوم الثامن من ذى القعدة ٧٦٢هـ (٧سبتمبر١٣٦١م) ثم تصالح الفريقان ، وفى السنة بعدها استولى ابوحمو على بلاد زواوة وقبض على ولاتها ورؤسائها الحفصيين ، ثم قاطمته مرين فى وقعة وادى سيق فى ذى الحجة ٧٦٥هـ (اوط ١٣٦٤م) فهزمها

التنافس على العرش

كان ابوزيان الفتى بن السلطان ابىسعيد عثمان الزيانى فى قبضة بنىمرين منذ انتصارهم على بنى عبد الواد في وقعة وادى القصب سنة ٧٥٣هـ(١٣٥٢م) المتقدمة الذكر، وفى هذه اللحظة ظهرت حاجتهم اليه ، فزينوا له منافسة ابىحمو ومزاحمته في الاستيلاء على العرش الزيانىوامدوه بالجندية واسباب الحرب، فاندفع ابوزيان من المغرب الاقصى سنة ٧٦٥هـ(١٣٦٤م) مغيرا على احواز ملوية، ثم حل بنواحى تلمسان وانحاء البطحاء وتعددت المعارك والوقائع هنالك بين الطرفين كان الظفر فيها لابى حمو وخاب ابو زيان وخابت معه آمال بنى مرين ثم عقب ابوحمو على خيبة خصومه هؤلاء بالاغارة على المغرب الاقصى فأثخن في اعدائه هنالك قتلا واسرا وعظمت نكايته في التخوم وثقلت وطأته على اهلها فصالحوه وانعقدت الهدنة بين الجانبين ؛ ثم كانت بعد ذلك حوادث وفتن اثارها ابو زيان على ابى حمو بدون طائل

وفى ربيع الثاني سنة ٧٦٦هـ (جانفيى ١٣٦٥م) كان حادث الزلزال الهائل بمدينة الجزائر فسقط من وقعه كثير من دور المدينة وقصورها ووقع من جرائه خراب عظيم ورض وتحطيم مات به عدد عظيم

وقعة بجاية وتبعاتها

بينما السلطان ابو حمو الثاني في يوم من ايام مسرته لاه باستعراض الجيش الزياني اذ وافاه الخبر بموت صهره الامير ابى عبد الله محمد بن يحيى الحفصى المقتول بيد ابن عمه ابى العباس احمد المتغلب على بجاية فى تاسع عشر شعبان ٧٦٧هـ (فاتح ماى ١٣٦٦م)؛ فتظاهر ابو حمو بامتعاضه من ذلك –مسرا حسوا في ارتغاء– وجمع حوله طوائف من زغبة العامرين والعطاف الخ... فزحف بهم في ذى الحجة –اوط– الى بجاية فنازلها اياما مشددا عليها الحصار، وهنالك اتصلت به وفود بسكرة والزاب فبايعوه، ويومئذ استنهض ابو العباس الحفصى ابازيان بن عثمان لمقاومة ابى حمو الثاني، وجعل معه قائد العسكر الحفصى بشيرا، وسرعان ما احتدمت الحرب واشتبكت المعارك وانتشر الارجاف فى معسكر ابى حمو بموت السلطان فأجفلت جنوده وذعر لذلك ابو حمو الثانى ونجا بنفسه ملتجئا الى مدينة الجزائر ومنها لحق بتلمسان، وخسر من الاثقال واحمال والعيال والكراع والسلاح ما لا يحيط به الوصف، وفي اثناء ذلك كان استيلاء ابى زيان على المدية ومليانة والجزائر، ومنحه يومئذ سالم بن ابراهيم رئيس الثعالبة سهول متيجة؛ وذلك لوحشة كانت بينه وبين ابى حمو الثاني، وتألب يومئذ كل من اهالى هذه البلاد ضد ابي حمو واشترك في هذه الحرب يومئذ اغلب القبائل والبطون الجزائرية، وكانوا فى ذلك فريقان : فريق مع ابى زيان وفريق مع ابى حمو، وكانت الحرب بينهما سجالا

اعتداء قراصنة الافرنج

كانت القرصنة العالمية يومئذ منتشرة بكامل طول هذا البحر وعرضه كما هي كذلك في غيره من البحار كما هو معروف، وكان من اشهر الامم يومئذ في ذالك واسبقهم الى هذا الميدان هم الاسبان والبرتقال والانكليز والفرنسيون؛ فاتفق ان هنالك مركبا اندلسيا كان يحمل هدايا وتحفا نفسية بعث بها احد ملوك بنى الاحمر النصريين الى ابى حمو الثاني؛ كما هى العادة جارية بين ملوك الجزائر والاندلس. وبينما المركب سائرا في طريقه الى مرسى هنين اذ انقض عليه قراصنة الافرنج فى الثامن من شهر ربيع الثاني ٧٦٨هـ (١٦ سبتمبر ١٣٦٦م) فأسروه ولم يسمحوا بمضيه الى هدفه حتى افتداه منهم السلطان ابوحمو بأمواله الخاصة نقدا

حصار مدينة الجزائر

نهض السلطان ابوحمو فى احلافه من العرب والبربر لمباغتة الثعالبة حلفاء مرين بالجزائر فدحرهم واخذ بمخنق مدينة الجزائر فامتنعت عليه، فعاد ومعه الثعالبة آخذا بهم طريق برشك وشرشال حتى بلغ بهم وادى شلف وهناك ألزمهم باستخلاص ما تخلفوا عنه في السنين الماضية من المغرم، ثم اتصل بحاضرة تلمسان وامر الجيش بالعودة الى غزو الجزائر وحصارها من جديد برا وبحرا

الزحف المريني على تلمسان

كنا المعنا فيما تقدم قريبا الى التجاء الزردالي مع عرب المعقل من سكان المغرب الاقصى الى حاضرة تلمسان، محتمين بسلطانها ابي حمو، فأعطاهم عهده وذمته وذلك لما وجد فيهم من العون والاستظهار بهم على اعدائه وخصومه المرينيين. فكان ذلك مما اسخط حكومة فاس؛ وكان مما زاد في اثارة غضبها على هذه الدولة هو مـا قام به ابو حمو الثـاني من اجلاء القبـائل المخالفة عليه كسويد وبني يعقوب من تلمسان الى المغرب الاقصى؛ فنهـض حينئذ السلطان ابو فارس عبد العـزيز المريني مطالبـا حكومة تلمسان بارجاع عرب المعقل وردهم اليه، فامتنع ابو حمو الثـاني ورفض طلبه، فتحرك ابو فارس من فاس مستنهضا معه جميع اهـل المغرب الاقصى من سوس الى صحراء درعة والى سبتة، وجاء في جحفل جرار فاحتل تلمسان يوم الاحد ٢٥ المحرم ٧٧٢هـ (اوت ١٣٧٠م) وخرج منها ابو حمو في قومه مستجيشا احلافه يتقرى المدن والقرى الجزائرية؛ وعمت الفتنة يومئذ جميـع بلاد المغرب الاوسط -الجزائر- واستمرت الحرب متأججة اكثر من عامين وضل ابو حمو متنقلا متشردا في البلاد الى وفاة ابي فارس المريني يوم ٢٢ ربيع الثـاني ٧٧٤هـ (اكتوبر ١٣٧٢م) فاهتبل اهل تلمسان هـذه الفرصة السانحة وانتقضوا على بني مرين وخفوا الى الانقضاض على السلطة المرينية المحتلة، وكان قائدهم في ذلك عطية بن موسى الركاب مولى ابي حمو، فبـادر السلطان يومئـذ الى العـودة الى عاصمته تلمسان فدخلها يوم ٢٤ جمادى الاولى -نوفمبر- من هذه السنة وشرع في القضاء على رؤوس الفتنة والمشاغبين عليه من عصاة القبائل فقضى وطره منهم؛ ويومئذ اشرك معه ولده ابا تاشفين في الحكم وجعل اليه النظر في كلتا ناحيتي الدولة السياسية والحربيـة وعقـد له بولاية العهد بعده، وذلك في منسلخ شهر شعبـان ٧٧٦هـ (فيفريي ١٣٧٥م)

مبايعة تدلس ، والمجاعة العامة

استمرت مدينة تدلس - داس - طيلة هذه المدة المتقدمة خاضعة لحكم الحفصيين الى ان استتب الامر الى ابي حمو الثاني وقويت شوكته فغزاها وفتحها عنوة يوم ٢٦ شعبان ٧٧٦هـ (٣١ جانفيى ١٣٧٥م) فبايعه اهلها بالبيعة العامة في تاسع رمضان - ١١ فيفريى - فعفا عنهم يومئذ واصفح

ويذكر المؤرخون ان هناك ريحا عاصفا هجوما عجت في هذه السنة على المغرب الاوسط فأهلكت الحرث والنسل واقتلعت كل شيء فانتشرت المجاعة بالجزائر حتى أكل الناس بعضهم بعضا !... ويومئذ تصدق السلطان بنصف جباية خزينة الدولة على الرعية وفتح ابواب خزائنه الخاصة للمحاويج ؛ وامر بجمع الفقراء والمساكين ومن لا مأوى لهم من الناس بالمارستانات والمحلات العمومية وقدر لهم فيها ارزاقهم حتى أنفرج عنهم الكرب وارتفعت المسغبة

عصيان ابي تاشفين واستشهاد ابي حمو «الثاني»

لم تفتر مرين عن العمل باجتهاد في تفريق كلمة آل زيان وتشتيت مملكتهم الجزائرية وذلك ببث بذور الشقاق والنزاع بين رؤساء الدولة وزعمائها وبالغت في التدخل في شؤون المملكة حتى كادت ان تحول بين المرء وقلبه وسعت في فصل ولي عهد المملكة ابي تاشفين عن والده السلطان ابي حمو الثاني وفعلا انتقض على ابيه آخر سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) وحاربه فاضطر ابو حمو يومئذ الى مغادرة عاصمته تلمسان والانتقال بعرشه الى مدينة الجزائر فاعترضه ولده وولى عده ابو تاشفين والقى به في سجن وهران ؛ وخرج في طلب اخوته فامتنع عنه بعضهم متحصنين بجبل تيطرى وبقي آخرون بتلمسان ؛ فبعث من مقره هناك الى من كفاه قتلهم ؛ واستمر على سيره مجدا في البحث عن اخوته ومحاربة من عاداه

وبينما ابو تاشفين منهمكا في استقصاء اثر خصومه من اخوته وغيرهم اذا بوالده السلطان ابى حمو ينجو من معتقله بحيلة ويتخلص من سجنه فيتدلى منه بعمامته ، فاجتمعت الامة عليه يومئذ واحاط به انصاره فبوأوه عرشه المغصوب، وهناك ادركه حفيده ابو زيان بن ابى تاشفين ثم اجفل امامه ملتحقا بأبيه ، وما كاد ابو حمو يتصل بعاصمة ملكه حتى كانت خرابا يبابا

واسرع ابو تاشفين من مقامه بتيطري واغذ سيره الى تلمسان فاقتحمها والتجأ والده الى مأذنة المسجد معتصما بها ، فاستنزله ولده المذكور متجافيا عن قتله، فأظهر السلطان ابو حمو يومئذ رغبته فى الحج فأسعفه ولده ابو تاشفين تفاديا منه واركبه السفين مع بعض تجار النصارى المسافرين الى الاسكندرية واوصاهم به ، فلما حاذى المركب مرسى بجاية لاطف ابو حمو اولئك النصارى فى نزوله بفرضة المدينة فاستأذنوا له امير بجاية فى ذلك فأذن له فنزل بها ومنها سار الى الجزائر آخذا فى تعبئة الجيوش والاستعداد لمنازلة تلمسان؛ ويومئذ خرج ابو تاشفين من تلمسان ملتحقا بفاس مستجيشا دولة بنى مرين فانطلقت معه الجنود وكان اللقا بينه وبين والده ابى حمو فى ناحية «الغيران» بجبل بنى ورنيد -وراء جبل بنى راشد- وهناك ذهب ابو حمو ضحية كبوة فرسه فسقط صريعا غرة شهر ذى الحجة ٧٩١هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩م) وعمره يومئذ ٦٨ سنة وكانت ايام ملكه منها ٣١ سنة

□

ولاية السلطان ابى تاشفين عبد الرحمن «الثاني»

هو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن «الثانى» بن ابى حمو موسى «الثانى» ولد بندرومة سنة ٧٥٢هـ (١٣٥١م) تولى ولاية عهد المملكة آخر شعبان ٧٧٦هـ (فيفريي ١٣٧٢م) وامضى غالب ايامه الاولى فى خدمة دولة بني مرين الى ان قضى على والده غرة ذى الحجة ٧٩١هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩م) فتولى مكانه، وضرب السكة باسمه تحت رعاية بنى مرين وحمايتهم؛ وكان يدعو اليهم ويخطب باسمهم ويدفع لهم الاتاوة

محاربة الاخوين ابى زيان وابى تاشفين

كان ابوزيان واليا من قبل والده ابى حمو الثانى على مدينة الجزائر فلما سقط والده فى وقعة «الغيران» نهض منتقما من اخيه مستصرخا بأحياء العرب فاجابه منهم طوائف تقدم بها الى حصار تلمسان فى رجب ٧٩٢هـ (جوان ١٣٩٠م) وما كادت تبلغ جموع ابى زيان من العرب الى تلمسان حتى غمرها ابو تاشفين بأمواله فتفرقت يومئذ عن ابى زيان وتركته في فئة قليلة فخرج اليه حيئذ ابو تاشفين فهزمه في شعبان -جوليط- من سنته. فالتجأ أبو زيان عندئذ الى الصحراء مستألفا احياء المعقل من العرب؛ ثم عاد الى حصار تلمسان فى شوال -سبتمر- فردته عنها جنود مرين فاجفل الى الصحراء للمرة الثانية ثم اجمع رايه على استصراخ مرين ايضا فوفد على ملك فاس فتلقاه بكل تقدير ووعده بالمؤازرة والانتصار له من اخيه، فأقام ابوزيان هنالك ينتظر الوفاء من حكومة بنى مرين الى مهلك اخيه ابى تاشفين

تنكر مرين لابى تاشفين

استمر ابوزيان مقيما بفاس منتظرا من حكومتها تنفيذ وعودها فى نصره على اخيه ابى تاشفين ، وطال صبره بقدر ما طالت هنالك اقامته. ولم يلبث ان حدث ما غير نظرة حكومة فاس فى ابى تاشفين فانقلبت عليه واظهرت سخطها بتجهيز حملة عنيفة وجهتها الى تلمسان وجعلت قيادتها لابى زيان ، وما كادت تبلغ هذه الى تازا حتى توفى السلطان ابوتاشفين اثر مرضه فى اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثانى ٧٩٥هـ (آخر فيفريى ١٣٩٣م) فبادر يومئذ وزيره احمد بن العزالى بمبايعة صبي من ابناء السلطان الهالك وقدم نفسه كوصى على العرش واخذ في تدبير شؤون الدولة والتصرف فى مهام السلطنة الزيانيــة مبــاشرة ، فغضب لذلك والى الجزائر يوسف بن ابى حمو المشهور بابن الزابية فنهـض الى تلمسان فاقتحمهـا وقتـل الوزير المذكور والصبى المكفول وكان لهذا الحادث اضطراب وقلق عظيم فى الرعية

تقوض عرش بنى زيان

ويومئذ خرج المستنصر سلطان بنى مرين الى ابى زيان فرده عن تازا واخذه معه معتقلا الى فاس ، ومن هناك بعث بولده ابى فارس في جنوده الى تلمسان فامتلكها واقام بها دعوة ابيه ، ثم اندفع الجند المرينى متوجها نحو الشرق من بلاد المغرب الاوسط فاستولى على عواصمه مثل مليـانة والجزائر وتدلس الى حدود بجاية ، فاتى بذلك على دولة بنى زيان من المغرب الاوسط

وفى هذه الاثناء نهض ابو ثابت بن ابى تاشفين الثانى محاولا الاستيلاء على عرش اسلافه الزيانيين فلم يلبث في ملكه اكثر من اربعين يوما اذ فاجأه عمه ابو الحجاج يوسف بن ابى حمو الثانى فخلعه عن ولايته وقتله فى جمادى الاولى ٧٩٦هـ (مارس ١٣٩٤م) وتزعم المملكة عشرة اشهر ثم زحزحه المرينيون بتولية اخيه ابى زيان بن ابى حمو «الثانى»

ولاية السلطان ابي زيان محمد «الثانـي»

هو السلطان ابو زيان محمد «الثاني» بن السلطان ابي حمو موسى «الثاني» كان معتقلا بمدينة فاس الى ان توفى السلطان ابو العباس احمد المريني سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) وتولى مكانه ولده ابو فارس وانتقل من تلمسان التي كان واليا عليها الى فاس فأطلق يومئذ وثاق ابي زيان ومكنه من امارة تلمسان ليقوم فيها بدعوة مرين، فسار اليها ابو زيان وجلس على عرشها منفردا بحكمها غرة ربيع الثاني ٧٩٦هـ (٣ فيفريي ١٣٩٤م) وقاتل ابا الحجاج فخرج منهزما الى قبيلة بني عامر(١) وبقي هنالك يعمل على تأليب الرعية وايقاد نار الثورة ضد ابي زيان الى ان اغتاله العرب في ربيع الاول سنة ٧٩٧هـ (ديسمبر ١٣٩٤م) وحملوا راسه الى السلطان

١) ويقال لهم العوامر ايضا نسبة الى جدهم عامر بن ابراهيم بن يعقوب المنحدر نسبه من عامر بن زغبة الهلالي ، وهم اخوة بني سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت مواطنهم الاولى عند الطائف بجبل زغوان، ويقول الالوسي في تاريخ نجد : «ان في قرى الوادي بنجد بقعة تسمى الهلالية» فلعلها مما بقي من آثارهم هناك ؟... وبعد ان تنقلوا في ازمنة مختلفة باطراف العراق والشام والبحرين وارض الصعيد المصري وتغلبوا على ملوك صنهاجة بالمغرب في اواخر القرن الخامس الهجري كما قدمنا في الجزء الاول من تاريخنا هذا صفحة (٢٩٦-٩٧) انتقل بنو عامر من طرابلس وقابس وشرقي افريقية - تونس - الى جنوب المغرب الاوسط - الجزائر - فسكنوا ماBين ارض مصاب (امزاب) وجبل راشد وهو جبل العمور وتجاوروا مع بني بادين وتعاقدوا على امر واحد فسكن بنو بادين بالتلول والضواحي وسكن زغبة بن معهم في القفار ، الى ان ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها ودخلت زناتة للتلول والارياف وظهر عبث المعقل المجاورين لهم وهم اهل «انكاد» فنقلهم من صحراء بني يزيد وانزلهم بينه وبين المعقل وقاية له، فصاروا بصحراء تلمسان بعد ان كانوا ما بين المسيلة شرقا الى جنوب تلمسان غربا وبقوا مستمرين على اقامتهم هنالك الى ان كادت حروب ابي عنان المريني ان تفتك وتقضي على بني زيان، فنقلهم السلطان ابو حمو موسى بن يوسف الزياني في حدود سنة نيف وستين من القرن الثامن الهجري من ضواحي تلمسان الجنوبية الى بلاد تاسالة واتصلت مجالاتهم بها الى حدود سنة ١١٦٠هـ [١٧٤٧م] فانتقلوا الى سهول ملاته وجبالها وذلك ايام ولاية الحاج عثمان باي وهران فسكنوا بها الى الآن؛ (انظر بهجة الناظر للشيخ عبد القادر المشرفي ، طبع الجزائر ١٩٢٤م)

ابى زيان فسكن يومئذ روعه

ويذكر لنا التاريخ من صفات هذا السلطان انه كان عالما اديبا شاعرا ناثرا متأنقا في شعره بليغا فى ترسله ، ومن شعره قصيدته الرنانة التي نظمها مادحا سلطان مصر الملك الظاهر برقوق وارفقها بهدية ثمينة اليه (١) فقال :

لمن الركائب سيرهن ذميل — والصبر - الابعدهن - جميل
يا ايها الحادى رويدك انها — ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقا بمن حملته فوق ظهورها — فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آية أنجم شفافة — تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها — ولها باستار الجدول افول
في الهودج المزرور منها غادة — تزع الدجى بجبينها فيحول
فكانها قمر على غصن على — متنى كثيب والكثيب مهيل
ثارت مطاياها فثار بى الهوى — واعتاد قلبي زفرة وغليل
اومت لتوديعي فغالب عبرتي — نظر تخالسه العيون كليل
دمع اغيض منه خوف رقيبها — طورا ويغلبنى الاسى فيسيل
ويح المحب وشت به عبراته — فكأنها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى — لمصون جوهر دمعهن تذيل
وتهابه اسد الشرى في خيسها — ويروعه ظبى الحمى المكحول
تأبى النفوس الضيم الا فى الهوى — فالحر عبد والعزيز ذليل
يا بانة الوادى ويا اهل الحمى — هل ساعة تصغين لى فأقول

١) تشتمل هذه الهدية على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة واحمال من الاقمشة الانيقة، انظر تفاصيل المهادات وعقد الصلات بين ملوك المشرق والمغرب فى كتاب العبرج ٧ ص ٢٢٦ و ٢٦٤ و ٢٦٦ وارجع الى صفحة ٨٧-٨٨ من هذا الجزء — تاريخ الجزائر العام — والتعريف بابن خلدون ص ٣٣٥-٣٤٦ ط القاهرة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م)

مالى اذا هب النسيم من الحمى ... ارتاح شوقا للحمى واميل
خلو الصبا يخلص الى نسيمها ... ان الصبا لصبابتى تعليل
مالى احلاءً عن ورود محله ... وأذاد عنه وورده منهول
والباب ليس بمرتج عن مرتج ... والظن من المولى الجميل جميل

ومنها بعد ما يبدى اشواقه ، وحنينه الى زيارة البقاع المقدسة في خمسة عشر بيتايتخلص لذكر ممدوحه فيقول :

وعن المليك ابى سعيد فلتنب ... فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته ... يا حبذاك المحمل المحمول
سعد المليك ابى سعيد انه ... سيف على اعدائه مسلول
ملك يحج المغرب الاقصى به ... فلهم به نحو الرسول وصول
ملك به نام الانام وامنت ... سبل المخاف فلا يخاف سبيل
فالملك ضخم والجناب مؤمل ... والفضل جم والعطاء جزيل
والصنع اجمل والفخار مؤثل ... والمجد اكمل والوفاء اصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى ... قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا ... فعليك من روح الاله قبول
يا متحفى ومفاتحى برسالة ... سلسالة يزهى بها الترسيل
اهديتها حسناء بكرا ما لها ... غيرى ،وان كثر الرجال، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها ... حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملها بحضرتنا كما ... جمعت بثينة في الهوى وجميل
وتأكدت بهدية ودية ... هى للاخاء المرتضى تكميل
اطلعت فيها للقسى اهلة ... يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهيا بنضاره ... راق العيون فريده المعسول
ماضى الشبا لمصابه تعنو الظبا ... فبه تصول على العدا وتطول

وبدائع الحلل اليمانية التي روى معاطفها بمصر النيل
فأجلت فيها ناظرى فرايتها تحفا يجول الحسن حيث تجول
جلت محاسنها فأهوى نحوها بفم القبول اللثم والتقبيل
يامسعدي واخي العزيز ومنجدى ومن القلوب الى هواه تميل
ان كان رسم الود منك مذيلا بالبر وهو بذيله موصول
فنظيره عندى وليس يضيره بمعارض وهم ولا تخييل
ود «يزيد» و«ثابت» شهدا به و«الخالد» بخلوده تذييل
واليكها تنبيك صدق مودتي صح الدليل ووافق المدلول
فاذا بذاك المجلس السامي سمت فلديك اقبال لها وقبول
دام الوداد على البعاد موصلا بين القلوب وحبله موصول
وبقيت فى نعم لديك مزيدها وعليك يضفو ظلها المسدول

وللسلطان الشاعر هذا عناية بالتأليف ايضا ؛ فله كتاب في علم النفس سماه «الاشارة، في الحكم بين النفس المطمئنة والنفس الامارة» ؛ ومن الاسف اننا لا نعلم عنه اليوم سوى اسمه !... وقد يكون له غيره ؟...

ويمتاز عصر ابى زيان بنشاط العلماء الى التأليف ورواج سوق العلم والادب العربى فيه ووضع المصنفات الكثيرة التى نرى اسماءها مبثوثة فى الفهارس و كتب التراجم والطبقات

واستمر ابوزيان على ولايته الى ان تنكرت له مرين واغرت به اخاه ابا محمد عبد الله بن ابى حمو -كما هو شأنها مع ملوك بني زيان دائما- فغزا تلمسان واحتلها -بمساعدة ملوك فاس طبعا- وذلك غرة القرن التاسع الهجرى (١٣٩٨م) وخرج منها ابو زيان مشردا فى البلاد مهدما مهزوم القوى فبقى متنقلا بين احياء العرب الى ان قتل سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م)

ولاية السلطان ابي محمد عبد الله «الاول»

هو السلطان ابو محمد عبد الله بن السلطان ابى حمو موسى الثانى؛ انتصب للحكم سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) واظهر من النشاط والحزم وحسن التدبير والصرامة في الحق والعدل فى الحكم بين الناس ما خشى عقباه اولئك المماذقون المخادعون من بطانة السوء ورجال البلاط الماكرين فأثاروا يومئذ كمين الضغائن بين حكومتي فاس وتلمسان وسعوا بكل جهودهم في عقد المؤامرات السرية لايقاد الفتنة بين الدولتين حتى ظفروا ببغيتهم فكانت يومئذ اغارة مرين على تلمسان سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١م) فاحتلتها واسرت السلطان ابا محمد ونصبت مكانه اخاه ابا عبد الله محمد المعروف بابن خولة

وليس لدى فيما يتعلق بتاريخ عصر هذا السلطان مما يستحق التسجيل من الحوادث الهامة سوى غزاة مرين المتقدمة اوما يذكر عن تقاعس الافرنج فى تسعين سفينة حربية عن بونة بعد ان ردهم عنها اهلها المسلمون ؛ توجهت الحملة الافرنجية يومئذ الى مرسى القل ودلس فانتهبتهما

□

ولاية السلطان ابي عبد الله محمد «الثالث»

هو السلطان ابو عبدالله محمد «الثالث» الملقب بالواثق الشهير بابن خولة، احد ابناء السلطان ابى حمو موسى الثانى، توج على عرش اسلافه سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١م) وكان عفيفا عن الدماء شغوفا بالعلم والفن عاملا على تنشيط العلماء وبعثهم على البحث والانتاج الفكرى ، فعاش الناس وقتئذ فى رخاء وهناء رغم الحوادث الثورية والمشاغبات السياسية والمشاكل المستحدثة المطرة بين الدولتين المتجاورتين، وهكذا الى وفاته ورحمه الله يوم الثلاثاء ٧ ذى القعدة سنة ٨١٣هـ (٣ مارس ١٤١١م) فتولى مكانه ولده عبد الرحمن

□

ولاية السلطان عبد الرحمن (الثالث)

هو السلطان عبد الرحمن «الثالث» بن السلطان ابى عبد الله محمد «الثاني» الشهير بابن خولة، تولى الملك اثر وفاة والده يوم الثلاثاء ٧ ذى القعدة سنة ٨١٣هـ (٣ مارس ١٤١١م) وماكاد يستقر على عرشه حتى كانت هنالك فتنة منشأها شيئان: التزاحم على الملك ودسائس مرين، ففاجأه عمه السعيد فى جيش عرمرم احاط بقصره والزمه بالتنازل عن الملك، فاختلع عبد الرحمن عن عرشه اواخر المحرم ٨١٤هـ (ماى ١٤١١م) فلم تزد ايام توليته عن شهرين فقط، وتولى مكانه عمه المذكور

□

ولاية السلطان السعيد بن ابي حمو

هو السلطان السعيد بن السلطان ابى حمو موسى «الثاني» توج اثر اختلاع عبد الرحمن الثالث - ابن اخيه - فى اواخر المحرم سنة ٨١٤هـ (ماى ١٤١١م) وكان ملكا جوادا كريما كثير الانفاق والعطاء، ولقد اصيبت الخزينة في ايامه بازمة مالية فعمد الى التخفيف عنها بالتثقيل على كاهل الرعية بالمطالب «الجرجية» فاحدث ذلك قلقا واضطرابا في الناس طالما انتظرته دولة بنى مرين التى كانت ترقب راصدة مثل هذه الحوادث والفرص المواتية لها عن كثب؛ فاضهرت يومئذ الاهتمام بشأن هذه التشعبات الشعبية وتدخلت فى القضية الجزائرية بحمل اسير فاس الامير ابى مالك عبد الواحد بن ابى حمو «الثاني» على محاربة اخيه السلطان الحالى كما هو شأنها في تغليب امير على امير، وامدته بالعدة والعدد فبادر ابو مالك الى اختطاف هذه الفرصة السانحة لتملكه وهاجم تلمسان فاحتلها في منتصف رجب ٨١٤هـ (اكتوبر ١٤١١م) وابعد اخاه السعيد الى منفاه فتركه هنالك الى ان هلك حتف انفه من عامه هذا

□

ولاية السلطان ابي مالك عبد الواحد

هو السلطان ابو مالك عبد الواحد بن الساطان ابى حمو موسى «الثانى» تغلب على اخيه السعيد بمؤازرة مرين فانتصب على العرش الزيانى فى رجب سنة ٨١٤هـ (اكتوبر ١٤١١م) وقيل ان ذلك كان في السنة بعدها ؟....

اشتهر ابو مالك بالشجاعة والحزم والسجايا الكريمة والتدين ونشر الثقافة والسهر على مصالح الدولة واصلاح الرعية ؛ ولقد بلغ بعزمه وشدة حزمه الى استرجاع كل ما كان بيد الحفصيين من بلاد الجزائر الشرقية ، وتوسع غربا الى عاصمة مرين فخضد من شوكتها واستولى على فاس ونصب عليها واليا او اميرا من قبله فكان ذلك آخر العهد بتدخل دولة بنى مرين في الجزائر

اغارة الحفصيين على تلمسان

كان لاستيلاء السلطان ابي مالك على ما كان بيد الحفصيين من احواز الجزائر الشرقية وقع عظيم لدى دولة بني ابي حفص ، وكان مما زادها رعبا وذعرا من هذه الدولة الجزائرية هو توسعها غربا واستيلاؤها على عاصمة المرينيين - فاس - فشرع لذلك السلطان ابو فارس عزوز الحفصى في اخذ الحذر منها والاستعداد لمواجهتها والتدبير فى خطة الهجوم للقضاء على دولة المغرب الاوسط الآخذة فى النمو والانتشار باقطار المغرب الثلاثة ؛ وبرز ابو فارس فى خمسين الف مقاتل مهاجما مملكة الجزائر فرده السلطان ابو مالك عنها وكانت هنالك وقائع ومعارك متعددة صبر لها الحفصيون وصمدوا لها حتى انتصروا على تلمسان ففتحوها يوم السبت ١٣ جمادى الثانية ٨٢٧هـ (١٣ ماى ١٤٢٤م) وخرج منها يومئذ سلطانها ابو مالك منحازا الى الجبال فاحتلها ابو فارس ونزل بقصبتها مستحوذا على جميع ما فيها وبعد ان تمكن من ناصيتها نصب عليها الامير محمد «بن الحمرة» بن السلطان تاشفين وخرج متوجها نحو فاس حتى لم يبق بينه وبينها الا مسيرة يومين فجاءته بيعة مرين فعاد يومئذ

الى مركزه بتونس ثم جاءته بيعة صاحب الاندلس، فكان المغرب الاسلامي عهدئذ بتمامه تحت رعاية السلطان ابى فارس الحفصى

□

ولاية السلطان محمد «الرابع»

هو السلطان ابوعبد الله محمد «الرابع» المعروف بابن الحمرة بن السلطان عبد الرحمن تاشفين «الثانى» كان صاحب حكمة وحنكة وتدبير توج على عرش تلمسان سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) تحت رعاية الدولة الحفصية كما اسلفنا ؛ فعمل على اكتساب قلوب الرعية بحسن سلوكه وسداد سياسته فمال اليه الناس وتوحدت كلمتهم حوله فثبت بذلك قدمه فى الملك وتوطد سلطانه ويومئذ رفض دعوة بنى ابى حفص فألغى ذكرهم من الخطبة والمكاتبات واعلن بتحرير البلاد واستقلال الدولة الجزائرية الزيانية عن غيرها من دول المغرب

وكذلك فعل عامل قسنطينة ورئيسها الحاج ابوعبد الله محمد الدهان فانه رفض طاعة دولة الحفصيين واعلن معارضة الولاة والامراء فى سياستهم الداخلية وتصرفاتهم بالبلاد غير انه لم ينجح فقبض عليه السلطان ابو فارس فى ذى القعدة من سنة ٨٣٠هـ (اوط ١٤٢٧م) واعتقله بقصبة تونس

□

السلطان أبو مالك عبد الواحد «للمرة الثانية»

بعد ان ظهرت خيبة ابي مالك — السلطان المخلوع — واخفاقه في استعمال جميع الوسائل السياسية والمكائد الدبلوماسية لاسترجاع عرشه، التجأ الى بنى مرين فلم تغن ايضاعنه هذه المرة شيئا، ويومئذ اذعن للحفصيين خصومه بالامس، فزودوه بالجيش والعدة وغزا تلمسان فأكدى؛ ثم تحرك لها السلطان ابو فارس الحفصي ففتحها في رجب ٨٣١هـ (افريل ١٤٢٨م) واعاد ابا مالك الى عرشه

ثورة (ابن الحمرة) ونهايته

خرج ابو عبد الله محمد الثالث «ابن الحمرة» من تلمسان منهزما واخذ فى نشر الدعاية لنفسه بين العرب والبربر وثابر متنقلا بين أصقاع جبال وانشريس وبرشك وتنس واكثر من الحركة والتجوال بين الاحياء هنالك يستثير الهمم ويستألف العواطف والقلوب الى ان احرز على الثقة بينهم فأخذ منهم البيعة لنفسه وسار بهم زاحفا نحو تلمسان ففتحها يوم الخميس رابع ذى الحجة ٨٣٣هـ (٢٤ اوط ١٤٤٠م) وتمكن من قتل عمه ابي مالك؛ وما كاد ينعم بنشوة الملك حتى فاجأه السلطان الحفصي — لثمانية واربعين يوما من تملكه — فأسره ونصب مكانه عمه ابا العباس احمد «العاقل» وذهب بابن الحمرة الى تونس فاعتقله بقصبتها هنالك الى وفاته سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م)

ولاية السلطـان ابى العباس احمد المعتصم

هوالسلطان ابو العباس احمد المعتصم المشهور بـ «العـاقل» بن السلطان ابي حمو موسى «الثـاني» تولى عرش تلمسـان بفضل الحفصيين كمـا ذكرنـاه، يوم الخميس غرة شهر رجب سنة ٨٣٤هـ(١٥ مـارس ١٤٣١م) فسك النقود واظهر من حسن السيرة والعنـاية بنشر العدل وخدمة العلم مـا اكسبه عطف الرعية واجماع الناس على مودته، ويومئذ اظهر باسه للحفصيين واعلن برفض عهدهم سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) فتحرك لقتاله السلطان ابو فـارس الحفصي فاحتل جبل وانشريس قهرا وانضم اهله تحت طاعته ثم ما كاد يتصل بتلمسان حتى وافاه اجله فتوفى بطريقه اليها وعاد اصحابه من حيث اتوا.

ثورة ابي يحيى واستيلاؤه على وهران

هو احد امراء البيت الزيـاني ـ اخ السلطان العـاقل ـ حمله داعي الاثرة والتنافس وحب الرئاسة الى الخروج عن طاعة اخيه فشن غارته على تلمسـان وشايعه على ثورته هذه احياء من العرب، فردهم عنها السلطان منهزمين، ويومئذ ذهب ابويحيي الى وهران فاستولى عليها سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م) وكثيرا ماحاول السلطان مطاردته فلم يفلح.

ظهور المستعين بالله وقتله

ان من ينظر في تاريخ الجزائر السيـاسي على هذا العهد يجده كله انقضى بين تناحر المتزاحمين وتشاكس المتنافسين، وسواء ذلك بين الدولتين المتجاورتين المكتنفتين لهذا القطر شرقا وغربا ام بين اعضاء الاسرة المالكة نفسها، فهذا ابو زيان محمد «المستعين بالله» الذى كان بتونس وهو من اعضاء الاسرة الزيانية قد عملت فيه عوامل النخوة والكبرياء ودبت في قلبه عقارب الحسد فذهب مستنجدا بحكومة

تونس فانجدته وايدته بجند من العرب والبربر فجاء بهم مغيرا على المغرب الاوسط سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م) فاحتل مدينة الجزائر ومتيجة وتنس ومليانة الخ.. واوغل في التقدم نحو الغرب الى ان تاخم حدود مملكة السلطان العاقل ثم عاد الى مدينة الجزائر فاستقربها واتخذها مركزا لانشاء دولته بها. وماكاد يتم له الامر حتى فاجأه صاحب وهران الامير ابو يحيي اخو السلطان العاقل فثار الرعية ضده فقتلته في شهر جمادى الثانيه — نوفمبر — من سنته.

انهزام ابي يحيى عن وهران

ماكان للسلطان العاقل ان يترك اخاه ابا يحيي مستبدا بوهران (١) منذ ان استولى عليها سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م) كما تقدم فعمل على اقصائه منها واعادتها الى مملكته وناجزه الحرب حتى غلبه عليها في شعبان ٨٥١هـ (اكتوبر ١٤٤٧م) وجعلها الحاضرة الثانية للجزائر فخرج منها ابو يحيي الى تونس فبقى بها الى وفاته سنة ٨٦٧هـ (١٤٦٢م)

ثورة محمد «المتوكل» ونهاية «العاقل»

لقدكان مما جرته هذه القلاقل السياسية والانقلابات الادارية از انتشرت الفوضى بالبلاد الجزائرية وعم الخلاف، فنهض ائذ الامير محمد بن محمد بن ابي ثابت «المتوكل» منتهز افرصة فشو هذا الاضطراب ورفض طاعة السلطان معلنا عصيانه واخذ في سيره لفتح البلاد في شهر ربيع الاول سنة ٨٦٦هـ (ديسمبر ١٤٦١م) واستولى على مستغانم ووهران وتنس واخيرا تلمسان فعزل عنها عم ابيه السلطان اباالعباس غرة جمادى ٢

١) اختلف في بانيها على قولين قيل انهم جماعة من الاندلسيين المذكورين في الجزء الاول من كتابنا هذا صفحة ٢١٨ وذلك في اواخر القرن الثالث الهجري كما تقدم، وقيل هو خزر بن حفص بن صولات المغراوى باذن مواليه امراء بنى امية بالاندلس وصححه المشرفي في تقييده «بهجة الناظر» المطبوع بالجزائر سنة ١٩٢٤م

(فاتح فيفرى ١٤٦٢م) فانتقل ابو العباس يومئذ الى سكنى ضاحية العباد ثم ابعد عنها الى الاندلس، وهنالك سعى فى تكوين جيش عاد به الى الجزائر محاصرا تلمسان مدة اسبوعين عن غير طائل ثم مات فى ذى الحجة ٨٦٧هـ (اوط ١٤٦٣م) ودفن بالعباد

الزحف الحفصي

كان الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الاقصى ينظرون دائما الى نشوب الخلاف والشتات بين امراء البيت الزياني ليتوسعوا اوقل يتوصلوا الى نيل غرضهم من الاستيلاء على هذا القطر وضمه الى مملكتهم الشرقية او الغربية؛ وكان الدور في هذه المرة للحفصيين؛ فخرج السلطان ابو عمرو عثمان الحفصي من تونس سابع شهر شوال ٨٦٦هـ (٥ جوليط ١٤٦٣م) ميمما عاصمة المغرب الاوسط — تلمسان — فاخضع في طريقه قلعة حليمة — احدى قلاع جبل اوراس — ثم تقدم غربا فنزل بارض بني راشد، وهنالك جاءته وفود العرب من سويد وبني يعقوب وبني عامر والدواودة واعيان بني عبد الواد وكلهم ناقم على السلطان الزياني راغب في طاعة الحفصيين، فاحسن اليهم ابوعمرو وفرق ولاته على تلك الانحاء، ويومئذ اوفد المتوكل ملك تلمسان وفدا لينوب عنه لدى ابي عمرو في المبايعة وعقد الصلح، وكان هذا الوفد مركبا من ثلاثة أعضاء: الشيخ ابي عبد الله محمد بن الشيخ ابي القاسم العقباني، والشيخ اي العباس احمد بن الحسن، ويراسهما خال السلطان ابو الحسن على بن حمو بن ابى تاشفين

ثم عاد الملك الحفصي الى مركزه معرجا على قسنطينه فعقد لحفيده ابي عبد الله محمد المنتصر بن ابي عبد الله محمد المسعود عليها وجعل بين يديه القائد ابا علي منصور الصبان مزوارا. وعين بشيرا قائدا على البلد بدل ظافر المعزول عنها، وصرف محمد بن سعيد بن صخر الي وطنه بجاية

ابتداء الهجرة الاندلسية وسقوط بونة

كان لطغيان الاسبان بالاندلس واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين هنالك تاثير عظيم على جمعهم وجماعتهم كما هو معروف من تاريخهم الحزين، فأخذوا يتسللون لواذا ملتجئين الى هذا الشمال الافريقي ابتداء من سنة ٨٥٦هـ (١٤٥٢م) فحل اكثرهم يومئذ بالجزائر فلحقهم الاسبان بمراكبهم، فكان ذلك ابتداء الحروب البحرية بين الجزائريين والافرنج، وكان اتحاد الجالية الاندلسية مع اهل الجزائر على مناوأة العمارة الافرنجية بهذا البحر الابيض المتوسط، سيما في سقوط بونة بيد الاسبان سنة ٨٦٧هـ (١٤٦٢م) ثم تبعها غيرها من السواحل الجزائرية

□

ولاية السلطان ابي ثابت محمد «الرابع»

هو السلطان ابو ثابت ابو عبد الله محمد المتوكل على الله بن ابى زيان محمد المستعين بالله بن يوسف؛ تولى الملك غرة جمادى الاولى سنة ٨٦٦هـ (فاتح فيفرى ١٤٦٢م) بعد ان كان قد اقتطع لنفسه في ربيع الاول (ديسمبر ١٤٦١م) مدينة الجزائر ومليانة ووهران ومستغانم وتنس واستولى عليها كما تقدم وبسط عليها نفوذه وسك نقوده. وكان ملكا شهما شجاعا شغوفا بالملك، اخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين عليه، وقام في مملكته باعمال جليلة فوحد كلمة الرعية واصلح من شان الوطن ما تصدع، فاحبه الشعب والتف حوله ممتثلا له منفذا لاوامره ونواهيه، وكثيرا ما غزت اساطيله مدن الاسبان والطليان انتقاما لما احله هؤلاء بمسلمي صقليه والاندلس.

رفض الدعوة الحفصية

مضى هذا السلطان على الخطة المرسومة المتبعة التي سار عليها من قبله من ملوك بني عبد الواد الزيانيين، من المحافظة على استقلال هذه الدولة والذود

عن حرمتها ورفض كل تدخل اجنبي فى شؤون الجزائر مهما كان شانه ، ففى سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٣م) اعلن السلطان ابو ثابت برفض الدعوة الحفصية واطرد ولاتها من اعمالهم. فسعى به اعراب تلمسان من بني عامر وسويد وغيرهم لدى السلطان الحفصي فجاء بجنوده الى بعض قلاع جبل اوراس فاحتلها واخضع القبائل العربية هناك، ثم كانت هدنة وصلح: ثم اعاد ابو ثابت نهضته معاكسا دعوة ابي حفص معلنا استقلاله التام بمملكته، فقاومه الحفصيون وتكرر ذلك منهم مرتين، وفى الثانية منهما بالغوا في تشديد الحصار على تلمسان فاذعنت لسطوتهم يومئذ مدينة مليانة والمدية وتنس واستسلم لهم ابو ثابت وكتب ببيعته للسلطان الحفصي؛ ومما جاء فيها بخطه قوله : «شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة الا بالله، واعطى ابنته بكرا للمولى ابي زكريا يحي بن المولى المسعود دون خطبة» وقفل حينئذ سلطان تونس الى حضرته وبقى ابو ثابت على عرشه الى وفاته بتلمسان سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) فخلفه بعده ولده تاشفين

□

ولاية السلطان تاشفين بن ابى ثابت

هو السلطان تاشفين بن ابي ثابت محمد الرابع، لم يكد يستقر على عرش اسلافه حتى فاجاه اجله بعد اربعة اشهر من سلطنته فتوفى من سنته بدون ان يترك اي اثر له يذكر به فى تاريخ دولته

□

ولاية السلطان محمد (السادس)

هو ابو عبدالله محمد «السادس» بن ابى ثابت المتوكل تولى السلطنة بعد اخيه تاشفين فسك النقود وتلقب بلقب ابيه: ابى ثابت ايضا، وكان ضعيف الارادة عاجزا عن القيام باعباء الملك وتدبير شؤن الدولة السياسية وتسيير الرعية فكثرت الفتن

والاضطرابات على عهده وانتشرت الفوضى ثم مات سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) ولم نظفر له كذلك بأثر يذكر به سوى اسمه المرسوم على سكته

□

ولاية السلطان محمد (السابع)

هو ابو عبد الله محمد «السابع» بن ابي ثابت الثاني؛ اشتهر بالثابتي نسبة الى جده، تملك بعد ابيه عام ٩٠٢هـ [١٤٩٦م] وكان من ذوى الفطانة والذكاء ورجاحة العقل وحسن التدبير منصرفا الى توفير مالية خزينة الدولة والاكثار من الاوقاف الخيرية. وفى ايامه [٨٩٥هـ ١٤٩٠م] كان ذلك الحدث الجلل بالاندلس فسقطت غرناطة عاصمة بني الاحمر النصريين آخر معاقل الاسلام بذلك الفردوس المفقود!... فالتجأ ملكها المنكوب ابو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل الى وهران فيمن ضوى اليه من الاعيان والكبراء الذين ايقنوا بنهاية الاندلس الاسلامية، ثم انتقلوا الى تلمسان وبها ترك الزغل عقبا له عرف بعد ذلك ببني سلطان الاندلس فاقتبلهم الملك باوفى مايجب ان يكرم به الملوك والامراء والسادة وماتوجبه الروابط الاسلامية، فكان ذلك ممازاد فى اثارة حقد الاسبان فسخطوا على الجزائر واستشاط ملكهم غيضا على بلاط تلمسان، فادرك ذلك السلطان الزيانى وتحقق انه لامحالة هامة اليوم او غد، فبادر الى السعي فى ترضية (فرديناند الخامس) وتالفه بالسفر الى إسبانيا [١] مصحوبا بهدايا ثمينة، منها خيول عربية عتاق، ولؤلؤة فخمة ملكية نادرة،

١) كانت المملكة الاسبانيه ايام ولاية الرومان عليها [١٣٤-٤٠٦م] منقسمة الى ولايتين يفصلهما نهر «ابرو» وسموهما هسبانيا الخارجة وهسبانيا الداخله، ثم سمو البلاد كلها «هسبانيا» يريدون المملكة ذات الولايتين او المقسمه الى قسمين، وقيل ان اطلاق اسم «اسبانيا» عليها كان زمن الفنيقيين قبل الرومان، وان كلمه «Span» فينيقيه معناها المحتجب او المستور، وذلك لان هذه البلاد كانت بعيدة عن الفينيقيين محجوبه عن انظارهم فى اقصى الارض جهه الغرب، وقيل انما سموها بذلك لانهم راوا فيها ارانب كثيرة، والارنب بلغتهم «اسبان». انظر تعليقات احمد يوسف نجاتي على نفح الطيب ج ٢

وطيور مصنوعة من الذهب الخالص، فيها من الدواجن دجاجة متبوعة بست وثلاثين نقفا الخ ..، وقدم ذلك بنفسه الى ملك الاسبان فانكسرت حدة غضبه وذهبت عنه شرته ثم عاد بعدها السلطان الى وطنه آمنا، وكانت وفاته سنة ٩٠٩هـ [١٥٠٣م] فخلفه اخوه ابوزيان «الثالث» غير انه لم يمكث الا قليلا ففاجأه عمه ابو حمو الثالث .

□

ولاية السلطان ابي حمو موسى (الثالث)

هو ابو حمو موسى «الثالث» الملقب بابي قلمون بن محمد «الرابع» انتصب بالقهر على عرش تلمسان سنه ٩٠٩هـ [١٥٠٣م] فعزل ابن اخيه محمد «السابع» وباشر الحكم والبلاد يومئذ فى اضطراب وحبل حكومتها فى انحلال وضعف وتفرق وتشتيت

احتلال الاسبان لوهران والسواحل الجزائرية

لقد اخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ ان ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان الى التواكل والتخاذل واخلادهم الى الدعة واستمهادهم الراحة وتثاقلهم عن القيام بالمصالح العامة وانهماكهم فى التهالك على الرئاسة وقصر اشتغالهم على انفسهم شخصيا، فانمحت يومئذ هيبتهم من نفوس الرعية وانتشرت الفوضى بين الناس فى كل من ميادين السياسة والاجتماع واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش بما اتصل بايديهم من اسباب الولاية والحكم، فتشتتت الوحدة الجزائرية وانحلت الرابطة الاجتماعية بين الراعي والرعية فاضطربت الاحوال وتعددت المشاكل، وملوك الاسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الفرص خلسة، ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الاسلام بهذا الشمال الافريقي بعد ان شفوا منها صدورهم واطفؤوا غلتهم في حوادث

الاندلس الدامية، وقد كانوا تعاهدوا على ذلك وتواصوا به منذ انعقاد مؤتمره «طورزلاس» ٨٩٩هـ (١٤٩٤م) للنظر في شؤون سير السياسة بالهند، فهناك وقع التعاقد بين الصليبيين على استئصال المملكة الاسلامية بهذا الشمال الافريقي، وقد تطلع الى ذلك دولة الاسبان والبرتغال فتواطئ على ان يتوزعا بينهما بلاد المغرب العربي غنيمة باردة على ان يكون حظ الاسبان منها سواحل بلاد الجزائر وللبرتغال المغرب الاقصى.

ولما كانت الجزائر في هذه الفترة على ما وصفنا من الانحلال السياسي والاضمحلال الادارى أخذ الاسبان في التمهيد والاستعداد لاحتلالها ببعث البعوث الاستطلاعية اليها واذكاء العيون والجواسيس حولها للكشف عن حالة البلاد العامة والاطلاع على عوراتها، ومنها كانت بعثة «لوريشودى باديا» الى مملكة تلمسان على عهد السلطان ابي عبد الله محمد الثابتي

وما كاد القرن العاشر الهجرى -السادس عشر الميلادي- ياذن بالحلول حتى كان الاسبان على استعداد تام لمهاجمة الجزائر، لاينتظرون في ذلك سوى اذن ملكهم ومباركة البابا. وقد حصل ذلك بالفعل، فابحرت الحملة الاسبانية من «مالقة» يوم الاربعاء ٣ ربيع الثاني ٩١١هـ [٣ سبتمبر ١٥٠٥م] متوجهة نحو الضفة الجنوبية من هذا البحر الابيض المتوسط فارست تجاه وهران مهاجمة لمرساها الكبير غربي المدينة وعلى ثمانية كيلوميترا منها؛ وبعد ان اشتبكت المعارك هنالك احتلته السلطة الاسبانية المهاجمة يوم الثلاثاء ٩ ربيع الثاني - ٩ سبتمبر - ثم كانت بعدئذ معركة قرية «مسرغين» الواقعة على خمسة عشر كيلوميترا من وهران انهزم فيها الجيش الاسباني ومات منه ثلاثة آلاف جندي -باعترافهم-، وفر الباقون الى المرسى الكبير معتصمين باسواره المنيعة؛ ثم توالت الغزوات والهزائم على السوحل المغربية واشهرها بالجزائر تلك الحملة الشعواء التي تراسها الكاردينال «كسيمينس» نفسه بمآزرة الجينيرال «بيدرو نافارو»،

ابحرت هذه الحملة الاسبانية العتيدة من ثغر قرطاجنة صباح يوم الاربعاء ٢٦المحرم ٩١٥هـ [١٥ ماى ١٥٠٩م] فصبحت الجزائر صبيحة الغد ونزل المشاة بساحل وهران ضحى يوم الجمعة، وماهي الاسويعات قليلة حتى كان الجيش الاسباني مشرفا على ربى المرسى الكبير وتلال وهران، وتقدم الجند الى المدينة – بدون مقاومة من الجيش الزياني تذكر – يقتل ويأسر من غير شفقة ولا رحمة، واستمر سائرا فى طريقه حتى اتصل باسوار مدينة وهران محدقا بها، وفى جنح الليل من تلك الليلة نفسها فتح القائدان الخائنان القائمان بحراسة الثغر (١) باب المرسى للعدو فتدفقت جنوده بخيلها ورجالها وجاءت كالسيل الجارف، وساعدهم على ذلك بعض الخونة ممن باع ذمته تلقاء دريهات معدودات مثل بني عامر، وشافع وكرشتل، وحميان، وغمرة، وقيزة، واولاد عبد الله، واولاد على والونازرة (٢) وما كاد يتنفس فجر يوم السبت حتى كان الاحتلال تاما فاقتحم الجيش المهاجم المدينة معتديا على حرمات الدين والانسانية مرتكبا كل فاحشة من غير استثناء ولا محاشات فقتل بيده ذبحا نحو الثمانية آلاف من البرءاء العجزة الذين قعد بهم الاضطرار والهرم والقصور عن الفرار من المذبحة؛ وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة بما يندى لذكره الجبين وتصفر لهوله الوجوه وتنخلع له القلوب، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا!..

ويومئذ انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الصريخ الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الغاشم والعود باللائمة والخزى على مشايعيى الاسبان من بني عامر وغيرهم، وهذه قصيدة الشيخ ابي العباس احمد بن القاضي سيدى عبد الله بن ابي محلى السجلماسى شيخ العلامة ابي عثمان سيدى سعيد قدورة الجزائري تنبىء بذلك :

١) احدهما منافق يتظاهر بالاسلام والاخر يهودي اسمه اشطورا

٢) راجع بهجه الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كبنى عامر، المشرفي ط الجزائر ١٩٢٤م

فمن مبلغ عنى قبائل عامر ... ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمى من صناديد راشد ... بتيجانهم مع راسها عبد قادر
وجيرانهم فى الغرب من كل ماجد ... طويل القنا اهل الوفا والمغافر
وطلحة والاحلاف فى غرب هذه ... وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب والكمى الفتى ... بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن ... وفى كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم ... وغيرهم، بالله ما صبر صابر ؟!...
ويا معشر الاتراك يا كل عالم ... وكل ولى حافظ للاوامر
اناشدكم بالله ماعذر جمعكم ... لدى الله فى وهران امر الخنازر الخ...

والقصيدة مدرجة بتمامها فى بهجة الناظر للشيخ عبد القادر المشرفى فانظرها هناك

وفى اواخر رمضان سنة ٩١٥هـ [٦ جانفيي ١٥١١م] جاء «بيدرو نافارو» في ارمادة تحتوى على اربعة عشر مركبا حربيا مشتملة على عشر آلاف جندى، فاقتحم بهم اسوار بجاية مدينة الحضارة الحمادية الجزائرية، واخذ في تحطيمها ونقل جميع ما بها من تحف ونفائس فى ثلاثين مركبا غرق اكثرها في طريقه الى اسبانيا، وهدم منار قصر اللؤلؤة البالغ طوله نحو سبعين ذراعا، والذي يعتبر من اعظم آيات فن المعمار الجزائرى الجميل؛ كما حطم يومئذ قصر الكوكب وبنى مكانه حصن «برال» الحالى، وحطم المسجد الجامع الاعظم وتغير شكل المدينة الى ما لايسر منظره ولا مخبره، ورغم كل ذلك مما وقع تسجيله من حوادث الاحتلال الاسباني العنيف فاننا لم نر من الحكومة الجزائرية المسلمة مايقابل ذلك ويستحقه من الدفاع والمقاومة الشديدة المتوقعة !..

ومن تأمل في ذلك وجد ان مرجعه الى ما كانت عليه الدولة الجزائرية من الضعف والانحلال الشامل لنظام الحكم وتخبطها فى مشاكلها السياسية والادارية

وواصل الاسبان فتوحاتهم بالجزائر فاستحوذوا على مدينة تدلس ـ داس ـ وشرشال واحتلوا فرضة هنين سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م) ونزلوا بالامكنة الاستراتيجية بالسواحل الجزائرية خاصة، وكان غرضهم الوحيد يومئذ من هذه الغزوات هو مواصلة الحروب الصليبية بالمغرب، فاحدث ذلك قلقا واضطرابا عظيما في الراعي والرعية وما وسعهم جميعا يومئذ الا الرضوخ لهذه السلطة الاجنبية المفروضة الحتمية حتى يتجلى الامر؛

وما خص الاسبان احتلالهم بسيف البحر دون التوغل في الوطن الجزائري الا الحاجة في انفسهم؟.. ولعل تشوفهم كان متجها نحو جهات اخرى كنواحي «البيرينى» او بلاد ايطاليا او خوفا من سوء المنقلب او غير ذلك لاادرى؟..

ثورة الامير يحيى بن الثابتي

اهتبل الامير يحيى هذا الهيجان والاضطراب العام في الجزائر واغتنم فرصة انحلال الحكومة وضعف السلطة المركزية فنهض مستصرخا بالاسبان محتميا بهم معلنا ثورته على ابى حمو الثالث، فتغلب على مدينة تنس ٩١٢هـ (١٥٠٦م) فقهره السلطان ورده عنها، ثم انتصر عليه فتحطم جيش ابي حمو واحجم عن القتال، فاحتل الاسبان يومئذ بسهولة مدينة بونة – عنابه – وفرضوا على السلطان ضريبة سنوية باهضة قدرها اثنا عشر الف دوقة (١) واثنا عشر فرسا وست بزات؛ واستمرت هذه الضريبة المزرية المهينة مفروضة على ملوك بني زيان الى سنة ٩٣٦هـ (١٥٣٠م) فاسقطتها ارادة الشعب

---

١) الدوقه نوع من نقود الذهب الاسبانيه، قيمه القطعة الواحدة منها من العشرة الى اثنى عشر فرنكا اى قبل ارتفاع قيمه النقود

ثغور الجزائر تحت نير الاسبان

ولما اشتدت حملات الاسبان بالثغور الجزائرية وانكشفت عداوتهم جهارا لاهل المغرب الاسلامي، اخذ الجزائريون في انشاء الاجفان لدفع هجمات العدو ورد عاديته عن الوطن وشرعوا في شن غاراتهم البحرية على السوحل الاسبانية واسر المعتدين وسبيهم؛ وبما ان دولة الاسبان هذه كانت في جدة ايامها ودولة بني زيان بالجزائر كانت في اعقابها، تغلب الاسبان عليهم واضطروا هم الى طلب الصلح والهدنة؛

ففي شوال سنة ٩١٦هـ (جانفيي ١٥١١م) خرج الوفد الاسلامي من الجزائر برئاسة شيخها (سالم التومي الثعالبي) متوجها نحو بجاية حيث مركز قيادة «بيدرو النافاري» عامل الاسبان ومفوضهم العسكري بالجزائر وهنالك ابرم عقد الهدنة والصلح بين الطرفين، والتزم الجزائريون بالخضوع لسلطة الغالب عليهم والافراج عن جميع الاسرى من نصارى الاسبان وغيرهم، ثم في السنة بعدها شكل الجزائريون وفدا آخر ذهب الى اسبانيا حيث اتصل بالملك «فرديناند الخامس» فاكد له حسن العلاقة بين القطرين وتقدم له رئيس الوفد سالم التومي بهدايا نفيسة فتقبلها منه الملك وافترض عليهم تسليم احدى «الصخرات» الاربع الكبرى التي كانت بارزة تجاه مدينة الجزائر، حيث شرع الاسبان في بناء حصن «بنيونش penon» فوقها سنة ٩١٥هـ [١٥١٠م] [1] وهو مكان مركز القيادة البحرية العليا اليوم بالجزائر، والزمهم ايضا بدفع مغرم باهض سنويا، فاستسلموا لذلك؛ وانزل الاسبان بهذا الحصن نحو المائتي جندي ابقوهم هنالك لرصد غزاة المسلمين وحماية الثغور الجزائرية المحتلة من نشوب الثورة

اصبحت الجزائر يومئذ تجاه هؤلاء الاسبان الذين اقبلوا يغزون البلاد ويأسرون العباد مرغمة على الاندفاع نحو فتح واجهة حربية بحرية لمحاربة

١) انظر ص ٣١ من الجزء الاول

القرصنة الاجنبية، او الدخول في حلف احد كبار البحارة الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور بهذا البحر الابيض المتوسط؛ ولم يكن لاهل الجزائر يومئذ بد من احد هذين الحلين مع طى حضارتهم القائمة على ما بنوه واشادوه من دولتهم الناشئة، والالتفات الى هذه الحرب البحرية الشديدة؛ وتلك هي الظروف نفسها التي لابست الجزائر والقت بها في احضان الدولة التركية العثمانية ووصلت اسبابها باسباب المجموعة الاسلامية الكبرى فى شرق البحر الابيض وما يليه وبذلك انتهى الدور الزياني الثاني

ملوك الدولة الزيانية

– الدور الثاني –

	تاريخ التولية
ابو سعيد عثمان «الثانى» بن عبد الرحمن	٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م
ابو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن	٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م
ابو حمو موسى «الثانى» بن يوسف	٧٦٠ هـ ١٣٥٩ م
ابو زيان محمد «الثانى» بن عثمان	٧٦٠ هـ ١٣٥٩ م
ابو تاشفين عبد الرحمن «الثاني»	٧٩١ هـ ١٣٨٩ م
ابو ثابت يوسف بن عبد الرحمن	٧٩٥ هـ ١٣٩٣ م
ابو الحجاج يوسف بن موسى	٧٩٦ هـ ١٣٩٤ م
ابوزيان محمد «الثانى» بن موسى	٧٩٦ هـ ١٣٩٤ م
ابو محمد عبد الله «الاول» بن موسى	٨٠١ هـ ١٣٩٨ م
ابو عبد الله محمد «الثالث» الوثق بن موسى	٨٠٤ هـ ١٤٠١ م
عبد الرحمن «الثالث» – بن خولة –	٨١٣ هـ ١٤١١ م
السعيد بن ابى حمو موسى	٨١٤ هـ ١٤١١ م
ابو مالك عبد الواحد بن موسى	٨١٤ هـ ١٤١٢ م
ابو عبد الله محمد «الرابع» – بن الحمرة –	٨٢٧ هـ ١٤٢٤ م
ابو مالك عبد الواحد «ثانيا»	٨٣١ هـ ١٤٢٨ م
ابو العباس احمد المعتصم ـ العاقل ـ بن موسى	٨٣٤ هـ ١٤٣١ م

ابو ثابت محمد «الخامس»	٨٦٦هـ ١٤٦٢م
تاشفين بن ابي ثابت	٨٩٠هـ ١٤٨٥م
ابو ثابت محمد «السادس»	٨٩٠هـ ١٤٨٥م
ابو عبد الله محمد «السابع»	٩٠٢هـ ١٤٩٦م
ابو حمو موسى الثالث ـ ابوقلمون ـ	٩٠٩هـ ١٥٠٣م

مشاهير الجزائريين

الشريف التلمساني

٧١٠ - ٧٧١ هـ (١٣١٠-١٣٧٠ م)

هو العلامة امام المغرب ابو عبد الله محمد بن احمد بن على الشهير بالشريف التلمساني المعروف بالعلوى نسبة الى «العلوين» بسكون اللام وكسر الواو، قرية من اعمال تلمسان، حسنى راسخ النسب لايدافع فى شرفه، ولـد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) ونشأ بها عفيفا صينا مكبا على الطلب شغوفا بالعلم،

حكى عنه خاله عبد الكريم وكان يحبه صغيراً لذكائه ويصطحبه معه دائما الى مجالس العلم والعلماء، قال: حضرنا مجلس ابى زيد بن الامام في تفسير القرآن فذكر الشيخ نعيم الجنة، فقال له الشريف وهو صبى: هل يقرأ فيها العلم؟.. فقال له الشيخ نعم، فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين، فقال له لو قلت لا لقلت لك لا لذة فيها!.. فعجب منه الشيخ ودعا له.

تجول الشريف في انحاء المغرب الاسلامى شرقيه وغربيه؛ طالبا العلم، فاخذ عن علماء فاس وتونس كما اخذ عن مشيخة الجزائر، وكان من اشهر اساتذته ولدا الامام، والمجاصى؛ والقاضي ابو عبد الله التميمى، وابو عبد الله البرونى، وابو موسى عمران المشدالى، والآبلى والسطى، وابن عبد السلام التونسى في آخرين؛ وتتلمذ له الاخير في علوم الهيئة والحكمة والفلسفة، وشهد له شيوخه كلهم بوفور العقل وحضور الذهن وكثرة التحصيل

ثم عاد الشيخ الى موطنه ومسقط راسه تلمسان متصديا للافادة والاستفادة وشرع فى تدريس العلم وارشاد العامة فاقبل عليه الناس على اختلاف طبقاتهم والتف حوله الطلبة ياخذون عنه فنونا من العلم فكثر تلامذته وملا

المغرب علوما ومعارف وتلاميذ فاحيا السنة وامات البدعة؛ ويذكر انه ابتدا الاقراء وهو ابن احد عشر سنة؛ وكان في تعليمه يترك الطالب وما تميل اليه نفسه من انواع العلم فلا يحمل احدا على نوع دون نوع ويرى الكل من السعادة ويقول : من رزق في باب من العلم فليلازمه .

ولما تملك السلطان ابو عنان المريني تلمسان سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٢) استخلص الشريف ابا عبد الله لمجلسه العلمي مع من اختاره من المشيخة، ورحل به الى فاس كما ذكره ابن خلدون: فتبرم الشريف من الاغتراب وردد الشكوى، فاحفظ السلطان بذلك، وارتاب به، ثم بلغه اثناء ذلك ان السلطان ابا سعيد عثمان ملك تلمسان اوصاه على ولده، واودع له مالا عند بعض الاعيان من اهل تلمسان، وان الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة وسخط على الشريف بذلك ونكبه واقام في اعتقاله اشهرا، ثم اطلقه اول سنة ست وخمسين واقصاه، ثم اعتبه بعد فتح قسنطينة واعاده الى مجلسه الى ان هلك السلطان آخر سنة تسع وخمسين

ولما ملك السلطان ابو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني تلمسان من يد بني مرين استدعى الشريف من فاس، فسرحه القائم بالامر يومئذ، الوزير عمر بن عبد الله. فانطلق الى تلمسان، وتلقاه ابو حمو براحتيه واصهر له في ابنته؛ فزوجها اياه. وبنى له مدرسته الشهيرة باسمه سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م) وجعل في بعض جوانبها مدفن ابيه وعمه، واقام الشريف يدرس العلم الى ان هلك سنة ٧٧١هـ (١٣٧٠م) (١)

انقطع الشيخ في مدرسته بتلمسان للبحث والنظر والدرس والتعليم والارشاد فكان يمضي جل اوقاته في ذلك مع ماكان عليه من التعبد والتهجد والزهد وتلاوة القرآن، حكى عنه ولده ابو محمد عبد الله قول انه بقي دهرا — ما يزيد على سنة اشهر — لم ير فيها اهله وولده اشتغالا بالدرس والبحث، وهو مقيم بينهم !. ذلك انه كان

١) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٤٠١-٤٠٢

عند ما يستيقظ بكرة يغدو في حينه الى المدرسة وهم نائمون، ولا يعود اليهم الا ليلا وهم نائمون، ثم انه كان لا ينام من الليل الا قليلا، - كانوا قليلا من الليل ما يهجعون - واذا غلبه النوم نام نومة خفيفة ثم اذ استيقض لا يعود ويقول : اخذت النفس حقها فيتوضأ والوضوء من اخف الاشياء عنده ثم يرجع للنظر، وربما وضع له الطعام في رمضان فيشغله النظر ويؤتى بسحوره فيتركهما معا كذلك حتى يصبح ويواصل الصوم!.. وكان من كثرة ازدحام الطلبة عليه يوزع بينهم ساعات الدرس بالرملية

اجمع اهل التراجم والطبقات على امامة المترجم وكماله في علمه وصلاحه واخلاقه، فذكروا انه كان من احسن الناس وجها وقدرا: مهيبا، ذا نفس كريمة وهمة نزيهة ولهجة صادقة، حليما لا يغضب، واذا غضب قام فتوضأ، قوى النفس رفيع الملبس بلا تصنع ولا تكبر، جميل العشرة بساما، منصفا عادلا، متوسطا في اموره، طويل اليد كريما، يكرم ضيفه ويقرب له ماحضر يطعم الطلبة طيب الاطعمة ولذيذها ولا يؤثر عنهم غيرهم؛ وكثيرا ماكانت ترد عليه الاسئلة من السلطان فما دونه فيوجهها الى الطلبة ويسميهم باسمائهم لرفع منزلتهم عند السلطان وغيره، فكانوا بذلك على عهده من اعز الناس واكثرهم عددا واوسعهم رزقا؛

كان فيمن اخذ عن الشيخ ممن اشتهر ذكره من علماء المغرب واعيانه : العلامة ابن خلدون، والامام الشاطبي، وابن زمرك، وابراهيم الثغرى، وابو عبد الله القيسي، وابن عباد، وابن السكاك، وابن محمد بن علي الميورقي، وابراهيم المصمودى الخ....

وذكره ابن خلدون فقال : هو صاحبنا - يعني صاحب الترجمة - الامام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والاصول. وذكره الونشريسي فقال : انه كان اماما في العلوم العقلية كلها، منطقا وحسابا، وفرائض، وتنجيما،

وهندسة، وموسقى، وتشريحا، وفلاحة وكثيرا غيرها من العلوم القديمة – يعنى بها علوم الحكمة – ؛ وذكره السراج فى فهرسته فقال انه بلغ رتبة الاجتهاد؛ كما ذكره بذلك ايضا الجد بن مرزوق. وقال ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شيوخنا أعلم اهل عصره باجماع؛ وتذاكر المترجم يوما مع الامام ابن عرفة، فقال له الامام : غايتك فى العلم لا تدرك؛ وكان الامام بن عبد السلام يقول عنه : ما اظن فى المغرب عالما مثل هذا. واما الرئيس ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب فانه كان كلما الف أوكتب كتابا الا وبعث به الى الشريف طالبا منه ان يكتب عليه بخطه. وكان العلامة ابو سعيد بن لب شيخ علماء الاندلس يستفتيه ويستشيره فيما اشكل عليه من مسائل العلم فقها او غيره

ومن شدة عناية الاستاذ المترجم بالاقراء والدرس لم يسعه الزمن للوضع والتاليف، فانه لم يبلغنا بالنسبة الى غزارة علمه وسعة اطلاعه من خبر تآليفه، الا القليل، منها كتابه الجليل «مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الاصول» طبع بتونس سنة ١٣٤٦هـ كتب عليه شيخنا الامام عبد الحميد بن باديس شرحا مختصرا وضعه للطلبة حال تدريسه للكتاب ولم يطبعه،وله شرح على جمل الخونجي في المنطق انتفع به خلق كثير، وكتاب فى القضاء والقدر، وكتاب فى المعاوضات او المعاطاة ؟ .. وله فتاوى ورسائل واجوبة فى مسائل من العلم مختلفة؛ منها ما اجاب به عالم توزر الشيخ يحيى الرهوني ومنها غير ذلك

وكانت وفاة الشيخ رحمه الله ليلة الاحد الرابع من ذى الحجة سنة ٧٧١هـ (٢٩ جوان ١٣٧٠م) ببلده تلمسان وحضر لدفنه السلطان ابو حمو الثاني قائلا في تعزيته لولده : مامات من خلفك وانما مات ابوك لى، لانى اباهى به الملوك. وولاه مدرسة والده ورتب له جميع مرتباته. قال ابن عرفة حين بلغته وفاته : لقد ماتت بموته العلوم العقلية

□

احمد بن علي المليانى

٧١٥هـ (١٣١٥م)

هو الاديب الكاتب والشاعر العظيم صاحب العلامة ببلاط ملوك المغرب ابو العباس احمد بن على المليانى ترجم له لسان الدين بن الخطيب فى الاكليل وعرف به في الاحاطه قائلا : «الصارم الفاتك، والكاتب الباتك، اى اضطراب في وقار وتجهم تحته انس العقار، اتخذه ملك المغرب صاحب علامته، وتوجه تاج كرامته، وكان يطالب جملة من اشياخ مراكش بثار عمه، ويطوقهم دمه بزعمه، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه، اذ سعوا فيه حتى اعتقل، ثم جدوا في امره حتى قتل، فترصد كتابا الى مركش يتضمن امرا جزما، ويشمل من امور الملك عزما، جعل فيه الامر بضرب رقابهم، وسبى اسبابهم، ولما اكد على حامله فى العجل، وضايقه في تقدير الاجل، تانى حتى علم انه قد وصل، وان غرضه قد حصل، فر الى تلمسان وهى بحال حصارها، فاتصل بانصارها، حالا بين انوفها وابصارها، وتعجب من فراره، وسوء اغتراره، ورجمت الظنون في آثاره، ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة؛ واستيلاء القتل على اعلام تلك القبيلة فتركها شنيعة على الايام، وعارا في الاقاليم على حملة الاقلام، وأقام بتلمسان الى ان حل مخنق حصارها، وازيل هميان الضيقة عن خصرها، فلحق بالاندلس ولم يعدم برا ورعيا مستمرا حتى اتاه حمامه وانصرمت ايامه فتوفى بغرناطة يوم السبت ٩ ربيع الاخر عام ٧١٥هـ (١٣ جوليط ١٣١٥م) ودفن بجبانة باب البيرة ومن شعره قوله في الفخر

العز ما ضربت عليه قبابى   والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزهر ما اهداه غصن يراعتى   والمسك ما ابداه نقش كتابى
فالمجد يمنع ان يزاحم موردي   والعزم يابى ان يسام جنابى

فاذا بلوت صنيعة جازيتها بجزيل شكرى اوجزيل ثوابى
واذا عقدت مودة اجريتها مجرى طعامى من دمى وشرابى
واذا طلبت من الفراقدوالنهى ثارا فاوشك ان انال طلابى

ابن مرزوق الحفيد
٧٦٦-٨٤٢هـ (١٣٦٤-١٤٣٩م)

كان ممن اشتهر بالعلم والرئاسة والفضل من بيوتات الجزائر واعيانها في هذا العصر بيت ابن مرزوق الذائع الصيت، وقد تقدم لنا الكلام على هذا البيت الرفيع العماد فيما اسلفناه من ترجمة ابن مرزوق الجد الشهير بالخطيب

لقد تالق في سماء بيت ابن مرزوق بدور واقمار كان كوكبها الدرى ونجمها الثاقب مترجمنا هذا العلامة الامام شيخ الاسلام ومفتى الانام ابو عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق الحفيد العجيسى؛ (١)

ولد رحمه الله بتلمسان ليلة الاثنين ١٤ ربيع الاول سنة ٧٦٦هـ (١٠ ديسنبر ١٣٦٤م) ونشا على غرار نشاة آباءه مستمسكا بالعلم والدين فاخذ عن والده وعمه ابنى الخطيب بن مرزوق، وعن سعيد العقبانى؛ وابى اسحاق المصمودى؛ وابى الحسن الاشهب الغمارى وعن ابى محمد عبد الله بن الشريف التلمساني؛ ثم ارتحل الى تونس فلقى بها الامام بن عرفة؛ وابا العباس القصار؛ ثم دخل فاسا فاخذ بها عن الشيخ ابى زيد المكودى وابن حياتى. والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجى الفيلالى، ثم اتصل بعد ذلك بالمشرق فدخل مصر القاهرة؛ آخذا عمن لقى بها من جلة العلماء كابن خلدون والفيروز ابادى صاحب القاموس، والنويرى صاحب النهاية، ومحب الدين بن هشام ولد صاحب المغنى؛ والسراج البلقينى.

١] نسبة الى القبيلة الجزائرية العظيمة «عجيسة» المقيمة بجبال المسيلة شرقى صنهاجة وجنوب زواوة، اى في نفس المكان الذى انشئت به قلعة بني حماد، انظر صفحة ١٠٤ من هذا الجزء و ج ١ ص ٢٨٩

والحافظ العراقي؛ والشمس الغماري؛ والقاضي ناصر الدين التنسي، وابن الملقن في آخرين من ذوي الفضل والتبريز، ثم عاد الى المغرب.

وحج سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) رفقة الامام ابن عرفة فلقي بمكة المكرمة البهاء الدماميني، والنور العقباني فاخذ عنهما، وروى صحيح الامام البخاري عن ابن الصديق ثم رجع الى وطنه؛ وحج ثانيا عام ٨١٩هـ (١٤١٦م) فكان ممن لقيه واخذ عنه في هذه المرة. الامام ابن حجر؛ واجازه من علماء الاندلس جماعة، منهم محمد بن جزى، وابن الخشاب، وابو عبد الله القيجاطي والمحدث الحفار، والحافظ ابن علاق وغيرهم

اشتهر ابن مرزوق الحفيد بما اشتهر به جده الخطيب من الرسوخ في العلم والاطلاع الواسع والتحقيق المدقق في الدرس والذكاء وحسن البيان والخطابة والتوسع في الرواية، والاحاطة بمذاهب الفقه الاسلامي وحل مقفلات المسائل العلمية والمشكلات، هذا بالاضافة الى كرم الاخلاق مع شدته على اهل الاهواء والبدع، فاجمع الناس يومئذ على فضله من المغرب الى الديار المصرية واشتهر ذكره في البلاد فصار يدعى بشيخ الاسلام وعالم الدنيا

اثنى عليه تلميذه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي فقال: «هو سيدي الشيخ الامام الحبر الهمام حجة اهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحلة النقاد وخلاصتهم ورئيس المحققين وقادتهم، السيد الكبير والذهب الابريز؛ والعلم الذي نصبه التمييز، ابن البيت الكبير، والفلك الاثير، ومعدن الفضل الكثير....» وقال ايضا في موضع آخر: «شيخي الامام العلم الصدر الابير المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين، وامام الحفظة الاقدمين والمحدثين، سيدوقته وفاروق اوانه، ذو الاخلاق المرضية، والاحوال الصالحة السنية، والاعمال الفاضلة الزكية .....» وقال تلميذه ابو الفرج بن ابي يحيى الشريف التلمساني: «شيخنا الامام العالم العلم جامع اشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا، راسخ القدم

رافع لواء الامامة بين الامم ناصر الدين بلسانه وبنانه وبالعلم، محيى السنة بفعاله ومقاله وبالشيم، حجة الله على العلم والعالم ...»

وقال تلميذه الشيخ يحيى بن ادريس المازونى في نوازله : « شيخنا الامام الحافظ بقية النظار والمجتهدين، ذو التآليف العجيبة، والفوائد الغريبة، مستوفى المطالب والحقوق...» وقال الحافظ التنسى وهو من تلامذته ايضا : «شيخنا الامام العلامة رئيس علماء المغرب على الاطلاق ...» وذكره ابو الحسن القلصادى في رحلته فاثنى عليه وقال : «ادركت بتلمسان كثيرا من العلماء والزهاد والعباد والصلحاء واولاهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الامام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا ابو عبد الله بن مرزوق العجيسى رضى الله عنه...» ويكفيه فخرا ان كان من بين تلامذته رحمه الله مثل هؤلاء الجلة: الثعالبى والمازونى والتنسي والقلصادى وابو الفرج بن ابى يحيى الشريف التلمسانى؛ والعلامة ابو الفضل المشدالى، ونصر الزواوى، والحسن ابركان وقاضى الجماعة بتونس عمر القلشانى، وابراهيم بن فائد الزواوى، واحمد بن زكرى، والسيد الشريف قاضى الجماعة بغرناطة، واحمد بن يونس القسنطينى، وابو العباس احمد بن عبد الرحمن الندرومي وعيسى بن سلامة البسكرى، والشهاب بن كحيل الخ....

واما تآليفه فقد ذكر له اهل التراجم والسير عددا جما، ولم يصلنا منها الا القليل؛ فمن ذلك وهو ما وقفت عليه بنفسي: جزآن من شرح البخارى كان كلاهما موجودا بالجامع الجديد بالجزائر وهما بخط المؤلف. ثم فقد احدهما وهو الاول وبقى الثاني!... وهو شرحه المسمى بالمتجر الربيح، والسعى الرجيح، وكتاب اظهار صدق المودة، شرح به بردة المديح، تكلم على كل بيت منها وشرحه بسبعة فنون، رايت منه نسخة عند صديقنا الاستاذ احمد بن جودة في منزله بالابيار بضواحى الجزائر؛ والمفاتيح المرزوقية لحل الاقفال واستخراج خبايا الخزرجية في علم العروض والقوافى، وهو بمكتبتنا الخاصة، وكتاب اسماع الصم فى اثبات

الشرف من جهة الام منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم (٦٧ ٢٠) هذا ما وقفت عليه وعاينته من تآليفه رحمه الله واما غيرها مما لم اره فكثير منها ما تم تاليفه وكمل ومنها مالم يتم واليك قائمة اسمائها : شرحان آخران للبردة، اوسط واصغر، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطسية، ورجزان في علم الحديث : الكبير المسمى بالروضة جمع فيه بين الفيتى ابن ليون والعراقي، ومختصر الحديقة اختصر فيه الفية العراقى، وارجوزة فى الميقات اسماها بالمقنع الشافى في الف وسبعمائة بيت، وارجوزة الفية في محاذات الشاطبية، وارجوزة نظم بها تلخيص المفتاح، وارجوزة اخرى فى تلخيص ابن البناء وارجوزة نظم بها جمل الخونجى فى المنطق، ذكر الصبان في حاشيته على شرح الملوى على سلم الاخضرى ان المترجم نظم الخونجى في عهد صباه بحيث لم يتجاوز سنه ست سنين؟.. وقال ان ذلك اشار اليه ابن مرزوق نفسه في نظمه، وارجوزة في اختصار الفية ابن مالك، ونهاية الامل فى شرح جمل الخونجى، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة يعنى ابا يحيى بن عقيبة - والمعراج الى استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج، اجاب به قاضى الجماعة بغرناطة العلامة ابن سراج عن مسائل نحوية ومنطقية؛ ونور اليقين فى شرح اولياء الله المتقين؛ والدليل الموفى في ترجيح طهارة الكاغد الرومى، والنصح الخالص فى الرد على المدعى رتبة الكمال للناقص، كتبه في سبعة كراريس رد به على فتوى عصريه وبلديه الامام قاسم العقبانى الذى افتى باصابة بعض اعمال واقوال صدرت عن بعض المتصوفة. فخالفه فيها ابن مرزوق. ومختصر الحاوى في الفتاوى لابن عبد البر التونسي. والروض البهيج فى مسالة الخليج وانوار الدراري فى مكررات البخاري. ورسالة فى ترجمة شيخه ابراهيم المصمودي وتفسير سورة الاخلاص على طريق الحكماء. وله فتاوى واجوبة متنوعة اورد بعضها المازونى والونشريسي في كتابيهما، وله شرح على ابن الحاجب وشرح على التسهيل

وميز بعضهم مؤلفات الشيخ التى لم تكمل فذكر منها المتجر الربيح وروضة الاريب في شرح التهذيب، والمنزع النبيل فى شرح مختصر خليل، شرح منه الطهارة في مجلدين ضخمين، ومن باب الاقضية الى آخر الكتاب فى سفرين لخصه العلامة الراعى، وايضاح المسالك فى شرح الفية ابن مالك انتهى فيه الى باب اسم الاشارة او الموصول، وهو مجلد واحد، ومجلد فى شرح شواهد شراحها الى باب كان واخواتها، وعقيدة اهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد وعلى منحاه بنى السنوسى عقيدته الصغرى، والايات الواضحات فى وجه دلالة المعجزات، والدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم، واسماع الصم،

كانت وفاته رحمه الله يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٨٤٢هـ (٣٠ جانفيى١٤٣٩م) وصلى عليه بجامع تلمسان الاعظم وحضر جنازته السلطان والاعيان

محمد بن يوسف الثغرى

اواخر القرن الثامن الهجرى

هو العالم الاديب الكاتب البارع والشاعر المفلق ابو عبد الله محمد بن يوسف القيسى التلمسانى المعروف بالثغرى من اشهر شعراء تلمسان وبلغائها المبرزين المقدمين لدى سلاطينها وملوكها، وصفه المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الامام العالم العلامة الاديب الاريب الكاتب، وترجم له ابن ابى مريم فقال : اخذ عن الشريف التلمساني وغيره وحلاه المقرى فى ازهار الرياض بقوله : الفقيه العلامة الناظم الناثر.

كان رحمه الله ملازما لبلاط السلطان ابى حمو موسى «الثانى» وله القصائد الغراء الطوال التى كان ينظمها بمناسبة احتفال السلطان بليلة المولد الشريف، ويلقيها بنفسه في ذلك المحفل الجميل، منها ما نظمه في مطلع قصيدته التى انشدها ليلة مولد سنة ٧١٧هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٩م) :

اقصر فان نذير الشيب وافاني وانكرتني الغواني بعد عرفان
وقد تماديت في غي بلا رشد والنفس تامرني والشيب ينهاني
فقلت للنفس اذ طالت بطالتها مهلا الم يان ان تخشى الم يان
كم من خطا في الخطايا قد خطوت ولم تراقب الله في سر واعلان
فلا تغرنك الدنيا بزخرفها فياندامة من يغتر بالفاني

وله قصيدة رفعها الى السلطان ابى حمو يصف بها تلمسان فيقول :

ايها الحافظون عهد الوداد جددوا انسنا بباب الجياد
وصلوها اصائلا بليال كلآل نظمن في الاجياد
في رياض منضدات المجاني بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني باديات السنى كشهب بوادى
رق فيها النسيم مثل نسيبي وصفا النهر مثل صفو ودادى
وزها الزهر والغصون تثنث وتغنت عليه ورق سوادي
وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسي النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه احرفا سطرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود قضب نوقه ذوات امتداد
وكؤوس المنى تدار علينا بجنى عفة ونقل اعتقاد
واصفرار الاصيل فيها مدام وصفير الطيور نغمة شادى
كم غدونا بها لانس ورحنا جادها رائح من المزن غادي
ولكم روحة على الدوح كادت ان تريح الصبا لنا وهو غادى
رقت الشمس في عشاياه حتى احدثت منه رقة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب هاجه الشوق بعد طول البعاد الخ .

وتحتوي القصيدة على تسع واربعين بيتا، وله غير ذلك من غرار الشعر ولطائفه اورد له علامة الجزائر واديبها المتفنن ابو العباس احمد بن عمار نبذة في رحلته «نحلة اللبيب» والمقرى في «الازهار» فراجعهما

جدول تاريخي

٧٣٧-٩١٦هـ

١٣٣٧-١٥١١م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٧٣٧هـ ١٣٣٧م	بسط سيادة بنى مرين على المغرب الاوسط - الجزائر -
٧٤٩هـ ١٣٤٨م	نهضة بنى عبد الواد لاسترجاع سلطتهم على الجزائر
٧٦٠هـ ١٣٥٩م	انبعاث الدولة الزيانية على يد السلطان ابى حمو «الثانى»
٧٦١هـ ١٣٦٠م	احتلال بنى مرين لتلمسان ومحارباتهم لبنى زيان
٧٦٥هـ ١٣٦٤م	ثورة ابى زيان الفتى على ابى حمو
٧٦٦هـ ١٣٦٥م	خراب مدينة الجزائر بالزلزال الهائل
٧٦٧هـ ١٣٦٦م	انكسار ابي حمو فى وقعة بجاية ضد الحفصيين
٧٧١هـ ١٣٧٠م	انحصار الثعالبة بمتيجة والجزائر
٧٧٢هـ ١٣٧٠م	سقوط تلمسان في قبضة بنى مرين وخروج ابى حمو الى البرارى
٧٧٤هـ ١٣٧٢م	عودة ابى حمو الى ملكه
٧٦هـ ١٣٧٥م	مبايعة اهل مدينة تدلس ـ دلس ـ لبني زيان وانتشار المجاعة الكبرى بالجزائر
٧١هـ ١٣٨٩م	ثورة ابي تاشفين ولد ابي حمو واستشهاد والده
٧٢هـ ١٣٩٠م	ثورة ابى زيان بن ابى حمو
٧٠هـ ١٣٩٣م	تنكر مرين لبنى زيان وسقوط تلمسان في ايديهم
٧٥هـ ١٣٩٤م	تناحر امراء الاسرة الزيانية على الملك - بايعاز المرينيين -
٨٠هـ ١٣٩٩م	هجوم الافرنج على مدينة بونة ومرسى القل
٨٠هـ ١٤٠١م	اغارة مرين وقبضها على السلطان ابي محمد عبد الله «الاول»

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٨١٤هـ١٤١١م	انتصار الامير ابى مالك عبد الواحد على اخيه السلطان السعيد باعانة مرين
٨٢٧هـ١٤٢٤م	زحف الحفصيين الى مملكة تلمسان وتدخلهم فى سياستها
٨٣٣هـ١٤٣٠م	ثورة الامير ابن الحمرة ونهايته
٨٤٠هـ١٤٣٧م	ثورة الامير ابي يحيى على اخيه السلطان العاقل واستيلاؤه على وهران
٨٤٢هـ١٤٣٨م	ظهور المستعين بالله بالجزائر واستيلاؤه على نواحيها
٨٥١هـ١٤٤٧م	استرجاع السلطان العاقل لوهران
٨٥٦هـ١٤٥٢م	ابتداء الهجرة الاندلسية الى السواحل الجزائرية
٨٦٦هـ١٤٦٣م	ثورة الامير المتوكل واستيلاؤه على اطراف المملكة الجزائرية
٨٦٧هـ١٤٦٣م	استيلاء الاسبان على بونة – عنابة –
٨٦٨هـ١٤٦٣م	استقلال الجزائر عن الحكومة الحفصية ورفض دعوتها ثم الاستسلام لها
٨٩٧هـ١٤٩١م	التجاء السلطان ابى عبد الله بن سعد المعروف بالزغل – من بنى الاحمر النصريين ملوك غرناطة – الى وهران ثم الى تلمسان، وبها اعقب من عرف هناك ببنى سلطان الاندلس
٩١١هـ١٥٠٥م	احتلال الاسبان للمرسى الكبير بوهران
٩١٥هـ١٥٠٩م	احتلال مدينة وهران ثم دلس، ثم بجاية وتنس وشرشال وسقوط السواحل الجزائرية بيد الاسبان
٩١٦هـ١٥١١م	الجزائر تحت الخطر الاسباني

القسم الثالث

الجزائر المكافحة

—

الحملة الاسبانية والاتراك

كانت الجزائر في اوائل القرن العاشر الهجرى مرتعا للحروب الاهلية الممزقة وغرضا ملحوظا للاجانب المتوثبين، تعانى الامرين من الملوك المتنافسين والرؤساء الجائرين المتنازعين والنصارى المغيرين تتميما لبرامجهم وخططهم الصليبية المرسومة فكثر يومئذ ازدحامهم واشتد تحاككهم على هذا الشمال الافريقي وخاصة منه الجزائر، وذلك بعد ما قضوا على دولة الاسلام والمسلمين بالاندلس وصقلية؛ وقد من الله على اهل الجزائر واولاهم بمن يدافع عنهم ويرد صولة هذه الاعتداءات الافرنجية ويفل سلاحها؛ وذلك بالهامهم الى الالتجاء الى الرئيس البحرى عروج بن يعقوب المدلى التركى واخيه خير الدين المتجولين بمراكبهما القرصنية بهذا البحر الابيض المتوسط، وقد اظهرا من البطولة الخارقة والغيرة الاسلامية على اهل الجزائر والاندلس ما يسجله التاريخ لهما بافخر الذكر وجزيل الشكر، فكان انقاذ الموقف بمقاومتهما العنيفة لهؤلاء المغيرين من الاسبان وغيرهم من دول النصرانية، ودفعهما عن الجزائر كل ما كانت مهددة به من الاخطار كما سنذكره فى محله من تاريخ الاتراك بالجزائر فى هذا الكتاب

ومنذ يومئذ والجزائر فى كفاح واحتجاج مستمر ضد الاجنبى الذى تكررت اعتداءاته المتنوعة عليها في احيان وظروف مختلفة الى اليوم؛ وستقف بنفسك فيما نعرضه عليك من مراحل تاريخ الجزائر على تفاصيل مدققة مضبوطة تنبئك بما كان ولايزال عليه الجزائريون المغاوير الانجاد من الكفاح وتطلعك على مبلغ ايمانهم وثباتهم على المبدا واستماتتهم في سبيل تحرير البلاد من ربقة الاستعباد

وقاوم الاتراك الاسبان واحتلوا تلمسان سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) كما سنقصه عليك مفصلا، ونقلوا سلطانها ابا حمو الى وهران ونصبوا مكانه ابا زيان الثالث

ولاية السلطان ابي زبان احمد «الثاني»

هو السلطان ابو زيان احمد «الثاني» بن عبد الله «الثاني» انتصب على عرش تلمسان سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وكان اول ما قام به من الاعمال ان اخذ في دفع الاتراك عن ولايته باعتبارهم اجانب مزاحمين فاجتهد في اجلائهم عن مملكته وقاتلهم حتى استشهد في طائفة عظيمة من ذويه واقربائه وبني عمه ومات يومئذ من جنده نحو الف نسمةونزل عروج بتلمسان

زحف ابي حمو واستشهاد عروج

كان اثر ما احتل عروج تلمسان ان اسرع ابو حمو الى استنجاد الاسبان والاحتماء بهم ضد الاتراك فاعانوه وحاصروا معه تلمسان وضربوا اوتادهم بها في جمادى الاولى سنة ٩٢٤هـ (ماى ١٥١٨م)، وكان من حسن حضه ان تاخر المدد عن عروج فاضطر الى الانسحاب من العاصمة الزبانية وغادرها منصرفا الى ناحية الوادى الملح، وفي منصرفههناكبقرب مقطع الوادى اخذه فرسان الاسبان من مكمن لهم غيلة فقاتلهم حتى استشهد رحمه الله بالميدان فحزوا راسه واخذوه معهم الى اسبانيا يطوفون به الشوارع تسكينا للرعية التي كانت ترتعد فرائصها فرقا لذكره. ويروى على السن بعض القالة ان جثته نقلت الى الجزائر فدفنت بجوار ضريح «سيدي رمضان» بجانب المسجد الجامع المعروف الى اليوم، وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان ابى حمو «الثالث»

□

ولاية السلطان ابى محمد عبد الله «الثاني»

هو السلطان ابو محمد عبد الله «الثاني» بن السلطان ابي ثابت «الثانى» المعروف باسم محمد المتوكل على الله، تولى عرش تلمسان سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م) والجزائر يومئذ تتدافع بين جاذبيتين عظيمتين؛ ما بين اتراك واسبان، كل منهما

يحاول ضمها اليه؛ فاحدث ذلك قلقاواضطرابا؛ فاجتهدالسلطان ابو محمد في اخماد نار الفتنة واطفائها والسعي في اكتساب مسالمة الطرفين او المتاركة على الاقل فلم ينجح

ثورة الامير ابي سرحان وتملكه

كان الامير ابو سرحان المسعود الزياني مبعدا بفاس من طرف اخيه السلطان المذكور؛ واتفق ان فازيوما بعفوه فخرج من منفاه معتزما على اخذ ثاره من اخيه بعزله عن العرش، فتنكب في طريقه الى تلمسان وذهب مستنجدا بخير الدين التركي، فامده امير البحر هذا بكل ما لديه من القوة؛ من جيش ومال، على ان ينضوي تحت سلطة الدولة التركية ويبايع السلطان سليم العثماني مع دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة، فتم عقد ذلك بينهما واقتحم ابو سرحان مدينة تلمسان فامتلكها سنة ٩٢٥ﻫ (١٥١٩م) واطرد عنها اخاه ابا محمد.

عودة ابي محمد الى الملك

ولما تمكن ابو سرحان من الملك واستقر على عرشه لم يلبث ان نزت في راسه سورة الانفة، وملكته عزة النفس فرفض العهد الذي ابرمه مع خير الدين واعلن استقلال دولته عن كل سلطة اجنبية: فاظلم الجو بينه وبين الاتراك؛ وكان اخوه ابو محمد في انتظار مثل هذه الفرص السانحة ليثب الى غرضه، وبمجرد ماظهرت هذه البادرة من ابي السرحان اسرع ابو محمد الى استثمار الموقف وبادر الى خير الدين فضمن له الوفاء بما عاهده عليه اخوه من قبل، فآزره خير الدين وايده على خطته فانتصر ابو محمد على اخيه واسترجع حقه الشرعي في العرش وعاد الى ملكه كما كان. وفر ابو سرحان متنقلا في انحاء القطر مصلتا سيف الفتنة الى ان وقع في قبضة السلطان فاسره، ويومئذ انقطع الملك الى مقاومة الاسبان ومطاردتهم من الجزائر

نقض معاهدة الاتراك

بما ان الدولة التركية حديثة عهد بالجزائر يومئذ وانها لم تزل في بداية امرها فلم تستكمل عدتها ولم تتمكن من بسط يدها على اطراف الوطن، نظر اليها السلطان ابو محمد نظرة استصغار واستخفاف وبادر باعلان نقض المعاهدة والميثاق الذى ابرمه مع خير الدين، فتنمر له الاتراك يومئذ واروه شدة باسهم، فخضع صاغرا لتنفيذ مواد الوثيقة بحذافيرها، ثم كانت وفاته سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) فخلفه ولده محمد

□

ولاية السلطان محمد «السابع»

هو السلطان ابو عبد الله محمد «السابع» بن السلطان ابى محمد عبد الله «الثانى» تولى الملك بعد ابيه سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) وشان الحكومة الزيانية يومئذ في ادبار وانهيار، فانحاز الى الاسبان محتميا بهم ضد الاتراك، واليك رسالته الحربية التى كتبها الى امبراطورة الاسبان «دنيا ايزابيل» تمثل لك مبلغ امله في الاسبان وتعلقه بهم فى سياسة ضد خصومه الاتراك؛ كما تستشف منها ايضا نموذجا من اسلوب الانشاء العربي الديبلوماسي ببلاط ملوك الجزائر يومئذ، جاء اولا في عنوان الوثيقة — او الرسالة — ما يلى :

«الحمد لله تعالى، حمدا كثيرا يتجدد ويتوالى، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم.

«الحضرة التي جل في الاقدار قدرها، واشتهر في الفضائل والمفاخر فضلها وفخرها، حضرة السلطانة الجليلة الفاضلة الكاملة الشهيرة الخطيرة الحسيبة الاصيلة، الانبراطريس، دونيا ايزابيل اسعدها الله بتقواه ووفقها لما يحبه ويرضاه كتبناه اليكم من حضرتنا تلمسان حرسها الله، ونحن نحمد الله الذى

لاشيء كمثله، ونشكره على جميل احسانه وفضله، ونسأله اليمن والتوفيق فى شاننا كله، وعندنا لجنابكم المرفع كرامة نستوفيها، ومبرة لا شك فيها، وعلمنا بمجدكم الشهير، وقدركم الخطير، يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها، والى هذا فموجب كتبنا اليكم، هو اعلامنا واياكم بما نحن عليه من الوفاء القديم والتمادى من الاسباب المرعية على المنهج القويم، وقد وصلنا كتابكم المعظم، وخطابكم المكرم، صحبة خديمكم الفارس المحترم لويش هرندس، وعرفنا منه جميع ما ذكرتم: واستوفينا ما شرحتم، فقابلنا تعريفكم بالشكر الجزيل، واثنينا على مقامكم الثناء الجميل؛ عملا على ما ثبت لدينا من ودكم، وتقرر، وتردد وتكرر، واننا الآن وجهنا اليكم من يجدد العهد بهذا الغرض، ويقوم منه بالواجب المفترض، ويقرر لديكم معتقدنا من صدق الوداد، وخلص الاعتقاد وهو اعز قوادنا ببابنا الكريم، والمعتمد منا بمزيد التفضيل والتقديم، الاصيل المجد فى ذوى الحسب الصميم، القائد المرفع المحترم، الثقة الامين على اسرارنا في البدء والمختتم، الفارس ابن عبد الله ابن وزير دولتنا وبلادنا ورئيس حماتنا وانجادنا الشيخ الوزير محمد بن ابي غانم حفظ الله رتبته، وحرس وجهته، ومعه خديمكم لويش هرندس اكرمه الله فوجهناه اليكم ليطالعكم بعيون الاخبار وجميع المتزايدات بهذه الاقطار؛ ولتلقوا اليه ما ينفذ به امركم من جلب المصالح؛ وما يعود علينا وعليكم نفعه من النظر السديد والراى الناجح فان نيتنا في ودكم ما زالت، واغراضنا جارية على ما يليق بنا وبكم ما تبدلت ولا حالت، ولا تلتفتوا لما كنا موهنا به في العام السالف من تقديم من قدمناه بوطن اغيال. وما خيلنا من تلك الاحوال؛ فمقامكم اوسع فضلا؛ وارجح عقلا؛ من ان يظن ان ذلك كان منا عن حقيقة؛ اوانا ارتضينا سلوك تلك الطريقة؛ بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر وما هو يرومه من تشغيبنا فى الباطن والظاهر، ففعلنا ذلك طمعا منا في مهادنته، وحيلة

لجلب محاسنته ، ولما اعيانا أمره واشتد تنكيره وضره ، اظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته وقابلناه بما يليق بفساد نيته وخبث سريرته وقد توفر الآن عزمنا فى اعمال الحركة عليه والتوجه بكل وجه يمكن اليه ، فجميع العرب والقبائل على حربه متفقون والى تضييقه وحصاره شارعون ، وغرضنا منكم ان تبادروا بتوجيه العمارة فى الحين والوقت بالجد والعزم وتجتهدوا فى ذلك غاية الاجتهاد والاخذ بالحزم وتكونوا عليه براً وبحرا يداً واحدة وفئة مساعدة وتجاوبونا مع الرسولين المذكورين بما يظهر لكم وما يقتضيه فى ذلك نظركم وفعلكم ، هذا ما عندنا عرفناكم به شافيا ، ولتكميل المقاصد كافيا ان شاء الله ؛ وكتب عن امر عبد الله المتوكل على الله امير المسلمين عبد الله بن مولانا امير المسلمين ابي عبد الله ايده الله ونصره فى ثامن عشر جمادى الأخرى عام تسعة وثلاثين وتسعمائة . »

ولا يزال اصل هذه الوثيقة محفوظا ضمن مجموعة المخطوطات والوثائق السياسية الدبلوماسية المختلفة بدار المحفوظات فى قلعة « سيمانقا » قرب بلد الوليد «Walla dolid» باسبانيا . ويوافق تاريخ هذه الوثيقة من التاريخ الشمسى ١٥ جانفي ١٥٣٣م .

والسبب في ان سلطان تلمسان يوجه رسالته هذه باسم – الانبراطريس دنيا – دون زوجها شارلكان؛ هو ان زوجها الامبراطور كان يومئذ بعيدا عن اسبانيا مشغتلا بمحاربة جيوش السلطان سليمان العثمانى على ضفاف نهر الدنوب

ونجحت سفارة امير تلمسان ورأى الاسبان ان لاتفوتهم هذه الفرصة يومئذ فارسلوا اليه من اسطولهم اربع عشرة شفينة رست كلها بمرسى هنين القريبة من تلمسان، وكان قد سبق ان عقد السلطان مع الاسبان حلفا على قتال خير الدين وتعهدوا له بمقتضاه ان ينزلوا له عن مدينة الجزائر اذا استولوا هم عليها .

وجمع امير المسلمين قواته العسكرية المجتمعة من العرب والبربر وزحف بهم الى مدينة الجزائر، وقد تشجع بمؤازرة الاسبان له فتحدى خير الدين ،فبادر يومئذ

خير الدين الى اعلان الحرب والتقى الفريقان على مقربة من الجزائر، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها سلطان تلمسان ومزقت قواته ففر فى فلول جيشه ورجع القهقرى الى عاصمته ، واستمر خير الدين مكرا في اثره . وعندئذ اضطر السلطان الى طلب الصلح والصفح عنه من خصمه الظافر فعفا عنه خير الدين .
اما سفن الاسبان فبقيت فى مرساها ترقب الفرص ، ولم تشترك يومئذ في القتال فلم يغن وجودها عن السلطان شيئا (١) بل كانت عليه فيما بعد حيث غزا الاسبان بعد ذلك تلمسان فى ثلاث دفعات مستعينين باحلافهم بنى راشد فنجحوا فيها كلها ، واحتلوا تلمسان واهانوا بها المساجد والمعابد وعبثوا بكتب العلم والدين ؛ ثم انقلب عنهم احلافهم فانكسروا واسر عدد منهم فصار في قبضة بنى زيان ومن بينهم قائدهم « مارطان دى آكيلو » ويومئذ جنحوا الى السلم فكانت هذه المعاهدة فى مصلحتهم فاضطرب لذلك اهل المملكة الجزائرية قاطبة واشتد هيجانهم لهذه المعاهدة المشؤومة عليهم فنهض لها ابو زيان فخلع اخاه وتولى مكانه .

ولاية السلطان ابي زيان احمد « الثاني »

هو السلطان ابو زيان احمد [الثانى] بن السلطان ابي محمد عبدالله [الثانى] استوقد غضبه وساءه ما راى عليه حالة مملكته الجزائرية من الانحلال والاضمحلال وتساقطها شيئا فشيئا بيد الاسبان ، فاشتد لذلك غيضه ونهض نشطا الى انقاذها وتخليصها من هؤلاء الغزاة الغاصبين فاجتهد اولا في مقاومة اخيه محمد [السابع] حتى ظفر به فخلعه عن العرش وتولى مكانه سنة ٩٤٩هـ [١٥٤٢م] فذهب آنئذ محمد الى وهران مستجيرا بالاسبان وحينئذ عمل ابو زيان على الارتباط بدولة الاتراك في الجزائر لمحاربة الاسبان، وغزا المرسى الكبير بوهران فى ربيع

(١) محمد عبدالله عنان : مجلة الكتاب ، جمادى الاولى ١٣٧٢ هـ

الثاني - جوليط - من هذه السنة وكانت هنالك الخيانة فخابت الحملة الاسلامية

زحف السلطان المخلوع الى تلمسان

عاد السلطان المخلوع مع حماته الاسبان الى مقاومة اخيه ابي زيان وكان اللقاء بينهما في شوال ٩٥٠هـ جانفي ١٥٤٣م ، بشعبة اللحم بنواحي عين تموشنت فانهزم ورد بخيبته ، ثم كرر حملته مستجيشا بعاهل النصرانية « شارلكان » فجاء العاهل ومعه في هذه المرة عشرة آلاف مقاتل فاحتل تلمسان في ذي الحجة ٩٥٠هـ (١٥٤٤م) وعثا الجند الاسباني فيها بما لا تفعله سباع الغارة فانخذل ابو زيان واستعاد ابو عبد الله عرشه

خيبة ابي عبد الله وعودة ابي زيان

ولما كان انتصار ابي محمد على اخيه وتسلطه على العرش بطريق غير شريف حيث استنهض على اخيه الصليبيين وجاء باعداء الاسلام الى هذه البلاد المسلمة ، احتدم غيض الرعية عليه فقاومته وانتقمت منه فخرج منهزما الى قبيلة [انكاد] على نحو ثلاثين كلو ميترا من وجدة مستعينا باحلافه الاسبان ؛ فاخفق في سيره وانكسر شر انكسار ثم قتل ؛ وعاد ابو زيان الى العرش .

استشراف الدولة السعدية

ما برحت دولة الاشراف السعديين بالمغرب الاقصى تنظر الى حوادث الجزائر وتتتبع وقائع المملكة الزيانية بغاية الدقة والعناية ، ولم تزل ترقب جميع حركاتها وسكناتها حتى سنحت لها في هذه المرة – وسط هذه القلاقل والاضطرابات – فرصة الوثوب لضمها الى مملكتها ، فانتهزتها وزحف سلطانها المولى محمد المهدي السعدي بنفسه الى المغرب الاوسط فاحتل تلمسان بدون معارضة من اهلها ، وذلك يوم الاثنين ٢٣ جمادى الاولى ٩٥٧هـ [٩ جوان ١٥٥٠م] ؛ واشيع يومئذ انه قادم على غزو مدينة الجزائر وطرد الاتراك منها ، فاسخط ذلك باي لاربای

الجزائر واسرع ببعث الحامية الى تلمسان فالتقى الجمعان قرب مستغانم على ضفاف الوادى المالح فانهزم السعديون الى داخل المغرب الاقصى وتقدم حاكم الجزائر حسن باشا الى تلمسان فعزل عنها ابا زيان وولى مكانه مولاى الحسين بن عبد الله الزيانى تحت اشراف وتصرف الضابط التركى سفطة

□

ولاية السلطان مولاي الحسن

هو السلطان مولاى الحسن بن عبد الله «الثانى» آخر ملوك دولة بنى عبد الواد الزيانية بالجزائر: تولى عرش تلمسان سنة ٩٥٧هـ (١٥٥٠م) تحت اشراف دولة الاتراك بالجزائر، فكان وهو في ملكه جالسا على عرش اجداده كعامل موظف على هذه الولاية لاغير؛ اذ ليس له من النفوذ شيء، ويصفه التاريخ بالعجز والقصور في تدبير سياسته وتسيير مملكته، وان عهده كان عهد ظلم وعسف، واظهر ميله للاسبان فنقم عليه الناس وابتعدوا عنه فحرم مودة شعبه: واجمع مجلس العلماء يومئذ على عزله، فبادر حينئذ باى لاربـاى الجزائر صـالح رئيس الى خلعه؛ فخرج آنئذ ٩٦٢هـ (١٥٥٤م) الى وهران فتوفى بها سنة ٩٦٣هـ (١٥٥٥-٥٦م)؛ وقيـل انه توفى بالاندلس وتنصر هنالك ولده؟... وضمت اعمال تلمسان نهائيا الى حكومة الجزائر التركية، وانقرضت بذلك دولة بنى زيان وذوي غصنها الغض الى عالم الفناء ولله عاقبة الامور.

خلاصة حوادث الاسبـان عـلى عهد بني زيان

كان ابتداء اتصال الاسبان بالجزائر واحتكاكهم بها منذ سنة ٩١١هـ [١٥٠٥م] حيث نزلوا بالمرسى الكبير ثم بوهران نفسها كما لمحنا الى ذلك فيما تقدم قريبا، ثم امتد بهم الجشع والطمع الاستعمارى الى السواحل الجزائرية فامتلكوا منهـا بجـاية ودلس ومستغانم الخ... وقـد استفحـل امرهم على عهد الحـاكم

الاسباني «الكونت الكوديت» حين ولايته على وهران ٩٥٠-٩٦٥هـ [١٥٣٤-١٥٥٨م] فاستحوذوا على ما بين جبال كريشتل شرقا الى «راس فالكون» غربا والى نواحي اغلال قرب السبخة الكبيرة جنوبا؛ وكان من اهم الوقائع واهوال الحروب يومئذ هي وقائع انكاد ومستغانم ووهران ومسرغين؛ ولقد مات بجميعها نحو ثلاثة آلاف جندي اسباني؛ ثم تليها حوادث تلمسان وقنطرة الصفصاف وارزيو ووادي يسر وتنس؛ وتكررت الزحوف والتهجمات من طرف الاسبان على مدينتي تلمسان ووهران بالخصوص وكانت شديدة على الجزائريين، وكثرت الاشتباكات والملاحم الحربية ما بين الاتراك والاسبان تارة ومع بني زيان تارة اخرى وتعددت المعارك بين هؤلاء وهؤلاء، وكان النصر فيها سجالا، وانضوى كثير من سكان البوادي كبني عامر وبني راشد ومليتة وتليلات و «المغطسين» وغيرهم تحت حماية الاسبان، وامتد حينئذ طغيانهم الى مس نفوذ الاتراك بالجزائر ويومئذ تنمر لهم الاتراك فوضعوا ايديهم على سير الحوادث الوهرانية وشاركوا اهلها في مقاومة النفوذ الاسباني ورد عاديته عن الوطن الجزائري برا وبحرا وكانت لهم في ذلك مواقف حاسمة

كان لتوالي كثرة هذه الاهوال الحربية والاضرابات السياسية، وعدم تركز احتلال الاسبان على قواعد الاجتماع ووسائل الدفاع الاساسية اثر ظاهر في تدهور وهران وتقهقرها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. فكانت لذلك طيلة احتلال الاسبان لها ووجودهم بها بمثابة ثكنة حربية تحيط بها الاسوار والحيطان وتتخللها المسارب والانفاق وتعلوها الكآبة والبؤس والشقاء لاغير!.. وكان موقف هؤلاء الغاضبين هو دائما موقف الخصم العنيد والعسكري الحقود الذي لايشفق ولايرحم، يقودونهم الساسة العسكريون المستبدون المستقلون عن بعضهم، ومن ورائهم القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة المتعصبة؛ وذلك ما حملنا على القول جازمين باستمرار الحروب الصليبية وانتقالها الى المغرب بعد ما كانت نيرانها مستعيرة

تصوير اوفالاك



بقية من بناية قصر القصبة الاسباني بوهران

بالمشرق؛ وهكذا الى اوائل القرن التاسع عشر الميلادى حيث كتب لها الانتصار على الشرق الاسلامى فسقطت الجزائر تحت نير الاستعمار...

ولقد لحق الاماكن الجزائرية المحتلة ايام الاسبان من الاهانة ما الله به عليم فكانت مدة اقامتهم بها كلها محنة وبلاء فى بحر لجى من الفتن متلاطم الامواج لا يقر له قرار؛ وستأتيك بقية حوادث الاسبان مفصلة مساقة خلال ما نسطره من تاريخ الدولة التركية بالجزائر

المجتمع الجزائرى

يتأكد على كل من يود الاطلاع او يريد الاحاطة بالحياة الاجتماعية لاى شعب ان يتحقق اولا ويدرس دراسة وافية لعادات ذلك الشعب الذى يريد الاطلاع على حالته وان يحيط علما بتقاليده واخلاقه وعاداته ما شذ منها وما شاع غير متحاشى من ذلك شيئا مع التمكن من معرفة ما امكن من مشخصات ذلك الشعب ومقوماته فى جميع اطوار حياته ماحضر منها وما غبر، متتبعا مستقصيا لانتظام علاقاته بغيره من الشعوب ممن اتصل بهم او اتصلوا به من قريب او بعيد

ونحن اذا نظرنا الى اهل الجزائر بهذا الاعتبار وجدناهم فى الطليعة معدودين من اهل الطبقة الراقية يومئذ بشهادة التاريخ نفسه وهو اصدق الشاهدين واعدل الحاكمين. قال يحيى بن خلدون «انهم كانوا ذوى اخلاق سرية، وطباع كريمة، من صفاتهم الحياء والوقار والوفاء بالعهد والعفاف والتدين والاقتصاد في المعاش واللباس والسكنى (١) ..... فان قلت ان هذه الصفات جاءت في وصف اخلاق بنى عبد الواد خاصة، قلنا نعم واجل، هم سادة الوطن ورؤساؤه والناس كما قيل على دين ملوكهم وقادتهم وانما صلاح الرعية بصلاح سادتها ورؤسائها

---

١) بغية الرواد ج ١ ص ٢٢

والعكس بالعكس.

ثم ان طبقات الامة الجزائرية يومئذ منحصرة في اربعة اصناف من الناس، فانك لا تجد الجزائرى الا تاجرا او محترفا او هو طالب للعلم معلما او متعلما، او جنديا مع الجيش يدافع عن بيضة الاسلام وشرف وطنه، لاخامس هنالك، وقد ازدهرت الجزائر يومئذ بالوافدين عليها من مهاجرى الاندلس ومعظمهم من مهرة الصناع والزارعين واهل العلم واليسار الذين درجوا فى مهد الحضارة بالفردوس المفقود، فاخذوا هنابمهجرهم يمارسون مهنهم الراقية في وطنهم الجديد؛ وكان يبلغ عدد سكان المدينة الواحدة من المدن الجزائرية الشهيرة كتلمسان مثلا المائة والخمسين الف نسمة، وكان بوهران يومئذ نحو الستين الف نسمة.

□

الاقتصاد والانتاج بالجزائر

الاقتصاد كلمة عامة يراد بها — كما هو معلوم — كل ما يشمله معنى تدبير المعاش وانماء الثروة بكل انواع الكسب والاحتراف مهما تعددت الالوان واختلفت المظاهر من جميع انواع الحرف والصناعات وما تقتضيه المعاملات التجارية بين الناس في مختلف انواع البضائع والسلع مهما تباينت المتاجر والاسواق وتعددت الاسالب والمسالك وتنوعت المرافق والاسباب. كل ذلك دفعا للاعسار وتمتعا بالايسار وجلبا للرفاهية العامة التى تنبنى عليها سعادة الشعب وترقيته ماديا ومعنويا.

ونحن اذابحثنا فى تاريخ الجزائر الاقتصادى واحتجنا فى ذلك الى الادلة الصريحة ظفرنا بقواطع الحجج والشواهد الكثيرة على ذلك مما جعل الجزائر في المكان الاول بين صفوف الامم الراقية التى سابقت غيرها فى هذا المضمار، وذلك ما صيرهذا الوطن المغربى الكبير ملحوظاومرموقا لدى الدول القديمة والجديدة كما هو كذلك عند علماء الجغرافية والتاريخ منذالقدم الى اليوم؛ فتراهم مهما ذكروا الجزائر

أواقتصروا على ناحية منها الا واثنوا عليها خيرا وعددوا في ذلك زروعها الغزيرة ومنتوجاتها المتنوعة الكثيرة واسواقها العامرة وصناعاتها النافقة ومياهها الدافقة؛ الم يشهد التاريخ الروماني القديم لهذا الصقع المبارك بالخصب الممرع ورفاهية العيش ؟ الم يسميه في اصطلاحه بخزينة او مزرعة رومة «Romœ graniarum» اذ كان يمدها ويغذيها بمقدار وافر من المحصولات كالحبوب والفواكه والخمور والصوف والخشب والمرمر والزياتين «L'Afrique a été le grenier de Rome» بلى وربي انه لحق !.. وتعالى معي الآن ايها القاريء الكريم الى جولة استطلاعية ونظرة تاريخية عامة نلقيها على هذا الوطن الجزائري الخصب الثرى صحبة الرحالة المغربي العظيم الشريف الادريسي وهو يحدثنا من كتابه الجغرافي الحافل : « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » حول بعض امهات المدن والقرى الجزائرية فانصت اليه اذ يقول :

« ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبارها ، وهى عامرة آهلة وتجارتها رابحة واسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعير واكثر اموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهر بهما الى سائر البلاد والاقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم، واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة

ويسوقنا الادريسي الى عاصمة بني عبد الواد – تلمسان – مندفعا في حديثه الجغرافي قائلا : « ان لها نهرا ياتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، وان هذا الوادى يمر في شرقي المدينة وعليه ارحاء كثيرة وما جاورها من المزارع كلها سقي، وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة، وخيراتها شاملة، ولحومها شحمية سمينة، وبالجملة انها حسنة لرخص اسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجاراتها؛ ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة اغمات وفاس اكثر من اهلها

اموالا ولا ارفه منهم حالا» وذكرها البكرى قبله في مسالكه قائلا « وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الاوسط ولها اسواق ومساجد ومسجد جامع واشجار وانهار عليها الطواحين وهو نهر سطفسيف، وهي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق». ويمضى الادريسى في حديثه عن ضواحي تلمسان فيذكر منها قرية العلويين – وهي على مرحلة من تلمسان – فيقول: انها قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر ياتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة.

ويفيدنا الملك ابو الفداء (٧٣٢هـ – ١٣٣٢م) بفائدة جليلة عن تنقل القوارب وجولان المراكب البحرية فى نهر تلمسان فيقول: «ويستدير النهر بقبليها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب فى البحر» «١»

ونعود الى الادريسي لنستمع اليه فيمايذكر لنا عن حركة هنين – فرضة تلمسان – فنجده يقول: وهنين مدينة حسنة صغيرة فى نحر البحر وهى عامرة عليها سور متقن واسواق وبيع وشراء وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة

وفي وهران يقول: ووهران على مقربة من ضفة البحر، وعليها سور تراب متقن، وبها اسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة وهى تقابل مدينة المرية من ساحل بر الاندلس وسعة البحر بينهما مجريان، ومنها اكثر ميرة ساحل الاندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا، ولها على ميلين منها المرسى الكبير، وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسى حائط البحر من بلاد البربر، وشرب اهلها من واد يجرى اليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة واهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر، والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الاندلس اليها مختلفة وفي اهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة.

---

١) تقويم البلدان لابى الفداء ص ٧٠ ط الجزائر ١٨٣٩م

ويتحدث عن مدينة «يلل» فيقول : بها عيون ومياه كثير وفواكه وزروع وبلادها جيدة للفلاحة وزروعها نامية. وعن ارزاو ـ ارزيو ـ فيقول انها قرية كبيرة تجلب اليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها الى كثير من البلاد. ويذكر لناقسنطينة فيقول : انها من احصن بلاد الله وهى مطلة على فحوص متصلة بها، وانها عامرة وبها اسواق وتجار واهلها مياسير ذوو اموال واحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك فى الحرث والادخار، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة فى جميع جهاتها، ولها في داخل المدينة ومع سورها مسقى يستقون منه ويتصرفون منه عند اوقات الحصار لها ممن طرقها؛ والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد والعسل بها كثير وكذلك السمن يتجهر به منها الى سائر البلاد.

ويحدثنا البكرى عن مدينة مستغانم بانها مدينة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويبذر فى ارضها القطن فيجود.

ثم ينتقل بنا الادريسى الى الكلام على مدينة تاهرت فيقول : ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين احداهما قديمة والاخرى محدثة والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور وهى على قنة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البربر ولهم تجارات وبضائع واسواق عامرة وبارضها مزارع وضياع جمة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن؛ واما البقر والغنم فكثيرة بها جدا، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة، وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل اكثر ديارهم ويتصرفون بها، ولهم على هذه المياه بساتين واشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة وبالجملة انها بقعة حسنة. وقد تحدث عنها قبله ابن حوقل فقال : والتجار والتجارة بتيهرت المحدثة اكثر ولهم مياه تدخل اكثر دورهم واشجارهم وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهى احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيد ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات.

ويصف لنا الشريف القلعة الحمادية وما آلت اليه من بعد يقول : والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع اموالهم مختزنة، ودار اسلحتهم والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير، وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الانسان بالثمن اليسير، ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف اليها تصلح فيها السوائم والدواب لانها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم اذا كثرت اغنت واذا قلت كفت، فاهلها ابد الدهر شباع واحوالهم صالحة.

كما انه يحدثنا ايضا عن اشير زيرى فيقول : انه حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب اليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة. واما عن مدينة تنس فانه يقول : لها في جهتها الشرقية واد كثير الماء وشرب اهلها منه في ايام الشتاء والربيع، وبها فواكه وخصب واقلاع وحط ولها اقاليم واعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها الى كل الآفاق في المراكب، وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوت الوصف في صفته وكبره وحسنه.

ويذكر لنا مدينة مليانة عاصمة مغراوة فيقول : «هي مدينة قديمة البناء حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها ارحاء على نهرها المذكو ولاقليمها حظ من سقي نهر شلف،

ويصف لنا مدينة برشك فيقول : انها صغيرة على تل وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون وماؤها عذب وافتتحها الملك المعظم رجار – ملك النرمان – سنة ه وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير.

ويقص علينا خبر مدينه شرشال انها : صغيرة القدر لكنها متحضرة وبها مياه جارية وابار معينة عذبة وبها فواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو اعناق كاعناق القرع الصغار وهو من الطرائف غريب في ذاته وبها كروم

وبعض شجرتين، ومـا دار بها بادية لاهلها مواش واغنام كثيرة، والنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن واكثر اموالهـم الماشية ولهم من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة.... ومدينة مرسى الدجاج كبيرة القطر لها حصن دائر بها وبشر قليل: وربما فرعنها اكثر اهلهـا في زمن الصيف ومدة السفر خوفـا من قصد الاساطيل اليها، ولها مرسى مامون ولها ارض ممتدة وزراعات متصلة واصابة اهلها في زرعهم واسعة وحنطتهم مباركة وسـائر الفواكه واللحوم بها كثيرة وتباع بالثمن اليسير، والتين خاصة يحمل منها شرائح طوبا ومنثورا الى سائر الاقطار واقاصي المدائن والامصار، وهي بذلك مشهورة.

«ومن مدينة مرسى الدجاج الى مدينة تدلس ٢٤ ميـلا وهي عـلى شرف متحصنة لها سور حصين وديار ومنتزهات وبها من رخص الفواكه والاسعـار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله، وبها الغنم والبقر موجود كثيرا وتباع جملتها بالاثمان اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير من الآفاق

«ومن تدلس الى مدينة بجاية في البر ٧٠ ميلا وفي البحر ٩٠ ميلا؛ ومدينة بجاية على البحر لكنها على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى مسيون وهو جبل سـامي العلو صعب المرتقى وفي اكنافه جمل من النبـات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبربـاريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافسنتين وغير ذلك من الحشائش. ويتحدث عنها البكري ايضا فيقول: ان بشرقيها نهر تدخله السفن محملة

«ومن القلعة - الحمـادية - في جهة المشرق مدينة محـدثة تسمى (برج الغدير) وبينها وبين القلعة ٨ اميال والغدير مدينة حسنة واهلها بدو ولهم مزارع وارضون مباركة والحرث قـائم الذات والاصـابة في زروعها موجودة والبركات في معامـلا تهم كثيرة وبين المسيلة والغدير ١٨ ميلا. وناهيك برخص اسعـارها فالقنطار من العنب يساوي عندهم درهما واحدا كما ذكره البكري.

ويذكر ميلة فيقول عنها : مدينة حسنة كثيرة الاشجار ممكنة الثمار وفواكهها كثيرة ومحاسنها ظاهرة ومياهها غدقة.

ويحدثنا عن مدينة جيجل فيقول انهـا : مدينة حسنة بها الالبان والسمن والعسل والزروع الكثيرة: وبها الحوت الكثير العدد المتناهى الطيب والقدر، وهو القائل ايضا عن سطيف انه حصن كبير القطر كثير الخلق كالمدينة وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرته بها الى سائر الاقطار وهو بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصا.

ويتعرض رحالتنا الى بلدة مازونة فيقول : ان لها انهـارا ومزارع وبساتين واسواقا عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه اصناف من البربر بضروب من الفواكه والالبان والسمن والعسل كثير بها وهى من احسن البـلاد صفة واكثرها فواكه وخصبا؛ وينتقل بنا الى الحدبث عن مدينة مرسى الخرز فيقول : انها مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة اهلها لها على صيد المرجان؛ والمرجان يوجد بها كثيرا وهو اجمل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار... ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجـون منه الكثير الى جميع الجهات ومعدن هذا الجوهر فى هذه المدينة مخدوم في كل سنة ويعمل به في كـل الاوقات الخمسون قاربـا والزائد والناقص وفى كل قارب العشرون رجلا وما زاد ونقص، والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر فى نفس البحر بين جبلين عظيمين ويصـاد بـآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب، تدار هذه الآلة في اعلى المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيجذبه الرجال الى انفهسم، ويستخرجون منه الشيء الكثير ممـا يبـاع بـالاموال الطـائلة وعمدة اهلها على ذلك

ويذكـر لنا الادريسى غابر مدينة بونة وحاضرهـا عـلى عهـده فيقـول : انه كان بها اسواق حسنة وتجارة مقصودة وارباح موجـودة، وكان فيها كثير من

الخشب موجود جيد الصفة، ولها بساتين قليلة وشجر وبها من انواع الفواكه ما يعم اهلها واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير فى اوقات الاصابات كما وصفنا كثير جدا، وبها معادن حديد جيد ويزرع بارضها الكتان، والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن واكثر سوائمهم البقر ولها اقاليم وارض واسعة تغلبت العرب عليها. ويذكرها البكري بمثل هذا ايضا مع افادته لنا بان اكثر تجارها اندلسيون وان مستخلصها غير جباية بيت المال عشرون الف دينار.

ويتحدث الادريسي عن قرية مسكيانه فيقول: انها قرية عامرة قديمة ازلية وبها زروع ومكاسب وعيون، ولها سوق ممتدة كالسماط، وهي اكبر من مرماجنة — مدينة تقع بالشمال الغربى من تبسه — كما انه يذكر لنا مدينه تدرومة فيقول : انها مدينة كبيرة عامرة آهلة، ذات سور وسوق موضعها في سند، ولها مزارع كثيرة ولها واد يجرى فى شرقيها وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير. ويذكرها البكرى ايضا فيقول : لها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار.

ويستمر الشريف الادريسي في حديثه عن اقطار البلاد الجزائرية متجولا بنا هنا وهناك مخترقا للآفاق كاشفا لنا عن مخبآت كنوز ارضنا الخصبة وبلادنا الغنية الثرية فنراه يقف بنا هنا على اشهر بلاد الزاب واصفا لنا منها مدينة المسيلة وطبنة ومقرة ونقاوس وبسكرة وباغاية؛ فاستمع اليه اذ يتحدث عن الاولى منها فيقول : «هى عامرة في بسيط من الارض ولها مزارع ممتدة اكثر مما يحتاج اليها، ولها سوائم خيل واغنام وابقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع وقطن وقمح وشعير ويسكنها من البربر بنو برزال وزنداج وهوارة وصدراته ومزاتة؛ وهذه المدينة ايضا عامرة بالناس والتجار وهى على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الارض وليس بالعميق وهو عذب وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة

ولم ير في بلاد الارض المعمورة سمك على صفته ، واهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل الى قلعة بني حماد وبينهما ١٢ ميلا ، وتخرج من المسيلة الى مقرة مرحلة ، وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب واهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير .

ويتحدث عن طبنة فيقول : انها مدينة الزاب وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير ، وعليها سور من تراب واهلها اخلاط وبها صنائع وتجارات واموال لاهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه... ومدينة نقاوس صغيرة كثيرة الشجر والبساتين واكثر فواكهها الجوز ومنها يتجهز به الى ما جاورها من الاقطار وبها سوق قائمة ومعايش كثيرة... ومن مدينة نقاوس ايضا الى حصن بسكرة مرحلتان وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة وفيه ايضا من التمر كل غريبة وطريفة ، ويخبرنا عن اهل وارجلان – وارقلة – بانهم قوم مياسير وتجار اغنياء يتجولون في السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة يشترون التبر على اهلها ويخرجونه الى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير باسم بلادهم ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة (١)

كما يحدثنا البكري عن المحصولات في باغاية وطولقة وقزرونة فيقول عن الاولى : انها مدينة جليلة اولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح . وعن الثانية يقول : انها ثلاث مدن كلها عليها اسوار طوب وخندق وحولها انهار وهي كثيرة البساتين بالزيتون والاعناب والنخيل والشجر . ويتحدث عن الثالثة بانها على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين ، ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي اكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل . وفيها عيون سايحة وطواحين ماء(٢)

١) نزهة المشتاق للادريسي ط ليدن ١٨٦٤م (٢) المسالك والممالك للبكرى ط الجزائر١٨٥٧م

ولقد سبق ان سقنا ماحكاه الادريسى عن حركة بجاية الاقتصادية والصناعية والبحرية ايضا بالجزء الاول من كتابنا هذا — صفحة ٣٣٣ — فلتراجع هناك.

ورغم كل ما حدث اثر عصر الادريسي والبكرى من الاضطرابات السياسية والانقلابات الاجتماعية التى عمت اقطار المغرب العربي على عهد كل من الدول او الحكومات الثلاث: بنى ابى حفص، وبني مرين، وبنى زيان، فان ارض الجزائر لم يحدث في اقتصادها كثير تبديل او تغيير واستمر اهلها على استثمار بلادهم يعملون ناشطين في رخاء وخفض من العيش طيلة قرون؛ وهكذا نجد علماء التاريخ والجغرافية من اهل القرن السادس والسابع بل والثامن ايضا يصفون لنا الرقى الاقتصادى والتقدم الزراعى فى بلاد الجزائر بمثل ما حدثنا به الاولون

فهذا كتاب الاستبصار الذي تم تأليفه سنة ٥٨٧هـ (١١٩١م) يتحدث عن مدينة مليانة فيقول : ولمدينة مليانة مياه سائحة وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من اخصب بلاد افريقية وارخصها اسعارا وقال عن قلعة هوارة - غربى مستغانم - هى قلعة منيعة فى جبل خصيب فيه بساتين وثمار واشجار ومزارع واعناب، وتحتها فحص طوله نحو اربعين ميلا يشق به نهر سيرات ويسقى اكثر ارضه ويسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر وهو نهر كبير مشهور ويذكر مدينة بونة فيقول : هى من انزه البلاد واكثرها لبنا ولحما وعسلا وحوتا.... وبغربيها ماء سائح يسقى بساتينها وارضها وموضع جناتها منتزه حسن مشرف على البحر، وهكذا يستمر في وصفها الى ان يقول : وبغربى مدينة بونة بركة في دورها نحو عشرة اميال وفيها سمك كثير جليل.... واخيرا يقول : وللمغرب الاوسط مدن كثيرة قد ذكرنا اكثرها في البلاد الساحلية وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم (٢)

وهذا ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) يتحدث عن مدينة تنس

(١) الاستبصار فى عجائب الامصار فينا ١٨٥٢م.

فيقول : ان بها مسجدا جامعا واسواقا كثيرة؛ ثم يذكر موازين ومكاييل اهلها فيقول: ولهم كيل يسمونه الصحفة وهى ثمانية واربعون قادوسا، والقادوس ثلاثة امداد بمد النبى صلى الله عليه وسلم، ورطل اللحم بها سبع وستون اوقية، ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون اوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة كما انه يذكر مدينة الخضراء فيقول : هى بلدة بينها وبين مليانة يوم واحد، وهى مدينة جليلة كثيرة البساتين على شاطىء نهر من اخصب مدن افريقية، ويحدثنا عن مدينة بونة فيمضى في وصفهاحسب ما ذكرناه فيما سلف ثم يقول عنها : انها كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القريبة واكثر فاكهتها من باديتها.... (١)

وهذا الملك ابو الفداء يذكر كذلك بونة فى كتابه تقويم البلدان الذى فرغ من تبيضه سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١م) فيقول عنها انها مدينة جليلة عامرة على البحر خصبة الزرع كثيرة الفواكه رخية، وبظاهرها معادن حديد ويزرع بها كتان كثير، وحدث بها عن قريب مغاص على المرجان ليس كمرجان مرسى الخرز. كما انه يذكر بسكرة فيقول : ومدينة بسكرة قاعة بلاد الزاب، ولبسكرة بلاد ذات نخيل وزروع كثيرة ومن بسكرة يجلب التمر الطيب الى تونس وبجاية. ويتحدث عن المسيلة بقوله : ومدينة مسيلة حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياهها عذبة (٢)

وذكر مقديش الصفاقسى مدينة التين - بين سوق ابراهيم وتنس تبعد عن كلتيهما بمرحلة - فقال انها كثيرة شجر التين جدا ويعمل بها من التين شرائح اعظم من الطوب وبذلك تسمى ويحمل منها الى كثير من الاقطار. (٣)

(١) معجم البلدان ط ليبسيك ١٨٦٦م
(٢) تقويم البلدان ط الجزائر ١٧٣٩م ص ٨٠ و ٩٠ و ٩٤
(٣) الازهار الرياضية ص ٥٨-٥٩

وكما يشهد بذلك من كتاب الافرنج المتأخرين : مارمول وألفاريز قوميز — *Marmol et Alvarés Gomés* —

ويتحدث الرحالة عبد الباسط بن خليل في رحلته ـ الروض الباسم ـ عن قسنطينة فيقول بانه نزل بها يوم سابع عشر شوال سنة ٨٦٨هـ (٢٤ جوان ١٤٦٤م) فراى «منها مدينة عجيبة الموضوع، حسنة المجموع، على جبل عال وتحتها واد عظيم كثير الخصب والاجنة والرخاء الغالب، قال : واعجبتني الى الغاية ورأيت ابنيتها جيدة فائقة...

وقل مثل ذلك عن سير التجارة فأنها رائجة في كثير من انواع السلع التى كانت الجزائر تستوردها من الخارج على سبيل المبادلة مثل الزجاج وأجهزة وعتاد وعدد وغير ذلك من ادوات الحديد، او تصدرها من بضائعها المحلية المختلفة كالتبر المسبوك والذهب النضار والعاج والجوخ والصوف والحرير والكتب والسلاح الابيض والجلد والسمك المجفف والمرجان والرقيق، فكل ذلك كان منتشرا باسواق البلاد الجزائرية تتوصل اليه بطريق القوافل التى تتردد بين الصحراء والتل مخترقة لحدود تونس وطرابلس والمغرب الاقصى والسودان، وكذلك في البحر فان السفن والمراكب الاهلية والاجنبية لا تفتر عن التنقل بين سواحل الجزائر والاندلس وصقلية وجنوة والبندقية وكثيرا ماكانت اسواق تلمسان ترى ملآنة بالتجار من اهل بيزا والبيروفانصوا والقطلان وغيرهم من الافرنج بله حركة القوارب والزوارق التى كانت في نشاطها الدائم بانهار قسنطينة وتلمسان وارشقول

ولقد شاهد هذا المعنى عبد الباسط بنفسه فسجله في رحلته الى الجزائر قائلا : «وفيه ـ اي في يوم تاسع عشر صفر ٨٧١هـ ـ ١٠ اكتوبر ١٤٦٦ ـ ورد الى ساحل مدينة وهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين وردت من بلاد افلندة ونحوها من بلاد الافرنج بالمحيط برسم الاتجار في الجوخ وتجهز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها الى جهة بلاد الاندلس وتجهزت

أنا ايضا لذلك وعزمت على العود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرها من البلاد» (١) واما عن متاجر وهران ومساكنها فانها بلغت يومئذ الى الف وخمسمائة متجر ونحو ستة آلاف دار.

واما المهن والحرف الصناعية فان اهمها يومئذ بالجزائر يرجع الى صناعة الدباغة وخصف النعال والاحذية والصياغة والعدانة والخزافة والنجارة والحدادة وفن البناء والتعمير، وكان مما امتازت به تلمسان واختصت به مابين البلاد: الاتقان في النسج والقزازة، فان لملابسها ومنسوجاتها الصفيقة من حرير أو صوف اعتبار وتقدير يفوقان منسوجات غيرها من البلاد، لا من حيث الاحكام في الصناعة والنسج فحسب، بل وحتى في جودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة والخفة. فانك تجد البرنس او الكساء الجيد من الحرير لا يتجاوزونه عندهم الثماني اواق، والاحرام لا يتعدي خمس اواق. وذكروا انهم كانوا يختبرون الا كسية والملابس الرقيقة الجيدة بادخالها واخراجها من حلقة خاتم!.... واليك وصف كاتب الدولة يومئذ يحيى بن خلدون لدار الصنعة بتلمسان قال:

«ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم واديانهم؛ فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك، فتستك لأصواتهم وآلاتهم الاسماع وتحار فى احكام صناعتهم الاذهان وتقف دون بحرهم الهائل الابصار؛ ثم تعرض قومتهم اصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة ايده الله ويخزن كل بحجار صنعه المعد له وينصف العاملون من ارزاقهم عدلا هكذا ابداه (٢) وان لنا في حركة اسواق القيسرية بتلمسان لغنى وذكرى.

واشتهرت اسواق الجزائر يومئذ بانتظامها حسب انواع السلع والبضائع فانك

---

(١) الروض الباسم ص ٤٠ و ٦٧ ط باريس ١٩٣٦م

(٢) بغية الرواد ج ٢ ص ١٦١؛ ط الجزائر ١٣٢٩هـ - ١٩١١م

لا تجد اختلاطا بين البزازين والصاغة مثلا ولا بين الحدادين والنجارين فلكل نوع منها سوق قائمة بنفسها، وبذلك نعلم انه كان للجزائر شأن عظيم في عالم الاقتصاد منذ القديم كما انها لا تزال كذلك الى اليوم

ويكفي فى الاستدلال على التقدم والرقي الصناعي بالجزائر يومئذ ان تتأمل قليلا في اختراع العبقري المفن الجزائري على بن الفحام التلمساني لآلة المنجانة العجيبة ذات الوضع المدهش والصنع الميكانيكي والشكل الهندسي الغريب، انشأها صاحبها في اوائل سنة ٧٦٠هـ [١٣٥٩م] لرصد الوقت فسبق ببديع صنعه واضع ساعة «ستراسبوق» بقرنين اثنين فكانت هذه من عجائب المخترعات، واليك وصفها من شاهد عيان شارك بنفسه فى صنعها بوضع ابيات شعرية لنظم ساعاتها، وذلك هو يحيى بن خلدون، قال فى سياق حديثه عن المهرجان الذي كان يقيمه السلطان ابو حمو الثاني فى قصره وبمحضره في كل سنة بمناسبة ذكرى يوم المولد النبوي الشريف :

«..... وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه ـ يعني السلطان ـ باعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيها ارقم خارج من كوة بجدر الايكة صعدا، وبصدرها ابواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مجوفان اطول من الاول واعرض فوق جميعها، ودوين راس الخزانة قمر اكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت اول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن، ويريد الارقم ان ينهش احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة صورت فى احسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطور، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها موضوعة

على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين، حيل احكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافة اعلى الله مقامه شماسها . . . .

... وامرني ايده الله بنظم ابيات على لسان الجوارى المعرفات ساعات المنقانة الغريبة الشكل المتقدمة الوصف فقلت في ذلك :

الساعة الاولى من الليل

امولى الملوك واعلى الامم ومن جودة العالم الكل عم
مضت ساعة ليت لو تنثني فان الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لما بدا وقد خلته البدر في الافق تم
عليه لاجل التقى هيبة وفيه من الفضل بشر الكرم
اقمت بمولد خير الورى سروراً لكم بالمعالى حكم
طويت الفؤاد على حبه ففعلك هذا على ذاك نم
فنلت السعادة دنيا واخرى وحزت المفاخر دون الامم
فدم ما حييت لنا ملكا يطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية

اخليفة الرحمن والملك الذى تعنو لعز علاه املاك البشر
لله مجلسك الذى يحكى علا بك مالكي افق السماء لمن نظر
او ما ترى فيه النجوم زواهرا وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصورا بكم وبلغت مما ترتجى اسنى الوطر

الساعة الثالثة

امولاى يا ابن الملوك الالى لهم في المعالى اسنى الرتب
توالت ثلاث من الليل ابـ قت لك الفخر في عجمها والعرب

فدم حجة الله في ارضه تنال الذى شئته من ارب

الساعة الرابعة

يا واحدا في المعالى ومالك الفضل اجمع
مولاي دمت عليا مضت لليلك اربع
لا زلت تفني الاعادى وللمفاخر تجمع

الساعة الخامسة

يا امير المسلمينا وجمال العالمينا
والذى حاز المعالى كلها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآه هكذا تمضى السنونا
دمت في عز وسعد خالد الملك مكينا

الساعة السادسة

يا ماجدا وهو فرد تخاله في عساكر
ست من الليل ولت ما ان لها من نظائر
دامت لياليك حتى الى المعاد نواضر

الساعة السابعة

يا من له الفخر طبع والفضل فيه سجيه
مرت من الليل سبع ما ان لها مثنوية
لا زلت والشمل جمع يعليك رب البرية

الساعة الثامنة

يا اكرم الخلق ذاتا واشرف الناس اسرة
مرت ثمان وابقت فى القلب منى حسره
فيهن كان شبابى اخا نعيم ونضره

ولى بهـا الدهر عنـى ترى لها بعد كـره
فـالله يـبـقـيـك مـولى يطيل في السعـد عمره

الساعة التاسعة

يا اوحد الناس في مجد وفي شرف وافضل الخلق في باس وفي كرم
مولاى تاسعة الساعات قد ذهبت والليل من بعدها قد عاد ذا هرم
كذا يمر ولا ندرى الزمـان بنا وينقضى العمر في اللذات واندمى
من كان ذا عمل فى البر مثلكم يا فوزه يوم تخشـى زلة القدم
لا زلت ذا عزة والملك ذا شرف بكم وانتم مدى الايـام فى نعم

الساعة العاشرة

يامالك الخير والخيل التى حكمت له بعز على الايـام مقبـل
هذا الصباح وقد لاحت بشائره والليـل ودعنـا توديـع مرتحـل
لله عشر من الساعات بـاهرة مضين لا عن قلى منا ولا ملل
كذا تمر ليالى العمر راحلة عنا ونحن مع الآمـال فى شغـل
نمسي ونصبح فى لهو نسر به جهلا وذلك يدنينا من الاجل
والعمر يمضى فلا ندرى فوا اسفا عليه اذ مر في الآنـام والزلل
ياليت شعري غدا كيف الخلاص به ولم تقدم له شيئا من العمـل
يار ب عفوك عما قد جنته يدى فليس لى بجزاء الذنب من قبل
يا رب وانصر امير المسلمين ابدا حو الرضـا وانله غاية الامل

ومن هذا القبيل ما سجله التاريخ عن ساعة الخليفة هرون الرشيد التى اهداها للملك شارلمان وساعة الجامع الا موى وباب جيرون بدمشق، وساعة المستنصر العباسي بمستشفى بغداد (١)

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمى ج ١ ص ١٧٧ ط دمشق ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م ورحلة ابن جبير ص ٢٤٩-٢٥٠ ط مصر ١٣٢٦هـ وكتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور ص ٧٧ ط القاهرة ١٩٤٢م وبغية الرواد ج ٢ ص ٤٠ و ٢١٨

ويظهر مما تقدم من نظم ساعة ابى حمو ان القوم كانوا يستعملون في ضبط الزمن الساعات الغروبية، اى تقدير مبدإ الزمن بساعة الغروب لا بالزوال وهى طريقة المشارقة المتعارفة بالالا تركة، ومبدأها من غروب الشمس، فالزمن عند الغروب يعتبر صفرا ثم ياخذ فى التزايد الى هلم مجرا

ولا ينبغى ان يفوتنا هنا ونحن نؤرخ للصناعات والفنون بالجزائر ـ ان نترك الاشارة الى ماكان بقصر السلطان ابى تاشفين الاول من تلك الشجرة العجيبة المصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانها تماثيل طيور مختلفة الاشكال والالوان تحاكى اشباهها من الطيور الطبيعية، وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر، فاذا نفخ في اصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها باصوات على غرر نظرائها من الطيور حتى اذا تموج الهواء وبلغ الى الصقر صوت فتنقطع لصوته جميع الاصوات كما نقل ذلك الامام القرافي عمن شاهد هذه الشجرة بنفسة وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان (١)

وكان من هذا القبيل ما تقدم ذكره من الهدايا النفيسة التى اهداها السلطان الثابتى الى ملك الاسبان؛ منها ما وصفناه من تلك الدجاجة العجيبة الصنعة المتبوعة بست وثلاثين نقفا من نوعها؛ فذلكم ايضا هو مما لا يستهان به فى الاستدلال على تقدم العلوم والفنون ونهضة الصناعات عهدئذ بالجزائر.

المذاهب والمعتقدات

حسبنا ما اطلنا به فيما قدمناه من التفاصيل الضافية والشروح الوافية حول تاريخ العقيدة الدينية والمذاهب الفقهية فيما سلف من ابواب هذا الكتاب وفصوله التى تناولنا فيها هذا الموضوع فى مختلف ادوار التاريخ الجزائرى وتطوراته بحسب توالى الدهور والعصور، وقد ارست سفينة الناس يومئذ حسبما ذكرناه هناك الى التدين بعقيدة الاشعرى والتمذهب بمذهب مالك تغمدهما الله برحمته

«١» انظر كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور ص ٧٩ ط القاهرة ١٩٤٢

قال البكري : ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الراى على مذهب مالك بن انس رحمه الله (١) ولم يخالف في ذلك الا بعض البطون والقبائل المنتشرة بشرقى الجزائر وجنوبها كاهل مدينة تهودة فانهم لم يزالوا يومئذ على راى اهل العراق وقبيلة كتامة الساكنة بجبال بجاية على راى الشيعة الاسماعيلية (٢)

(١) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا: تاريخ الجزائر العام ص ٣٢٧ و٣٥٠ و٤٨١ وج٢ ص ٣٣ والمسالك والممالك ص ٧٧ ط الجزائر ١٨٥٧م

(٢) كنا المعنا اجمال الى شيء من عقائد الشيعة الاسماعيلية في كلامنا على تاريخ قيام دولتهم بالمغرب في الجزء الاول من كتابنا هذا : تاريخ الجزائر العام ص ٢٤٥-٢٤٦ و ٢٦٤-٢٦٥ واليك هنا بعض التفصيل :

ان من اثبت الاسس واهم اصول عقائد الشيعة الاسماعيلية القول بان لكل نبى وصيا، وان امر اختيار الوصي هو لله، وان الامام ضرورى للجنس البشري، وان الارض لا تخلو قط من امام ظاهر او مستور تبعا للقوة المادية التى تؤيده وتحميه، وانه لولا الائمة لما خلق الخلق وتجب طاعة الوصى والائمة من بعده طاعة شاملة لا تردد فيها والامام معصوم مثل الرسول؛ وبالغ فيه بعضهم الى ان بلغ به مرتبة النبوة بل الالوهية، مع تنزيههم لله عز وجل عن جميع الصفات التى يصفه بها اهل السنة، ويصرفون ذلك الى القلم وهو العقل الكلى.

وان ابرز ما تمتاز به هذه الفئه الاسماعيليه من بين الفرق الاخرى للشيعة هو القول بالظاهر والباطن وهو عندهم مبدأ هام به اشتهرت فرقتهم باسم الباطنية واستغله بعضهم ففسر القرآن على تفاسير خاصه تصل بهم الى غاية معينه

وفي التشريع الاحكام عندهم لا يقولون بالقياس، فاصبح لهم بذلك فقه يتفق ويختلف مع فقه اهل السنه، فان الخمر عندهم طاهر، وهم لا يحتمون طهارة مكان الصلاة ما دامت النجاسة لا تعلق بالثوب، ويجيزون الجمع في الصلاة بين الظهرين وبين المغربين – او العشائين من غير عذر، والقنوت عندهم في الركعه الثانيه من صلاة الجمعه، ولا يجيزون القصر فى الصلاة للمسافر الا اذا كان مسافرا الى مكه او المدينه او الكوفه او كربلاء، وتختلف عدد التكبيرات في الصلاة على الميت تبعا لمكانته، وشهر رمضان عندهم كامل دائما وابدا ولا يتوقف الصيام والافطار على الرؤيه، والزكاة عندهم لا تجب في اموال التجار، بل يدفع الشيعى خمس ايراده للامام، ونكاح المتعه عندهم جايز؛ ولا يقع الطلاق الا بشاهدين مثل الزواج، وليس عندهم فى المواريث عول ولا تعصيب، وخلصوا من العول بادخال النقص على بعض اصحاب الفروض؛ فالقرابه عندهم مقدمون على

يكرمون من مال الى مذاهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم» وان اهل جبل اوراس وسكان باغاية وفحصها وقوما من سكان نوحى بنطيوس كانوا يومئذ على راى الخوارج اباضية المذهب واصيلة العقيدة [١]

وهكذا ضلت الجزائر كما قدمنا متشعبة العقائد والمذاهب الى ان اتحدت على عهد المرابطين ومن خلفهم على هذا الوطن من الموحدين فانتشر بينهم يومئذ مذهب اهل الحديث من اهل السنة وتقرر راى المالكية في ذلك ودان الناس بعقيدة الاشعرية وعم ذلك بلاد الجزائر وبقية بلاد المغرب العربى كله غير ناحية بلاد مصاب ـ مزاب ـ من التراب الجزائرى وجزيرة جربة بتونس وجبل نفوسة بطرابلس فانها بقيت متمسكة بعقيدة الخوارج الاعتزالية متمذهبة بمذهب الاباضية [٢]

واما غير المسلمين فكانوا على ما هو عليه الحال الى الآن : نصارى ويهود وفي عهد سقوط وهران بيد الاسبان [٩١٥هـ ـ ١٥٠٩م] اتخذ الكاردينال كسيمينيس بها ديرين للرهبان احدهما للدومينيك والآخر لاهل المذهب الفرانسيسكي.

العصبه، ولعلهم بذلك يريدون تقديم فاطمة على العباس رضي الله عنهما، ولا يورثون الجد عند وجود ابن الابن، فالاجداد والاخوة والاخوات عندهم فى الدرجه الثانيه بعد الابناء، فالبنت اذا انفردت وليس معها احد من الابوين فانها تحوز المال كله نصفه بالفرض ونصفه بالرد؛ وبذلك لا يشارك فاطمه بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم احد في ميراثها من ابيها، ولا يرث مع الام احد من الاخوة والاخوات، ومع قولهم بان قاعدة الميراث عندهم هى تقديم الاقربه فانهم يقدمون ابن العم الشقيق على العم لاب مع ان العم اقرب من ابن العم «راجع تاريخ التشريع الاسلامى للخضرى ص ٣٤٠ـ ٣٤١ ط مصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م وتاريخ التربيه الاسلاميه للدكتور احمد شلبى ط بيروت ١٩٥٤م

ولا تزال من فئة الاسماعيليه هذه جماعات متفرقه منبثه بانحاء الهند في كشمير وبومباى وجزيرة سرنديب ـــ سيلان ـــ وافغانستان والباكستان الغربي واليمن وشرقى افريقية وسوريا وعددهم ينيف على مليونى نسمه. ورئيسهم الحالى محمد شاه «اغاخان» المولود سنة ١٢٩٤هـ ـ١٨٧٧م

«١» المسالك والممالك للبكرى ص ٧٢ـ٧٣ـ و ٨٢ و ١٤٤ ـ ١٤٥ ط الجزاير ١٨٥٧م

«٢» راجع الجزء الاول من كتابنا هذا ص ١٧٦ـ٧٨ و ٢٠١ـ٢٠٢ والجزء الثاني ص ٣٣ ٣٩

الثقافة والحضارة والعمران

تحتفظ لنا المجموعة التاريخية الكبري التى شارك فى وضعها نخبة من افاضل العلماء فى القديم والحديث كالاخوين يحيى وعبد الرحمن ابنى خلدون، والتنسى والغبرينى، وابن مريم، وابن فرحون، واحمد بابا التنبكتى، والسخاوى والمسيتي البوني؛ ومحمد بن حواء المستغانمى، وشيخنا الحفناوى؛ ومحمد بن مخلوف التونسي، وهلم جرا.... بتاريخ سير الحركة العلمية بالجزائر، ضمن تراجم طائفة عظيمة وعدد وافر من نوابغ العلماء وارباب القرائح الذين انجبتهم الجزائر فكرسوا حياتهم لخدمة العلم ونشر الثقافة بين هذه الارجاء المغربية وخاصة منها هذه البلاد فان حظها من هؤلاء العلماء كان موفورا وسعيهم بها مشكورا، وليس هنالك ادل على ما ذكرناه اعظم من الرجوع الى مطالعة هذه المصادر المذكورة وهي بحمد الله مطبوعة متداولة بين الناس، فلا سبيل الى انكار الجاحدين المغرضين او معارضة المكابرين؛ فلقد سايرت الجزائر موكب العلم والمدنية جادة فى ذلك حسبما سمحت لها الظروف وتيسرت لها الاسباب؛ وكانت - كما لا تزال - كلما وجدت الى ذلك فرصة اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج، وفيها كان استقرار العلوم النظرية كما قال ابن خلدون فى حديثه عن الادب والعلم بتلمسان،

قال : ولمن ذكرنا من اهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم، وملكة التلقى. وهو يعنى بذلك الشريف التلمساني وسعيد بن محمد العقباني رحمها الله، قال لكونهما الفا التصانيف البعيدة وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع،

وقال المقرى فى تعقيبه على كلام ابن خلدون هذا : وكذلك بلغ رتبة التبريز فى تحصيل العلم كل واحد من ولديهما : الفقيه السيد ابو الفضل قاسم بن سعيد، والفقيه الاوحد السيد ابو يحيى الشريف. اذ بلغا رتبة الامامة والقتياد «١»

«١» ازهار الرياض للمقري ج ٣ ص ٢٥ ط مصر ١٣٦١هـ

واضحت الجزائر يومئذ تفاخر البشرية بابنائها البررة البارزين في الحقل العلمي تفاخرا كثيرا

ومن معاهد العلم الشهيرة بتلمسان مدارس كثيرة منها مدرسة منشار الجلد، ومدرسة ابن الامام، والمدرسة التاشفينية، واليعقوبية، ومدرسة ابي حمو الثاني، ومدرسة ابي الحسن المريني بالعباد، والتعليم في جميعها بمراحله الثلاثة مجانا وذلك علاوة على ما كان يقوم به علماء الدين بالمساجد من دراسة علوم الشريعة واللغة، وللطلبة نظم وتراتيب خاصة تجمعهم على حسب اختلاف اتجاهاتهم العلمية وتنوع مقاصدهم فى الطلب، والى تلمسان هذه كانت تشد الرحال فى طلب علوم الحكمة والفلسفيات من نوع العلم الطبيعي والرياضيات والطب والموسيقى

فهذا عبد الباسط بن خليل المصري من علماء القرن التاسع الهجرى هجر بلاده وارتحل الى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب فنزل تلمسان واخذ بها عن الشيخ محمد بن على بن فشوش احد اطبائها في المزاولة والدرس، كما انه لازم بها دروس طبيبها الاكبر وحكيمها العالم الاسرائيلي موشى بن الاشقر؛ قال : «لا رايت كمثله فى مهارته فى هذا العلم وفى علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة... وقصده كثير من الفضلاء للاخذ عنه... قال : لازمته مدة واخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره واجازنى، وبلغني عنه فى هذه الايام انه انتهت اليه الرئاسة فى الطب بتلمسان » «١» بينما الامر في بلاد الجزائر على ذلك اذا ببلاد الاندلس — وما ادراك ! — كانت على خلاف ذاك، فان لكل العلوم هنالك حظاً واعتناء خاصا الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانه كلما قيل فلان يقرا الفلسفة و يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه «٢» وان

«١» الروض الباسم لعبد الباسط بن خليل ص ٤٤ ط باريس ١٩٣٦م

«٢» نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٧ ط مصر ١٩٣٦م

كان مزاج الامة الجزائرية مع ذلك عموما ذا صبغة دينية محضة حسبما دلتنا على ذلك اكثر آثارها الادبية وانتاجها فى عالم التأليف

واشتهر يومئذ من اطباء تلمسان الادباء الذين سمح لهم القدر بجمعهم بين جبر وهن الاجسام ومواساة جراحات القلوب والارواح؛ الطبيب الاديب الحاج ابو عبد الله محمد بن ابى جمعة التلاليسى، طبيب ابي حمو «الثانى» فانه علاوة على براعته فى الطب ومهارته في العلاج كان اديبا متفننا ينظم الشعر الجيد ويحسن قرضه؛ وله في كل المناسبات والاحداث التى تقع بقصر السلطان قصائد رشيقة وموشحات رائعة، منها قوله في مطلع موشح رفعه الى السلطان ابى حمو يوم الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم سنة سبع وستين وسبعمائة [١٣٦٥م

لى مدمع هتان ينهل مثل الدرر
قد صير الاجفان ما ان لها من اثر
حق له يجرى دما على طول الدوام
مذ جد فى اليسر ناس الى خير الانام
وعاقنى وزرى يا صاح عن ذاك المقام
وسارت الاضعان يحدى بها في السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر

ولقد مرت بك بعض قطع من شعر ملوك هذه الدولة وادبائها الدالة على تضلعهم وتمكنهم من صولجان دولتى السيف والقلم فراجعها (١) وذكر بعض المؤرخين عناية السلطان ابى حمو الثاني بالعلم واهله فقال : هذا امر

(١) ذكر روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكان : ان «د جلسين» رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال عصره في القرن الرابع عشر الميلادى ـ الثامن الهجرى - كان اميا ، وان «هريون» اعظم قضاة الدولة كان كذلك اميا؛ قال وانهم عثروا على عدة قوانين ووثائق صادرة عن اهل الطبقة الاولى من الاعيان يستدل منها انهم كانوا أميين

يقصر اللسان عن الاحاطة به. (١)

واما العمران فحجتنا فيه ما كانت عليه يومئذ عاصمة المملكة الجزائرية ـ تلمسان ـ من كثرة المنشآت وتعدد انواعها على اختلاف اصنافها واشكالها، فهذه قصور شامخة، وهذه مدارس مونقة، ومساجد فسيحة مزخرفة، وتلك منتزهات جميلة، وهناك دور رفيعة وحصون منيعة، ومصانع عجيبة وحدائق غناء... وكل ذلك مضبوط لدينا فيما حررته مصادر التاريخ الموثوق بها ونطقت به الارقام والاحصاءات الصحيحة الثابتة (٢) وزد الى ذلك ما ذكروه في قصر المشور وما كان عليه من الابداع، وما عثر عليه هنالك من الزلايج والنقوش المزخرفة على الجبس منها ما بقي موجود الى الآن ومنها ما اندثر

ويذكر اهل التاريخ ان عدد مساجد مدينة تلمسان فى عهدها الزاهر اناف على الستين مسجدا، كان من بقاياها ما نشاهده اليوم من هذه العترة الباقية الى اليوم كدلالة على تقدم الحضارة والعمران بالجزائر فى ذلك العهد السحيق، منها هذا الجامع الاعظم الذى انشأه المرابطون فى جمادي الثانية سنة ٥٣٠هـ «مارس ١١٣٦م» كما هو منقوش بباطن قبة المسجد، على ان مناره متاخر عنه بنحو سبعين سنة، ثم كان تجديد المنار المذكور على عهد يغمراسن بن زيان مؤسس دولة بنى عبد الواد الزيانية، ويبدو على زخارف ونقوش هذا الجامع انها من صنع نحاتين اندلسيين كما يلاحظ ان محرابه قريب الشبه بمحراب جامع قرطبة. والمسجد الذى اقامه السلطان ابو حمو الثاني على ضريح سيدي ابراهيم. وهو معروف به الى الآن، وذلك المسجد البديع الشكل الجميل المنظر الذى انشأه السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن الزيانى سنة ٦٩٦هـ «١٢٩٦م» وهو المعروف بجامع سيدى ابى الحسن بن يخلف التنسى، اقامه السلطان المذكور كذكرى للامير ابى عامر ابراهيم، وكان

(١) انظر نحلة اللبيب ص ١٦٦ ط الجزاير ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤م

(٢) راجع

Marçais W et G les monuments arabes de Tlemcen Paris 1903
Marçais G - manuel d'art Musulman «l'architecture» Paris 1926-27

لفرط بهجة هذا المسجد وتفوقه بزخرفته ونقوشه الانيقة حوله الفرنسيون المحتلون عن وضعيته والغاية التى انشأ من اجلها وصيروه متحفا للاثار، ومنها مسجد سيدى الحوى الجميل الذى انشأه السلطان ابو عنان فارس المرينى سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م)؛ وما انشأه والده السلطان ابو الحسن على المرينى بضاحية العباد سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) من تلك المجموعة الاثرية الفنية الثمينة المحيطة بضريح الشيخ ابي مدين شعيب بن الحسين الاندلسى (٥٩٠هـ-١١٩٣م) المحتوية على ذلك الجامع المزخرف الزاهر، وتلك المدرسة الانيقة والقصر المنيف؛ ويذكر لنا الشيخ ابو راس المعسكرى في كتابه او قل شرحه على نظمه الحلل السندسية ان الجامع الاعظم بالجزائر هوايضا من مؤسسات بنى زيان وان مؤسسه هو ابو تاشفين الاول اقامه بمكانه هذا يوم انتصاره على اعدائه وخصومه الثعالبة بمتيجة، وهذا خطأ محض لاحجة فيه، فلقد سبق ان ذكرنا في تاريخ دوله بنى مرين بالجزائران هناك جناحا انشأه السلطان ابو الحسن المرينى زيادة في الجامع المذكور [١] وعليه فان الجامع كان موجودا قائما قبل قيام دولة بنى زيان؟... واين هذا مما ذكره ابو راس؟... على ان المستفيض الشائع على السنة علماء الآثار والتاريخ من الباحثين الافرنج وما هو مكتوب مدون فى مؤلفاتهم ان تاريخ الجامع هذا يعود الى عصر المرابطين (٤٩٠هـ - ١٠٩٦م) وانه ملحق فى شكله وهندسته المعمارية بجامع تلمسان المنسوب الى على بن يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وذلك هو ما جزم به الدكتور «م،س، ديماند» امين مجموعة الشرق الادنى بمتحف الميترو بوليتان فى عاصمة نيويورك الامريكية، حيث قال في معرض كلامه على تاريخ فن الحفر والنقش على الخشب بشمال افريقية :

«انه لا تزال بشمال افريقية عدة منابر هامة ترجع الى القرنين الحادى عشر والثانى عشر واقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذى بناه المرابطون

(١) راجع المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب «مخطوط»

سنة ١٠٨٢ (٤٧٤هـ) وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة واشجار نخلية وتوارق في اساوب مغربي اسباني، حمله الى شمال افريقية الفنانون الاندلسيون» (١) ولايزال هذا المنبر موجودا الى اليوم بمكانه من الجامع المذكور تقام عليه الخطب الجمعية وفي الاعياد، ولا يزال نص تاريخه مكتوبا على بابه بالخط الكوفي هكذا «بسم الله الرحمن الرحيم تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة سبع واربعمائة عمل محمد» وهو ما يوافق من التاريخ الشمسي [٤ دسمبر ١٠١٦ م] اى في عهد دولة صنهاجة، وهناك من يزعم ان تاريخ المسجد هو ما ذكرناه من تاريخ المنبر؟ ... واياما كان فلا ارى صحة ما ذكره ابو راس من نسبة بناء المسجد الى ابي تاشفين الزياني ؟...

اجل هناك بالجامع المذكور رخامة ثابتة عند باب منارة منحوت فيها بالخط المغربي البارز ذكر اسم السلطان ابي تاشفين الاول ولكن ذلك هو تاريخ المنار منه فقط لا المسجد، ودونك نص النقش الموجود فيها بالحرف : «لما تمم امير المسلمين ابو تاشفين ايده الله ونصره منار الجزائر في مدة اولها يوم الاحد السابع عشر من ذي قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة؛ وكان تمامها وكمالها في غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة نادا المنار المذكور بلسان حاله الحالي اي منار حاله كحالي

اقام امير المسلمين تفافحا ... كساني بها حسنا وتمم بنياني
وقابلني بدر السماء وقال لي ... عليك سلامي ايها القمر الثاني
فلا منظر يسبي النفوس كمنظري ... الا فانظروا حسني وبهجة تيجاني
فزاد الهي رفعة لمتممي ... كما زاد في شأني ورفع اركاني
ولا زال نصر الله حول لوائه ... رفيقا له تال وحسنا له ثاني

ولعل الشيخ ابا راس اطلع على هذه الكتابة المنحوتة بهذه الرخامة فظن أنها

(١) الفنون الاسلامية ص ١٢٩ ط مصر ١٩٥٤م

تاريخ المسجد؟ ...

على ان ناحية القبلة منه والقبة القائمة فوق محرابه هما من منشآت العهد التركي في القرن الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي - بناهما المفتي المالكي في التاريخ على حسابه طيب الله ثراه، وذلك اثر حادثة حربية وهجوم بحري ضد مدينة الجزائر فسقطت القنابل على جدار القبلة من المسجد فتهدم الصف الامامي منه فجدده المفتي من ماله الخاص بعد بيع املاكه

ويذكر عن السلطان ابي تاشفين الاول انه كان من اشد ملوك هذه الدولة عناية وولوعا بالتعمير فانه قام بتأسيس كثير من المعالم والمعاهد، واغلبها اليوم اطلال دارسة، منها مدينة «تامزيزدكت» بشمال الوادي الكبير – سومام – قرب محطة السكة الحديدية من مدينة القصر، انشأها ابو تاشفين سنه ٧٢٦ هـ «١٣٢٥م» وجعلها قلعة حصينة ومركزا حربيا لمقاومة الحفصيين ببجاية، اسكن بها نحو ثلاثة آلاف ومائتي فارس وشحنها بالميرة؛ ثم كان تقويضها سنة ٧٣٣هـ «١٣٣٢م» على يد خصومه الحفصيين بمؤازرة مرين، ومثلها بتلمسان بناية دار الملك ودار السرور وابي فهر، والمدرسة التاشفينية، وكلها تلاشت وانعدمت الا الحوض او الصهريج الذي ترى بقية منه غربي تلمسان البالغ طوله مائتي وعشرين مترا وعرضه مائة وخمسون مترا في عمق ثلاثة امتار فانه حافظ على وجوده الى الآن وكان انشاؤه حوالى سنة ٧١٦ و ٧٢٨هـ «١٣١٣-١٣٣٦م» وقدكان يستعمل هذا الحوض للسباق بين الزوارق والقوارب في ايام الاعياد والمواسم والاحتفالات الملكية كما هو مستعمل للسقي والري؛ ويقال ان انشاءه كان لاجل تمثيل وقعة قتال بحرية للسلطان؟ . . .

كما يذكر عن ابي حمو الاول انه احدث بتلمسان سنة ٧١٧هـ ١٣١٨م قصبة خصها بسكنى من عنده من رهائن ابناء زعماء القبائل الذين هم تحت طاعته وامره وهم كثيرون؛ فانشأ لهم هذه القصبة على شكل مدينة محتوية على

جميع المرافق والضروريات التى تنبنى عليهـا حياة المدن من اسواق ومسـاجد الخ... واذن لساكنيها بالزواج فكانت تعج باصحابها وتضج ضجيج العواصم الكبرى وصارت بذلك كما يقول ابن خلدون من اغرب ما يحكى في العصور عن سجن

وعلى هذا المنوال كان ابتناء زاوية الشيخ ابراهيم التازى بوهران ٨٦٦هـ ١٤٦٢م فانها كانت علاوة على ما هو معهود فى الربط والزوايا من كثرة البيوت والمقاصر وتعديد مساكن اللاجئين والفقراء الخ... فإن فيها ايضا مدارس ومساجد وحمامات وصهاريج وبساتين ومخازن وخزائن كتب وسلاح الخ . . فاذا كانت هكذا بنايات الشعب والرعية فكيف تكون أبنية الملوك ؟.... وان هذه المباني والآثار كما يقول الدكتور غوستاف لوبون : تظهر بين اضمن مصادر التاريخ، فهي كتب لا تكذب ابدا، وهي تشتمل على لغة بالغة الوضوح، بيد انه لم يبدا في ادراكها في غير ايامنا،

ولقد ضبط اهل الاحصاء ماكان من منازل السكنى بوهران قبل الاحتلال الاسبانى بعشر سنوات فبلغ الى ستة آلاف دار؛ اما عدد المتاجر والحوانيت فانها انافت على الف وخمسمائة متجر، ويضاف الى ذلك طبعا عدد مناسب من الفنادق والحمامات والافران والرحاب والقاعات والمصانع والمطاحن والاسواق والمساجد والمدارس وهلم جرا مما تقتضيه مرافق الحياة، وقد يكشف لنا فن المعمار احيانا عن عناصر التاريخ التي لا تحدث عنها الكتب

قال يحيى بن خلدون وهو ممن عاش بهذا العصر الذى نؤرخه ولابس ملوكه، يصف تلمسان : «وبها للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقه والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه، وتناسبت اطواله وعروضه فازرى بالخورنق والسدير» وبالجملة فان تلمسان اصبحت كما يصفها المؤرخ الكبير اخوه عبد الرحمن : اعظم امصار المغرب ونفقت بها اصناف

العلوم والصنائع وضاهت امصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية.

وذكروا مثل ذلك عن مدينة وهران بما فيها من المؤسسات العامة ومراكزها التجارية المتنوعة ومساجدها ومنتزهاتها الجميلة ومدارسها الشبيهة بمدارس غرناطه واشبيلية كما وصفها الكاتب الاسبانى «الفاريز قوميز» Alvarés Gomés

انهيار دولة بنى عبد الواد الزيانية

حياة الدول او الامم هى كحياة الافراد كل يعانى منها ما يعانيه الآخر من تقلبات الزمان وضرباته وتنقلاته من حال الى حال وتطوراته المستمرة الى غير ذلك من النواميس والعوامل الطبيعية فتولد وتنمو وتدير ايامها ما بين سعادة وشقاء وراحة وعناء، وبؤس ورخاء وقوة وضعف وارتفاع وانحطاط وحياة وموت، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

واذا علمت كيف كانت وضعية الجزائر السياسية والاجتماعية في اواخر عهد الدولة الزيانية من التشتت والاضطراب وما احاط بها يومئذ من الفتن والمشاكل المتنوعة المهددة، بسبب تظافر الدول المجاورة على محقها وتسابقها الى محوها والقضاء عليها، مع اعتداءات القبائل العربية والعشائر البربرية المتكررة، وتزاحم المشيخة والقادة على الرئاسة وتتبع مصالحهم ومنافعهم الخاصة بدون مبالات ولاالتفات الى مصالح الشعب والوطن، فاذا علمت كل ذلك تيقنت وان الدولة الجزائرية يؤمئذ اشرفت على الهرم لامحالة بل انها ولاريب ذاهبة الى التدهور والزوال.

وزد على ذلك مضايقات الاتراك والاسبان وحملاتهم وحروبهم المتوالية بالجزائر مع تطلع دولة الاشراف السعيديين الى امتلاكها وضمها الى مملكتها المغربية مع انهماك الدولة الزيانية يومئذ واستغراقها في حروبها الداخلية لرد هجمات المشقين وقمع طوائف الثائرين ودفع غاراتهم المتكررة....

فاذا استحضرت ذلك كله ودرسته على ضوء ما قدمناه لك من الحوادث

والاحداث المنسقة الاخذة برقاب بعضها بعض، ادركت النتيجة المحتمة والعاقبة المنتظرة لهذه الدولة او غيرها ممن كان على شاكلتها ووضعيتها هذه... وذلك لا محـالة غاية كل من احاطت به مثل هذه العوامل الهدامة وتدافعته الاقدار الى هاتيك الاطوار، وطرحته بين مخالب تلك الزوابع والزعازع الفتاكة

واذا اضفت الى ذلك ما كان يومئذ بين ملوك هذه الدولة نفسها من التنافس والتزاحم على العرش والاستنصار بالاجنبي على بعضهم بعض مع انقسامهم وانشغالهم بانفسهم عن العدو، هان عليك حينئذ الحكم بالمصير....

وكان لزاما ان تتساقط اوصال هذه الدولة وتتفكك وحدتها وتنحط عن قمة مجدها الى الحضيض صريعة منكسرة الجناح... وفعلا وقعت من علياء مجدها بيد الاتراك العثمانيين سنة ٩٦٢هـ (١٥٥٤م) كما سيرد عليك تفصيله فيما نقصه عليك فى محله من تاريخ الاتراك بالجزائر

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة هذه الدولة وزعمائها ورؤساء العشائر وقادتها وشيوخ القبايل وسادتها : الرئيس القاضي ابو محمد عبدون الحباك حاجب يغمراسن بن زيان، ومن اعيان الوزراء والحجاب يحيى بن مجـن او – مقن – ؟ وأخوه عمروش وولداه يحيى وعمر، ويعقوب بن جابر ورحو بن محمد الخراسانيان، ولقدكان تدويخ مدينة تدلس واطاعتها لبنى زيان على يد جابر الخراساني هذا سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٢م)، ومنهم الوزير غانم بن محمد الراشدى، ومعروف بن الفتوح التجاني، ويحى بن موسى الجمي ومحمد بن ميمون بن الملاح وولداه من بعده الاشقر فابراهيم وعمه على بن عبد الله

كان آل الملاح هؤلاء من بيت مجد وحسب من اهل قرطبة الاثرياء، اكتسبوا ثروتهم بطريق الزراعة والفلاحة، واشتهروا بالصدق والعفاف وحفظ الامانة

والتدين فاختارهم ملوك هذه الدولة للعمل بدار الضرب في تلمسان، وعرف من بينهم اثنان : عبد الرحمن بن محمد الملاح متولى الاشغال على عهد يغمراسن بن زيان، ومحمد بن ميمون الوزير، ثم كان انقراض هذه الاسرة يوم اغتيال السلطان ابى حمو الاول سنة ٧١٨هـ «١٣١٨م»

ومن الوزراء العلج القطلانى المعروف بالشدة وشراسة الاخلاق، ولما حج سنة ٧٢٥هـ «١٣٢٥م» اناب عنه الحاج ابا عبد الله محمد بن حوتية ثم اعتقل ومات في السجن، ومنهم الحاج ابوعمران بن موسى بن برغوث اللؤلؤى وابو عبد الله محمد بن عامر الولهاصي وابو عبد الله محمد بن سعود، وابو محمد عبد الله بن مسلم، ويحيى بن داود بن على من آل ابن مقن وعبد الله الزردالى المشهور بالبسالة والاقدام، ومنهم منصور بن ابى غانم آخر وزراء الدولة الزيانية وأخوه عبد الله سفير الدولة الى اسبانيا

ومن اصحاب الاشغال : ابو زكرياء يحي بن محمد؛ وابو المكارم منديل بن المعلم وابو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامى، وعبد الرحمن بن النجار مدبر مملكة السلطان محمد بن ابى ثابت

ومن الكتاب العسكريين والمدنيين ايضا : محمد بن غالب قتل يوم ثورة النصارى على السلطان يغمراس بن زيان. فتولى بعده ابو عبد الله محمد بن جدار، ثم ابو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسى المتوفى يوم عاشوراء ٦٨١هـ «٢٠ افريل ١٢٨٢م». وابو عبد الله محمد بن المعلم، وابن خميس شاعر الجزائر واديبها الكبير في القرن السابع، وابو عبد الله محمد بن المرقوم الهسكوري، وابو عبد الله بن مدورة، وعبد الواحد بن محمد الزواق، نكب فى دولة الاخوين السلطان ابي سعيد وابي ثابت، فخلفه على بن محمد بن سعود، وابو عبد الله محمد بن على العصامي، واحمد بن الحسين المديوني، وابو عبد الله محمد القيسى المشهور بالمشوش، ثم نقل هذا الى امانة المال على عهد ابي حمو الثانى

وفي سنة ٧٦٩هـ «١٣٦٨م» دعا السلطان ابو حمو الثاني لحجابته الفيلسوف العالم المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون فحالت بينهما العوائق وعاقت المؤرخ الموانع فاناب عنه اخاه يحيى فشغلها الى ان قتله ابو تاشفين الثاني سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م)

وتجددت دعوة ابى حمو لابن خلدون سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٥م) ليقوم له بالسفارة لدى عرب الدواودة؛ فامتنع وآثر التخلى عن السياسة والانقطاع للدرس والبحث والتأليف فنزل باهله وولده قلعة ابن سلامة. او بنى سلامة (١) فأقام بها اربعة اعوام اكمل فيها تأليف مقدمة تاريخه الحافلة، ثم استجاب بعد ذلك لطموحه السياسى البعيد وغريزته الوثابة الجامحة فلبى دعوة ابى حمو واخذ فى بث دعوته فى البلاد ونشر مناقبه بين اهل بجاية وما حولها من القبائل عاملا على تحويلهم من جانب ابى العباس الحفصى وتوجيههم الى ناحية السلطان ابى حمو.

خرج ابن خلدون صحبة امير بسكرة ومن استمالهم اليه من الزعماء ومشائخ العرب في جموعهم الكثيرة متوجهين الى نصرة السلطان ابى حمو؛ وكان اللقاء بينهم وبين السلطان في مدينة البطحاء ـ البسيط الواقع بين مدينة غيليزان ووادى شلف ـ فلازمهم ابن خلدون مدة الى ان اظلهم عيد الفطر هناك فخطب ابن خلدون وصلى بالسلطان صلاة العيد ثم انشده عند انصرافه

---

(١) المعروفة الى الآن بقلعة تاوغزوت، تقع على نحو ستة كيلوميترات بالجنوب الغربى من مدينة فرندة الواقعة على وادي التحت بمقاطعة وهران من بلاد الجزائر، كما تبعد ايضا عن مدينة تيارت الحالية بالجنوب الغربى بتسع مراحل، وكان مسكن ابن خلدون منها بقصر ابى بكر بن عريف، وهو من احفل القصور واوفقها؛ اقام به مؤرخنا الجليل اربع سنوات اكمل فيها تاليف مقدمة تاريخه العجيبة النفيسة، واما سلامة الذى تنسب اليه القلعة المذكورة فهو سلامة بن على بن نصر بن سلطان رئيس بنى يدللتن من بطون توجين، سكن تاوغزوت واختط بها القلعة فنسبت اليه وكانت من قبل رباطا لبعض العرب المنقطعين من بنى سويد، انظر ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٣

من المصلى قصيدة في التهنئة بالعيد وفيها حث وتحريض للسلطان، طالعها :

هذي الديار فحيهن صباحا ‏ ‏ وقف المطايا بينهن طلاحا

لا تسأل الاطلال ان لم تروها ‏ ‏ عبرات عينك واكفا ممتاحا

فلقد اخذن على جفونك موثقا ‏ ‏ ان لا يرين من البعاد شحاحا

ايه على الحى الجميع وربما ‏ ‏ طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

ثم تغير نظر ابن خلدون الى ابى حمو فانقلب على صاحبه وتحول الى السلطان عبدالعزيز بن السلطان ابى الحسن المريني ملك المغرب الاقصى وانتظم في سلك الحملة التى بعث بها الملك لغزو تلمسان ومحاربة ابي حمو صديق ابن خلدون بالامس....

وكان على قيادة الجيش ورئاسة الجند يحيي بن موسى السنوسي الذي طالما تولى القيادة فاحتوى عليها غلابا، وهو الذى فتح تونس سنة ٧٢٩هـ [١٣٢٩م] وكان من قبل عاملا للزيانيين على ولاية شلف الممتدة من حدود مدينة دلس الى المدية، وكبير القادة موسى بن علي الغزى؛ والقائد عيسى بن مزروع الياتكشي، والامير ابو سرحان مسعود الزبانى؛ واجتمع لموسى الكردى كل من منصبى القيادة والحجابة معا، وكان يعيش بن راشد المجني قائدا بالجزائر ودلس. وعطية بن موسى الركاب قائداً بشلف، وواتفل بن عبو بن حماد قائدا بمدية، كما تولى القيادة بها ايضا يوسف بن حسين التجانى؛ وقائد بني راشد : زيان بن ابى يحيي بن ونزمان، وقائد منداس وونشريس : ابراهيم المصوجي، وقائد وجدة : موسي بن خالد بن محمد، وقائد ندرومة : زكرياء بن يخلفتن المطغرى، وقائد سجلماسة : عبد الملك العبد الوادى المقتول يوم فتح المرينيون سجلماسة ٦٧٣هـ [١٢٧٤م] ويحيي الزعيم عامل مستغانم، وابن اخيه داود كبير اهل الشورى؛ وكان المنتصر بن ابي حمو الثاني واليا على مليانة والجزائر، كما تولى منصب مليانة ايضا الامير محمد بن يوسف بن يغمراسن، وكان على بجاية ابو هلال عياد

المتوفى سنة ٦٧٣هـ [١٢٧٤م] وعبد الرحمن بن رضوان وصى العرش الزياني ايام المولى محمد، والقائد احمد بن سليمان، والقائد ابراهيم. والقائد ابوالاخراص اسير الاسبان.

واشتهر من شيوخ العرب ورؤسائهم يومئذ سليمان بن موسى اليزيدي رئيس بني يزيد، واستعمل السلطان ابو حمو الاول على توجين الحشم : يوسف بن حيان الهواري واعطاه الطبل والبند، كما استعمل حاجبه مسامحابشلف وبلاد مغراوة وكان راشد بن محمد المغراوى على ناحية وادى شلف

وكان على رئاسة القبائل العربية كل من عبد الله بن شيقر، وسعد بن العباس، وزيان بن يعقوب، وزيرى بن رحو، ومنديل بن ابى يحيى الصغير وكانت رئاسة منطقة ما بين مدينة قسنطينة والقل والزاب والحضنة للدواودة، وواحات تقرت وواد ريغ لبنى جلاب، ورئاسة بلاد القبائل – زواوة – لسلطان كوكو المقيم بقرية آيت يحيى على بعد ثمانية كيلوميترات شرقي بلدة ميشلي

وكانت رئاسة مشيخة الجزائر لبنى علان، ثم انتقلت منهم الى بنى سالم بن ابراهيم من الثعالبة، ومنهم سالم التومى آخر ولاة مدينة الجزائر على عهد بني زيان . وكانت ولاية سهول شلف لبني ثابت بن منديل المغراوى. وقد كان ثابت هذا على ولاية برشك فأوقع به السلطان ابو سعيد لغدر صدر منه سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) ، ومنهم اخوة ثابت بن منديل : محمد وعمر وعابد، وكلهم تولى رئاسة مغراوة؛ وكان من مشمول هذه الولاية مدينة مليانة وتنس وما زونة وبرشك وشرشال، وآخر من تولاها منهم على بن هارون ٧٧٤–٧٧٦هـ (١٣٧٢–١٣٧٤م) حاصره ابو تاشفين بن ابى حمو واخرجه من ارض مغراوة فى ربيع الاول – اوط – من التاريخ المسطور فلحق ببجاية ثم ارتحل عنها الى الاندلس وبذهابه انقرضت امارة بني منديل من مغراوة وكان على

ولاية وهران كعامل ومدير لشؤونها على عهد السلطان احمد المعتصم بن ابى حمو المسمى محمد الزكاجى

وكانت رئاسة واركلان- بني ورجلان - فى آل بنى ابي عبدل. ويعرف عندهم الرئيس بلقب السلطان، ورئاسة توجين في آل عبد القوى بن العباس من بنى منكوش وفي بنى تيغرى كذلك واولاد عزيز ايضا

وكانت رئاسة قلعة تاوغزوت قرب فرندة فى بني سلامة بن على بن نصر الى ان خربها ابو حمو الثانى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) ومن رؤساء برشك زيرم بن حماد المكلاتي المستبد بها سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) فقتله بنو عبد الواد سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م)

واشتهر من السفراء العلامة ابو عبد الله محمد الشريف التلمساني؛ وداود بن مجن، وعبد الله بن محمد بن ابي غانم،فى آخرين لم تحضرني الآن اسماؤهم....

ملوك الدولة الزيانية

في الدور الثالث والاخير

	تاريخ التولية
ابو زيان احمد «الثاني»	٩٢٣هـ - ١٥١٧م
ابو محمد عبد الله «الثاني»	٩٢٤هـ - ١٥١٨م
ابو السرحان المسعود	٩٢٥هـ - ١٥١٩م
ابو محمد عبد الله «للمرة الثانية»	؟... - ؟....
ابو عبد الله محمد «السابع»	٩٣٠هـ - ١٥٢٤م
ابو زيان احمد «الثالث»	٩٤٩هـ - ١٥٤٢م
ابو عبد الله محمد «السابع» ـ للمرة الثانية ـ	٩٥٠هـ - ١٥٤٤م
ابو زيان احمد «الثالث» ـ للمرة الثانية ـ عامل عثماني ـ	٩٥٠هـ - ١٥٤٤م
الحسن بن عبد الله «الثاني»	٩٥٧هـ - ١٥٥٠م

استيلاء صالح رئيس باشا على تلمسان نهائيا ٩٦٢هـ ـ ١٥٥٤م

مشاهير الجزائريين

ابو الفضل محمد المشدالى

٨٦٤هـ (١٤٦٠م)

هو اوحد زمانه وعلامة عصره وآوانه الشيخ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابى القاسم المشدالى - بفتح الميم والشين المعجمة وتشديد الدال، نسبة الى مشدالة احدى قرى بجاية -

ولد المترجم ببجاية ليلة النصف من رجب سنة عشرين وقيل احدى أواثنتى وعشرين وثمانمائة للهجرة [١٤١٧م] في بيت علم وصلاح، مشهور من قبل بانقطاع اهله الى التدين والتقوى وخدمة العلم، فكان ممن ذاع صيته من العلماء من آل المشدالى بهذا البيت: ابو على ناصر الدين المشدالى، وابو موسى عمران المشدالى ووالد المترجم عالم بجاية وخطيبها ابو عبد الله محمد بن ابى القاسم المشدالى، واخوه الشقيق محمد بن محمد المشدالى.....

نشأ ابو الفضل على غرار اسلافه شغوفا بالادب والعلم والحكمة، متوقد الذهن ملتهب الذكاء، واعيا قوى الحافظة، أخذ القرآن الكريم برواياته السبع عن والده وحفظه فى سن مبكرة من صباه تدعو الى الدهشة والاعجاب فلقد روى انه ابتدأ حفظ القرآن ببجاية فى السنة الخامسة من عمره واكمل

حفظه في سنتين ونصف، بل ذكر الرواة انه حفظ سبح قبل ان يتهجى بغير اقراء له وانما هو بسماعه ممن يدرسه [١]

وكان ممن اخذ عنهم القراءات الشيخ الامام ابو عبد الله محمد بن ابي رفاع، وقرأ لنافع عن الشيخين هرون المجاهد وابي عثمان سعيد العيسوى وغيرهما، واكب كذلك على حفظ المتون ودواوين الادب صغيرا فاستظهر منها الشاطبيان ورجز الخراز في الرسم والكافية الشافية، والخلاصة، ولامية الافعال، والجل من كتاب التسهيل كلاهما لابن مالك، ومتن ابن الحاجب الفرعى، والرسالة، وارجوزة التلمسانى في الفرائض ونحو الربع من مدونة سحنون، وطوالع الانوار في اصول الدين للبيضاوى، ومتن ابن الحاجب الاصلى وجمل الخونجى والخزرجية في العروض وتلخيص ابن البنا في الحساب وتلخيص المفتاح وديوان كل من الشعراء الخمس : امرىء القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن ابي سلمى وعلقمة الفحل وطرفة بن العبد.

ثم اخذ في البحث والدرس والتفهم لما حفظ من كتب العلم والادب فاختلف الى المشائخ ولازم منهم الشيخ ابا يعقوب يوسف الريغى فأخذ عنه علم الصرف والعرض، ثم اخذ عن ابي بكر التلمساني فنون اللغة والمنطق والاصول والميقات وعن ابى بكر بن عيسى الوانشريسى اخذ الميقات ايضا

(١) يرى دارس تاريخ الحضارة والثقافة الاسلامية في مختلف بلاد العالم الاسلامى ان مثل هذا النوع من الذكاء وسرعة الحفظ في مقتبل العمر كان معروفا به كثير من العلماء المتقدمين كان سيناء فانه اتقن علم القرآن والادب وحفظ اشياء من اصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة وعمره عشر سنين، وحفظ قتادة القرآن في سبعة اشهر، واتم سهل بن عبد الله التسترى حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات، واكمل تاج الدين الكندي القراءات العشر وله عشرة اعوام، وذهب عمر بن احمد العديم الى المكتب وعمره سبع سنين وختم القرآن وله تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشرة سنين، وحفظ الامام الشافعى القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وله احدى عشرة سنة ... انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٩١ والعقد الفريد ج ١ ص ٢٦٧ والاحياء ج ٣ ص ٥٩ والدارس ج ١ ص ٤٨٣ـ٤٨٤ ومعجم الادباء ج ٦ ص ٣٦

ثم علي يعقوب التيرونى النحو؛ ثم على ابى اسحاق ابراهيم بن احمد بن ابى بكر في النحو والمنطق، ثم على موسى بن ابراهيم الحسناوى في الحساب ثم الحساب ايضا مع الصرف والنحو والاصلين والمعانى والبيان وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه على والده ابي عبد الله ثم الاصلين على ابى الحسن على بن ابراهيم الحسناوى ـ لعله اخو موسى المتقدم الذكر؟

ويذكر عن ابيه انه امره بمطالعة غزوة بدر ليحاضر بها فى الميعاد فحفظها المترجم برمتها من سيرة ابن اسحاق بما فيها من الاشعار وحاضر بها من العشاء الى نصف الليل واصبح فساقها حتى بهر الحاضرين

ولما كان عليه الشيخ من الطموح الى ارتقاء المعالى والرغبة الجامحة فى نيل مقام اكابر العلماء تاقت نفسه الى التبحر والتعمق فى العلم فتعلقت همته بالرحلة والتغرب للقاء المشيخة كما هى سنة السلف في ذلك؛ فارتحل من بلده الى تلمسان سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) وهناك اجتمع باهل النظر والفضل من حضنة العلم واولى العرفان، وكان من اشهر من اخذ عنهم يومئذ من علمائها عشرة: ابن مرزوق الحفيد فاخذ عنه التفسير والحديث والفقه والاصلين والادب بقانونه والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة، واخذ عن ابى القاسم بن سعيد العقبانى الفقه واصول الدين، وعن ابى الفضل بن الامام التفسير والحديث والطب والعلوم القديمة ـ الحكمية ـ والتصوف، وعن ابى العباس احمد بن زاغو التفسير والفقه والمعانى والبيان والحساب والفرائض والهندسة والتصوف، واخذ الاصول عن ابىعبد الله محمد بن النجار المعروف بساطور القياس؛ وذلك لشدة معرفته بهذا الفن، وكان مما قرأه عليه من كتب هذا الفن مختصر ابن الحاجب الاصلى، وكان مرجع الناس اليه في امر المختصر هذا، ولقد تمكن المشدالى من فن الاصول حتى فاق شيخه؛ فكان اذا عرض لشيخه هذا اشكال في الفن امر تلامذته ان يذكروه بمحضر المشدالى رجاء حله على يده، كما انه اخذ عنه علوم

البيان ايضا، وتلقى الفقه عن ابي الربيع سليمان البوزيدى وكان هذا من اعلم الناس يومئذ به، وعن ابي يعقوب يوسف اسماعيل الحساب والفرائض، واتقن فن الحساب وعلم الجبر والمقابلة وغيرها من الرياضيات وعلم الهيئة وجر الاثقال على ابي الحسن على بن قاسم، وتخرج فى علم التقاويم والميقات بانواعه من فنون الاسطرلابات والصفائح والجيوب والهيئة والارتماطيقى والموسيقى والطلمسات والاوفاق وما شاكلها وعلم المرايا والمناظر الـخ.... على ابن عبـد الله محمد البورى واتقن الطب على محمد بن على بن افشوش التلمسانى

وبعد ان امتلأت اوطاب الشيخ بالعلم واحاط باصوله وفروعه وجمع اشتاته عاد الى بلده بجاية سنة ٨٤٤هـ [١٤٤٠م] مبرزا على اقرانه مشارا اليه، فتصدر بها للاقراء وتدريس العلم

ذكر السخاوى فيما روا عن البقاعى قال وحدثنى الصالح احمد الزواوى عن بعض فضلاء المغاربة ان ابن مرزوق قال ما عرفت العلم حتى قدم على هذا الشاب، فقيل له كيف ؟... قال لاني كنت اقول فيسلم كلامي، فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت اتحـرز وانفتحت لى ابواب من المعارف. او نحو هـذا، ونقل البساطى عنه ايضا انه قـال : ان عاش هذا كان عـالم المسلمين، ونقل عنه ايضا ان ابن مرزوق كتب لابيه فيما قيل : انه قدم علينا وكنا نظن به حاجة الينا فاحتجنـا اليه اكثر. وكان ابن مرزوق وابو الفضـل بن الامـام يامران تلامهذتما بالقراءة عليه فاسرع اليه غالبهم فانتفعوا به كان منهم احمد بن زكرى المشار اليه بالتقدم في العلم والرئاسة بتلمسان؛

وفيما بين اواخر السنة الاولى واوائل الثانية التي عاد فيها المشدالى الى بجاية ارتحل الى بلد العناب ـ بونة ـ وقسنطينة فحضر بها مجالس العلماء ساكتا من غيـر ان يتعرف لاحد، وفعل مثل ذلك فى دخوله لتونس سنة خمس واربعين ثم توجه الى الديار المصرية على ظهر سفينة لنصارى جنوة فارست به فى قبرس فنزل هناك

وتجول مستطلعا في ارضها فرأى بها عجائب وحصل له مع بعض اساقفتها مناظرة ثم ارتحل من قبرس في ذي القعدة [مارس ١٤٤٢م] فارسى به مركبه فى بيروت، فطاف بلاد الشام : دمشق وطرابلس وحماة، ثم قطن بالقدس مدة وشاع ذكره فملا الاسماع ووقع على تفضيله الاجماع، ثم حج سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٥م) وجاور ثم دخل القاهرة مع الكمال بن البارزى وهناك ارتفع شان الشيخ عند السلطان وارباب المملكة واركان الدولة سيما منهم الكمال وصهره الجمال، واخذ بينهم الشيخ في نشر علومه وإملاء دروسه في عدة فنون من معقول ومنقول فأدهش الالباب وبهر العقول فزادت بذلك حظوته وعلت منزلته عند الخاصة والعامة.

وكان ممن تعرف اليهم في مصر وتشرفوا بصحبته الامام السخاوى فترجم له في ضوئه ترجمة ضافية وقال عنه : «وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورايت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم وسعة الحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الراى واستقامة النظر ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ما لم اره من احد. وحكى عن درسه فقال :

« .. ثم حضرت درسه في فقه المالكية بالجامع الازهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين — من القرن التاسع الهجرى — فظهر لى اننى مارأيت مثله، ولا راى هو مثل نفسه وان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا راى الناس بل ولا خرج الى الوجود؛ قال ومن سمع كلامه في العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ومعاينة وان غيره يخبر عن غيبة وليس المخبر عن المشاهدة كغيره؛ ولهذا نجد كلامه فى القلب اثبت من كلام غيره؛ ولم ار اعظم تحريكا للهمم من حاله ولا اشهد فعلا للقلوب من مقاله؛ سماع درس واحد من من تقريره اكثر نفعا من سماع مائة من غيره. هيئة لعمرى

لا يحاط بكنهها ، وهو آية ابرزه الله في هذا العصر للعباد ؟. فمن قبلها يرجى له بركتها ومن اباها خشي عليه معاجلة العقوبه، لا يشبه كلامه في جزالته الا كلام العرب العرباء ولا يضاهيه في طلاقته ورصانته سوى الالباء على انه محشو من دقيق المعاني بما يمنع لعمري من التصنع ويشغل عن التكلف، بل تلك منه سجية غير محتاجة الى روية، وهمة عالية ما جنحت قط في التحصيل لدنيه؛

صفات يغار البدر منها وينثني   لها خضعانا رؤوس المنابر

قال : فكان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تضمنته من تصوير المسائل ويستوفي كلام اهل المذهب ان كان فقها وكلام الشارحين ان كان غير ذلك ثم يتبع ذلك بابحاث تتعلق بتلك المسائل، كل ذلك في اسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل، وتحرز بديع بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره ان يفهم ما يلقيه ويدرك بعض ادراك ما يجليه، ولقد حدثني غير واحد من ثقات الافاضل ان الطلبة قالوا له تنزل لنا في العبارة فانا لا نفهم جميع ما تقول فقال شيئا يكاد يكون كشفا، لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم الى، فبعد كذا وكذا لمدة حدها تصيرون الى فهم كلامي، فكان الامر كما قال !....

قال السخاوي : وسمعت البقاعي يقول غير مرة انه - اي المشدالي - لم يكن ينظر في دروسه التفسيرية في غير القرآن، وانه يستلقى على قفاه ويتأمل فيأتي بصواعق لا ينهض غيره لهاوانه كان يفعل ذلك في كل علم يقرؤه او يقريه لا يزيد على نظر المتن وحكى عن علي البسطي ذلك فقال : كان ابو الفضل اذا قرا علما لا يقراه غيره ولا يزيد على تكرير مطالعة المتن ولا يطالع شرحا ولا غيره....

وفيه يقول ابن ابي عذيبة : «الامام العلامة اوحد اهل زمانه قدم علينا القدس سنة سبع واربعين فاقرأ العضد وكتب المنطق والمعقولات وشهد له الائمة بلدنا

وبدمشق ومصر وطرابلس انه اوحد اهل الارض وانه عديم النظير في جنس بني آدم، وانني عاجز الآن عن عبارة اصفه بها فان كل عبارة هو فوقها. قال ثم دخل مصر فولى تدريس القبة المنصورية فدرس بها العجب العجاب وتعين لقضاء الشام ثم لمصر فابى، ولا يحضرني الآن من يضاهيه في كثرة علومه، ثم نقل عن العز القدسي انه قال : ولو سكتوا اثنت عنه الاحقاب، وعن ابن الهمام انه قال سألته عن مسألة في اواخر الاصول، فاجابني عنها باجوبة من لو طالع عليها ثلاثة اشهر لم يجب فيها بمثله !..... وعن الزين قاسم الحنفي قال ما سمعت العلم من مثله

قال السخاوى «واراد الله ان مرض الامام ابن حجر بامراض منها ضيق النفس في نحو نصف ذى القعدة سنة أثنتين وخمسين وطال مرضه؛ فذكر له الكمال والشرف بن العطار بانه يتعين ان ينظره - المشدالى - ليشخص مرضه وينظر علاجه فانه في الطب واحد عصره وفريد دهره وكان قد تكرر على سمعه من معارفه وعظمته عند الاكابر وعقله وسياسته وثباته ورزانته ما قرر عنده امره وملا صدره حتى اشتهى ان يراه ولو نظرة فطلبه منهما والح عليهما فكلماه في ذلك فامتنع لكراهته ان يشتهر بالطب... فلم يزالا يتلطفان به ويتزلفان اليه الى ان اجاب، فعاده في يوم الاحد منتصف ذى الحجة وهو في اشد المرض فابتهج به ابتهاجا كثيرا وعظمه تعظيما كبيرا ثم نقل عن ابن الهمام انه قال: هذا الرجل لا ينتفع بكلامه ولا ينبغي ان يحضر دروسه الاحذاق العلماء وسئل عن النسبة بينه وبين ابى القاسم النويرى فقال : جهد ابي القاسم ان يفهم عنه

وكتب الشهاب الابدى لوالد صاحب الترجمة فقال :

«.... ان الله خول سيدنا ومولانا وملاذ انسنا ابا الفضل ولدكم الاسعد من الفتوح الآهية والمنن الربانية مما امتحنه صالح دعائكم وحسن طويتكم واعتقادكم ان جعله الله بحرا لعلوم زاخرة، وعنصرا لفضائل فاخرة، ومحاسن

متوالية متظافرة. فكم ابدى من دقائق خضعت لها الرقاب، ونفائس هامت بها ذوى الالباب، ومباحث شريفة كشفت دونها الحجاب، فأبكت ذوى العقول وحج اصحاب المعقول والمنقول، فدانت له المملكة المصرية والاقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية فحاز الرئاستين وقام بالوظيفتين فالرؤساء حول دياره مخيمون وعظماء المذهب بفناء منزله محومون، فالوصف يقصر عما هو فيه ابقى الله وجوده وزاده في معاليه وعن سعد بن الديرى قال: كنت اذا كالمته بكلام يفهم آخره قبل ان اتمه .... وهو احد الائمة فى الدنيا فى علوم عديدة سيما المعقولات.

ولم يبلغنا عنه فيما وقفنا عليه من كتب السير والتراجم وعرفناه من ترجمته الواسعة ان له من التاليف سوى كتاب واحد، وهو شرحه على جمل الخونجي فقط وان صنيعه فيه حسبما ذكره السخاوى نقلا عن البقاعى قائلا: «انه شرحه على طريقة حسنه، وهي ان ينظر فى شروحها لابن واصل الحموى والشريف التلمساني وسعيد العقباني وابن الخطيب القشنبليني وابن مرزوق فيما اجمعوا عليه ساق معناه وكذا ما زاده احدهم وما اختلفوا فيه ذكر ما راى انه الحق، كل ذلك بعباره يبتكرها ثم تمم ذلك بما وقع للمتقدمين من علماء المسلمين فمن قبلهم فى تلك المسألة مما يرى انه محتاج اليه من التحقيقات.»

ومعلوم ان كل ذى نعمة محسود وانه لااعظم ولااجل من نعمة العلم والمعرفة وعلى الاخص ما حازه المترجم من شرف المنزلة عند رؤساء الدولة وسادة علماء المشرق والمغرب وما شهد له به الاعلام من التفوق المطلق على كل من عاصره او جمع بينهما مكان، فكان ذلك سببا في بعث داء الحسد والمنافسة فى صدور بعضهم فبالغ في الطعن في علمه واخلاقه ووصمه بالجهل والدناءة ويروى لنا السخاوى فى ذلك عن الشيخ عبد القادر المحيوى المالكى روايات قال: والله انه لا عهد له بالفقه بل سمعت قراءته الفاتحة في الصلاة فما اجادها!... وروى عن

ابى القاسم النويرى انه قال لما دخل المشدالى مصر وارتجت عليه والتف الناس حوله واقبل عليه الخاصة والعامة : اى شيء هذا الطبل الذى طبل بمصر؟... فبلغ ذلك المشدالى فقال : قوله ذلك عنى يريد انى مزوق الظاهر فارغ الباطن فليحضر ليرى.

حسدوا الفتى اذا لم ينالوا سعيه فالكل اعداء له وخصوم

وطعنوا في غرائزه الطبيعية وملكاته الخلقية وبالغوا في تنقيصه فقالوا انه كان مخل المروءة كثير الترفع على اصحابه سيما فى الملأ، عظيم التهاون بهم عديم النفع لهم، لين الجانب لمخالفيه غير بعيد من نفعهم وهو يستر هذه النقائص بعد غوره غاية الستر فلا يذوقها منه الا النحرير في اوقات الغفلات فاذا ظهر له منها شيء انهتك الباقى، فهو لعمرى اعجوبة الزمان حفظا وفهما وتوقدا و ذكاء وعلما وخبثا ومكرا ودهاء وتواضعا وكبرا، قال السخاوى : ومن عجائب حظه انه تحبب لشيخنا ابن حجر بانواع التحبب فاتاه لبيته فلم ير منه انصافا وظن ان الاشاعات بفضائله مغالاة او غلط مما لا نباهة له فترفع حينئذ عن التردد اليه مع توقع ان يراه في بيوت بعض الاكابر فيريه من انظاره ودقة فكره ما يكيع فكره ويعلى عنده قدره بحيث كنت اظن ان ذلك يفضى الى ضد المراد من غيظ وتعاد واجتهدت من الجانبين فى الاجتماع على وجه جميل فلم استطع الى ان اراد الله مرض ابن حجر وقد تقدمت حكاية حاله معه.....

وبعد ما اطنب وتوسع السخاوي فى ذكر بعض المتناقضات من اخلاق المشدالى قال : «وبالجملة فكان غاية في جودة الذهن وسرعة الادراك وقوة الحافظة الا انه كان سريع النسيان قليل الاستحضار ولاجل هذا لم يكن يتكلم فى المجالس الا نادرا خوفا من الاستظهار عليه بالمنقول؛ واذا طالع محلا اتى فيه بما يبهر السامع وقد تكرر اجتماعي معه.. وما كنت احمد انحرافه عن شيخنا - ابن حجر - وارغب في لقاء ابي عبد الله التريكي لمزيد حبه شيخنا وتقدمه على صاحب الترجمة

في الشرعيات ومحبته في المباحثة والمناظرة والمذاكرة.... قلت لا غرابة في ذلك فلقد وقع له والله مثل ما وقع للعلامة ابن خلدون وغيره من العلماء في المشرق والمغرب فالمعاصرة حرمان !....

واستاذ عالم متبحر كهذا لاشك وان يكثر تلامذته واتباعه ومريدوه ذكر بعضهم السخاوى فقال منهم بالحجاز البرهان بن ظهيرة، وبالشام ابن قاضى عجلون، وبالقدس الكمال بن ابى شريف، وبالقاهرة الشهاب البيجورى والديسطى وابن الفرزالخ ....

ومن شعره رحمه الله قوله وكان بتلمسان سنة اربعين وثمانمائة للهجرة وهو في عهد الشباب مخاطبا بعض اصدقائه ببجاية من ابيات

برق الفراق بدا بأفق بعادنا فتضعضعت اركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا والبين شق قلوبنا بعموده
لله ايام مضت بسبيلها والدهر ينظم شملنا بعقوده

وتوفي رحمة الله عليه غريبا فريدا بعين تاب من بلاد الشام في شهر شوال اوذى القعدة سنة ٨٦٤هـ (جوليط ـ اوط ١٤٦٠ م) اى قبل وفاة والده بسنتين سقى الله جدثهما وابل رحمته ورضوانه.

ابو زيد عبد الرحمن الثعالبى

٨٧٥هـ (١٤٧٠م)

هو فخر ائمة علماء الجزائر وصلحائها الاتقياء الورعين الابرار الامام المجتهد ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى الجعفرى، نسبة الى عبد الله بن جعفر بن ابى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد تزوج عبد الله هذا بنتى عمه على بن ابى طالب كرم الله وجهه : زينب ثم فاطمة اختى الحسنين رضى الله عنهما، وذكر ابن حزم في جمهرة النسب ان هناك بمتيجة وسوق حمزة بالجزائر جعافرة من ابناء جعفر بن الحسن المثنى بن على بن ابى طالب وكلهم من ابناء زرذلة السوداء (١) ؟....

ولد الثعالبي سنة ٧٨٦ او ٨٧هـ (١٣٨٥م) بناحية وادى يسر على نحو ست وثمانين كيلومترا بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر وهوموطن آبائه واجداده الثعالبة ابناء ثعلب بن على من عرب المعقل فنشأ نشأة علم وصلاح وتقوى اخذ عله اولا عمن وجده من علماء ناحيتهم تلك، ثم ارتحل الى بجاية فنزل بها سنة ٨٠٢ هـ (١٣٩٩م) ولازم حضور مجالس علمائها فاخذ عنهم علما جما وكان عمدته فيهم الامام ابا الحسن على بن عثمان المانجلاتي وابا الربيع سليمان بن الحسن، وابا الحسن على البلياتي، وعلى بن موسى والامام ابا العباس النقاوسى، ثم انتقل الى تونس سنة ٨٠٩هـ (١٤٦٠م) فلقى بها جلة من اكابر العلماء فانتفع منهم بالامامين الابى والبرزلى تلميذي ابن عرفة وابى مهدي عيسى الغبريني ثم انتقل الى مصر فلقى بها البلالى وأباعبد الله البساطى وولى الدين العراقى فاخذ عنهم ويمم الحجاز فحج واخذ هنالك عن علمائه ثم عاد الى تونس سنة ٨١٩هـ [١٤١٦م] فوافى بها العلامة ابن مرزوق

(١) جمهرة ابن حزم ص ٣٩ ط مصر ١٩٤٨ م

الحفيد التلمساني فلازمه واخذ عنه فنونا من العلم جمة، قال ولم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث اذا تكلمت انصتوا وقبلوا ما ارويه تواضعا منهم وانصافا واعترافا بالحق. كما اخذ عن ابي عبدالله القلشاني وعن غيره ايضا من جهابذة العلم المحققين بتونس فحصل على اجازاتهم واذنهم له في التدريس والتاليف ثم عاد الى وطنه فذا عظيما في علمه وصلاحه وقدوة حسنة للمسلمين في اجتهاده وكده معتكفا على نشر العلم وهداية الخلق والانقطاع للعبادة والتأليف، فتخرج على يده اعلام وصدور منهم حجة علماء الكلام الامام محمد بن يوسف السنوسي، والشيخ احمد زروق ومحمد المغيلي التلمساني وسيدي احمد بن عبد الله الجزائري وابن مرزوق الكفيف.....

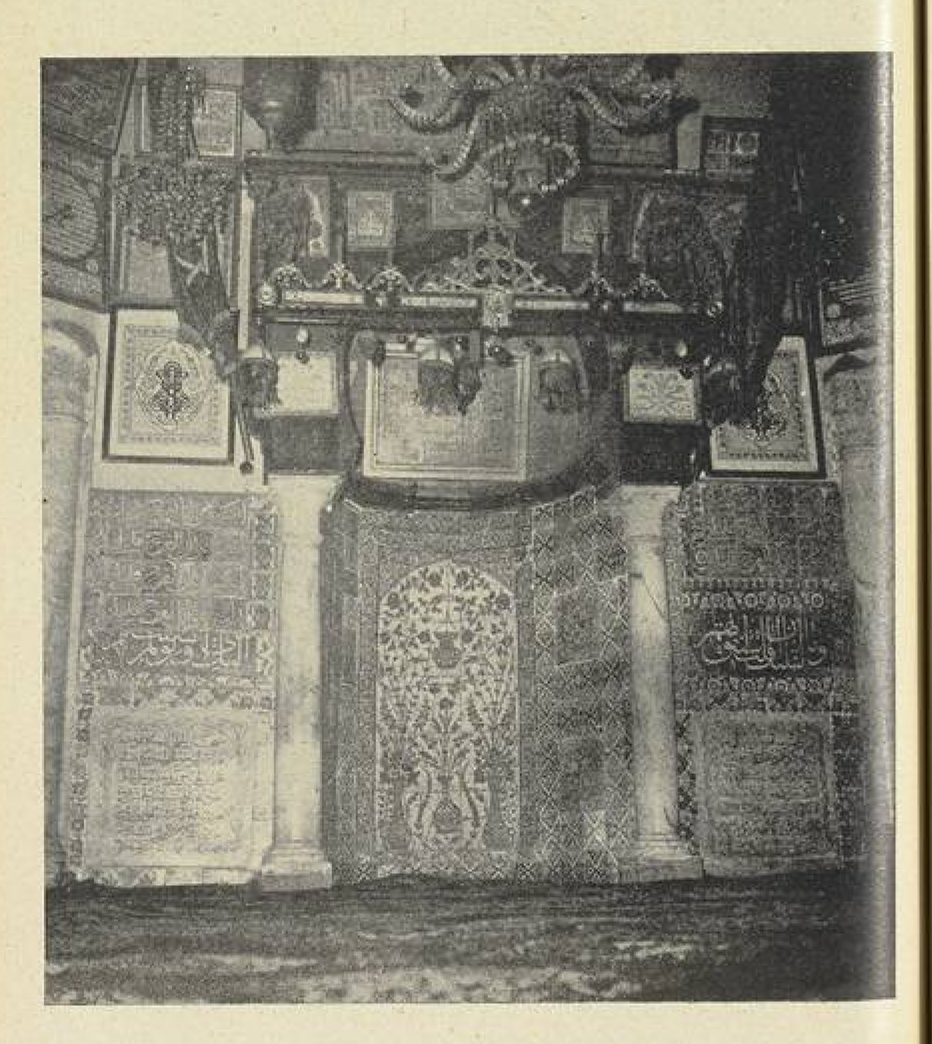
كان رحمه الله راسا في العبادة وغرة لامعة في الزهد والعلم فولي القضاء عن غير رضى منه ثم خلع نفسه وهو دائما المدره في عشيرته وزعيم قومه وملاذهم الذي به يلوذون ومعقلهم الذي يلجؤن اليه في المدلهمات،

يروى انه ولي خطابة الجامع الاعظم بالجزائر وان من بقايا آثاره المتبرك بها بعده الى اليوم مقبض عصا خطيب الجمعة بالجامع المذكور ؟....

اعتكف الشيخ على التدوين والتأليف واغلب همه من ذلك خدمة علوم الشريعة المطهرة وله في ذلك الباع الطويل فلقد ترك ما يزيد على التسعين مؤلفا ما بين متون وشروح وحواشي وتعاليق وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق والتفسير والفقه والحديث والتاريخ الخ.....، منها كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن طبع بالجزائر في اربعة اجزاء مذيلا بمعجم لغوى لشرح غريبه وروضة الانوار ونزهة الاخيار في الفقه قال التنبكتي «وهو قدر المدونة فيه لباب نحو ستين من امهات الدواين المعتمدة وهو خزانة كتب لمن حصله» وكتاب جامع الهمم في اخبار الامم في سفرين ضخمين وجامع الامهات في احكام العبادات وهو كتاب جليل طالعته في سفر ضخم والارشاد في مصالح العباد والانوار المضيئة في الجمع بين

الشريعة والحقيقة وهو كتاب نفيس طالعته في جزء ضخم وكتاب النصائح وجامع الفوائد وتحفة الاخوان في اعراب بعض آي من القرآن والذهب الابريز فى غرائب القرآن العزيز وله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعى وقفت عليه عند قيم الضريح بزاويته بالجزائر وهو في سفرين ضخمين وله شرح على مختصر خليل بن اسحاق وكتاب الدرر اللوامع في قراءة نافع طبع بالجزائر، ونبذة من الجامع الكبير طبعت بالجزائر وكتاب العلوم الفاخرة في احوال الآخرة طبع بمصر، الى غير ذلك مما ينيف على التسعين مؤلفا كما ذكرنا ويقال ان اغلبها موجود بارض السودان؟....

ولم يزل رحمه الله ورضى عنه عاكفا على الطاعات متجردا عن الدنياويات الى ان وافاه اجله ضحوة يوم الجمعة ٢٣ رمضان المعظم سنة ٨٧٥ﻫ (منتصف شهر مارس ١٤٧١م) ودفن قدس الله روحه بضريحه الشهير به الى اليوم من عاصمة الجزائر، وكان لفقده اثر عميق فى القلوب وحزن عظيم فى النفوس



محراب مسجد « سيدى عبد الرحمن الثعالبى » بالعاصمة وهو يمثل نموذجا من ارقى انواع القاشاني والزليج الملون المزخرف والمكتوب بالخط العربى بنوعيه ـ النسخى والفارسى، خط الرقعة ـ وهو الى ذلك مثال رائع جميل لشكل فن المعمار التركى بالجزائر فى اوائل القرن الثاني عشر الهجرى — أواخر ١٧ م —

احمد بن يونس القسنطيني

٨٧٨هـ (١٤٧٤م)

هو العالم المتفنن الشيخ احمد بن يونس بن سعيد بن عيسى الحميرى القسنطيني، ولد بقسنطينة الهواء سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة وتفقه بمحمد بن محمد بن عيسى الزيلدوى وابى القاسم البرزالى وابن غلام الله القسنطيني وقاسم بن عبد الله الهزميرى، اخذ عن الاول الحديث والعربية والاصلين والبيان والمنطق والطب وغيرها من العلوم العقلية والنقلية وبه انتفع، واخذ الموطأ عن ثانيهم، واخذ شرح البردة وغيره عن مؤلفه ابى عبد الله بن مرزوق الحفيد حين قدومه عليهم بقسنطينة وارتحل الى الحج سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) فاخذ عن البساطي شيئا من العقليات وغيرها واخذ كذلك عن الامام ابن حجر والعز عبد السلام القدسى والعينى وابن الديرى وآخرين،

ثم عاد الشيخ الى بلده فاقام على عادته في الاشتغال بالعلم الى ان حج ايضا بعد سنة اربعين وجاور في هذه المرة بمكة المكرمة وسمع على الاخوين الجلال والجمال ابني المرشدى فى فنون من العلم والحديث وعلى الزين بن عياش وابي الفتح المراغي وطائفة كثيرة، من ذوى الفضل والعلم وتكررت منه الرحلة بعد ذلك الى ارض الحجاز مع المجاورة في بعض المرات الى ان استقر وسكن بمكة سنة ٨٦٤هـ (١٤٥٩م) وتزوج بها وتصدى فيها لاقراء العربية والحساب والمنطق وغيرها فاخذ عنه غير واحد من اهلها والطارئين والمجاورين بها.

وكذلك جاور بالمدينة المنورة غير مرة ثم استوطنها وأقرأبها ايضا وارتحل فى غضون ذلك الى القاهرة فاقام بها يسيرا. وكان ممن اجازه واستجازه بها شمس الدين السخاوى ثم سافر منها الى القدس والشام، وكف بصره وقدح له فما

افاده ثم احسن الله اليه برد ضوء احدى عينيه، قال السخاوى «ولقد لقيته بمكة ثم بالقاهرة واغتبط بي والتمس منى اسماعه القول البديع فما وافقته فقرأه او غالبه عند احد طلبته النور الفاكهانى بعد ان استجازنى هو به وسمع منى بعض الدروس الحديثية وسمعت انا كثيرا من فوائده ونظمه منه قوله في طالع قصيدة امتدح بها النبي صلى الله عليه وسلم :

يا اعظم الخلق عند الله منزلة   ومن عليه الثنا فى سائر الكتب

قال واطلعنى على رسالة عملها في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة عن النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها بعد ان استمد منى فيها وكذا رايت له اجوبة عن اسئلة وردت من صنعاء سماها رد المغالطات الصنعانية. وكان اماما فى العربية والحساب والمنطق مشاركا في الفقه والاصلين والمعانى والبيان والهيئة مع المام بشيء من علوم الاوائل عظيم الرغبة في العلم والاقبال على اهله قائما بالتكسب خبيرا بالمعاملة ممتهنا لنفسه بمخالطة الباعة والسوقة من اجلها ولم يزل مقيما بالمدينة النبوية حتى مات فى شوال سنة ثمان وسبعين (فيفرى ١٤٧٤م) ودفن بالبقيع رحمه الله»

يحيى بن ابى عمران المازونى

٨٨٣هـ (١٤٧٨م)

هو العلامة المتشرع الفقيه الضليع والحقوقى البارع الامام ابو زكريا يحيى بن العالم الجليل المؤلف ابى عمران موسى بن عيسى بن يحيى المغيلى المازونى اخذ عليه عن والده وعن ائمة وقته كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقبانى وابن زاغو ومحمد بن العباس وغيرهم فنجب وتولى قضاء بلده مازونة فكان امام المحققين ومرجع اهل الشورى في الاحكام الشرعية وغيرها معتمدا في مذهب مالك حاملا لواءه بالمغرب في عصره مطلعا على دقائق المسائل وفتاوى العلماء فيها له من التآليف كتابه المشهور باسم الدرر المكنونة في نوازل مازونة، وهو كتاب جليل حافل بفتاوى المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب الاقصى في شتى المسائل جامع لابواب الفقه، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية في جزئين ضخمين تحت عدد ١٣٣٥ ومن هذا المؤلف الضخم استمد الوانشريسى في المعيار.

توفى المازونى بتلمسان سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) تغمده الله برحمته ورضوانه.

جدول تاريخي

٩٢٣ – ٩٦٢ هـ

١٥١٧ – ١٥٥٤ م

اهم الحوادث	تاريخ الحوادث
الاحتلال التركي ـ الاول ـ لتلمسان وانتصاب السلطان ابى زيان احمد «الثانى» على العرش	٩٢٣هـ ١٥١٧م
زحف ابي حمو «الثالث» على تلمسان واستشهاد الرئيس عروج التركى	٩٢٤هـ ١٥١٨م
ثورة الامير ابى سرحان المسعود الزيانى وامتلاكه تلمسان	٩٢٥هـ ١٥١٩م
عودة ابى محمد عبد الله «الثانى» الى الملك ونقضه لمعاهدة الاتراك	٩٣٠هـ ١٥٢٤م
تحالف ابى زيان احمد «الثانى» مع الاتراك ومقاومة الاسبان	٩٤٩هـ ١٥٤٢م
انتصار الامبراطور شالكان للسلطان محمد «السابع» واحتلالهما تلمسان ثم اخفاقهما معا بعد ذلك وعودة احمد «الثانى» الى العرش	٩٥٠هـ ١٥٤٤م
استيلاء الدولة السعدية على تلمسان ثم انسحابها عنها فورا وولاية مولاى الحسن بن عبد الله عليها تحت رعاية اتراك الجزائر	٩٥٧هـ ١٥٥٠م
خلع مولاى الحسن آخر ملوك بنى زيان واحتلال الاتراك لتلمسان نهائيا	٩٦٢هـ ١٥٥٤م

الدولة التركية - العثمانية -

٩٢٠ - ١٢٤٦هـ

١٥١٤ - ١٨٣٠م

الـتـــرك

جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان كلمة «ترك» محرفة عن اصلها الصينى الذى ينطق به « توكو »، ومدلولها عندهم هو ذلك الشعب الاسيوى الرحالة العظيم الذى ظهر بموطنه الاصلى بجبل الذهب في وسط آسيا بين سيبيريا والصين، واسس ملكا طويلا عريضا امتد من بلاد المغول وشمالى الصين الى البحر الاسود

ومؤسس ملكهم هذا هو رجل منهم يقال له «تومان» عند الصينيين «وترك بومين» عند الاتراك مات سنة ٥٥٢م

والامة التركية هذه هى امة آرية طورانية، وطوران هى بلاد تركستان ومعناها الظلمة نظرا لما كان عليه اهل هذه البلاد في بادىء امرهم من البداوة والغلظة والجفاء والامية همهم الغزو والتهجم على القوافل للنهب والسلب وذلك خلاف ما كانت عليه بلاد « ايران » المجاورة المعروفة يومئذ بارض النور، نظرا لما كان عليه اهلها من الحضارة والمدنية

ويرجع اصل هذا الجنس الطورانى الى العرق الغربى الاقصى المتفرع عن العنصر السائد المنتشر بشرق اوروبا وآسيا من بحر الباطيق الى المحيط الاطلسى ومن البحر المتوسط الى اقصى الشمال

ويشترك في الشعب التركى هذا شعوب واقوام كثيرة متشعبة منها هؤلاء

الاتراك العثمانيون باستانبول والاناضول، (١) والتركمان بايرانزوآسيا الوسطى والتتار في جنوب روسيا وعبر القوقاس، والمجر بهنكاريا؛ واهل فيلاندا، والبلغار، وولايات البلطيق، وقدماء القبائل العريقة من سكان سيبيريا والمغول والمنشوس في شرق آسيا، وكلها تنتمي الى العنصر الآرى

ويذكر نسابوا الاتراك والاخباريون منهم ان اول دولة عرفت في تاريخهم هى الدولة التى اسسها فيهم «اوغوزخان» بن قاره خان ؟... جد رؤساء القبائل التركية، وان اول من عرف من ملوك الاتراك بلقب خان هذا، هم ملوك قبيلة «ترغش» التركمانية الساكنة بتركستان الغربية حازه امراؤها في اواخر القرن السابع الميلادى وعرفوا به الى ان قضى عليهم العرب في زمن نصر بن سيار سنة ١٢١ هـ [٧٣٩م]

وفي مفتتح القرن الاول الهجرى - اوائل السابع م - اتحدت هذه القبائل التركية مع غيرها ممن ساكنها ببلادها من الشعوب الآرية فتكونت بذلك وحدة سياسية بين تلك الطوائف كلها فنشأت عن ذلك مملكة عظيمة ممتدة من اقصى حدود الصين شرقا الى البحر الاسود غربا ثم اعتراها بعد ذلك هزال وضعف ففقدت قوتها الحربية ورثت قواها المعنوية ففتحها العرب سنة ٨٥هـ [٧٠٤م] وانتشر يومئذ بينها الاسلام

وفيما بين اواسط القرن الثالث واوئل الرابع الهجرى - التاسع والعاشر م - نشأ بآسيا دويلات وامارات تركية صغيرة استبدت بانحاء البلاد والاصقاع الشرقية متفرقة هنا وهناك كبنى طولون بمصر والشام، وبنى سامان بما وراء النهر وبنى بويه ببلاد فارس، الخ.... فتدهوت بذلك سياسة الخلفاء العباسيين وتقلص ظل سلطانهم من اقاصى البلاد؛ فسقطت بغداد بيد التتار يوم ٢٠ المحرم

---

(١) محرفة عن كلمة اناطولى التى اطلقها الرومان على شبه جزيرة آسيا الصغرى ومعناها البلاد الشرقية وذلك لوقوعها شرقى بلادهم

٦٥٦هـ [٢٧ جانفي ١٢٥٨م] ونتيجة لذلك اصبحت مقاليد الدولة الاسلامية المترامية الاطراف موزعة بين ملوك هاتيك الدول التركية القائمة بالمشرق وشؤون افريقية الشمالية يومئذ بيد اهلها من ملوك المغرب

ومضى زمن على ذلك والامر كذلك الى ان اخذ البطل المغوار السلطان «عثمان بن ارطغرل» التركماني في تاسيس امارة ومملكة اسلامية مستقلة بمدينة «ايكي شهر» من بلاد الاناضول سنة [٦٩٩هـ ١٣٠٠م] مجتهدا في الدفاع عن بيضة الاسلام وحمايته ونصرته وورث منه احفاده ذلك فكلهم حافظ على هذه الخطة المرسومة والتراث العظيم وأنشأ جيوشا واساطيل تقدم بها الى فتح بلاد آسيا واوروبا، فخضعت لهم ممالك هاتيك البلاد ودولها وثبتوا على ذلك يتابعون زحفهم في نشر الاسلام باوروبا حتى جاء دور القضاء على امبراطورية الدولة البيزنطية واستئصال مملكتها في الشرق والغرب فانبرى لها من عترته «السلطان محمد الثاني الفاتح» مقتحما معقلها الحصين وعاصمتها المنيعة «القسطنطينية» مظفرا منصورا فاحتلها سنة ٨٥٧هـ [١٤٥٣م] ونقل اليها العرش العثماني متطلعا الى اجتياح مقر كرسي المسيحية الثاني برومة ويومئذ اشتهرت الدولة التركية بنسبتها «العثمانية» انتماء الى جد ملوكها الاعلى السلطان «عثمان بن ارطغرل» التركماني المتوفى سنة ٧٢٦هـ [١٣٢٦م]

ويعد فتح القسطنطينية هذا فتحا جديدا في تاريخ العالم اجمع حيث اعتبره المؤرخون حدا فاصلا بين القرون الوسطى والعصر الحديث [١]

وتقدمت تركية العثمانية في فتوحاتها بآسيا ففتحت معظمها وبأوروبا كذلك

---

(١) جرى اصطلاح المؤرخين على اعتبار الزمان وتقسيمه الى ثلاثة عصور : القرون الاولى وهي تبتدىء من الأزمنة الغابرة المتوغلة في القدم الى سقوط رومة سنة ٤٧٦م ومنها يبتدىء تاريخ العصور الوسطى الى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) ومنها يبتدىء تاريخ العصر الحديث

فامتلكت منها نصفها الشرقي واضحت بذلك مرهوبة الجانب موقرة السلطان

ولما تم للسلطان «سليم الاول» الانتصار على دولة المماليك سنة ٩٢٣ﻫ (١٥١٧م) واستولى على مصر والشام وقضى على حكومتها هذه وقبض على محمد المتوكل على الله آخر خليفة عباسي (١) وهمي وبذلك انقرضت الخلافة العباسية المتوهمة التي طالما كان صاحبها بعد سقوط بغداد آلة مسخرة بايدي ملوك وسلاطين ذلك العصر وصار حينئذ امر رعاية دولة الاسلام بيد سلاطين آل عثمان وخفت يومئذ ذكر لقب الخلافة وطوى بساطه من الوجود الا ما جاء ذكره نادرا في بعض خطابات المتملقين لآل عثمان في اوقات ومناسبات متفرقة

وهكذا ظل لقب الخلافة مغفلا ملغى لدى ملوك هذه الدولة الى ان اصبحت الحاجة اليه ماسة في القرون الثامن عشر الميلادي بعد عقد معاهدة «كوجك قيتارجي» بين الترك وروسيا سنة ١١٨٨ﻫ [١٧٧٤م] اي عند ما خضع بعض المسلمين للحكم النصراني فدعت حينئذ اليه سياسة الوحدة الاسلامية فتلقب به سلاطين آل عثمان جمعا لكلمة المسلمين واكتسابا للنفوذ الديني متدرعين به تجاه العالم الغربي المسيحي الذي ازمع وتحفز لاكتساح العالم الشرقي الاسلامي

ولم يزل ملوك آل عثمان يحملون لقب الخلافة منذ ذلك العهد الى ان اجمع راى حزب الشعب التركي الجمهوري على الغاء نظام الحكم القديم ورفض تبعات الخلافة الثقيلة فاعلن زعيم الاتراك الحاكم بامره مصطفى كمال «اتاتوك» [٢]

(١) قبض عليه السلطان سليم الاول بمصر يوم فتحها في التاريخ المذكور اعلاه فعاد به الى القسطنطينية فاوثقه هنالك بـ«السبع قلال» ثم فك اسره سنة ٩٢٦ﻫ (١٥٢٠م) واجرى عليه ستين درهما في كل يوم، فخرج المتوكل حينئذ من القسطنطينية منصرفا الى مصر حيث بويع فيها باسم الخلافة صورة وبقي بها مرموقا ملحوظا تحت ظل ورعاية ملوك آل عثمان الى ان استوفى حظه من الحياة ولقي حتفه سنة ٩٤٥ﻫ (١٥٣٨م) فانتهت بموته الخلافة العباسية وانقرض ذكرها من الدنيا

«٢» هو اعظم شخصية سياسية وعسكرية عرفتها دولة الاتراك في تاريخها الحديث ولد في مدينة «سالونيك» سنة ١٢٩٩ﻫ وتوفي باستانبول سنة ١٣٥٧ﻫ [١٨٨١ ـ ١٩٣٨م]

بنهاية عهد الملكية وتعويضه بتأسيس حكومة جمهورية ودستور جديد، وذلك يوم الاثنين ١٨ ربيع الاول سنة ١٣٤٢هـ [٢٩ اكتوبر ١٩٢٣ م] وخرج السلطان عبد المجيد الثاني من القسطنطينية طريدا وانتقل مقر الحكم منهـا الى مدينة انقرة من بلاد الاناضول، وحدث في الدولة يومئذ من الانقلاب السياسي والديني والاجتماعي بل وفي كامل اوضاع الحكومة التركية العثمانية ما تغير به وجهه تاريخها القديم بما لم يسبق له نظير ولا مثيل في تاريخ دولة اسلامية من قبل

اما لغتهم فهي احدى اللغات الطورانية ذات اللهجات الجمة الكثيرة التي لم يكن ليعرف لها قلم او خط مشهور تكتب به قبل القرن السابع الهجري حين امتزج اهلها بالعرب في العراق والشام وتكون منهم جيش الخلافة العباسية واستبدوا بالملك فانتشر حينئذ بينهم اللسان العربي المبين وفشى فيهم الخط العربي فكتبوا به لغتهم.

وذكر ابن النديم في حديثه عن الترك بفهرسته فقال : والذي تأدى الى من امر الترك هو ما حدثني به ابو الحسن محمد بن الحسن بن اشناس ... ان ملك الترك الاعظم اذا اراد ان يكتب الى ملك من الاصاغر احضر وزيره وامر بشق نشابة ونقش الوزير عليها نقوشا يعرفها افاضل الاتراك تدل على المعاني التي يريدها الملك ويعرفها المرسل اليه [١] ولعلها تلك كتابتهم القديمة التي ظهرت في القرن «٦ م» المسماة بكتابة اورخون [٢] او يكون ذلك هو خط اتراك «اللويغور» وهم سكان شرقي تركستان ؟....

ولم يشهد الاتراك اتحادا في استعمال لغتهم وتطبيقها على سير الحياة العامة الا في زمن بني سلجوق بالاناضول في القرن الخامس الهجري (١١ م) اما قبل

«١» الفهرست لابن النديم ص ٢٩ - ٣٠ ط القاهرة ١٣٤٨هـ

«٢» نسبة الى نهر في بلاد المغول يقال له «اورخون» وهي اقدم كتابة تركيه

ذلك ففيهم من اتخذ اللغة الفارسية، وفيهم من استعمل غيرها، ولقد فكر السلطان سليم الاول في اتخاذ اللغة العربية وجعلها لسان الحكومة الرسمي وحاول ذلك بالفعل فلم ينجح، ولكنها رغم ذلك بقيت لديهم ولدى غيرهم كذلك من الامم الاسلامية لغة الدين والعلم

وكان لممازجة الاتراك بسواهم من الامم الشرقية والغربية ايضا اثر كبير في تطور لغتهم وارتياشها بما اقتبسوه من شتى اللغات فتوسعت اللغة وتهذبت وأصبحت بذلك لغة صالحة لتدوين العلم والادب، واكثر ما يوجد فيها من الدخيل هو ما احتوت عليه من مفردات اللغة العربية والفارسية والجغطائية (١) والاوردية (٢) والافرنجية ... فهي الآن بذلك تختلف كثيرا عما كانت عليه في الزمن الغابر

ولقد شرع الترك في كتابة لغتهم بالحروف العربية منذ القرن السابع الهجري - ١٣ م - كما ذكرنا مستمرين مع الزمن على ذلك اسمترارا اهل فارس والهند وسكان افريقية الاستوائية وجنوبها وغربها على اختلاف لهجاتهم، الى زمن اعلان الجمهورية التركية فاستبدل الخط العربي لديهم باللاطيني وذلك بمقتضى قرار الدولة الصادر يوم ١٩ جمادى الاولى ١٣٤٧ هـ (٣ نوفمبر ١٩٢٨ م) تحت عدد «١٣٥٣»

اتصال الاتراك بالجزائر

في نفس الاوان والزمان الذي قدر ان تضعضعت فيه قوى دول المغرب الثلاث : بني مرين وبني ابي حفص، وبني عبد الواد الزيانيين ولحق كلا منها من الضعف والوهن والاضطراب بسبب ماكان بينها من التخاذل والشقاق مع

(١) هي لغة التركمان واكثر سكان بلاد خيوة (خوارزم) وبخاري وغيرها باواسط آسيا ومركزها مدينة مرو، وهي التي يسميها الافرنج احيانا : التركية الشرقية Turc Oriental

[٢] هي اللغة الهندية الاسلامية

تزاحم رؤسائها وقادتها على كراسى الزعامة والرئاسة، اقول فى نفس ذلك الوقت واعنى به اوائل القرن العاشر الهجرى — اوائل ١٤م — اشتد تنمر دولة الاصبان والبرتغال وجمهورية البندقية وجنوة الايطاليتين فحمل كل منهـا على هذا الشمال الافريقى جريـا وراء غايته الصليبية وجشعه الاستعمـارى الذى ينطبق عليه قول الشاعر العربى :

مسعورة ان غرثت لم تشبع !

وهوجمت السواحل الجزائرية واحتل منها اهم مواقعها ومراكزها الاستراتيجية ومرافيها ومدنها الممتازة كوهران ومرسـاها الكبير وهنين وبجـاية وجيجـل ومستغانم وتدلس والجزيرة التى هى بفرضة مدينة الجزائر، حيث بنى الاصبان حصن البنيون ونزلوا ببعض المراكز البحرية من مدن المغرب الاقصى واحتلوا تونس نفسها فاستكملوا بذلك الاستيلاء على ساحل افريقية الشمالية منتهكين فى ذلك حرمة اهل هذه الثغور الاسلامية غير مبالين بمقدساتهم ولا محترمين او مراعين لما جبلت عليه الكرامة الانسانية وطبعت عليه البشرية من الحياء والحشمة مندفعين عن سوء نية وراء اعمالهم الاستعمارية واغراضهم الساقطة.... (١)

فى نفس تلك الآونة وخلال هاتيك الحوادث المؤلمة، واثنـاء تلـك الظروف السوداء الحالكة، والنكبات المزعجة ظهرت عمارة الاخوين التركيين : بابا عروج وخير الدين — من ابطال رجال البحرية التركـية العثمـانية — متنقلة بغربى البحر الابيض المتوسط حامية لدولة الاسلام المنتشرة عـلى ضفاف هـذا البحر منجدة للمستضعفين من المسلمين، واشتهرت هذه العمارة يومئذ بتطوعها فى انقاذ المضطهدين من اهل الاندلس ونقلهم الى سواحل المغرب العربى واحسانها اليهم وبذلك تمكن اصحـابها من النزول بالساحل التونسى والاتصال بصاحب تونس

«١» راجع ص ١٨١–١٨٥ و ٢٠٥ و ٢١٣–٢١٥ من هذا الجزء

ابى عبدالله محمد الحفصى والتعاقد معه بامضاء معاهدة ودية على ان يكون الساحل التونسى موئلا لهذه العمارة وملجأ تسكن اليه وللخزينة الحفصية الخمس فيما تاتى به العمارة من المغانم وتمت الاتفاقية بين الطرفين على ذلك واستمرت العمارة تعمل على خطتها المرسومة في غزو سواحل النصرانية وخوض غمار البحار للدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين ومحاربة سفن الاعداء الى سنة ٩١٨هـ [١٥١٢م] حيث غزت العمارة التركية هذه مدينة بجاية فاطردت عنها الاصبان، ثم كان بعدها فتح مدينة جيجل سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) ثم تقدمت الى مدينة الجزائر نفسها بدعوة من اهلها درءا لخطر الاصبان عنها فاحتلتها سنة ٩٢٢هـ [١٥١٦م] ونزل الاتراك يومئذ بهذا القطر وكان من الاحداث ماحدثناك به في هذا الجزء صفحة ٢٠٥–٢١٥ من اصطدام الحروب والتناحر والتنافس بين دولة بنى زيان المحتضرة ودلة الاصبان المهاجمة ودولة الاتراك الحامية الطامحة وحدث من الوقائع والخطوب في هذا الموضوء ماعرفته وما ستقف عليه مفصلا في هذا الكتاب

نظامها الحكومي

ان اول ما عرفت الجزائر من رؤسائها الاتراك هم جماعة «البيلربـاى» ومعناه باى الابياء او امير الامراء، وهو لقب يمنحه السلطان العثمانى مع كسوة الشرف – قفطان – لامير الناحية

والجزائر يومئذ هى احدي الولايات الثلاث بالامبراطورية العثمانية التى كان يطلق على رئيسها هذا اللقب مثل ولاية الاناضول والروميلى بتركية اوروبا

وابيلر باى الجزائر التصرف المطلق بالمملكة الجزائرية وما يليها شرقا الى الحدود المصرية بما فيها من ولاية تونس وطرابس

ثم حد من سلطة حاكم الجزائر واقتصر له فيها على المغرب الاوسط

فقط، وخرجت تونس وطرابلس عن حكمه، وبموجب ذلك تغير لقبه ثلاث مرات، فحول اولا الى الباشاوية، ثم الى الاغاوية، ثم الى الداياوية حسب الترتيب التالى :

ا عصر الفتح التركى من سنة ٩٢٠ الى ٩٥٠هـ (١٥١٤–١٥٤٤م)

ب عصر البيلرباى من سنة ٩٥٠ – ٩٩٥هـ (١٥٤٤–١٥٨٧م)

ج عصر الباشاوات من سنة ٩٩٥ – ١٠٦٩هـ (١٥٨٧–١٦٥٩م)

د عصر الاغاوات من سنة ١٠٦٩ – ١٠٨١هـ (١٦٥٩–١٦٧١م)

هـ عصر الدايات من سنة ١٠٨١ – ١٢٤٦هـ (١٦٧١–١٨٣٠م)

وكان حكام بلاد الجزائر وولاتها في عهد البيلرباى والباشاوات مخلصين لحكومة الباب العالى باستانبول ممتثلين للسلطان العثمانى الى ان حدث خلال القرن الثانى عشر الهجرى (١٧م) ما كان سببا فى تضعضع دعائم الصلة الادبية التى كانت تربط ما بين حكومة الجزائر والباب العالى باستانبول حيث شعر الولاة هنا بضعف السلطنة العثمانية وقصورها عن اتخاذ اسطول قوى للدفاع به عن نفسها وعن ممالكها النائية فجاهروا بقطع صلتهم بالباب العالى ووهت يومئذ العلائق السياسية بينهما واستبدت السلطة العسكرية المحلية بالامر واحتكرت لنفسها تولية حاكم الجزائر الاعلى بانتخابه من بين افرادها او من طائفة الرؤساء وقرصان البحر وتارة من بين اعضاء مجلس الديوان الاتراك من غير مراعاة لنسبه اوحسبه اومنبته انما هو تركى وكفى ولم يبق للباب العالى حينئذ سوى الموافقة على من ينتخب لهذا المنصب من بين هؤلاء، ويومئذ اصبح نظام الحكم التركى بالجزائر انتخابيا مستقلا وللحاكم الجزائرى الحرية المطلقة فيما يفعله فله فتح باب المجادلات والمحادثات السياسية مع الاجانب وله حل المشاكل الخارجية بنفسه، وله اعلان الحرب والسلم وامضاء المعاهدات وابرام العقود الدولية وقبول الممثلين الديبلوماسيين الخ ... مستمدا قوته هذه من ديوانه

واستمر مركز ادارة الحكومة العليا بالجزائر بحي «الجنينة» باسفل المدينة تجاه ساحة الحكومة اليوم. ومن بقايا دور الحكومة بهذا الحي «قصر الشتاء» الذى اصبح اليوم معهدا للدراسة ودار الاسقف وغيرهما. وهكذا الى اواسط القرن الثالث عشر الهجرى ـ اوائل ١٩ م ـ انتقل داى الجزائر «على خوجة» من سكنى الجنينة الى اعلى المدينة بحى «الباب الجديد» حيث ابتنى قصر القصبة المعروف الى اليوم ونقل اليه مركز الحكومة ولم يزل ولاة الاتراك ينزلون بهذا القصر الى نهاية دولتهم بالجزائر

وللحكومة الجزائرية مجلسان استشاريان لا يقطع الحاكم امرا بدون استشارتهما اولهما مجلس الشورى وهو يتألف من اربعة افراد :

١ وكيل الحرج وهو المتصرف في جميع شؤون الدولة العسكرية والمدنية برا و بحرا

٢ خوجة الخيل؛ وهو بمنزلة وزير الحربية وله التصرف في املاك الدولة
٣ خزنة دار، او الخزناجى ـ وزير المالية ـ
٤ الاغا، وهو القائد العام لقوات الجيوش البرية

والمجلس الثاني هو المعبر عنه بمجلس «الديوان» وينعقد ثلاث مرات في الاسبوع خارج القصر وواحدة بالقصر، وهو يتألف من سبعة اعضاء وهم:

١ الخليفة وهو نائب الحاكم الاعلى، ويلقب بالسيد الدولاتى، والقائم مقام

٢ دفتر دار، اى رئيس ديوان الانشاء وهو كاتب الدولة العام، والكتابة يومئذ باللسانين : التركى والعربى؛ مما يدل على احترام القوم للغة الدين والوطن

٣ الباش سيار، مدير ادارة البريد

٤ قبودان رئيس - امير البحر -
٥ الترجمان
٦ شاوش الكرسى
٧ بيت المالجى - قاضي بيت المال -
ومن هذ المجلس ينتخب اغلب كبار الضباط واعيان الوزراء

وهناك غير هذين من المجالس التى تعتبر كالروافد لهذين المجلسين الكبيرين منها مجلس الكراسي؛ ومجلس طائفة الرياس - رؤساء البحر - من قراصنة ورؤساء المراكب الحربية، وكلها تعمل على مساعدة ذينك المجلسين من غير ان يكون لها كبير تاثير على مجرى سير حركة السياسة العامة بالبلاد وليس لهؤلاة الافراد من اعضاء المجالس الحكومية الآنفة الذكر اتصال مباشر بالامير الا عن طريق الترجمان او بواسطة شاوش الكرسى؛ وقد يجتمع بهم الامير فرادى ان شاء او جماعات حسب ما يرتئيه وتقتضيه المصلحة،

ويشترط في هؤلاء الاعضاء وجميع الحكام ان يكونوا من العنصر التركى ليست فيهم ولا شائبة الكرغلية(١) إذ ليس فى تاريخ هذه الدولة لغير الاتراك حظ في مباشرة الحكم اوتسيير دفة السياسة العامة بالبلاد، الا فى عهد الحاج شعبان باشا فاتح القرن الثانى عشر الهجرى (آخر ١٧ م) فانه سمح بضم طائفة من ابناء البلاد - الكراغلة - الى الجيش بصفة معاونين تكثيرا لسواد قومه؛ وكلما كان هناك من بعض الاهالى فى منصب شيخ اوقائدالخ... انماهو كمساعد فقط

ولكل من ذكرنا من اعضاء المجالس مرتب ورزق يتقاضاه من خزينة الحكومة الجزائرية

وفى القطر الجزائرى ولاةوقادةومشائخ، منهم ثلاث بايات - بمنزلة العمال -

(١) الكرغلى وجمعه كراغلة هو الذى امه غير تركيه مثل الهجين عند العرب

يتصرفون في مناطق محدودة من الارض تسمى «بايلك» : باى الشرق ومقره بمدينة قسنطينة، وباي الغرب كان مقره اولا بمازونة ثم تحول الى معسكر واخيرا استقر بوهران، وباى تيطرى وكان مقره بمدينة المدية، ولكل من هؤلاء الابياء الثلاثة نظامه الداخلي وتراتيبه الادارية، وكلهم يدين بالطاعة والولاء للحكومة المركزية بالعاصمة،

كما انه كان لمعظم العشائر والقبائل المنتشرة في انحاء القطر الجزائرى مثل الحنانشة شرقى قسنطينة، والدواودة (١) بالزاب الجنوبى، وبني مصاب (٢) بجنوب مدينة الاغواط، وبنى عباس وولاية تقرت، وواد ريغ الخ.... فلكل منها رئيس: قائد او شيخ يتصرف فى ولايته المعبر عنها بالوطن، تصرف الامراء الاقطاعيين على مقتضى النظام السائد في القرون الوسطى، والحكومة يومئذ مكتفية منهم بما يمدونها به من الاموال والانفس ولا حق لهم في الخوض فى اغراضها والتدخل فى مقاصدها السياسية كيفما كان شأنها، وبذلك اتضح ان شكل الحكومة كان استبداديا

ومنذ سنة ٩٢٧هـ [١٥٢٠م] اى يوم ان اذن السلطان سليم الاول لبيلرباى خير الدين باستقلال الجزائر في ميزانيتها واتخاذ السكة الجزائريه وطبع النقود اصبحت الخزينة الجزائرية غنية ثرية بمداخيلها الكثيرة المجلوبة من السبى والمغنم والزكاة والعشر والجزية والفيء والمغرم والخراج وما يقوم به الولاة والبايات ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد واللزمة والدنوش والحكر ـ كراء املاك الدولة ـ بله الهدايا المتنوعة من الناض والرقيق

«١» هم عرب من اولاد داود بن مرداس بن رياح نزحوا الى المغرب الاوسط ايام الحمله الهلاليه في اواسط القرن الخامس الهجري — اواسط ١١م —

«٢» رسمها ابن خلدون في تاريخه بصورة صاد وسطها زاي، كرسم اهل المصحف حروف الاشمام وكالنطق بالصاد في قراءة خلف اي انها مشمه بالزاي ومعنى ذلك انه ينبغي ان يتوسط الناطق بهذا الحرف بين حرفي الصاد والزاي

والخمس من المغانم البحرية المختلفة الخ...

ويقدر مبلغ ما كان بالخزينة الجزائرية من الاموال بنحو مائتى مليون فرنك واضحت العملة الجزائرية يومئذ رائجة معترفا بها رسميا لدى دول العالم اجمع

والمعروف من انواع النقود الجزائرية الذهبية هو السلطانى والمحبوب وهناك نصف السلطانى وربعه كما هو كذلك لنوع المحبوب ايضا، واما الفضية منها فهو الدورو الجزائرى، والسكة وهى نصف دورو جزائرى، والريال بوجه، وريال بسيطة، والموزونة، وريال درهم، وثمن بوجه، ومن النحاس الصائمه والدراهم الصغيرة. وتقدير قيمتها اليوم يختلف بحسب اختلاف الزمان والمكان تسعير العملة فى البلاد يزيد وينقص

ومن مصادر ثروة الخزينة الجزائرية ما كانت تدفعه اشهر ممالك اوروبا ودول الولايات المتحدة بامريكا من الاتاوة اموالا واسلحة وذخائر اذعانا وخضوعا لسلطان الجزائر وسيادتها البحرية ورغبة فى كسب عطف ومودة حكامها للتعامل التجارى مع سكان سواحل هذه الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط، فمن ذلك آلات واعتدة حربية كانت تقدمها دول الولايات المتحدة الامريكية فى صورة هدايا لحكومة الجزائر وذلك ما كان يقدر بنحو اربعة آلاف ريال شينكو وهذا علاوة على ما كان يحضره معهم القناصل والمفوضون من الهدايا والتحف التى تبلغ فى بعض الاحيان العشرة آلاف ريال، ويذكر ان مقبوضات الجزائر من امريكا بلغت ايام رئاستى «واشنطون وادمز» الى مليونى دولار؛ وكان على الدولة الانكليزية ستمائة ليرة سنويا وهناك من قدرها بنحو اربعين الف فرنك، وعلى دولة فرانسا سبعة آلاف ليرة فى كل سبع او عشر سنين، وتارة يقدم هذا المبلغ سلعا وبضائع متنوعة مع هدايا خصوصية نفيسة وفي كل سنتين تدفع دولة هولاندة عشرة آلاف سكه — نصف دورو جزائرى — اوستمائة ليرة فرنسية؛

تقدر ذلك بنحو ستين ومائة الف فرنك مع هدايا نفيسة تبلغ نحو الثلاثين الف سكة جزائرية، وكان على دولة النمسا مائتا الف فرنك؛ وعلى مملكة صقلية اربعة وعشرون الف ريال شينكو، مع هدايا تقدر بمبلغ اربعة آلاف ريال شينكو، وعلى مملكة سردانيا ستة آلاف ليرة فرنسية، وكان على دولة الدانمارك اجهزة واعتدة حربية وسلاح وآلات عديدة، وذلك ماكان يقدر بمبلغ اربعة آلاف ريال شينكو، ومعها هدايا تقدمها قناصل هذه الدولة الى الحكومة الجزائرية في كل سنتين تقدر بثلاثين الف سكة، وكان على دولة السويد والنرويج مثل ما على الدنمارك، وعلى مملكة نابل الايطالية مايقدر بمائةوعشرين الف فرنك سنويا وكذلك مثلها دولة البرتغال، اما مملكة سيليزيا فكان عليها اربعةوعشرون الف ريال شينكو، وعلى هانبور - بألمانيا - اسلحة لا غير، اما مملكتا هانوفر وبريم الالمانيتين ايضا فكان عليهما ما يقدر بنحو الستمائة ليرة انكليزية وعلى الدولة الاسبانية ما يقدر بثمانية واربعين الف فرنك مع هدايا وتحف نفيسة، واما الجمهورية البندقية فكان عليها ثلاثون الف سكة سنويا

وهناك غير هذه من الدويلات الاروبية الصغيرة التى كانت تدفع الى الخزينة الجزائرية من العشرة الى الخمسة عشر الف فرنك سنويا. اما دولة استراليا والمجر وروسيا فانها كانت معفوة من هذا المغرم برخصة خاصة من طرف الباب العالى، ولعل ذلك كان مراعاة لحسن الجوار ؟....

واما مملكة تونس فانها كانت تقدم ذلك بضائع الى الجزائر : مائتان وخمسون جرة زيت، وخمسون جرة من السمن؛ وعشرون جرة صابون مائع، مع هدايا ومنح تمنح بها اعضاء الدولة وسادة الحكومة ورؤساء الجندية،

واما نظام الجندية وهو ما يعبر عنه في اصطلاحهم باه الوجاق» فهو اعظم ما تعتمد عليه الحكومة فى تطويد اركان ملكها ونشر نفوذها بهذه البلاد.

فان الجندية التركية كانت كغيرها مؤلفة من عدة وحدات وفيالق مختلفة الالقاب

اشهرها لفيف الينكشارية (١) المدلل والسباهية - الفرسان - واليولداش؛ وهى ذات مراتب ودرجات يرتقى اليها الجندى حسب اقدميته في السلك العسكرى وحسب ما تدعو اليه اهليته وكفاءته الحربية

واشهر مراتب الضباط في الجيش اربعة : اوضة باشي؛ وبولوكباشي؛

(١) الينكشاريه والانكشاريه هى كلمه محرفه عن اصلها التركى «ينى تشارى» وترسم بالقلم التركى هكذا «يكيجاري» ومعناها : الجيش الجديد، كان تاسيس هذا اللفيف من الجيش باشارة خليل جندرلى وامر الوزير الاكبر علاء الدين بن السلطان عثمان الاول سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) وباركه يومئذ شيخ الطريقه الصوفيه الحاج بكتاش، وان الغرض الوحيد من انشاء هذه الفرقة هو خشيه الانحياز والتعصب القبلى والتحزب الطائفى في الجيش التركى فتسقط بذلك الامبر اطوريه العثمانيه، وكان يومئذ هذا اللفيف اول جند نظامي باوروبا لذلك العهد

وجيش الانكشاريه هذا مؤلف من شتى الشعوب وخاصه من الاسرى ابناء النصارى على اختلاف اجناسهم ومللهم، فكانت الحكومة التركية تبث فيهم الاسلام والولاء والتعلق بالدوله العثمانيه مع قطع جميع العلائق والصلات التى تربطهم باوطانهم واديانهم وماضيهم، فكانوا ينشأون نشأة اسلاميه عثمانيه محضه، من غير ان يلتفتوا الى شى ءاخر

ولقد اخذ الاتراك هذه الفكرة عن تقليد؛ فانهم قلدوا فيها غزاة البزنطيين الذين كانوا يؤسرون السبايا من المسلمين وينصرونهم ثم يدفعون بهم الى مقاتله المسلمين في عقر ديارهم مثل ما فعل البطريق (ميشال بورتسنربس) حينما استولى على انطاكية سنه ٣٥٨هـ [٩٦٩م] فانه سبى عشرة آلاف غلام من أبناء المسلمين فحملهم معه الى القسطنطينيه ونصرهم هناك ثم دفع بهم الى الجنديه وجعلهم يحاربون قومهم وآباءهم المسلمين ؛ وكذلك فعل « نيقو فور فوقاس » لما استولى على حلب وسبى منها عشر آلاف ولدفنصرهم وعمدهم وصيرهم من اعز جنده، فما كان عمل العثمانيين حينئذ الا رد فعل اوانعكاس لعمل النصارى المسيحيين مع المسلمين —جزاءوفاقا—

نشأ هذا الصنف من الجيش على نظام الخطه المقررة المرسومه وتقدم فى درجات الجندية الى ان اصبح عمدة الدوله فى غزواتها وفتوحاتها العديدة فى البر والبحر واستمر على ذلك الى ان ظهر فيه الصلف والجور وخرج اكثر ضباطه ورؤسائه عن حدود اللياقه والادب فتعدى القوم طورهم وعتوا فى الارض عتوا كبيرا : ويومئذ أصدر السلطان محمود الثانى امره في ٩ ذي القعدة ١٢٤١هـ (١٦ جوان ١٨٢٦م) بحل نظام هذا الصنف من الجيش وإبطاله تماما

وكانت اقامه جيش الينكشاريه بالجزائر فى ثكنات خاصه به اشتهر بالعاصمه منها سبع قلاع ،

وآغا باشي. وكاهية؛ وهي لاتختلف كثيرا عن الدرجات المعهــودة فى الجيش بالعالم؛ وليس هناك ما يجعل الرعية ملزمة بــالانخراط في سلك الجيش ولا في النظام الحربي الا ماكان منها عن طيب خاطر وطواعية وفى حالة الاضطرار توفد الحكومة الجزائرية الى آسيا من ينشر لها هناك المناشير ويدعو الناس فيها الى التنجيد المأجور؛ وكل انواع طوائف الجيش التركى بــالجزائر مــأجور سوى فرقة المخزن الاهلية فانها ملحقة في نفقاتها بخرج الحكومة العام؛ فهى لا تتقاضى على اعمالها المخزنية اجرا معلوما وانما هي محشورة ظمن نفقات الحكومة العامة؛ ويمتاز رجــال الوجــاق واصنــاف الجنــد عن بعضهم بما تخصهم به الحكومة من الملابس المتنوعة المختلفة الالوان والاشكال

وفي اواخر ايام هذه الدولة بالجزائر اضطرت الحكومة المركزية الى مضاعفة عدد رجال الجيش فاضافت اليها فيــالق جديدة كفيلق الدوائــر والزمول؛ والقوم والمخــازنية؛ والجند الزواوى؛ وجيش العبيد من الزنوج؛ ومرجع قيادة هؤلاء جميعــا الى الضابط التركى الاعلى الحائز على لقب « آغا » فهو المتصرف المطلق والآمر الناهي في الجيش؛ ومدة نفوذه حسب تراتيبهم لا تزيــد عــن شهرين فقط ثم يخلفه آخر «الكاهية».

ولقد بلغ عدد جيش المشاة بالجزائر — فى بعض الوقائع — الى ستين الف جندى ولم يزد على ذلك

منها هذه الثكنة الباقية الى اليوم بقرب المسرح البلدى ـ الاوبيرا ـ المعروفة باسم «دار الكشايرية» وهى منتدى العسكر اليوم وثكنة الخراطين بناحية باب عزون، وقشلة العريش، وقشلة ماقارون قرب الجامع الكبير، هدمت اخيرا عند انشاء هذه العمارات الجديدة بجنوب الجامعين بــاسفل المدينة، وقشلة باب الجزيرة، وقشلة التماقين ـ وهم صانعي الخفاف - والتماق بالقاف المعقودة كلمة تركيه معناها الخف، وقشلة باب البحر. وكلها كانت وقفا على هذا اللفيف من الجيش تحت ادارة واشراف رئيسهم الاعلى (القبجى) وكان عدد الجند الانكشايرى بالجزائر في اول أمره لا يزيد عن الف عسكري، ثم تكاثر عدده وتزايد الى اضعاف ذلك

وفيما يرجع الى الاسطول التركي الرابض بسواحل افريقية فان الحديث عنه من اعجب ما يرويه رواة الاخبار ومؤرخي البحرية فانه قد بلغ في عدده وعدده وجهازه ونظامه وحروبه ومغامراته الحد القياسي وفيه من اشكال السفن الحربية ارقى واحكم ما عرفه تاريخ البحرية في ذلك العصر ولقد بلغت وحداته في بعض السنين الى ٢١٢ قطعة مختلفة الاشكال مجهزة بالمدافع والرجال وكل اعتدة الحرب تجهيزا جيدا وكلها تسير كما هو معلوم بالشراع والمجاديف وفيها ما هو معروف باسمه كمفتاح الجهاد والانتصار الاسلامي والغزال وهلم جرا... وكان عدد الجيوش بها يتراوح ما بين الثلاثين والاربعين الف نسمة. ويترأس القوم ضباط من نفس الطائفة : الورديان ورئيس العسة والباش رايس ورئيس الطريق والكل تحت اشراف « قبطان رايس » امير البحر ويلاحظ انه كان بين طائفة رجال البحرية ورجال الجيش المشاة الينكشارية تنافس ومشاحة منشأهما تناهز فرصة الامارة والقبض على ازمة الحكم والاستئثار بخيرات البلاد

واما النظام المدني فانه كان يجرى تحت تصرف جماعة الاعيان وهم الرؤساء المعبر عنهم بالامناء فلكل صنعة تجارية كانت او حرفة يدوية امين ولكل فرقة من الناس عريف ينتضمهم كلهم مجلس شيخ المدينة ولهذا المجلس حق الرقابة المطلقة والاشراف على جميع ما يجرى بين الناس وفي اسواق المدينة من عدل او حيف وهناك « المحتسب » الذى ياخذ على يد الظالم و « المزوار » الذى يسهر على نشر الامن ومحاربة الدعارة والبغى

اما السلطة القضائية فهى بايدي القضاة الشرعيين وكان بالعاصمة منهم قاضيان حنفى ومالكى والحنفية هى مذهب الحكومة الرسمى ولكل قاض اثنا عشر عدلا وهناك المجلس العلمي - الشرعي - الاعلى الذى يتألف من قاضيين ومفتيين على المذهبين ايضا وشيخ النظر في الاوقاف وممثل الحكومة فالى هذا المجلس يرفع النزاع فى النوازل والمشاكل العويصة وفيه تراجع احكام القضاة وينظر

في القضايا الكبرى فهو بمنزلة محكمة استئناف عليا، ومقر انعقاده فى العاصمة بالجامع الكبير وقد يحضره الحاكم ويرأسه هو بنفسه احيانا ولقد استمر هذا المجلس على عمله هذا الى حوالى سنة ١٢٨٩هـ(م١٨٧٣) بقليل فنسخته السلطة الفرنسية المحتلة بمثله ولكن بهيئة اوروبية محضة اجنبية عن الاسلام تماما ومجلسها اليوم بقصر العدالة

وفيما يرجع الى الفصل فى الخصومات الجنائية والجنح واحكام الدماء والحدود فان القصاص فى ذلك مفوض الى « حانوت الكاهية » وهو المحل او المكان المأذون له في النظر في مثل هذه القضايا الاجرامية والنوازل التى تجرى حوادثها بين المدنيين — لا العسكريين — فان لهؤلاء العسكر هيئة خاصة بهم تفصل فيما بينهم لا يحضرها اجنبى عنهم

والذى يراس مجلس « حانوت الكاهية » بالعاصمة هو الحاكم نفسه اوخليفته كخوجة الخيل مثلا او الاغا وبقسنطينة قائد الدار وفى وهران الباى نفسه او نائبه كقائد البلد ويجرى تنفيذ احكام العقوبات معجلا واحيانا يكون فيه من انواع العذاب والتمثيل بالمحكوم عليه والتنكيل به قريبا مما كان يعامل به المحاكمون في اوروبا(١) ولقد كان بالعاصمة من نوع هذه المحاكم الزجرية ثلاثة احداها بناحية باب عزون والثانية بدار الصابون والثالثة بالزنبوج

واما راية الحكومة ولواؤها الرسمى بالجزائر فحمراء لاشية فيها مجردة عن كل رمز اعلانا بخروجها عن سلطة خلفاء القسطنطينية المحتوى علمهم على النجم والهلال

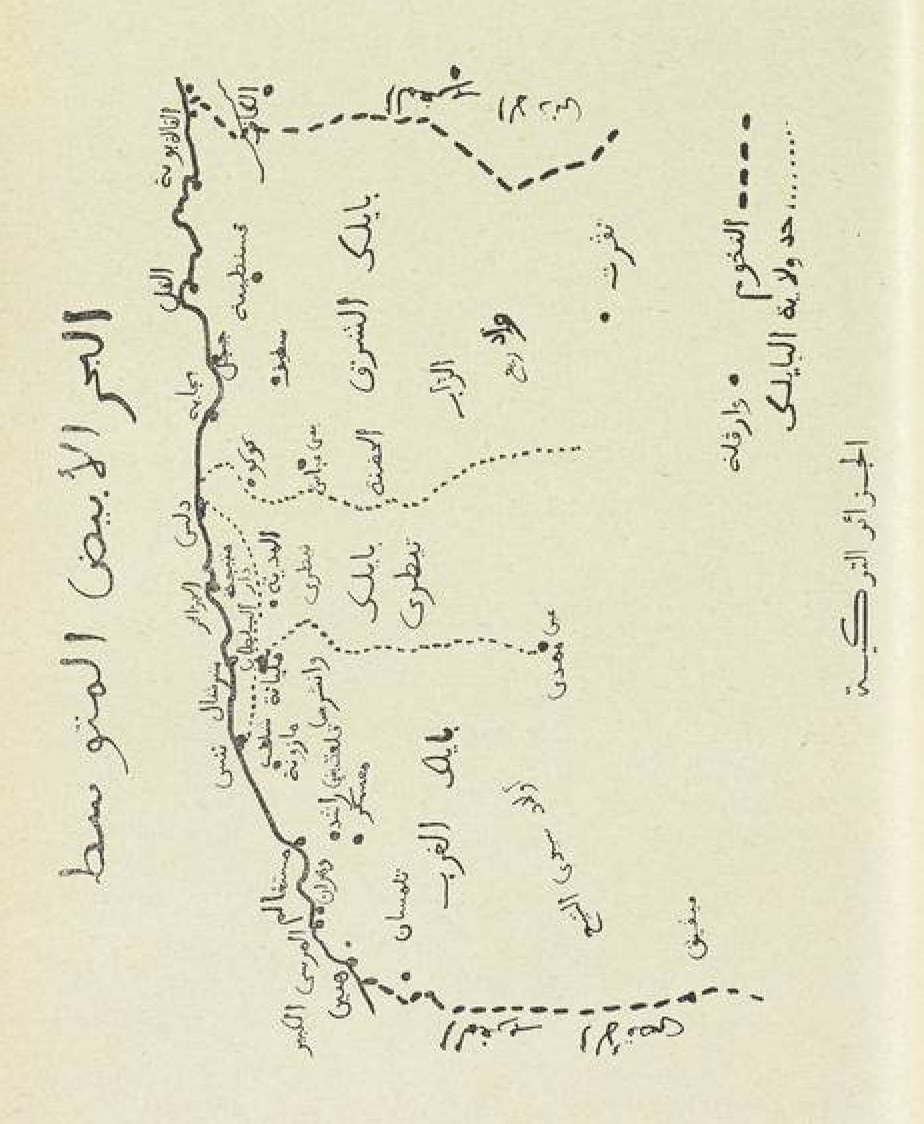
وهكذا استمر نظام الحكم التركى قائما بالجزائر حسبما وضعه الاخوان بابا عروج وخير الدين ومن لف لفهما من رؤساء الدولة التركية الاوائل بهذه البلاد مقصورا على الاتراك وحدهم لا يشاركهم فيه احد من ابناء البلاد الجزائرية الى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) من غير ان يتغير منه شىء وهو

(١) راجع Ch. André Julien - Histoire de l'Afrique du Nord p. 546-47 Paris 1931

كما ترى نظام استعماري محض لايمتاز عن سواه من الاستعمار الاجنبي الا بمظهره الاسلامي فقط او ما كان من الصلة الدينية بين اهله وبين سكان البلاد

حدود الجزائر التركية

اما كون البلاد الجزائرية بحدودها المعروفة اليوم هي ما كانت بتمامها على عهد الاتراك مستسلمة لنفوذهم منقادة لطاعتهم العامة فهذا مما لا شك فيه بل ما كانت هذه الحدود السياسية الشرقية والغربية مضبوطة واضحة جلية هكذا كما هي عليه الحال الآن الا منذ العهد التركي فقط غير ان الكثير من مساحة الجزائر الجنوبية كان خاضعا لنظام الاقطاع وان سلطة الاتراك العملية عهدئذ لا تشمل من اديم ارض الجزائر الفسيحة سوى محيط من الارض يحتوى على خمسة وسبعين الف كيلو ميترا مربعا، ينتهي شرقا بمدينة طبرقة وغربا بوادي ملوية، وفي الجنوب بجبال العمور المتاخمة لعين ماضي، وهو نحو سدس التراب الجزائري اليوم. اما الباقي من جبال اوراس مثلا فهي لاهلها من زناتة، وبلاد الشاوية والزاب والحضنة لاسرة بوعكاز من الدواودة وبلاد تقرت وملحقاتها في اقصى الجنوب القسنطيني لبني جلاب، الخ....


البحر الأبيض المتوسط
بايلك الشرق
بايلك تيطري
بايلك الغرب
الجزائر التركية
حدود ولاية البايلك
قسنطينة
بجاية
دلس
الجزائر
شرشال
تنس
مستغانم
وهران
تلمسان
تيطري
ورقلة
تقرت
بسكرة

«ا» عصر الفتح التركى

٩٢٠ — ٩٥٠ ﻫ

١٥١٤-١٥٤٤م

عروج وخير الدين

هما اخوان تركيان من اهل احدى جزائر أرخبيل اليونان «مديللى» او ميتيلان — ليسبوص — التى فتحها السلطان محمد «الثانى» الفاتح سنة ٨٦١ﻫ (١٤٥٧م)

ولد عروج او - اوروج - حوالى سنة ٨٧٨ﻫ (١٤٧٣م) واخوه خير الدين بعده بسنة من اب يسمى يعقوب بن يوسف كان يصنع الفخار بهذه الجزيرة، وهو احد الجند الذين صحبوا جيش الفتح، واصله من قرية «آجبى آباد» بالروميلى وامهما ذمية

نشأ عروج وهو ثانى اخوته الاربعة على هواية الحياة البحرية وذلك ما يقتضيه موقع بلده الجغرافى فأنشأ جفنا - مركبا - للتجارة واخذ يعمل به للارتزاق فوقع في محنة العبودية والاسر حيث اخذه الطليان البناقة فعذبوه و كالوا به وانالوه من العسف والجور ما اثار في نفسه الحقد وحب الانتقام من القراصنة الاجانب، وهذا يعد من حكومة الطاليان خيانة حسبما تنص عليه معاهدة الصداقة واحترام الجوار المبرمة بينهم وبين الاتراك سنة ٨٥٨ﻫ (١٤٥٤م) ولكن اين الوفاء ؟... فكان هذا فاتحة عهد حذر تركيا من دول اوروبا

ويوم ان تخلص عروج من اسره سعى من حينه الى تغيير مجرى حياته وكرس نفسه للجهاد والغزو في البحر للقضاء على القرصنة الاروبية فنزل هو واخوه خير الدين ميدان الكفاح بهذا البحر الابيض المتوسط وعملا على ربط صلتهما بالسلطان سليم «الاول» ودخلا في خدمة السلطنة العثمانية فامدهما الملك

بالمراكب والسلاح واخذا حينئذ في التجول بعرض البحار وطولها فطار صيتهما وذاع ذكرهما في الآفاق واصبحا على راس اسطول ضخم واشتهر عروج يومئذ بلقب «باربارוס» ثم اخوه بعده بباربروس الثاني، ولا ادري اكان ذلك تحريفا لاسم الاول «بابا عروج»؟.. ام هو تشبيه له بأمبراطور المانيا «فريديريك» الذي حاز الشهرة ايام الحروب الصليبية وعرف بهذا الاسم؟.. ام لشقرة كانت بهما؟..

ويومئذ تشوف الاخوان «باربروس» الى الفتح والتقدم الى مقارعة الطغاة المعتدين على الثغور الاسلامية ومراكب المسلمين فتوجها للدفاع عن سواحل المغرب الاسلامي وحماية اهله فاتصلا بسلطان تونس ابي عبدالله محمد «السادس» الحفصي ونزلا بجزيرة جربة ثم بحلق الوادي بتونس فانتشرت سمعتهما وسارت بذكرهما الركبان وصار يخشى من ذكر اسمهما من بوغاز الدردانيل الى مظيق جبل طارق

اضطرار المسلمين الى شن الغارات البحرية

انتهى امر المسلمين بالاندلس كما هو معلوم في القرن ٩هـ (١٥م) واصبح امر البلاد بيد الاسبان والبرتغاليين النصارى فاقفلوا الثغور على من بقى هناك من المسلمين واخذوا يذيقونهم من العذاب الوانا!....

ولقد اشتد الامر على المسلمين في ذلك شدة لا يأتي عليها الوصف ولم يقتصر العدو على ذلك فحسب، بل تتبع اثر الاسلام والمسلمين حيثما كانوا واخذ يجوب البحار مهاجما لسواحل بلاد المغرب العربي مخربا ناهبا مدمرا ومتخطفا لكل ما يظفر به من الاموال والانفس والارزاق وقد امست بذلك بعض الاماكن من سواحل المغرب موطنا لعصابات من قراصنة الدول الاروبية على اختلافها، وبذلك نرى انتقال الحروب الصليبية من المشرق الى المغرب، فلقد كانت اولا نيرانها مشتعلة ومستعرة بالشام ومصر ثم انتقلت الى تونس ثم الى الجزائر والمغرب الاقصى، فلم يكن حينئذ الى السلم سبيل بين الطرفين واصبح النهوض لاستنقاذ المسلمين وحماية سواحلهم المهددة امرا

واجبا يتحتم على كل مسلم القيام به، مهما استطاع وكيفما استطاع الى ذلك سبيلا واضحى لزاما على الدول الاسلامية ان تقابل اعمال العدو بالمثل وان ترد عاديته وتقف في البحر رصدا لتوقع به وترد عليه اذاه وكيده وتدرك ثأرها منه، وبذلك تراجعت قوى الاعداء قليلا عن طموحها واطماعها فى البلاد الاسلامية، وليس هذا في الواقع بقرصنة او لصوصية بحرية وانما هو لون من الحروب الدينية ودفاع عن الاوطان ولقد اقر بهذه الحقيقة معترفا بها الكاتب المسيحى « دوماس لاطرى » وبعض كتاب الانكليز من رواد الحقيقة (١)

فتح مدينة جيجل

كان من اوليات المدن الجزائرية التى سقطت بيد الاجانب مدينة جيجل، احتلها الجنويز (٢) سنة ٥٦٥٨هـ [١١٦٠م] وجعلها مركزا تجاريا عظيما، ولما ارسى الاخوان عروج وخير الدين بالسواحل الجزائرية لقضاء بعض مآرب لهما اتصل بهما اهالى هذه النواحى ملتمسين منهما دفع الاجنبى عنهم وانقاذ ثغورهم من تسلطه عليها، فلبت الحامية التركية نداءهم وكان اول ما شرعت فى انقاذه من البلاد الجزائرية مدينة جيجل فاحتلتها سنة ٩٢٠هـ [١٥١٤م] واتخذتها مركزا لعمارتها البحرية بهذا الحوض .

ويذكر ابن احمدوش الجزائري في جدول ولاة الاتراك على الجزائر ان اتصال عروج بالجزائر كان سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م) ثم اخوه خير الدين سنة ٩٢٢هـ [١٥١٦م] وليس هذا مما يضر فى ضبط تاريخ اتصال الاتراك بالجزائر اذا عرفنا وان هذه مدينة وقع فتحها على يد الاتراك مرتين

---

(١) راجع الشرق الاسلامي ج ١ ص ٢٩١ و Demas Latrie - Relation et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes du moyen-âge (Paris 1866)

(٢) اهل مدينه جنوه بايطاليه

فتح حصون بجاية

ولما اشتهرت اعمال الاخوين التركيين فى غزو العدو وقهره واستيلائهما على جيجل استقبلهما سكان ثغور الجزائر وموانيها بكامل البشر واتجهت الانظار اليهما اتجاه المستغيث الملهوف الى الغوث فكاتبهما اهل بجاية مستنجدين بهما لقمع عادية دولة الاسبان والدفاع عن دار الاسلام، وكان الاخوان يومئذ متجهين الى سبتة من بلاد المغرب الاقصى فعدلا عن وجهتهما الاولى وغيرا خطة سيرهما الى الشرق فاشرفا على بجاية فى شهر جمادى الثانية ٩١٨هـ (اوط ١٥١٢) واحتلا منها حصنها القائم على ساحل البحر، وبعد ان مر عليهما حولان اعادا غارتهما على المدينة ودخلا باسطولهما في الوادي الكبير وحملا من هناك على الاسبان حملة شعواء استأصلا فيها الاسبان قتلا واسرا ودامت المعركة اياما فانتصر بها الاتراك والتحقت بهم جيوش الجزائر المتطوعة فبلغت نحو العشرين الف مقاتل ويومئذ اخذ النصارى فى استعمال الحيلة والدهاء الحربى فتمكنوا بذلك من الاحاطة بالجيوش الاسلامية فحاصروها مدة اربعة وعشرين يوما فصبر لها المسلمون مستميتين في الدفاع عن اوطانهم حتى نفد ما عندهم من البارود، فالتجأوا حينئذ الى طلب المعونة من صاحب تونس الحفصى فامتنع واظهر عداوته للاتراك واغرى عامله على قلعة بنى عباس من بلاد القبائل بمعادات الاتراك ايضا والسعي في نصرة الاسبان وذلك لما كان بين جده عبد الرحمن واحمد بن القاضي -بوقطوش- الموالى للاتراك من العداوة وجاءت الامداد الى الاسبان من جهات عديدة فتقوى العدو ضد الفاتحين فانسحب القوم صحبة نحو ستمائة اسير وانصرفوا بما معهم من الذخائر، وفي هذه الوقعة أصيب عروج في ذراعه الايسر فسقط منه كما اصيب بجراحات بليغة فى كتفه.

ثم في سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) اتحدت قوات المسلمين وجاءت جيوش القلعة

العباسية يقودها الامير عبد العزيز الحفصي منتصرة للفاتحين الاتراك والتحقت بهم جيوش احمد بن القاضي من جرجرة وتقدم الجميع للقضاء على قوات الاسبان ببجاية فاخفقوا ولكل اجل كتاب

الاستيلاء على مدينتي الجزائر وشرشال

كان لعدم استقامة امر ملوك الجزائر الزيانيين واضطراب امر الحفصيين اثر قوي في خروج بعض المدن الجزائرية عن طاعتهم واستقلالها بامرها تحت رعاية جماعة من اهلها، ومنها مدينة الجزائر هذه فانها بقيت محافظة على حريتها تحكمها هيئة من الثعالبة تحت رئاسة شيخ من شيوخهم، وكان فيمن تعاقب على رأس هذه الهيئة العلامة « سيدى عبد الرحمن الثعالبى » ثم انتقلت رئاستها الى اولاد سالم من بنى علان الهواري ، وكان آخر الرؤساء من هؤلاء « سالم السالمى التومى » (١)

احتل الاسبان صخرة المرسى العظيمة مكان برج الفنار اليوم وبنوا عليها حصنهم الشهير باسم «البينيون» Penion سنة ٩١٦هـ [١٥١٠م] ونزلوا فيه واخذوا يومئذ في ارهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب والمغارم الباهضة

(١) كان مقر حكمه ومركزه بالجزائر بحى باب الوادي فى دار هناك كانت تعرف بـ «دار الطبجية » ويقال انه سكن بالدار الحمراء قرب ضريح سيدي على الفاسى بنهج فيليب Philippe ولقد هدمت مباني هذه الناحيه اخيرا بقصد التوسيع في انهج المدينة ودورها وتعميرها على شكل بناء العصر الحديث ولكن الجزائر خسرت بذلك اجل عماراتها واحيائها التاريخيه الاسلاميه، ففقدت بذلك طابعها الشرقى الاسلامى وروتقها الساحر الخاص

كانت هذه الناحية من العاصمه بمثابه الدرة من التاج مزدخرة بثروة طائلة من الدور والقصور الفسيحة هى اجمل ما فى المدينه من بناء وعمارة وناهيك بها انها كانت مسكن ذى الوجاهه من رجال السلك السياسى والعسكرى ورجال القضاء والفتياء ورؤساء البحريه الخ ..... فالبناءات بها كلها رخام ومرمرملون وزليج فارسي مزخرف ونقوش على الخشب وقباب مرتفعه واقواس في اشكال هندسيه جميله على نموذج دار الاسقف والمكتبه الوطنيه الباقيتين الى اليوم

على مكاسبهم التى تأتيهم عن طريق البحر كما فعلوا كذلك بسائر السواحل الجزائرية فضاق الجزائريون بهؤلاء الاسبان ذرعا وسئموا من هذه الاهانة والذل القاتل وحاولوا التخلص من هذا الحصن الاسبانى الذى حل ببلدهم محل الشوكة باللهاة!

وفى ذات يوم ارسى خير الدين باسطوله في مرسى الجزائر لقضاء بعض مآرب له منها وقد علم الجزائريون يومئذ ان ملك اسبانيا « فيرديناند المسيحى » المتعصب قد توفى فانتهزوا هذه الفرصة واستمسكوا بخير الدين فرغب اليه شيخ مدينة الجزائر «سالم التومى» وشيخ بلاد قبائل - جرجرة - «احمد بن القاضى» حماية بلادهم من خطر الاسبان ومبايعته كامير على بلاد الجزائر، فحماهم مدة ثم سخط عليهم فغادرهم سنة كاملة ثم الحوا في عودته اليهم واكدوا عليه في قبول بيعتهم فأظهر امتناعا ثم لبى دعوتهم على ان يشاركه اخوه عروج -اوروج- فى هذه الغزوة وهو يومئذ مقيم بجيجل فاستصرخوه فاجابهم وجاء معه بحملة فيها ثمانمائة تركى وثلاثة آلاف جزائرى، فعرج اولا على مدينة شرشال فاحتلها ٩٢٢هـ [١٥١٦م] وتقدم بعدها الى مدينة الجزائر فى نفس التاريخ فانقذها من بين براثن الاسبان وغرز بها علمه المثلث الالوان : اخضر واصفر واحمر، وكان اخوه خير الدين يومئذ مشتغلا بفتح مدينة مستغانم

نزل عروج بالجزائر وحاول من يومه القضاء على حصن « البينيون » فلم ينجح، ولم ينشب ان عملت الدسائس عملها فانقلب ضده حاكم الجزائر وبيت له العداوة مع الاسبان وكانهم بذلك استضعفوه او حسدوه فنشط عروج للانتقام من مشيخة مدينة الجزائر فقضى على رئيسها سالم التومى واعلن انتصابه بنفسه ملكا على عرشها ولم يلق في ذلك من الاهالى كبير عنف وذلك لما يجمع بينهم جميعا من اخوة الاسلام ورابطة الخلافة والدفاع عن الاوطان الاسلامية ، وكان لسالم هذا ولد اسمه يحيى فر بعد مقتل ابيه الى وهران مستنجدا ومستغيثا بالاسبان فجهز له هؤلاء اسطولا ضخما وجعلوه تحت قيادة «فرانسيسكو»

خيبة حملة دون ديقو دوفيرا على الجزائر

جات هذه الحملة الاسبانية فى ثمانين مركبا تحمل كمية عظيمة من السلاح والجند اذ فيها من المقاتلين نحو الثمانية آلاف نسمة، يرأسها القائد الاسبانى « ديقو دوفيرا » Diégo-de-véra فارست العمارة بناحية باب الوادى غربى العاصمة وقيل بشرقيها بناحية «حسين داى» ؟... وذلك في اليوم الثالث من رمضان ٩٢٢هـ [آخر سبتمبر ١٥١٦م] وما كادت جنود الحملة تتصل بالارض حتى فاجأها الاهالى ومعهم الحامية التركية فقضوا عليها وكان ذلك فى يوم عاصف حيث اشتدت الزوابع في البحر فاضطربت لها سفن العدو وتقاذفتها الزعازع الهوج فتحطم اكثرها فكان ذلك مما زاد في انكسار الاسبان وخيبتهم ولم ينجو يومئذ منهم الا القليل

ويقال ان الاهالى الجزائريين يومئذ توجسوا خيفة من تسلط الاتراك عليهم وخروج الامر من ايديهم فاحتموا بحاكم مدينة تنس حميد العبد من بنى مهل فأدركهم عروج في خمسة عشر الف جندى تركى والف فارس من الجالية الاندلسية فقضى على حركتهم هنالك

تقدم الفتح التركى

ويومئذ اخذ عروج في توسيع نطاق مملكته بالجزائر فاستولى على متيجة بعد ان فر حاكمها منها الى الصحراء، ثم نزل المدية واحتل بعدها مليانة واستولى على بلاد القبائل فنصب عليها اخاه خير الدين واقامه بدلس ، وكان مما مهد له السبيل الى احتلالها هو ما كان قائما بين بنى عباس واهل جبل كوكو من التنازع والخلاف؛ ثم هاجم تنس واحتلها في جمادى الثانية ٩٢٣هـ [جوان ١٥١٧م] وقتل صاحبها الموالى للاسبان ونشر سلطانه عليها وعلى ما اتصل بها من قراها ومداشرها المحيطة بها، واقتسم حينئذ إدارة البلاد بينه وبين اخيه فاضطلع هو بغربيها وجعل لاخيه ناحيتها الشرقية

فتح تلمسان

لقد كان لهذه الفتوحات التركية المتوالية دوى عظيم فى انحاء المملكة الجزائرية واثر باهر كبير فى نفوس التلمسانيين الذين كانوا يرسفون تحت نير ابى حمو الثالث وجور خلطائه الاسبان فبمجرد ما تتحقق لديهم انتصار الاتراك على الاسبان فى بجاية والجزائر وتقدمهم في الفتح التف اهل تلمسان حول ملكهم ابى زيان المخلوع والتجأوا الى عروج فادركهم بحاميته وفتح تلمسان سنة ٩٢٣ﻫ [١٥١٧م] وفر أبو حمو الى وهران محتميا بحلفائه الاسبان؛ فعاد اذ ذاك ابو زيان الى عرشه

وقعة هوارة

هوارة هى قلعة او بلدة صغيرة من اعمال وهران تبعد عن مدينة معسكر بنحو ٢٥ كم ، وعن مستغانم بنحو ٥٥ كم وهى المعروفة قديما بقلعة بنى راشد واول من استعمل عليها من الاتراك هو اسحاق بن يعقوب اخ عروج، استعمله اخواه على هذه الناحية واكدا عليه فى تشديد الضغط على الاسبان المقيمين بوهران وقطع الميرة عنهم، وكان يومئذ ابو حمو الثالث معهم فجاء الى القلعة مقاتلا مع الاسبان واشتدت المعارك هناك وكان الظهور فيها للاتراك، ثم أعاد ابو حمو كرته في جيشه ومعه الاسبان فحاصر القلعة وضيق عليها الخناق مدة ستة عشر شهرا ثم افرج عنها وكانت الهدنة وعقد الصلح

ثم لاح لائح الخيانة من طرف الاسبان فانقضوا على القلعة وقضوا على اهلها غدرا وقتلوا الحامية التركية وكان فيها استشهاد الامير التركي اسحاق (١) ونشبت

[١] ذكره عبد الرزاق بن احدوش الجزائرى فى مجمعه المطبوع بالجزائر سنه ١٨٨٦ م على انه اول باشا قدم الى الجزائر سنه ٩١٥ﻫ (١٥٠٩م) وفى تقييدات او مفكرة ابن رجب الجزائرى مخطوطه ـ انه تولى امارة الجزائر سنه ٩١٠ﻫ [١٥٠٤م] ؟....

هنالك وقائع وحوادث دامية بين حميد العبد رئيس تلك النواحي وبين الجيوش التركية، وسرعان ما انتصر الاتراك واحتل عروج نواحي شلف والظهرة وونشريس وتيطرى ومتيجة

استشهاد عروج وعودة ابي حمو الى العرش

انتقل ميدان القتال بعد ذلك الى تلمسان وعاد اليها ابو حمو الثالث في اشياعه وحلفائه الاسبان فحاصرها ستة اشهر وهنالك وقف في وجهه عروج فقاتله وقتل من اهله نحو الستين شخصا كان فيهم سبعة من المترشحين للملك، وقضى على نحو الف من سكان المدينة المعارضين ثم خرج بنفسه لملاقات عدوه ابى حمو ومن معه من الاسبان فقاتلهم ولم يعقه في ذلك انفصال ذراعه واستمر يخوض غمار الحرب بشجاعة نادرة الى ان استشهد وجماعته معه في الميدان قرب مقطع الوادى الملح Rio Salado وذلك فى شهر جمادى الاولى سنة ٩٢٤هـ (ماى ١٥١٨ م) وعمره يومئذ نيف واربعون سنة، فسر لسقوطه الاسبان فاحتزوا رأسه وسلبوه ملابسه واخذوا ذلك معهم الى بلادهم يطوفون به الشوارع والانهج تطمينا لافئدة شعبهم المضطرمة حقدا وغيضا، ووضعت ملابسه تلك في دير - موناستيرسان جيروم - بقرطبة ويروى ان جثمانه جيء به الى العاصمة فدفن بجوار ضريح سيدى رمضان وقبره عن يمين الداخل متصلا بجدار المسجد؟...

وأعاد الاسبان اباحموا الثالث الى عرشه المحتضر على ان يكون حليفهم ضد الاتراك ويدفع لهم سنويا اثنى عشر الف دوكة او بياسطر - نقد اسبانى - و١٢ فرسا و٦ صقور رمز لخضوعه واستخذائه للاسبان وفى هذه السنة جدد خير الدين سور مدينة الجزائر الذى انشأه بلكين ملك صنهاجة من قبل

انهزام الاسبان عن الجزائر

كان لاستشهاد عروج وانتصار الاسبان على المسلمين في وقعة الوادى الملح ارتياح

عظيم لدى الاوساط المعادية وكأن الدولة الاسبانية يومئذ استيقنت النصر النهائي لها فعزم الامبراطور شارلكان على القضاء نهائيا على دولة الاتراك بالجزائر فجمع يومئذ جمعه واخذ في تعبئة حملة عنيفة ضد الجزائر مجهزة باضخم اجهزة الحرب فخرجت العمارة من مرسى جنوة سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩م) مشتملة على اربعين قطعة بحرية وفيها من الجند خمسة آلاف مقاتل يرأسها والي صقلية « هوكودومونكاد » فعرجت اولا على وهران فاستكملت عدتها هنالك ثم جاءت الجزائر فارست بناحية الحراش وهناك اشتبكت المعارك بين الفريقين فانتصر الجزائريون على هذه الحملة واسروا منها ثلاثة آلاف مقاتل وفيهم اكثرية من الضباط ومن بينهم رئيس الحملة

وفي هذه السنة كان استيلاء خير الدين على مدينة القل الساحلية، وشرع يومئذ في توزيع الاعمال على الموظفين وتعيين الولاة على النواحي ومن بينهم احمد بن القاضي فأقره شيخا او خليفة على الناحية الشرقية، ومحمد بن علي على الناحية الغربية

الحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية

ولما اطمأن الجزائريون على بلادهم وتحققوا من يأس العدو منها اظهر بعضهم الاستغناء عن الاتراك، وفيهم من حول نظره الى الاسبان مستنصرا بهم ويومئذ جمع خير الدين طائفة عظيمة من نخبة اهل البلاد واعيانها وعرض عليهم تخليه عنها، واظهر لهم عزمه الاكيد على الانتقال من بلادهم والعودة الى خطته البحرية لمجاهدة قرصان النصرانية بغربي هذا البحر الذى كان مسكونا بشعوب من القراصين التي تمارس الغزو والقرصنة وتعتمد عليها في معاشها، فابى عليه مجلس الاعيان ذلك واعلن تعلقه الشديد به وبرهن على ولائه واخلاصه باظهار رغبته ورضاه فيما يقترحه ويشترطه عليهم خير الدين، وبعد المناقشة والجدال الطويل

في ذلك طرح عليهم خير الدين فكرة الحاق الجزائر بالباب العالى والاحتماء بالسلطنة العثمانية فاستصوبوا رايه واستسلموا له في انقياد تام، وكان مما جعل شأن التحاق بلادالجزائر بالمملكة العثمانيةامرا ميسورا لديهم هو ما يجمع بينهم من رابطة الدين والخلافة مع توجس الاهالى وخوفهم من مفاجآت العدو وغاراته الطارئة

ويومئذ كتب خير الدين محضرا اشتمل على تفاصيل الحوداث الجزائرية وذكر البيعة للسلطان العثمانى وبعث بذلك مع احد اتباعه - الحاج حسين - الى استانبول فقبله السلطان سليم الاول واذن في ضم الجزائر الى مملكته وخلع على خير الدين لقب «بيلرباى» وجعله حاكماعاما على الجزائر وامده بالفين من الجند المسلح ومدفعية قوية واربعة آلاف من المتطوعة وجند الانكشايرية وجاء معهم كثير من المهاجرين الاتراك، واذن له السلطان كذلك فى سك النقود؛ واصبحت الجزائر منذ سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م) ولاية تركية مرتبطة بالامبراطورية العثمانية ملحقة بها خاضعة لحكام اقليميين يحملون لقب بيلرباى والباشا والداى يتمتعون بقسط وافر من الاستقلال عن الحكومة المركزية باستانبول

ويبدو ان خير الدين هذا لم يكن يعمل لمجرد الكسب والغنيمة وانما كانت تسيره عاطفة دينية صادقة فلقد عجل هذا الرجل فى ساعة نصره وظفره فوضع نفسه في خدمة السلطان وقدم الى الخلافة بلاده في الوقت الذى كان عمال الدولة ينتهزون فيه فرصة استقوائهم لينفصلوا عنها وقد كان الرجل موفقا فيما راى اذ وقع تصرفه فى نفس السلطان سليم موقعا طيبا (١)

انبعاث الاضطراب والفتن بالجزائر

لقد كان التحاق الجزائر بالباب العالى باعثا قويا فى اضطراب بلاط بنى زيان بتلمسان وبنى ابى حفص بتونس والوطاسيين ايضا بالمغرب الاقصى وذلك خشية

(١) الشرق الاسلامى ج ١ ص ٢٩٦

امتداد القوى التركية الى بلادهم ونشر جناح السلطنة العثمانية على كامل المغرب العربي ، فاجتهد الحفصيون والزيانيون يومئذ في العمل على قطع العلائق بين الجزائر واستانبول وسعوا في ايقاد الفتن والثورات الوطنية ضد السلطة التركية ، وانفقت في ذلك اموال طائلة وفيهم من استجاش بالاسبان وملوك المغرب الاقصى من بني وطاس ولكن ذلك كله لم يثبت امام قوة الجيوش التركية النظامية فخاب سعي بني زيان وتنكر الشعب الجزائري للمولى عبد الله الزياني فانزله عن عرشه وفر الملك الى حلفائه الاسبان وتولى مكانه اخوه المسعود سنة ٩٢٥هـ (١٥١٩م) تحت نفوذ الاتراك

غزو ولاية تلمسان

ماكاد يطمئن خير الدين على ولاية تلمسان حتى فاجاه ملكها المسعود باظهار عداوته وبغضائه للاتراك وانقلابه على الحكم العثماني واعلان ثورته الصماء على خير الدين ، فتقدم البيلر باي اولا الى مستغانم فحاصرها بجيوشه المشاة برا وغزاها بحرا بثمان وعشرين سفينة حربية فانفتحت له ثم تقدمت مراكبه الى سواحل الاندلس فانقذت منها عددا وافرا من المحصورين ثم كانت وقعة هوارة – قلعة بني راشد – فاستولى عليها ايضا ويومئذ تصدى لحصار تلمسان فاحاط بها وضيق عليها الخناق مدة عشرين يوما ففتحها وفر امامه المسعود طلبا للنجاة بنفسه ، فجاء الاتراك يومئذ بالمولى عبد الله فأعادوه الى العرش الزياني تحت سطوتهم ورعايتهم وخلعوا عليه الخلعة الملكية على ان يدفع للخزينة الجزائرية عشرين الف دينار سنويا

حركة احمد بن القاضي

هو رجل من اعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية بلاد القبائل ، ولاه خير الدين رئاسة تلك الناحية فاستقر بجبل كوكو ـ سوق الاربعاء ـ من بلاد

زواوة ونظرا لقوميته وغيرته على وطنه عملت فيه دسائس صاحب تونس فى رفض الحكم التركي والنهوض لقتال الاتراك فشن غارته عليهم بتلك النواحى الشرقية؛ ويومئذ خرجت الحامية التركية لاخماد ثورته فواجهتها هنالك جيوش الحفصيين وانتشبت الحرب بينهما فى الحدود وكانت المعركة شديدة انتصر فيها قوم خير الدين، فعاد ابن القاضى حينئذ الى المراوغة والتظاهر بالتودد للاتراك فصانعهم ودلهم على عورات العدو وسالمهم تقية الى أن شعر من نفسه بالقدرة على مقاومتهم فانقلب عليهم مرة اخرى واستجاش الحفصيين فانجدوه واستعان بهم في الاستيلاء على كثير من القرى والمدن الجزائرية التى هى ببلاد القبائل، وغزا مدينة الجزائر فانهزم عنها وعقد الهدنة مع خير الدين ثم نكث عهده وجدد هجومه على العاصمة فانهزم عنها ثانيا

خيانة قارة حسن واستيلاء ابن القاضي على الجزائر

وبعد ان تيقن خير الدين من القضاء على ثوراة ابن القاضى وانهزامه عن الجزائر نهض لاستردادالاماكن التى خرجت عن طاعة الحكومة التركية بتلك الجهات الشرقية فجهز لذلك جيشا منظما جعله تحت قيادة وتصرف قارة حسن فخرج الجيش من مكمنه وقام بواجبه احسن قيام فانتقل ابن القاضى حينئذ من مركزه واعتصم بالفرار وذهب الى بونة «عنابة» فاستقر بها مختفيا وهناك استعمل الحيلة والدهاء السياسى فاستمال اليه قائد الجيش التركي: قارة حسن، واتفقا على اقتسام الحكم وتوزيع الاقاليم بينهما واخذا فى بث روح الشقاق والخلاف فى الرعية، ودفعا بها الى اعلان الثورة والعصيان في وجه الحكومة المركزية بالجزائر فاضطرب لذلك الوطن الجزائرى وحدث فيه من القلق والتشعب ما حمل خير الدين على ترك العاصمة والخروج منها الى جيجل متماديا في غزواته البحرية تاركا الحبل على الغارب فخلا الجو حينئذ لابن القاضى فانتهزها فرصة

واحتل العاصمة فامتلكها مدة حولين كاملين وكان عدد سكانها يومئذ زهاء عشرين الف نسمة ؟...

عودة خير الدين الى الجزائر

وبعدمضي ثلاث سنوات قضاها خيرالدين كلها في قهر قراصنة الغرب ، اتفق ان بعث بمراكب له الى غزو بعض سواحل الافرنج يقودها احد رجاله القرصان المشهورين فعاكست الزوابع الجوية هذه القافلة البحرية فالتجأت الى ميناء الجزائر فصرفها ابن القاضي عن مرادها فعادت العمارة بخيبتها الى خير الدين واخبره رئيسها الخبر ، فعظم ذلك عليه واستنكره ونهض من حينه الى نواحي الجزائر مثيرا لانصاره واشياعه ومن بينهم عبد العزيز الحفصي امير قلعة بني عباس ، فلبته الجموع وجاءت اليه مسرعة محتشدة تحت لوائه فاحتل خير الدين يومئذ ٩٣٤هـ(١٥٢٧م) مدينة القل وبونة وامتلك قسنطينة ودخل العاصمة منصورا ، ثم نهض الى ابن القاضي فظهر عليه وقتله بثنية بني عائشة بحوز الجزائر ، وظفر بقارة حسن قسيم ابن القاضي في الثورة فقتله ايضا فيمن معه من خاصة انصاره بشرشال وعفى عن الاتباع الآخرين ثم عاد الى العاصمة منهمكا في وضع اساس حكومته التركية ونشر نفوذه على بقية البلاد

فتح قلعة البينيون Penon

« البينيون » هو اسم القلعة التي انشأها « بيدرو دونافار » الاسباني فوق وسطى الصخور اوقل الجزر العظيمة بثغر مدينة الجزائر سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م) وشحنها بالجيوش والسلاح الثقيل وذلك لفرض رقابة الاسبان على الجزائر وتفتيش الصادرات والواردات وقطع صلة الجزائريين بالبحرية فكان هذا الحصن او قل المعقل الاسباني الحصين بمنزلة الشوكة في ظهر الجزائريين ولكنهم صبروا حتى اعياهم الصبر وتعددت اذاية الاسبان وتكرر عدوانهم

ضد الاهالي، فانذرهم خير الدين لينتهوا عن عماهم هذا فلم يقلعوا، وبعد ما اخفق خير الدين فى انذاره وتهديده للاسبان ويئس من المعالجة السلمية تجهز لمنازلة القلعة بانواع السلاح الثقيل وحمل عليها فى شهر رمضان المعظم ٩٣٦هـ (ماى ١٥٣٠) وكان يرأس حاميتها الاسبانية يومئذ الوالى [مارتان دى فارقاس] وأوقدها عليهم خير الدين نارا تاضى واقتحم الحصن ففتحه في منتصف الشهر — ١٦ ماى — وقضي على جميع من بالحصن من الاسبان ثم امر بتحطيم الثكنة ودكها حتى لا يبق لاهلها مطمع فى العودة اليها مرة اخرى واستعملت انقاضها في ضم تلك الصخور التي بميناء المدينة الى بعضها وبناء الجسر وهو الرصيف الممتد ما بين المدينة و[برج الفنار] حيث دار قبطان رايس وهى مقر امير البحرية المعروف الى اليوم (١) وجاء يومئذ مركب حربى اسبانى لانقاذ قومه فاسره خير الدين وتم للاتراك يومئذ الاستيلاء النهائي على الجزائر وتمكنوا بذلك من انقاذها من بين مخالب الكفر والطاغوت واصبحت الضفة الغربية من هذا البحر الابيض المتوسط بحيرة عثمانية

انكسار اندري دوريا

اشتد غيظ الاسبان على دولة الجزائر التركية الفتاة وعز عليهم مالحقهم منها من تحطيم حصنهم «البينيون» فلم يستسيغوا انهزامهم بهذه الوقعة التى يئسوا معها من تحقيق مطامعهم بالسواحل الجزائرية فتآمروا يومئذ مع دولة فرانسا والجنويز — بايطاليا — على مهاجمة الجزائر وتحطيم السلطة التركية القائمة بها ثم سعوا في ربط صلتهم كذلك بسلطان تلمسان مولاى عبد الله وتحالفوا معه على ذلك، ويومئذ خرج اسطولهم الثالوثي في شهر ذى الحجة ٩٣٧هـ (جوليط ١٥٣١م) مشتملا على اربعين مركب حربى يقوده امير البحر الجنويزى المشهور

(١) انشئت هذه الدار سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) اى على عهد حسين بن على آخر دايات الجزائر

(اندرى دوريا) الى السواحل الجزائرية فاستولى على ميناء هنين ومكث الاسبان بها يومئذ اربع سنوات ثم خرجوا منها واندفع سلطان تلمسان حينئذ فى جيشه لحصار الجزائر فتسرع خير الدين اولا لقتال سفن الحلفاء وخرج بنفسه في خمس وثلاثين قطعة بحرية فغزا الجزائر الشرقية - الباليار - فحطم حصونها وغنم ذخائرها وفي عودته ظفر فى طريقه الى الجزائر بسفن الاعداء فاستولى على خيراتها وفى هذه البرهة التى تغيب فيها خير الدين عن العاصمة اعتدى اندرى دوريا على مدينة شرشال فهاجمها بدون جدوى وادركه الاسطول التركى ففر دوريا امامه ومنى اسطوله هنالك بالانكسار الشنيع والخيبة المريرة، ولكنه تحين فرصة غفلة خير الدين وانشغاله بتدبير ملكه فهاجم الاسطول التركى ليلا واسر منه اربعة مراكب.

نزوح الاندلسيين الى الجزائر

بعد ما وقعت الكارثة الكبرى ببلاد الاندلس واحتلها الاسبان وافتكوا من اهلها معقلهم الاخير غرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) التجا من بقى هنالك من المضطهدين الى غربى الاندلس معتصمين ثمة بجبال شامخة منيعة ورغم ذلك فان العدو قد لحق بهم وضيق عليهم الخناق هنالك فانزلهم من معقلهم الطبيعي على شروط وعهود اخذها كل من الجانبين على نفسه ملتزما بها امام صاحبه، ثم لم ينشب الاسبان بعد ذلك ان اخذوا فى نقض عهودهم وحل مواثيقهم فجددوا حملة صليبية شنيعة ضد المسلمين وفتحوا امامهم ابواب محاكم التفتيش على مصاريعها وبالغوا في ارغامهم على التنصر وخلع ربقة الاسلام من اعناقهم ولم تكتف هذه المحاكم الغاشمة منهم بكتمان ايمانهم بل الزمتهم بالتلبس بشعار الكفر وذهبت فى التنكيل بهم الى اشد العذاب فمزقتهم شر ممزق واحرقتهم وفعلت بهم الافاعيل مما لم يعهد مثله ولا عند الامم المتوحشة الفاندالية!....

وحينئذ استغاثت بقية الباقية من المسلمين المشردين بخير الدين وفاوضته في انقاذها من العدو ونقلها الى عدوة المغرب فانجدها بستة وثلاثين مركب ذهبت كلها سنة ٩٣٥هـ [١٥٢٩م] الى مياه الاندلس تحت رئاسة وقيادة نائبيه : ايدن رايس، وصالح رايس فارست ليلا عند اوليفا امام مصب نهر «التيا» على مقربة من دانية ونزلت منها الى البر عصابة استطاعت ان تجمع من الانحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة وهنا فوجئت السفن المغيرة بعدة من السفن الاسبانية الكبيرة وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية — الباليار — ولكن سفن القرصان انقلبت فجأة من الدفاع الى الهجوم، وانقضت على السفن الاسبانية واغرقت بعضها واسرت البعض الآخر وسارت سالمة الى الجزائر تحمل الموريسكيين المهاجرين وعددا من اكابر الاسبان اخذوا اسرى مع عدة من السفن الاسبانية الضخمة ايضا وتوالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الاسبانية وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين للفرار والهجرة رفقة السفن المغيرة حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم الى شواطىء المغرب الاسلامى نحو سبعين الف نسمة (١) وكثيرا ما كان عدد السفن لا يكفي لحمل اللاجئين فتضطر الحامية الى النزول بساحل العدو تاركة مكانها للمهاجرين وتبقى هناك فى حراسة المتخلفين من اهل الاندلس ريثما تعود اليهم قافلة الاتراك البحرية فتخلصهم من نكبتهم؛ واستمرت مراكب الاتراك ذاهبة آيبة تعبر هذا البحر بين الجزائر والاندلس سبع مرات واوسع لهم خير الدين فى ارض الجزائر واكرم مثواهم وتركهم لانفسهم في اختيار البقاء والامكنة الصالحة لسكناهم الموافقة لاغراضهم ومقاصدهم فى القيام باعمالهم وصناعتهم المتعددة فكان منهم من اختار النزول بالعاصمة ومنهم من سكن سهل متيجة بنواحى البليدة ومنهم من نزل تدلس ـ دلس ـ

«١» نهاية الاندلس لمحمد عبد الله عنان ص ٢٨٤ ط القاهرة ١٣٦٨هـ «١٩٤٩م»

ومنهم من استوطن تلمسان (١) ووهران، ومنهم من نزل المغرب الاقصى وتونس .... واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم

وما اهل الاندلس هؤلاء باجانب او غرباء عن اهل المغرب ولا هم بعداء عن وطنهم الجديد هذا ، بل ما هم الا اصالة منه واليه ومن رجاله وذويه تربطهم باهله اوشاج وارحام منذ احقاب واعقاب، اذ طالما حدثنا التاريخ عن جيوش المغرب البربرية التي صحبت حنبعل والرومان الى اسبانيا واستقرت بها، واما فتحت الاندلس الاسلامية الا على يد الجيوش البربرية التي رافقت البطل البربري الفاتح طارق بن زياد، وما قامت دولة المرابطين ودعوة الموحدين بالاندلس الا بالمغاربة من البربر، وما حكومة دولة بني زيري بغرناطة الا من صنهاجة وما حامية ابن ابي عامر الا من زناتة وكتامة ؟ ....

واستمرت الهجرة الاندلسية مطردة نحو المغرب منذ حلت الكارثة بذلك الفردوس المفقود الى سنة ١٠١٧هـ (١٦٠٩م) حيث نزل منهم بوهران يومئذ نحو ٢٨٠٠٠ نسمة، ولم يبق هنالك من المسلمين آنذاك الا من حبسه اجله.

قال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رات ان توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢م ونفي العرب (١٦٠٩م) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الالوف فحرمت اسبانيا من

---

(١) كان فيمن نزل هذه المدينة الجزائرية من كبار رجالات الاندلس الامير ابو عبد الله محمد بن سعد ملك غرناطة الملقب بالزغل — ومعناه الفتى الغض الشباب — وهو عم ابي عبد الله آخر ملوك دوله بني الاحمر النصرية بغرناطة دفين مدينة فاس

نزل الزغل بتلمسان وبها قضى بقية حياته في غمر الحسرات والعدم وبها كانت نهايته ووفاته في شهر شعبان سنة ٨٩٩هـ [جوان ١٤٩٤م] كما يدل على ذلك شاهد قبره الذي طالما استعمل عتبة لباب منزل حقير بتلمسان عدة قرون !... وقد ظفر به العالم بروسلار C. Brosselard فانتشله ووضعه في محله اليوم بمتحف تلمسان

احسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين واطباءها الحاذقين، وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مائة الف انسان على الاقل ونفي منها مليون ونصف؛ وقد كان ذلك من موجبات تأخر البلاد كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفا للكثلكة فأضر ذلك بالصناعة الفرنسية كما قال سيديو ، وقد تمكن الكاردينال كيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وامر باحراق ثمانين الف مخطوط عربي في ساحات غرناطة !...

ونقل المؤرخ الاسباني الكبير «ناوارتي» ان عددالمنفيين من الاندلس العرب من متنصرة وغيرهم خمسة ملايين نسمة منهم مليونان من اليهود، وقد كان مجموع عدد سكان اسبانيا كلها يومئذ لايتجاوز الثمانية ملايين !...

وكان من فضل هذه الجالية الاندلسية على الجزائر ان انتعشت بها حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية بما جاءت به معها من صناعات وفنون وآداب مما هو معروف في تاريخ الحضارة الاندلسية الزاخرة .....

استخلاف محمد حسن آغا الطواشي

وفي سنة ٩٤٠هـ (١٥٣٤م) انعم السلطان سليمان القانوني على خير الدين بترقيته الى رتبه قبودان باشا يعني (امير البحر) وهو منصب القيادة العليا لاسطول آل عثمان باستانبول، وذلك جزاء براعته في الحروب وانتصاراته العديدة التي احرزعليها في البحار وما كاد يتصل خير الدين بفرمان التولية حتى بادر الى استخلاف محمد حسن آغا على الجزائر وخف بالرحيل الى استانبول ليستلم مقاليد هذه الرئاسة التي كان هو فاتحة ولاتها وغادر الجزائر تاركا لها اخص رجاله حسن آغا المشهور بالبطولة الحربية والدهاء السياسي، وتمكن الاغا المذكور

بعد سنة من لايته من اخضاع مدينة قسنطينة نهائيا ٩٤١هـ (١٥٣٥م) (١)

اغارة الاسبان على تلمسان

دفعت المطامع عاهل النصرانية الاكبر «شارلكان» وبعثت به احلامه اللذيذة الى نشر نفوذه على المغرب العربى وقهر دوله الاسلامية واخضاعها لسلطانه، وخصوصا لما شعر بشغور مكان خير الدين من اسطول الجزائر الذى كان يهدد به شواطىء البحر الابيض محاولا الاستيلاء على موانيه قاضيا على سطوة الملاحة الاسبانية بهذا البحر والبحر الاطلس ايضا، فاسرع العاهل الى اختيار ابرز ماعنده من ابطال رجال العسكرية الاسبانية ليقوم له بعملية الغزو فوقع اختياره عن «الدون مارتين دى قرطبة» الملقب بالاوندى دا الكوديطى، وعينه في ذى القعدة ٩٤٠هـ (جوان ١٥٣٤م) حاكما عاما على وهران برتبة «جبنيرال» ولكن هذا لم يتصل بعمله الا بعد سنة من تاريخ تعيينه بسبب مرض عاقه عن مباشرة العمل

وكان على عرش تلمسان يومئذ السلطان محمد بن عبد الله «الثانى» وله اخ اسمه عبد الله يعرف فى التاريخ بكنيته «ابى محمد» وكان لا يزال يومئذ طفلا صغيرا محتضنا تحت كفالة جده لامه عبد الرحمن بن رضوان كبير شيوخ قبيلة بنى عامر وكان هذا الشيخ حريصا اشد الحرص على ايصال حفيده الى العرش الزيانى وكان يعلم انه لا بد له في تحقيق غايته هذه من الاتصال بالاسبان فعمل على ذلك وكاتبهم فى مراده واتصل بهم وتعهد لهم باسم حفيده بالاعتراف لهم بالتبعية واعطائهم الجزية كتلك التى كان يقدمها لهم جده ابو حمو «الثالث»

---

(١) وفي هذه السنة كان اتمام بناء جامع القائد عبد الله صفر — سفير — بالعاصمه وقد كان الشروع في بنائه فى شهر رجب سنة ٩٤٠هـ والفراغ منه يوم ثانى ربيع الاول ٩٤١هـ (١٥٣٤م) ثم وقع ترميمه على عهد بابا حسن سنة ١١٨٥ هـ - ١٧٧١م ثم جدد واعيد تشييده على عهد حسين بن على آخر دايات الجزائر سنة ١٢٤٢هـ - ١٨٢٧م وهو لا يزال على شكله ووضعه التركى الجميل الى الآن

ثم جاء ابن رضوان بحفيده الى حيث السلطة الاسبانية مائلة بوهران فاقبله رجالها بكل تجلة واحترام وذلك يوم الاربعاء ٢٩ رجب ٩٤١ﻫ (٣ فيفري ١٥٣٥م) وحادث المسؤولين من الاسبان في شؤون سياسته وشرح لهم اغراضه وتدابيره في كيفية انتزاع الملك من السلطان الحالي واسناده الى حفيده واقنعهم بصلاحية حفيده ابي محمد بدل اخيه فاقتنع الاسبان بوجاهة آرائه وبعثوا معه بفرقة من الجيش تحتوي على ستمائة او سبعمائة مقاتل يرأسها القائد الاسباني « الوانسو مارتين دي انكولو » وكان مع ابن رضوان يومئذ اربعمائة فارس وتقدم الجميع الى مهاجمة تلمسان، وفي اثناء سير الحملة ادرك الاسبان خيبة مسعاهم ومسعى حليفهم وذلك بما تحقق لديهم من القرائن الدالة على خلاف ما وعدهم ومناهم به ابن رضوان

ويومئذ وجد التلمسانيون انفسهم امام الامر الواقع فتناسوا كل ما كان بينهم وبين ملكهم من الخلاف والنزاع فوحدوا صفوفهم وجمعوا قواتهم وفتح السلطان خزائن بيت المال واستنفر الخيل والرجال وبذل لهم الاموال الطائلة فانفقت كلها في مجاهدة العدو المهاجم وردعاديته عنهم وجعل السلطان قيادة جيشه يومئذ للمزوار المنصور بن البوجاني زعيم قبيلة بني راشد الذي كان رهن السجن فعفا عنه وقدمه على قومه تجاه بني عامر

وفي يوم الاربعاء ٢٨ ذي الحجة ٩٤١ ﻫ (فاتح جوان ١٥٣٥م) اتصلت حملة ابن رضوان مع حلفائه الاسبان بقربة «ابي سكران» المسماة ايضا بـ (قنطرة يسر) وابتدات الهجومات صبيحة الغد وانتشبت المعارك هناك بين الطرفين مات فيها عدد قليل من الجانبين.

ثم بعد مضي ثلاثة ايام من المعركة تبين للاسبان عجزهم عن احراز النصر وتحققوا خيبتهم في نيل مرغوبهم الذي اطمعهم فيه ابن رضوان: من الاستيلاء على مملكة الجزائر وفتح العاصمة التلمسانية، فتحول حينئذ رئيسهم الوانسو مارتين عن خطته

الحربية الهجومية الى استعمال الدهاء والتدبير السياسى وشرع في المفاوضة مع جيش السلطان محاولا ضمه الى ابن رضوان وحفيده ابى محمد عبد الله المطالب بالعرش فلم ينجح في سياسته هذه ثم حاول الانسحاب والفرار بالنفس في جنح الليل فاخفق ايضا وانهزمت يومئذ جنوده شر هزيمة ومحقت جميع قواته الثقيلة والخفيفة وهكذا انتهت حملة الاسبان على تلمسان عند وادى يسر يوم الاثنين ٤ المحرم ٩٤٢هـ (٥ جوان ١٥٣٥م) بالخيبة والحرمان

وابتدات يومئذ المفاوضات السياسية بين الكونت دى الكوديطى وملك بنى زيان حول اطلاق سراح الاسرى من الاسبان، واشيع فى الوقت نفسه ان خير الدين التركى يغادر الجزائر حيث لا رجوع اليها بعد فاحزن ذلك سلطان تلمسان وذلك خشية انتصار الاسبان عليه فانتهز الكونت فرصة هذه الاشاعة واكد على السلطان فى مقاطعة الاتراك ومقاومتهم اذا هم عادوا الى الجزائر او حاولوا التحكك على سواحلها، وبعد اخذ ورد ومقاولات ومحاولات ادت بهم جميعا الى حرب انتصر فيها المسلمون على الاسبان واتفق الجميع على تحضير مشروع معاهدة صلح بين الطرفين ينتظم به سير العلائق التجارية والساسية بين الدولتين وتم تحرير المشروع يوم الاثنين ١٥ ربيع الاول ٩٤٢هـ (١٣ سبتمبر ١٥٣٥م) مشتملا على واحد وعشرين بندا كلها جاءت فى مصالح الاسبان، واليك اهم ما جاء فيه :

١» اطلاق سراح الاسرى من الاسبان — وهو بيت القصيد من المعاهدة — كلها

٢» مسالمة الاسبانيين وحسن التعامل معهم

٣» انضمام جيش بني زبان الى جيوش الاسبان، ويتحتم على السلطان الخروج بجيشه يقوده هو بنفسه الى جانب ملك اسبانيا

٤» يتعهد السلطان بتقديم الميرة والعلف الى الجيش الاسباني

٥» يجب معاملة الاتراك والقراصنة منهم وخير الدين على الخصوص معاملة الاعداء

«٦ ضمان الحرية الدينية للجميع

«٧ لا يسوغ للحكومة التلمسانية استعمال اى مرسى من مراسى الجزائر في شؤونها الاقتصادية سوى مرسى وهران فقط اصدارا وايرادا، وللسلطان الحق في استخلاص واجب الجمرك بوهـران وله ان يبعث [مشرفين] لاستلام ذلك بوهران

«٨ لا تحجز بضائع رعية السلطان في مقابل ديون الحكومة التى تدان بها الا اذا كان الدين مرتبا بذمه اثنين من [المشرفين] ويعتبر السلطان ضامنا للديون التي يدان بها تجار مملكته

«٩ يباح لكل من رعية السلطان من مسلمين ويهود التجول والسكنى بمنطقة وهران المحتلة، كما يباح ذلك للاسبان بالنسبة لتلمسان

«١٠ على السلطان اعتقال عبد الرحمن بن رضوان وحفيده المطالب بالعرش مهما عادا الى وهران او اتصلا بها و ذلك خلال مدة خمس سنوات التى تنتهى بها ايام المعاهدة. مع الزام اتباعهما بالخضوع ومعاملتهم بالاحسان.

«١١ يتعهد ملك الاسبان بوضع خمسمائة جندى من جيشه تحت تصرف سلطان تلمسان عند الحاجة

«١٢ يتعهد ملك تلمسان بدفع اربعة آلاف [ضبلون] زيانى مع اشياء اخرى يقدمها لملك الاسبان كمغرم سنوى

«١٣ لملك الاسبان نقض هذه المعاهدة متى شاء مع اخبار حكومة تلمسان قبل ذلك بمدة لا تقل عن ستة اشهر

«١٤ لا تعتبر هذه المعاهدة نافذة معمولا بها الا متى امضاها وصادق عليها الطرفان.

وهذه المعاهدة كما تراها ايها القارى الكريم كلها كانت فى صالح الدولة الاسبانية رغم ما يظهر عليها من مسحة حب السلام ونشر الامن بالبلاد فما ذلك الا

خداع ومغالطة ديبلوماسية حسبما اجمع عليه المؤرخون، فان غرضهم الوحيد منها كلها كان يرمي يومئذ الى تحرير اسراهم فقط؛ ومتى تحقق لهم ذلك ضربوا بتلك النصوص جميعها عرض الحائط

وماكان رضوخ دولة بني زيان في بادىء الامرلهذه الشروط الاخشية تحقيق ما قد شاع يومئذ من خبر انتقال خير الدين عن الجزائر وذهاب الاسطول التركي المجاهد معه فيخلو الجو للاسبان

ورغم ذلك فان المعاهدة بقيت موقوفة لم تنفذ بعد وبقدر ما ظل الكونت الكود يطي حريصا كل الحرص على تنفيذها فان السلطان تباطأ وتمهل في ذلك محتجابما جاء في نص المعاهدة نفسهامن انها لاتصبح نافذة رسمية الابعد مصادقة الطرفين عليها وبما انها خالية من امضاء ملك الاسبان وموافقته عليها حيثكان آنئذ غائبا عن وطنه مشتغلابالغزو فلم يمضها فانهاتعتبر مرفوضة مالم تمض او تختم بخاتم الملك نفسه، وبعد محاولة الكونت التأثير على السلطان في اطلاق الاسرى على الاقل – وهو كل شيء عنده – وخيبته في ذلك سعى حينئذ في شن غارته على الحدود والتخوم بقصد التشويش فكاتبه السلطان برسائل اضطرم لها غيظ الكونت وامتعظ منها امتعاضا شديدا ادى به الى الغدر بالمبعوثين السلطانيين فاعتقلها وقطعت المفاوضات

فتح بونة ومستغانم وبسكرة وتأسيس البليدة

ولما استوثق خير الدين من امتلاك ناصية القيادة العليا للاسطول التركي باستانبول وتمكن من منصبه البحري الجديد، عزم على الرجوع الى المغرب ليتم فتوحاته بشمال افريقية وليوحد بين اقطاره الثلاثة المتماسكة بعضها ببعض فعاد في اسطوله الضخم الى غربي هذا البحر مبتدئا بغزو تونس حيث نزل بها يومئذ ٩٤١هـ (١٥٣٤ م) عاهل النصرانية الامبراطور شارلكان فيمن معه من

امم الافرنج المحالفة لبني ابي حفص ، فكانت هنالك وقائع وحروب عظيمة... ثم عدل عنها خير الدين الى بونة - عنابة - فأطرد منها « المركيس مندخار » عامل شارلكان بها وازعج من بقصبتها من جنود الافرنج وكانوا يومئذ زهاء ستمائة نسمة ، فانهزموا عنها وخرجوا منها مدحورين بعد ان مكثوا بها نحو الخمس سنوات .

وفي هذه الآونة اخذ خير الدين في تأسيس مدينة البليدة قرب عاصمة سهل متيجة « قزرونة » المعروف مكانها اليوم باسم « خزرونة » وقد كان ذلك باعانة اهلها ومساعدة الجالية الاندلسية المهاجرة اليها .

وكان اول ما وضع بها خير الدين من المنشآت ان اسس بها مسجدا جامعا (٩٤٢هـ - ١٥٣٥م) وحماما وفرنا ، فاندرس الاخيران وبقي الاول . وبنا الناس حول ذلك مساكنهم ودورهم الجميلة التي تمتاز بشكلها الاندلسي الانيق ، وانشأوا حولها بساتين ومزارع يانعة الثمار زاهية الازهار والنوار ، فكانت مدينة جامعة شاملة لانواع الفواكه والرياحين الشذيه ، والجو العبق الاريج ، ممتازة بتدفق مياهها العذبة الباردة وطيب هوائها النقي ، وذلك ما جعل هذه المدينة - البليدة - تدعى ما بين البلاد الجزائرية باسم « الوريدة »

وبفحصها المعروف بوادي ابي عرفة كان مسكن اسرتنا الجيلانية الاموية المتصل نسبها بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، مشتغلة هناك تعمل بحقولها الزراعية الى ان انتقل منها والدي محمد الثالث رحمه الله مهاجرا الى سكنى العاصمة مع اخوته الثلاثة : يوسف ومحمد الاول والثاني ، وذلك خلال اواخر القرن الثالث عشر الهجري - اواخر ١٩م - محترفين مهنة التجارة ، وشغل عمنا محمد الاول خطة العدالة بالمحكمة الشرعية .

وعاد خير الدين الى استانبول معتكفا على تسيير دفة ادارة شؤون امارة البحر الى ان وافاه اجله بها في اليوم السادس من شهر جمادى الاولى سنة ٩٥٣هـ

(اوط ١٠٤٦م) ولا يزال قبره معروفا بجامع باشكطاش من هذه المدينة الى الآن .

وفي سنة ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) فتح حسين آغا مدينة مستغانم واخضعها نهائيا لدولته ، ثم بعد سنة من ذلك تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب « بسكرة » وملحقاتها .

اندحار حملة شارلكان الكبري

استمر حسن باشا في منصبه المستخلف عليه يعمل على قهر القرصنة الاروبية بهذا البحر فابلى في ذلك البلاء الحسن واصبح شخصه في الجزائر مثالا بارزا في البطولة والتضحية الاسلامية في سبيل الله والدفاع عن شرف الاسلام بهذا الشمال الافريقي ، فاكتست الجزائر بموقفه هذا مهابة وجلالا . وجعلت امم النصرانية يومئذ تهرع الى عاهلها الاكبر الامبراطور شارلكان (١) مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه ، ومن بينها البابابول « الثالث » فأتمر الجميع بينهم يومئذ لشد حيازيمهم في تنظيم حملة عنيفة ضد الجزائر ، واخذ شارلكان يستعد للغزو باختيار الاقوياء من الجند المدرب على الحرب ، فجاء بجيش خليط من الالمان والاسبان والطليان الجنويز ، وشارك بالتطوع في هذه الحملة الكثير من اشراف النصارى واعيانهم ، وتطوع لهذا الغرض نفسه الف ومائة محارب من رجال الرهبنة الفرنسية « سان جان » القديس مار يوحنا الاروشليمي (٢) المقيمين بجزيرة مالطة

«١» كارلوس الخامس اعظم ملوك اسبانيا وامبراطور المانيا (١٥٠٠—١٥٥٨م)

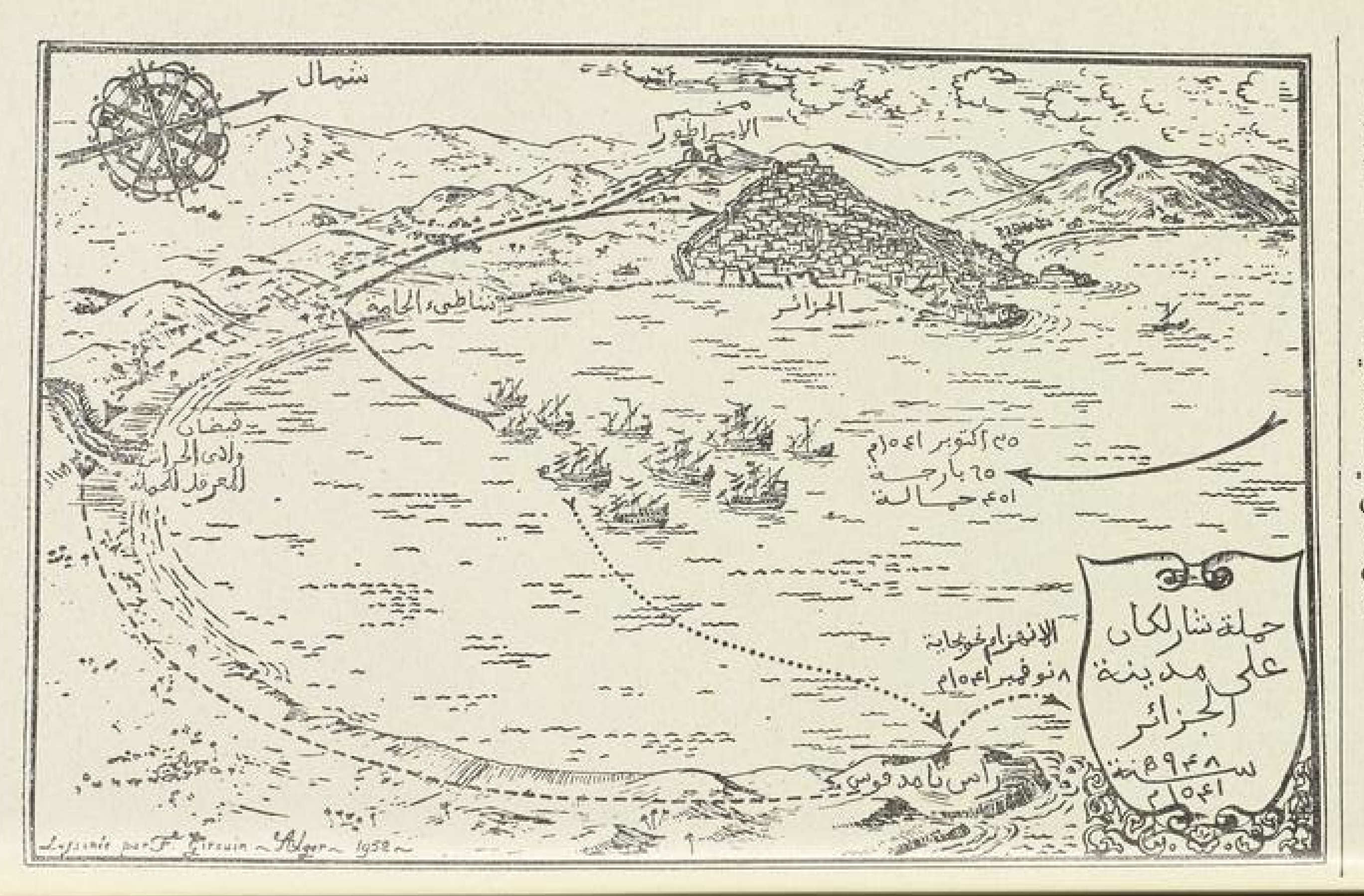
«٢» انشئت هذه الرهبنه خصيصا لمقاومة الاسلام ومحاربة اهله، وقد كان لها ذكر وصيت ذائع بين امم النصرانية ايام الحروب الصليبية، وتسميها العرب «الاسبتاريه» كان مركزها اولا بجزيرة رودس ولما احتلها الاتراك سنة ٩٢٩هـ — ١٥٢٢م خرجت هذه الرهبة منها فاستقرت بجزيرة مالطة تعمل على خطتها الحربيه المرسومة وكانت هذه الجزيرة تابعة لدولة شارلكان فتخلى عنها العاهل النصراني لهذه الرهبنه فمكثت بها سيدة الجزيرة الى زمن نابوليون حيث احتلها في

وجاء الامبراطور غازيا بنفسه الجزائر على رأس عمارة بحرية تحتوى على ٦٥ بارجة و٤٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ مقاتل، منها ٢٠٠٠ فارس و١٣٠٠٠ نوتي بحار؛ جاعلا قيادة حملته هذه لاندري دوريا، وكان اتصال الحملة بالجزائر عصر يوم الخميس ٢٨ جمادى الثانية سنة ٩٤٨ ﻫ (٢٣ اكتوبر ١٥٤١م) فارست العمارة بناحية «حسين داي» والقت باثقالها هنالك، فنزلت الجيوش من حينها مصعدة نحو ضاحية (كدية الصابون) - سيدى يعقوب - وهو المكان المعروف اليوم ببرج مولاي حسن او: Fort l'Empereur فاحتلته واخذت من هنالك تعمل على حصار العاصمة والتدبير في كيفية الانقضاض عليها دفعة واحدة، ولم يكن بالجزائر يومئذ من الجند سوى ثمانمائة نسمة، وفيها من السكان ما يقدر بنحو خمسة آلاف رجل قادر على حمل السلاح.

ونشبت الحرب بين الطرفين وكان من المقدور ان احتدم غضب الطبيعة يومئذ فاكفهر الجو وتلبدت السحب فتهاطلت الامطار وثارت الزوابع البحرية وهاجت العواصف الجوية واضطربت الامواج فهلك اثنا عشر الف جندي من جيش العدو وتشتت شمل الباقين وتفرق الجميع شذر مذر وتحطم الاسطول المهاجم فتفرقت اوصاله حتى كاد ان ينعدم بتمامه فانعطب منه يومئذ ٢٥٠ مركبا من بينها ١٥ بارجة و١٤٠ سفينة نقل؛ وغرق من اصحابه ثمانية آلاف نوتي وانهزمت بقية الباقية منهم فى الشواني والمراكب المعطوبة الى بعض المراسي المجاورة، وما كاد الامبراطور ينجو بنفسه الى مركبه الا بعد ما اقتحم الشدائد وكابد من العناء والنصب ما تقوضت به نفسه؛ فالتحق اولا ببجاية ثم غادرها الى اسبانيا وقد لفظ لجامه. (انظر خريطة رسم هذه الحملة فى الصفحة التالية).

ولما رأى ذلك سلطان تلمسان المولى محمد هاله الامر واسرع الى الاذعان لدولة الجزائر التركية فتخلى لها عن مشوره

طريقه الى مصر سنه ١٢١٣ﻫ — ١٧٩٨م ثم سقطت الجزيرة بيد الانكليز سنه ١٢١٥ﻫ ١٨٠٠م فاتخذها مركزا عظيما لبحريته وقد استولى من قبل على جبل طارق فاستكمل بذلك سيادته على البحر الابيض المتوسط


شمال
الإمبراطور
شاطىء الحامة
الجزائر
فيضان
وادى الحراش
المعروف بالحمام
٢٥ اكتوبر ١٥٤١م
٦٥ بارجة
٤٥١ حمالة
الانهزام نحو بجاية
٨ نوفمبر ١٥٤١م
حملة شارلكان
على مدينة
الجزائر
سنة ٩٤٨ﻫ
١٥٤١م
راس تامدفوس

وكان من المحقق ان لا تذهب هذه الحادثة سدى بدون ان تتعقبها جرائر لما تركته في نفوس المنهزمين من الضغائن والاحقاد فأخذ القوم في تعبئة الجيوش لتجديد حملتهم على المغرب الاوسط واخذت لواقح النزاع والخلاف تدب الى صدور ملوك دول الافرنج المجاورة بضفاف هذا البحر الابيض المتوسط وكانت هنالك حروب ووقائع القرصنة الرهيبة التى جعلت من قرصان الجزائر ابطالا مغاوير وصناديد بهاليل أذاقوا العدو بأسهم في معارك بحرية متعددة فكف عنهم حينئذ ورجع القهقرى خاسئا وهو حسير

ولم يهدأ روع شارلكان حتى اعاد تحككه على الجزائر وسعى في تحطيم كيانها سالكا في ذلك مسلك الدهاء والمكر ، فاتصل اولا بالسلطان مولاى عبدالله الزيانى فحالفه وامده بالمال والرجال ثم اخذ بعد ذلك فى اغرائه ضد اخيه المولى احمد الموالى للاتراك فاوقد بينهما العداوة والبغضاء وتسرب ذلك الى الرعية فبادر حينئذ حسن آغا خليفة خير الدين الى انقاذ الموقف وشمر على ساعده ونهض للقضاء على فتنة شارلكان هذه (٩٥٠هـ - ١٥٤٣م) فانهزمت جيوش مولاى عبد الله بشعبة اللحم في ناحية عين تموشنت ،

ثم فى السنة التالية أعاد الاسبان غارتهم على تلمسان فازعجوا اهلها وعاثوا في انحائها فاضطرب لذلك اهالى تلمسان واندلعت بينهم نار الثورة فسقطت المدينة بيد الاسبان وعمت الفوضى وانقلب اهلها ضد الملك وحاولوا اغتياله فانفلت من بين ايديهم وتخلص الى قبيلة آنكاد - على نحو ٣٠ كيلو مترا من وجدة - ولكنه رغم ذلك وقع في الفخ فاغتيل هنالك وجلس مكانه اخوه مولاى احمد (للمرة الثانية)

وفي هذه السنة اى (٩٥١هـ - ١٥٤٤م) توفى حسن آغا ، وبموته انتهى عصر الفتح التركى ومن آثاره العمرانية بالعاصمة : برج الفنار المشرف على المرسى القديم اسسه سنة (٩٤٨هـ - ١٥٤١م) وقلعة سلطان قالاسى القائمة بكدية الصابون وهو المكان المعروف اليوم باسم برج مولاى حسن او (برج بوليلة Fort l'Empereur

ولاة عصر الفتح التركى

	تاريخ التولية
عروج بارباروس — الاول —	٩٢٠هـ ـ ١٥١٤م
خير الدين بارباروس — الثانى — بيلرباى	٩٢٤هـ ـ ١٥١٨م
محمد حسن آغا الطواشى	٩٤٠هـ ـ ١٥٣٤م

سلاطين آل عثمان

	تاريخ التولية
السلطان الغازى سليم خان الاول	٩١٨هـ ـ ١٥١٢م
السلطان الغازى سليمان خان الاول	٩٢٦هـ ـ ١٥٢٠م

مشاهير الجزائريين

محمد النقاوسي

كان فيمن اشتهر من بيوتات الجزائر بالعلم والفضل خلال النصف الثاني من القرن التاسع واوائل العاشر من الهجرة جماعة توارثت العلم والادب والمجد ابا عن جد ، منهم العقبانيون والمقاريون بتلمسان وآل ابن قنفذ الخطيب وآل الفكون بقسنطينة وغيرهم كثير ممن امتلات بهم كتب التراجم وجاب بريد ذكرهم الآفاق ، ومن بينهم مترجمنا هذا ابو عبد الله محمد النقاوسي .

فهو محمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن ابي علي ابو الطيب بن ابي عبد الله المغربي النقاوسي – بالقاف المعقودة – القسنطيني المالكي ، هكذا ترجم له السخاوي فى ضوئه وقال : انه ولد فى يوم الاربعاء ثامن عشر جمادى الثانية سنة ثمان واربعين – اى من القرن التاسع الهجرى – ٢ اكتوبر ١٤٤٤ م) بمدينة نقاوس من غربي قسنطينة ، وكان والده قاضيا بها ، ثم تحول المترجم في حياة والده بعد قراءة القرآن واشتغاله قليلا بالعلم الى مدينة قسنطينة للطلب ، ثم الى تونس فأخذ الفقه عن ابراهيم الاخذري واصوله مع المنطق والعربية والمعاني عن احمد النخلي ومحمد الواصلي ، وتوفي والده فارتحل الى الديار المصرية فى سنة تسع وستين وعمره يومئذ احدى وعشرون سنة. فجد في الاشتغال واختص بخطيب مكة ابى الفضل رفيقا للخطيب الوزيري ، واخذ عن الشمنى فى حاشيته وغيرها كشرح نظم ابيه للنخبة وتكرر له عنه، والتقى الحصني فى المنطق وغيره والشرواني في شرح الطوالع وغيره من طبيعي والاهي ورياضي ، ولازم علماء آخرين كالكافياجي والامين الاقصرائي ويحيى العلمي والسخاوي وغيرهم، فأخذ عنهم التفسير والفقه والتاريخ والادب .

قال السخاوي : وحضر عندى بعض مجالس الاملاء ، وكان يكثر مراجعتي

مع عقل وسكون وفضيلة،

وفى غضون اقامته بالقاهرة حج ثم رجع الى بلاده واستقر قاضى العسكر لحفيد مولاى مسعود، ثم اعرض عنه لاختياره سكنى تونس وصار احد عدولها ودام سنين وامتدح صاحبها بعد اخراج عبد المؤمن بن ابراهيم بن عثمان عنها زكرياء بن يحيى بن مسعود بقصيدة طالعها :

ضحك الربيع وجاء سعد مقبل — ولك الهنا ذهب الزمان الممحل
فارفل فديتك في ميادين المنى — هذا لواء النصر وافي يرفل
وارح جواد الجد في اثر العدى — فسهام سعدك فى الاعادى انبل

قال وسمعها منه بعض الفضلاء المغاربة ولم يسمح بعود نسخة بها اليه، وقال ان زكرياء امتدح بكثير ولم يطابق الواقع في مدحه غيرك

ثم تحول المترجم بعياله وجماعته قاصدا استيطان الحجاز فدخل الديار المصرية فكانت اقامته بها نحو ثلاثة اشهر وركب البحر من الطور صحبة نائب جدة فدخل مكة في اثناء رجب ولقيه السخاوى فقال : ودام الشيخ بها على طريقة حسنة في الانجماع والعبادة الى ان سافر مع المدنيين الى طيبة فقدمها فى اواخر سنة سبع وتسعين وثمانمائة فدام بهاقال ولقيته حينئذبها وكتب لى بخطه ماعمله اجابة لصاحبه الخطيب الوزيرى واقرا هناك بعض الطلبة. وذكر لى ان عزمه استيطانها. اه

محمد بن عبد الكريم المغيلي

٩٠٩ ﻫ (١٥٠٤ م)

هو ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني احد اعلام الجزائر في فاتحة القرن العاشر الهجري. ترجم له احمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج فقال: خاتمة المحققين الامام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني احد الاذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم، اخذ عن الامام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما. كان رجلا مقداما على الامور جسورا جريء القلب فصيح اللسان جدليا نظارا محققا متصلبا في الدين متمسكا بالسنة مبغضا لاعداء الدين ولقد وقع له بسبب ذلك امور وحوادث كبيرة مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات بالمغرب والزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم (١) ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات؛ فراسلوا في ذلك علماء فاس وتونس وتلمسان، فكان ممن كتب في الموضوع الشيخ السنوسي ومحمد بن عبد الجليل التنسي، والرصاع مفتي تونس؛ وابو مهدي الماواسي مفتي فاس، وابن زكري مفتي تلمسان والقاضي ابو زكرياء يحيى بن ابي البركات الغماري وعبد الرحمن بن سبع التلمسانيان.

ومما جاء في كتابة الشيخ السنوسي قوله: «من عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي الى الاخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لا سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية وعمارة القلب بالايمان السيد ابي عبد الله بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد بلغني ايها السيد ماحملتكم عليه الغيرة الايمانية والشجاعة العلمية من

(١) راجع تفاصيل هذه الحادثة في كتاب المعيار للونشريسي

تغيير احداث اليهود اذ الهم الله كنيسة في بلاد الاسلام وحرصكم على هدمها وتوقف اهل تمنطيطة فيه من جهة من عارضكم فيه من اهل الاهواء فبعثم الينا مستنهضين همم العلماء فيه فلم ار ممن وفق لاجابة المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء الغلة ولم يلتفت لقوة ايمانه ونصوع ايقانه لما يشير اليه الوهم الشيطاني من مداهنة من يتقى شوكته سوى الشيخ الامام القدوة الحافظ المحقق علم الاعلام ابى عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسى امتع الله به. .. جزاه الله خيرا قد امد لابانة الحق ونشر اعلامه النفس، وحقق نقلا وفهما وبالغ فابدى من نور ايمانه الماحى ظلمة الكفر اعظم قبس .... الخ....

وحين وصل جواب التنسي ومعه كلام السنوسي هذا لتوات حيث يقيم الشيخ المغيلي، جمع صاحب الترجمة طائفة من اتباعه وجماعته فلبسوا آلات الحرب وقصدوا كنائس اليهود وامر الشيخ بقتل من عارضهم دونها فهدموها عن آخرها ولم يتناطح في ذلك عنزان، ثم قال لهم من قتل يهوديا فله على سبع مثاقيل وجرت يومئذ فى ذلك امور؛ فنظم الشيخ آنذاك في القضية هذه قصائد ومدح النبى صلى الله عليه وسلم وذم اليهود فيها ومن نصرهم،

ودخل المترجم بلاد اهر وتكدة واجتمع بصاحبها واقرا اهلها وانتفعوا به ثم دخل بلاد كنو وكش من بلاد السودان واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب رسالة في امور السلطنة تحت عنوان «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» وهى مطبوعة بمصر فى ثمانية عشر صفحة بدون تاريخ حضهم فيها على اتباع الشرع الحنيف والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقرر لهم احكام الدين وقواعده ثم رحل لبلاد التكرور فوصل الى بلدة كاغو واجتمع بسلطانها ساسكى محمد الحاج وجرى الشيخ على طريقته هنالك من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والف له تأليفا اجابه فيه عن مسائل ،

وفى كاغو هذه بلغه مقتل ولده على يد اليهود بتوات، فانزعج الشيخ لذلك

وطلب من السلطان القاء القبض على اهل توات المقيمين بكاغو فقبض عليهم السلطان، وانكر عليه ذلك ابو المحاسن محمود بن عمر اذ لم يفعلوا شيئا فرجع عن رايه وامر باطلاقهم ورحل الى توات وهناك ادركته منيته فتوفى رحمه الله سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٤ – ١٥٠٥م) ومن نظمه ما جاء فى مراسلة جرت بينه وبين جلال الدين السيوطى ملاحظا عليه قوله بتحريم علم المنطق :

سمعت بامر ماسمعت بمثله   وكل حديث حكمه حكم اصله
ايمكن ان المرء فى العلم حجة   وينهى عن الفرقان في بعض قوله؟
هل المنطق المعنى الا عبارة   عن الحق او تحقيقه حين جهله
معانيه فى كل الكلام وهل ترى   دليلا صحيحا لايرد لشكله ؟
ارنى هداك الله منه قضية   على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ابداه كفور وذمه   رجال وان اثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولاتقم   دليلا على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن   به لابهم اذهم هداة لاجله
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم   وكم عالم بالشرع باح بفضله

فى ابيات لم نعثر على بقيتها ؛ فاجابه الجلال السيوطى بقصيدة وهى :

حمدت اله العرش شكرا لفضله   واهدى صلاة للنبي واهله
عجبت لنظم ماسمعت بمثله   اتاني عن حبر اقر بنبله
تعجب مني حين الفت مبدعا   كتابا جموعا فيه جم بنقله
اقرر فيه النهى عن علم منطق   وما قاله الاعلام من ذم شكله
وسماه بالفرقان ياليت لم يقل   فذا وصف قرآن كريم لفضله
وقال به فيما يقرر رايه   مقالا عجيبا نائيا عن محله
ودع عنك ابداه كفور وبعد ذا   خذ الحق حتى من كفور بختله
وقد جاءت الآثار فى ذم من حوى   علوم يهود او نصارى لاجله

يعـزز به علما لديه وانـه — يعذب تعذيبا يليق بفعلـه
وقد منع المختار فاروق صحبـه — وقد خط لوحا بعد توراة اهله
وقد جاء من نهى اتباع لكافر — وان كان ذاك الامر حقا باصله
اقمت دليلا بالحديث ولم اقم — دليـلا على شخص بمذهب مثله
سلام على هـذا الامام فكم له — لدى ثنـاء واعتراف بـفضلـه

وللمترجم من التآليف كثير، اشتهر منها ما رايناه مطبوعا من تلك الرسالة المومى اليها وما ذكره الشيخ بابا التنبكتى من اسمائها وهي : البدر المنير فى علوم التفسير ومصباح الارواح فى اصول الفلاح، وهو كتـاب عجيب في كراسين ارسله الى السنوسى وابن غازى فقرضاه، ومغني النبيل في شرح مختصر خليل وهو شرح مختصر جدا سلك فيه مسلك المزج بين المتن والشرح لـم يكمل بلغ فيه الى القسم بين الزوجات، وله عليه قطع اخرى من البيوعات وغيرها، بل قيل انه شرح ثلاثة ارباع المختصر وله حاشية عليها سماها إكليل المغنى؛ قـال الشيخ بابا وقفت منها الى التيمم، وشرح بيوع الآجال من ابن الحـاجب بحث فيه مع ابن عبدالسلام وخليل، وتأليف فى المنهيات، ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر فى علم الحديث فيه ابحاث مع النووي في تقريبه؛ وشـرح الجمل في المنطق، وله مقدمة فيه ومنظومة ايضا سماهـا منح الوهـاب وثلاثة شـروح عليها قال الشيخ بابا وقد شرحها والدى بشرح حسن استوفي فيه؛ وله ايضا تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين وشرح لخطبة المختصر ومقدمة فى العربية، وكتاب الفتح المبين، وفهرسة مروياته؛ وعدة قصائد منها الميمية على وزن البردة ورويها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم؛

وكان فيمن اخذ عنه الفقيه ايد احمد والشيخ العـاقب الاصنمي؛ ومحمد بـن عبدالجبار الفجيجي فى جماعة كثيرة... رحم الله الجميع .

احمد الونشريسي

٩١٤هـ — ١٥٠٨م

هو حامل لواء المذهب المالكي على عاتقه بالمغرب العربي على راس القرن العاشر الهجري، الاستاذ العلامة الشيخ احمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، نسبة الى مرتفع ارض ونشريس بمقاطعة الجزائر، وهو صاحب المدونة والمعلمة الفقهية الكبرى الشهيرة باسم : المعيار المعرب، عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب وهو كتاب حافل جامع لمعنى اسمه طبع لاول مرة بفاس سنة ١٣١٤هـ في اثنى عشر مجلدا، وحسبه مجدا وفخرا هذا المؤلف الجليل

ولد رحمه الله حوالى سنة ٨٣٤هـ واخذ عليه عن مشائخ بلده تلمسان كالامام ابى الفضل قاسم العقباني وولده القاضي ابي سالم وحفيده الامام محمد العقباني والامام محمد بن العباس، وابي عبد الله الجلاب وابن مرزوق الكفيف، والغرابلي والمري والمازوني في آخرين من فطاحل علماء الجزائر النابهين، وكان رحمه الله فصيحا بليغا يقول من حضر درسه انه لو رآه سيبويه لاخذ النحو من فيه، متخصصا فى علوم الشريعة والاصول ملازما لتدريس المدونة ومختصر ابن الحاجب الفرعى؛ وكل من سمعه فيهما يقول انه لا يحسن غيرهما مع مشاركة حسنة في الفنون،

واوذى رحمه الله بكائنة حدثت من طرف السلطان فنهبت داره بتلمسان فى اوائل المحرم ٨٧٤هـ (جوليط ١٤٦٩م) فشد رحله الى المغرب الاقصى مستوطنا مدينة فاس وانقطع فيها للتدريس فتخرج على يده جماعة من كبار العلماء واعيان المغرب، منهم ولده عبد الواحد وابو عباد بن مليح اللمطي والاستاذ ابو زكرياء السوسى، والفقيه المحدث محمد بن عبدالجبار الورتدغيرى، وعبدالسميع المصمودي وقاضى فاس محمد بن الغرديسي التغلبي، وبخزانة هذا القاضي انتفع الشيخ فى تأليف

كتابه المعيار لاسيما فيما يرجع الى فتاوى علماء فاس والاندلس؛ اما فتاوى اهل فريقية — تونس — والجزائر وتلمسان فقد اعتمد في ذلك على نوازل البرزلي والمازوني

وللشيخ من التآليف غير هذا كثير منها كتاب الولايات في مناصب الحكومة الاسلامية والخطط الشرعية؛ طبع مع الترجمة الفرنسية برباط الفتح سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م، وكتاب فى الفروق الفقهية، وآخر في القواعد الشرعية صغير الحجم وغنية المعاصر والتالى في شرح وثائق الفشتالى، وتعليق على مختصر ابن الحاجب الفرعى فى ثلاثة اسفار، وكتاب الفائق في احكام الوثائق لم يكمل، وكتاب في الوفيات، وفهرست، وايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك.

وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء الموفي عشرين من شهر صفر سنة ٩١٤هـ (١٤ جوان ١٥٠٨م) وعمره يومئذ نحو الثمانين سنة. وذكر الشيخ احمد بابا التنبكتى عن الشيخ القصار ان سقوط وهران بيد الاسبان كان في هذه السنة

عبد الرحمن الاخضري

٩٥٣ هـ — ١٥٤٦ م

هو العلامة الامام المحقق الشيخ عبد الرحمن بن الصغير — بالتصغير — بن محمد الاخضرى نسبة الى بطن من بطون الدواودة من اولاد رياح يعرف بالاخضر وهم يسمون كذلك لسوادهم والعرب تسمى الاخضر وهى تعنى الاسود؛ يتصل نسبه رحمه الله بالصحابى الجليل العباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه

ولد المترجم حوالى سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) ونبغ فذا عبقريا فى جميع العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ورزق العلم بها واليف فيهما فتى صغيرا كما تدل على ذلك عباراته في تآليفه العديدة من نظم ونثر فهو القائل فى سلمه المرونق في علم المنطق معتذرا ومتواضعا

وقل لمن لم ينتصف لمقصدى — العذر حق واجب للمبتدى
ولبنى احدى وعشرين سنه — معذرة مقبولة مستحسنه
لاسيما فى عاشر القرون — ذى الجهل والفساد والفتون
وكان في اوائل المحرم — تأليف هذا الرجز المنظم
من سنة احدى واربعين — من بعد تسعة من الميئن

وفى ختام نظمه الجوهر المكنون فى فنون البلاغة يقول انه وضعه سنة خمسين من القرن العاشر اى بعد سنة من وضع السلم :

تم بشهر الحجة الميمون — متم نصف عاشر القرون

فكان بذلك من المبكرين في التاليف و كل من وقف على تآليفه علم ان الرجل كان متضلعا من العلم وانه ذا خبرة تامة بفن التعليم (بيد اكوجى)،

ولقد جمع الله ما بين قحفى دماغ هذا الرجل فنونا من العلم فكتب رحمه الله في علوم الحكمة والتصوف والفقه والمنطق والبيان والكلام والحساب والهيئة

الخ.... ولسهولة عبارته وحسن سبكه ورشاقة اسلوبه في بسطه لمسائل العلم اقبل الناس فى مشارق الارض ومغاربها على مؤلفاته يدرسونها ويشرحونها فى كل مدرسة او معهد من معاهد العلم بهذا المغرب العربى وفى المشرق أيضا

وكان مما عرفناه واتصلنا به منها نظمه الجوهر المكنون في علوم البلاغة وهو مطبوع بمصر وله عليه شرح مخطوط يوجد بالمكتبة الوطنية الجزائرية ونظم الدرة البيضاء فى الحساب والفرائض وهى مطبوعة بشرحها في مصر ونظم السلم المرونق في علم المنطق وله عليه شرح مختصر وكلاهما مطبوع بمصر ونظم السراج فى الفلك مع شرحه طبع بالجزائر ومصر وله منظومة فى العمل بالاسطرلاب مخطوطة والفريدة الغراء فى التوحيد مخطوطة عندنا منها نسخة بخزانتنا والمنظومة المسماة بالقدسية في التصوف وآداب السلوك وانتقاد البدع مخطوطة ومختصر في فقه العبادات على مذهب مالك مطبوع بالجزائر وعليه شرح لابن المسبح القسنطينى طبع بمصر، وله غير هذا من متون وشروح وتآليف مستقلة في كثير من فروع العلم والمعرفة ضاع اكثرها بلهيب النيران وفيما الذى سطت عليها يد الحدثان وفيما ذكرناه منها كفاية في الاستدلال بها على مقدرة الشيخ وكفاءته العلمية وعلو كعبه في التأليف مع صغر سنه

توفي رحمه الله سنة ٩٥٣هـ ١٠٤٦م ودفن بضريحه المشهور به الى الان بقرية بنطيوس احدى قرى الزاب الشهيرة بالقرب من بسكرة

جدول تاريخي

٩٢٠ — ٩٥٠ هـ

١٥١٤ — ١٥٤٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٩٢٠هـ ١٥١٤م	اتصال دولة الاتراك العثمانيين بالجزائر وفتح مدينة جيجل
٩٢٢هـ ١٥١٦م	احتلال مدينة الجزائر وشرشال وخيبة حملة الاسبان على الجزائر
٩٢٣هـ ١٥١٧م	توسع الاتراك في فتح غربي الجزائر الى تلمسان
٩٢٤هـ ١٥١٨م	استشهاد عروج والحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية
٩٢٦هـ ١٥١٩م	انهزام حملة شارلكان الاولى عن الجزائر
٩٢٩هـ ١٥٢٣م	حركة ابن القاضي الثورية ضد الاتراك واستيلاؤه على مدينة الجزائر
٩٣٤هـ ١٥٢٧م	الاستيلاء على اعمال قسنطينة وبونة وقمع ابن القاضي وقتله
٩٣٦هـ ١٥٣٠م	فتح قلعة «البينيون» Penion بثغر مدينة الجزائر
٩٣٧هـ ١٥٣١م	انكسار اندرى دوريا وانهزامه عن الجزائر وشرشال. وفيها كان الشروع في انقاذ مضطهدي الاندلس والمجيء بهم الى الجزائر وانتشارهم بالمغرب العربي
٩٤٠هـ ١٥٣٤م	انتقال خير الدين الى ولاية امارة البحر باستانبول واستخلافه لحسن آغا على الجزائر
٩٤١هـ ١٥٣٤م	حملة خير الدين على تونس والاستيلاء على بونة . وفيها كان تاسيس جامع القائد صفر — سفير — عبد الله بالعاصمة
٩٤٢هـ ١٥٣٥م	تاسيس مدينة البليدة
٩٤٦هـ ١٥٣٩م	الاستيلاء على مدينة مستغانم وبسكرة وارض الزاب
٩٤٨هـ ١٥٤١م	اندحار حملة شارلكان على الجزائر وتاسيس عمارة برج الفنار بالميناء
٩٥٠هـ ١٥٤٣م	انتصار حسن آغا على ملك تلمسان ووفاته

«ب» عصر البيلرباي

٩٥٠ — ٩٩٥هـ

١٥٤٤ — ١٥٧٨م

ولاية حسن باشا بن خير الدين

اجمع اهل الديوان يوم ان توفي اميرهم محمد حسن آغا الطواشي على تولية الحاج بكير مكانه موقتا ريثما يتصل بهم الحاكم التركي المولى من طرف الباب العالي باستانبول فمكث الحاج بكير على راس الادارة الجزائرية مدة الى ان قدم عليهم حسن باشا بن خير الدين سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٤م) يحمل لقب بيلرباي ويكتب بالقلم التركي هكذا : «بيجرباجي او بكلربك» اي امير الامراء. ارخه عبد الرزاق بن احمدوش في معجمه بجمادى الثانية سنة ٩٥٢هـ (اوط ١٥٤٥م) ؟..

رسوخ قدم الاتراك بتلمسان

ويوم ان انتقض اهل تلمسان على سلطانهم مولاي احمد وحاول هذا الانتصار عليهم بحلفائه الاسبان، بادر حسن باشا الى حماية الاهالي فغزا تلمسان واحتلها في اواسط شعبان ٩٥٢هـ(اكتوبر ١٥٤٥م)وقضى على حامية مولاي احمدوحلفائه ونصب على عرش تلمسان مولاي الحسن تحت اشراف دولة الاتراك بالجزائر. وخرج يومئذ مولاي احمد صحبة وزيره المنصور بن ابي غانم فالتحقا بناحية دبدو، وهناك اغر بهم صاحب تلك النواحي عمر بن يحيى الوطاسي فاستصفى جميع ما معهما من الاموال فصادرهاواعتقلهما عنده مدة ثم اطلق وثاق المنصور في المحرم ٩٥٣هـ (مارس ١٥٤٦م) وهنا اغفلت الرواية التاريخية ما آل اليه امر مولاي احمد فلا ندري امات بمعتقله ام اطلق عقاله ؟...

وكان من المؤسسات الادارية التي انشأها حسن باشا بن خير الدين بالجزائر

في هذه الفترة ان احدث سنة ٩٥٥هـ ١٠٤٨م مقاطعة تيطرى واقام عليها رئيسا يحمل لقب «الباى» ثم بعد سنتين من ذلك ابرم حلف الصداقة ومعاهدة الود بين حكومة الاشراف السعديين بالمغرب الاقصى وحكومة الجزائر . وكان من المقرر قمع حركة الاسبان بالايالة الوهرانية وتطهير تلك النواحى منهم؛ وفعلا نهضت حكومة مراكش بذلك وحاصرت تلمسان وضيقت على اهلها الخناق مدة تسعة اشهر ثم احتلتها في يوم الاثنين ٢٣ جمادى الاولى سنة ٩٥٧هـ (جوان ١٥٥٠م) وبسطت نفوذها على تلك النواحى ونشرت اعلامها على مستغانم واحوازها وجميع اعمال تلمسان الى حدود شلف، ويومئذ تحرك داعي التنافس بين الحكومتين المتجاورتين مراكش والجزائر وحمل الاتراك على تلمسان بقيادة حسن باشا فتقهقر المغاربة عنها الى التخوم وتمكن قدم الاتراك يومئذ بالعاصمة الزيانية فالحقوها بحكومتهم الجزائرية مباشرة وولوا عليها من طرفهم حسن قورصو، ثم عاد البيلرباي الى العاصمة مشتغلا باتمام تنظيم الادارة التركية والقيام باصلاح شان البلاد الجزائرية فأنشا الحصون والمحارس بها، منها ذلك الحصن الشامخ الذرى القائم فوق كدية الصابون بجنوب العاصمة؛ وهو المعروف الى اليوم ببرج مولاى حسن اوبرج بوليلة، وقد كان يسمى ببرج الطاوس وبرج سلطان قالاسي ايضا؛ ومنها مدينة القليعة الساحلية انشأها سنة ٩٥٧هـ (١٥٥٠م)

رسم حدود الجزائر وتخطيط تخومها الغربية

ولما استقر الحكم التركى بتلمسان وخضعت لسلطانه جميع اعمالها وتقرر رسم الحدود السياسية بين المملكتين الجزائر ومراكش ، انتدب لذلك العلامة الهمام ابو عبد الله محمد الخروبى الجزائرى فوفد على سلطان المغرب فاقتبله البلاط بما هو جدير به من التجلة والاكرام ، وعقدت للشيخ هنالك مجالس ومحافل ناظر فيها علماء المغرب وساجلهم فى مباحث شتى من العلم ، وجرى لـه كلام في

التصوف والطرق الصوفية انفرد به وحده وتم على يده تخطيط الحد الغربي الذى بقي محترما معروفا الى اليوم بين حكومة الجزائر والمغرب الاقصى ولم يحدث فيه كبير تغيير جوهرى الا ما حدث في بعض الجهات الجنوبية من تحوير طفيف حسبما اوحت به سياسة الاستعمار الفرنسي في الاخير .

انتقال البيلر باي الى استانبول

اتفق ان نشأ خلاف بين بيلرباى الجزائر ومفوض دولة فرنسا ، فسعى المفوض بامير الجزائر التركي ووشي به لدى الباب العالي باستانبول واحاطه بطائفة من التهم والشبه ولطخ سمعته بالريب فاستدعى السلطان اذ ذاك والى الجزائر الى حضرته، فغادرها حسن باشا سنة ٩٥٨هـ (١٥٥١م) وذهب الى استانبول مستخلفا فى مكانه حسن آغا .

وفى هذا التاريخ اهتبل الاسبان فرصة غياب الوالي التركي فغزوا تلمسان واحتلوها ومكثوا بها ثلاثة عشر يوما ثم هزموا واخرجوا منها .

□

ولاية صالح رايس

انتصب على اريكة الجزائر في شهر جمادى الاولى سنة ٩٥٩هـ (افريل ١٥٥٢ م) فكان لتوليته ارتياح عظيم لدى الاوساط الجزائرية : واهم ما ابتدأ به من الاعمال وباشرها بنفسه في صدر ولايته ان تصدى لاخضاع الثائرين والمتمردين على حكومته من سكان الجنوب الجزائرى كبنى الجلاب المستبدين بنواحي بسكرة وتقرت ، وبنى وارجلان – وارجلة – فان هؤلاء جميعا امتنعوا من اداء الجباية والمغرم ، فتصدى لاخضاعهم صالح رايس مستعينا على حركته هذه بصديقه عبد العزيز امير قلعة بنى عباس حيث اتصل به فى مجانة ومعه يومئذ ثمانية آلاف جندى فخضعت له قبائل الجنوب واستولى على عاصمة الزاب

الجزائرى - بسكرة - وأحوازها

ويذكر عن حسن قورصو عامل تلمسان يومئذ انه تحرك لمقاتلته عبد العزيز امير القلعة فى سنة ٩٥٩هـ (١٥٥٢م) وكان اللقاء بينهما في نواحي بوغني والمسيلة، وكان لصالح رايس وولده محمد ضلع في هذه الحرب التى كتب النصر فيها لعبد العزيز

الاستيلاء على فاس

كان مما اشتهر به صالح رايس فى مدة امارته على الجزائر الولوع بغزو سواحل امم النصرانية بهذاالبحر والزحف نحو اساطيل العدو الراسية بموانى هذه الشواطىء وكان مما ظفر به بمياه الاندلس في سنة ٩٦٠هـ — ١٥٥٣ م عشرة مراكب اسبانية فساقها الى الجزائر وكان من بين اهلها يومئذ الامير ابو حسون — ابو الحسن على بن محمد الشيخ — الوطاسى؛ وجد هناك على ظهر مركب منها مختفيا فارا بنفسه من الدولة السعدية القابضة يومئذ على زمام المغرب الاقصى، فتعرف ابو حسون الى صالح رايس وكانت بينهما مودة ومصافاة جعلت من الامير الجزائرى الصديق الوفي لاسيره الامير الوطاسى وتواطآ على غزو مراكش واسترداد مملكة بني وطاس المرينيين من يد السعديين،

وفعلا خرج الاسطول التركي الجزائرى من العاصمة محتويا على ٢٢ مركبا حربيا فغزا سواحل مليلة والريف المغربي وبادر الجيش الى السير برا نحو المغرب بقيادة صالح رايس نفسه فاحتل تلمسان وتقدم الى فاس فاحتلها ايضا يوم ثالث صفر ٩٦١هـ (٨ جانفيي ١٥٥٤ م) ونصب على عرشها ابا حسون مرتبطا بالباب العالى، ونفى السلطان السعدى، وفى عودة الاتراك الى الجزائر نهض الملك السعدي مغتنما هذه الفرصة فقضى على ابى حسون واعادالامر الى دولته

الحاق ولاية تلمسان بالجزائر

كان مما قام به بيلرباى الجزائر صالح رايس ايام وجوده بتلمسان ان درس الوضعية السياسية هنالك فعرف ما كانت عليه البلاد يومئذ من الضعف وسوء التحصين امام جيش الاسبان الجاثم بوهران وانكشفت له بها علائق سرية واتصالات مريبة مخيفة بين مولاى الحسن حاكم تلمسان والاسبان ، فكتم صالح امره ريثما انتهى من عملية الحرب بمراكش وفاس ، وفي منصرفه من تلمسان اعلن عزل حاكمها المذكور والحقها راسا باعمال الجزائر .

تمكن الاتراك من فتح قسنطينة وبجاية ووهران

من المحقق تاريخيا ان الاتراك تمكنوا من قسنطينة اثر وقعة وادي القطن - بين ميلة وقسنطينة - حيث احتلها اتراك بونة وتونس سنة ٩٦٢هـ-١٥٥٥م والحال انهم قد وجدوا بها منذ سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥م)ولكننا لا نعلم صفة ذلك ولا كيفية الغزو ونوع الفتح والاحتلال ، وانما الذى نعلمه من حوادثهم بهذه النواحى الشرقية انهم فتحوا بجاية بعد حرب طاحنة ومقاتلة للاسبان برا وبحرا وكان احتلالهم لها يوم السبت ١٢ ذى القعدة سنة ٩٦٢هـ (٢٨ سبتمبر ١٥٥٥ م) وفي نفس هذه السنة استنجد الفرنسيون بالاسطول الجزائرى لتعزيز قواتهم الحربية ضد الاسبان .

وبعد ان فرغ بيلرباى الجزائر من فتح الجهات الشرقية غدا يستعد لفتح وهران واخذ في تعبئة نحو السبعين سفينة لغزوها واجتمع لديه من الجند ما يقرب من اربعين الف نسمة ، وكان ينوى اتمام زحفه هذا بالسير الى مراكش للقضاء على ما نشب هنالك بين الاهالى من فتن واضطرابات واخضاعها لسلطانه ، ولكن القدر لم يمهله واجله لم يرجئه فتوفى بالطاعون في شهر رجب سنة ٩٦٣هـ (ماى ١٥٥٦م) وعمره سبعون سنة ، فخلفه يومئذ طرغود

بك فى فتح وهران فغزاها على راس اسطوله الضخم فاحتلها وانهزم عنها الاسبان

وكان من منشئات صالح رايس وآثاره المعمارية بالعاصمة دار السلطان اوقصر الجنينة باسفل المدينة، مكث فى بنائه نحو خمس سنوات ٩٥٩-٩٦٣هـ (١٥٥٢ - ١٥٥٦م) ولقد دام هذا البناء الشامخ نيفا وثلاثة قرون، اي طيلة تاريخ ايام الحكم التركى بالجزائر الى ان هدمته السلطة الفرنسية سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦م) واقامت مكانه هذه الدار الموجودة اليوم شرقى دار عزيزة بنت الباي -الاسقفية- حيث يوجد بالطابق الاول منها مركز نادى الترقي

□

ولاية حسن قورصو

انتصب بنفسه على عرش الجزائر يوم وفاة سلفه صالح رايس ٩٦٣هـ (١٥٥٦م) وفرض طاعته على الرعية ولم يراع في ذلك جانب الباب العالى باستانبول معتمدا في ذلك على ما اوتيه من البطولة الحربية والشجاعة الادبية، واصله من مدينة كورسيكا التى اشتهر بنسبته اليها ودعى لذلك «قورصو»

وفى اول برهة من ولاية قورصو توجه بنفسه على راس حملة شديدة الى وهران فشدد عليها الحصار برا وبحرا وضايق الاسبان بها حتى كاد ان يدركه النصر او يكون منه قاب قوسين او ادنى فناداه حينئذ السلطان العثمانى باستانبول مستنجدا باسطول الجزائر لتعزيز قوات المجاهدين ببحر الارخبيل ورد حملة اندرى دوريا عن البوسفور، فعدل يومئذ حسن قورصو عن وهران وعاد باسطوله نحو بلاد الامبراطورية العثمانية بالمشرق

وفى ذى القعدة ٩٦٣هـ - سبتمبر ١٥٥٦م حل بالجزائر من قبل الباب العالى اميرها الشرعى البيلرباى محمد تشلبى كرد اوغلى - طكلرلى - فاعترضه حسن قورصو وبذل فى منعه من الاتصال بالجزائر غاية وسعه ولكن طكلرلى اجتهد حتى تمكن من الحلول بجون «تامد فوس» شرقى العاصمة

وهنالك اصطدم بقوات حسن قورصو فناشبه الحرب وذهب ضحيتها الوالي السابق وقتل بعده الوالى الجديد ايضا وحكم الجزائر يومئذ والي تلمسان الامير يوسف صديق حسن قورصو ولم يلبث ان توفى بالطاعون فخلفه يحيى باشا مدة ستة اشهر ابتداء من شهر ربيع الاول الى شعبان ٩٦٤هـ (من جانفيي الى آخر ماى ١٥٥٧ م)

وكانت دولة الاشراف السعديين بمراكش تتحين الفرص للانقضاض على مملكة تلمسان فساعدتها الظروف في هذه الفترة من الزمن فاستولت عليها الى ان جاء عصر حسن باشا بن خير الدين وعاد الى منصبه الاول .

ولاية حسن باشا بن خير الدين (ثانيا)

تقلد منصبه هذا للمرة الثانية في شهر شعبان ٩٦٤هـ (جوان ١٥٥٧ م) فابتهج لولايته اهل الجزائر لما عرفوه قبل وتحققوه منه من حسن الادارة وحزمه الشديد فى تسيير شؤون الدولة وكونه ايضا ولد ام جزائرية فهو اذاً منهم بالخؤولة كل ذلك كان من دواعى الاقبال عليه في هذه المرة ، والحق انه كان من رجال الاتراك الممتازين في وضع أسس النظم الادارية لهذه الدولة التركية الناشئة بهذه البلاد .

أهم اعمال حسن باشا بن خير الدين

كان من اهم اعمال البيلرباى حسن التى شرع فى القيام بها في هذه المرة اخذه في جمع كلمة الجند الثائر من فريق الانكشايرية فسل منه السخائم واطفأ نار غضبه المنصب على الوجاق كما هى عادته في كل مناسبة تحدث عند تولية وال جديد ؛ وذلك رغبة في زيادة المرتبات ورفع اجور الجيش المرتزق ، فعامله البيلرباي يومئذ بما يرضيه ، ثم اشتغل بتنظيم المخزن ، والتفت كذلك الى محاربة دولة

الاشراف السعديين الحالة بتلمسان فأجلاها عنها ، وتشوف الى تتبع هذه الدولة المراكشيه الى عقر دارها بسبب ما بلغه عن ملكها ابي عبدالله محمد المهدى من تصريحه بكلمات احتظم فيها جناب السلطان سليمان العثمانى فنبزه بسلطان (الحواتة) وتوعده مهددا بعزمه على فتح مصر وطرد الاتراك عنها . . . وبلغ خبره هذا الى الباب العالي فبعث السلطان من هنالك اثناعشر فدائيا حلو بالمغرب وقضوا على حياة ساطان مراكش يوم ٢٩ذى الحجة ٩٦٤هـ ٢٣ اكتوبر ١٥٥٧ م . ولقد ادى ذلك الى اعتراف حكومة المغرب الاقصى بسيادة الباب العالي على بلادها ٩٨٨هـ (١٥٨٠م)

وفي نفس التاريخ الذى هلك فيه سلطان المغرب (٩٦٤هـ-١٥٥٧م) قضى حسن بن خير الدين على الجيوش الاسبانية المقيمة بمازغران - قرب مستغانم - فأسر منها ١٢ الف نسمة ، وانضم اليه يومئذ الجند التلمسانى فاحاط الجميع بالاسبان واوقدت النيران في مخازن البارود فانفجرت وكان من اثر انفجارها سقوط اسوار المدينة وموت الاكثرية من جيش الاسبان وفيهم الجينيرال ماجور الكونت الكوديط ، وعند غروب الشمس من يوم الجمعة ١٢ ذى القعدة ٩٦٥هـ (٣٦ اوط ١٥٥٨م] احتل الاتراك نواحى مازغران .

ثم في السنة بعدها « ٩٦٦هـ - ١٥٥٩م » حول البيلرباي نظره من المغرب الى المشرق وتحرك في جنوده الى غزو النواحى الشرقية التى يملكها عبد العزيز امير قلعة بنى عباس ، فاستولى منها على مدينة المسيلة وبنى حصنا ببرج بوعريريج وآخر بزمورة وذلك للمحافظة على سطوة الاتراك بتلك النواحي الشرقية وتثبيتا لقدمهم هنالك ورتب بهما الحامية التي بلغ عددها اربعمائة جندى ثم غادرها متوجها الى بلاد حمزة - نواحي بويرة -

وفى منصرف حسن من نواحى زمورة والبرج وثب عبد العزيز على الحصنين المذكورين فأسر ما بهما من الجنود ونشبت هنالك معارك كان فيها

حتفه ، وجيء براسه الى الجزائر ، وخلفه يومئذ فى مقامه اخوه احمد امقران وهو جد الاسرة المقرانية الشهيرة المقيمة بمجانة التي حاربت الاستعمار الفرنسي سنة١٢٨٨هـ – ١٨٧١م ، وحينئذ ٩٦٨هـ (١٥٦١م) تملك احمد امقران نواحى كوكو من بلاد القبائل واضطر الاتراك الى مصالحته .

وكان من اجل احداث السياسة بهذا العصر في الجزائر ظهور شركة صيد المرجان الفرانسية المعروفة باسم لانش Lenche حيث ابرمت مع الحكومة الجزائرية عقدة تجارية احرزت بها على رخصة لانشاء مراكز لها بكامل السواحل الجزائرية الشرقية ، منها ما كان بالقرب من غربى القالة ومنها ما كان بشرق بونة الخ ، وكل ما اشترطتة الدولة الجزائرية على هذه الشركة هو ان لا يكون بهذه المراكز التجارية سلاح وان لا تظهر بمظهر الحصون الحربية ابدا ، فكانت الحال اولا على ذلك الى ما بعد اربع سنوات حيث نزل بها اول قنصل فرنسي ويومئذ ابتدأ دور العاب اوروبا الديبلوماسية يظهر فى مجال السياسة الاستعمارية ، فكانت هذه المراكز خير عون للاستعمار مهد بها لاحتلال البلاد وسقوطها بين مخالبه فيما بعد ، ثم بعد خمس سنوات جاء دور الانكليز فتدخل فى اقتصاديات البلاد بطريق نصب ممثلين معتمدين للتجارة بالجزائر .

وسقطت يومئذ جزيرة جربة بيد الاتراك الجزائريين وانجلى عنها الاسبان ٩٦٧ هـ (١٥٦١م) فحولوا انظارهم حينئذ الى وهران فانتصروا على بعض حصونها واستولوا على بعض المراكب الاسلامية ، ويومئذ اندفع السلطان العثمانى الى اعلان الجهاد وتقدم الى فتح جزيرة مالطة مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمى . وكان من الضرورى فتح هذه الجزيرة لمزيد السيادة بهذا البحر الابيض المتوسط ، ذلك لما وهبتها الطبيعة من اهمية موقعها الجغرافي ومركزها الاستراتيجي ، وكان انهزام الاسبان هذا في جربة وانتصار الاتراك بها باعثا قويا وسببا مباشرا في جلاء حلفائهم السعديين عن تلمسان وتركها للاتراك

وتصدى البيلرباى في السنة التالية لادخال بعض الاصلاحات والتنظيمات في الادارة التركية بالجزائر فقضى على ثورة بلاد الزواوة واصهر الى قبيلة جبل كوكو بتزوجه بنت شيخها واشرك اهلها فى الادارة ؛ وباتفاقية كانت بينه وبين الوطاسيين غزا جيشه دولة السعديين بفاس ، ثم انسحب عنها في مقابلة تعويضات عن نفقات الحملة ، وكان لهذه الغزاة اثر كبير في ادخال بعض التقاليد والنظم العسكرية التركية فى الجيش المغربى وبالقصر السلطانى ايضا كآداب الاستقبال وحدوث فرقة الانكشارية الخ .

واحاطت الدسائس يومئذ بالبيلرباى وسعى به حسدته ومنافسوه لدى الباب العالي فأخذ مكبلا الى استانبول ثاني مرة ، وتعين مكانه حسن آغا للمرة الثانية ايضا ثم عزل بقوصة محمد ريثما حضر من الاستانة احمد باشا بستانجى فى المحرم ٩٦٩ﻫ (١٥٦٢م) ولم تطل مدته فتوفى اثر ثلاثة اشهر من ولايته ، فخلفه يومئذ القائد يحيى الى ان اعادت الدولة العثمانية حسن باشا بن خير الدين الى منصبه

ولاية حسن بن خير الدين (ثالثا)

لقد عاد البيلرباى حسن بن خير الدين هذه المرة لولاية الجزائر معززا بعشر سفن حربية ومزودا بقوات عسكرية مسلحة ، وكان تاريخ مجيئه هذا سنة ٩٦٩ﻫ (١٥٦٢م) وان اول عمل جدى قام به فى ولايته هذه هو ان غزا في ربيع السنة التالية قوات الاسبان الرابضة بوهران فشن عليها غاراته برا وبحرا وكاد ان يتم انتصاره عليها لولا ما لحقتها من النجدات ، فانهزم عندئذ حسن الى الجزائر منقطعا الى اتمام اصلاحاته وتنظيماته الادارية فاحدث اذ ذاك بالقطر الجزائرى اربعة بشالك – مقاطعات – : بايلك الجزائر المعبر عنها بدار السلطان وقاعدته العاصمة ؛ وبايلك تيطرى ومركزه بالمدية ؛ وبايلك الشرق وقاعدته

قسنطينة ؛ وبايلك الغرب بمازونة (١) ثم تحول مركز بايلك الغرب الى مدينة معسكر واخيرا الى وهران ، وجعل لكل ولاية من هذه المقاطعات الاربع من غير دار السلطان رئيسا يحمل لقب الباي ، واول من عرفناه من بايات هذا الدور هو باي الغرب بوخديجة بمازونة ٩٧٠هـ (١٥٦٣م)

ولقد حاول الفرنسيون بعد ذلك بسنتين (٩ صفر ٩٧٢هـ — ١٧ سبتمبر ١٥٦٤م) تنصيب سفيرهم بالجزائر فرفضت الحكومة ذلك ، واستمر البيلرباي حسن على خطته الهجومية ضد الاسبان في فترات متفرقة ، كما انه شارك بنفسه في هجوم الاتراك العثمانيين على مالطة سنة ٩٧٣ هـ (١٥٦٥م) ثم لم يلبث بعد ذلك ان استدعاه الباب العالي ليتولى منصب قيادة الاسطول العثماني باستانبول فانتقل الى منصبه الجديد هنالك سنة ٩٧٤هـ (١٥٦٧م)

□

ولاية محمد بن صالح رايس

اتصل البيلرباي محمد بن صالح رايس بالجزائر في ذي الحجة سنة ٩٧٤هـ [جوان ١٥٦٧ م] فصادف بها اوبئة ومجاعات رهيبة صحبها هيجان في الجند واضطراب في الشعب ، فاضطر الى صرف اغلب اوقاته في مواساة الضعفاء والمصابين وتسكين الفتن ، وما فتيء يعمل على ذلك اذ فاجأته ثورة عامل قسنطينة المتأثر بولاة تونس الحفصيين ، فعزله البيلرباي وقضى على الثورة هناك وولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق . وفي ربيع الاول ٩٧٥هـ « سبتمبر ١٥٦٧ م » هاجم الاسباني جان جاسكون مدينة الجزائر فرد عنها مهزوما .

ثم لم تطل ايام البيلرباي بعد ذلك بالجزائر اذ تعين نقله الى ولاية اخرى بانحاء الامبراطورية العثمانية فانتقل من عاصمة المغرب الاوسط في رمضان سنة ٩٧٥ هـ « مارس ١٥٦٨ » ولا يعلم من آثاره المعمارية بالجزائر سوى حصن باب الوادي غربي العاصمة .

---

[١] انظر خريطة الجزائر التركية ص ٢٨٩ من هذا الجزء

ولاية علج علي

ذكرته بعض المصادر هكذ «اولوج على» وكان يلقب بالفرطاس - الاقرع - واصله من اسرى نصارى «كالابر» الايطاليين بصقلية ، نشأ في احضان القرصنة التركية وسبق ان حاز فى حياته البحرية مراتب عسكرية خولته درجة الرئاسة فخلف درغوث باشا بطرابلس ، وتولى ولاية تلمسان فحارب بها الاسبان

ثم صدر الامر العالى بتوليته بيلرباى على الجزائر فنزل بها يوم ١٤ صفر ٩٧٦هـ (٨ اوط ١٥٦٨ م) ، واشتهر في ولايته هذه بالعزم في تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة الادبية وسجلت له انتصارات عديدة في البر والبحر ومن اشهرها انقاذ بعض المتخلفين من المسلمين بسواحل الاندلس وتحطيم موانى الاعداء هناك وانتصاره الباهر في وقعة «ليبانت» الشهيرة ٩٧٨ هـ (١٥٧١ م) التى منى فيها الاسطول العثمانى لاول مرة فى تاريخه بالانهزام بينما والى الجزائر علج على نجا بسفنه الاربعين واحرز على مغانم كثيرة كان من بينها اللواء الباباوى المقدس !... ولقد شارك بنفسه في انشاء الاسطول العثمانى وتكوينه من جديد بعد وقعة ليبانت المذكورة

وفى صدر امارته على الجزائر انتزع من الفرنسيين حق احتكار تجارة المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت ، واباح ذلك للانكليز ويومئذ ٩٧٧هـ (١٥٦٩ م) اعادت الدولة الفرنسية مفاوضتها مع حكومة الجزائر حول تنصيب القناصل وتنظيم سير الحركة التجارية

ومما يؤثر عن هذا الحاكم الجزائرى انه كان اول من فكر في فتح قناة السويس قبل وجود فيرديناند ليسبس بما يزيد على ثلاثة قرون

فتح تونس

انك على بصيرة مما آلت اليه الدولة الحفصية في اواخر ايامها ـ حسبما اسلفنا ـ من الانحلال السياسى وضعف قواتها الحربية ووهن اخلاق ولاتها وانتشار فتن الاعراب ونشوب الخلاف وافتراق الكلمة بسبب نزوع بعض امراء البيت الحفصى الى العرش وتنازعهم على ذلك واستنجاد بعضهم بالاجانب الخ..(١) فحاقت بهم يومئذ ضربات الاسبان حيث استحوذوا على بعض المدن الهامة والمراكز الاستراتيجية من القطر التونسى وبسطوا نفوذهم على مملكة بنى ابى حفص، وكان ظهور الاتراك يومئذ بهذا البحر واستيلاؤهم على بعض ثغوره ضربة قاسية على مطامع الاسبان والبرتغال المتجهة نحو سواحل المغرب الاسلامى، فاستولى اذاك خير الدين بارباروس على ثغر بنزرت ثم جرت هنالك وقائع بين الترك والاسبان في مختلف انحاء المملكة الحفصية ومنها هذه الحملة التى كانت على يد والي الجزائر علج على فى هذه السنة ٩٧٧هـ (١٥٦٩ م)

كان علج على يراقب احوال مملكة تونس حين وفد عليه احد وزرائها ابو الطيب الخضار محرضا على امتلاكها، فجهز الوالى الجزائرى جيشا وزحف به نحو تونس فلقيه اميرها ابو العباس احمد الحفصى بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الامير الحفصي وتقدم والى الجزائر بجموعه الى الحاضرة فامتلكها واخذ بيعة اهلها للسلطان سليم الثانى وقتل ابن الخضار ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا ثم انكفا راجعا الى مقره بعاصمة الجزائر.

وبعد سنة من هذه الوقعة دعى علج على الى القسطنطينية ليتولى بها رآسة القيادة العليا للاسطول العثمانى فغادر الجزائر وخلفه عليها موقتا قبطان باشا

(١) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء وخلاصه تاريخ تونس ص ١٣١-١٣٤

تعصب اوروبا المسيحية

انعقد الحلف الاروبى المسيحى الثالث عشر سرا بين قداسة البابابيوس الخامس وفيليب الثانى ملك الاسبان وجمهورية البندقية بتاريخ فاتح المحرم ٩٧٩ ه (٢٥ ماى ١٥٧١م) ، وبعد حين من تاريخ انعقاد هذه المؤامرة وتدبيرها تقرر اعلان الحرب الهجومية والدفاعية ايضامن طرف الحلفاء ضد تركية لاسترداد جميع الاماكن التى فتحها الاتراك ومن بينها الجزائر وتونس وطرابلس عملا بقاعدتهم التعصبية التى تنص على ان ما استأثر به الصليب واغتصبه من الهلال لا يرد؛ وان كل ماحازه الهلال او ضمه اليه منه تحتم عليه اعادته

وعن هذا الحلف المسيحى الاروبى نشأت وقعة معركة ليبانت الشهيرة بجنوب بلاد اليونان بتاريخ ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩ه (٧ اكتوبر ١٥٧١م) ولا يزال اهل ايطاليا الى اليوم يحتفلون بذكرى هذه الوقعة التى كانت سببا في درىء امتداد السلطة التركية عن بلادهم

مطامع فرانسا فى الجزائر

كانت وقعة ليبانت هذه فرصة مواتية لاظهار رغائب فرانسا نحو المغرب الاسلامى ، فانه بمجرد ما اشتهر انهزام الاسطول التركى فى وقعة ليبانت قدم ملك فرانسا «شارل التاسع» مشروعا الى الدولة العثمانية بواسطة السفير المفوض باستانبول الراهب «فرانصوا دونواى» يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على القطر الجزائرى وحماية الاسلام والمسلمين به وانها مستعدة فى مقابل ذلك لدفع المغرم او الجزية للباب العالى ؟ فاعرض عنه السلطان ولم يعره بالا ولكن رغم ذلك فان دولة فرانسا اوغلت فى طموحها والحت واكدت فى الحاحها وسلكت للتوصل لغرضها هذا مسالك ديبلوماسية غريبة ، واخيرا حصلت على الرخصة لها في نيل امتيازات خاصة وتصريح من السلطان باقامة محارس تجارية

بالقالة وغيرها من الساحل الجزائرى ، فاكتفت اوليا بذلك، على انها كانت اول خطوة استعمارية خطتها فرنسا نحو هذه البلاد المغربية قبل احتلالها السياسى بما يزيد على قرنين ونصف ، الامر الذى يدلنا دلالة واضحة على ان انفجار شرارة نار الحرب ضد الجزائر سنة ١٨٣٠م لم يكن هكذا فلتة عن مجرد حركة المنشة المصطنعة المزعومة !...

والحق اننا قد عرفنا اتجاه همة فرانسا الى اخضاء المغرب الاسلامى منذ ايام الصليبيات وحملة الملك لويس التاسع عشر على تونس التى انتهت هنالك بموته وهزيمة جيشه سنه ٦٦٩هـ ـ ١٢٧٠م .

□

ولاية احمد عراب

تولى الحكم بالجزائر فى شهر ذى الحجة ٩٧٩هـ (افريل ١٥٧٢م) واشتهر في مدة ولايته كلها بالاجتهاد فى نشر الامن وتطمين السابلة وتنظيم الادارة ، ومن اشهر مواقفه قضاؤه على ثورة اهالي قسنطينة ومشاركته في الدفاع عن تونس ومناصرة اميرها العلج على ضد الاسبان في جمادى الثانية ٩٨١هـ (سبتمبر ١٥٧٤م) ويومئذ نزح الاسبان عن تونس وانجلوا عنها نهائيا وتمحض الحكم بها للاتراك

وفى نفس التاريخ استولى بعض القرصان الجزائريين على سفن فرنسية كانت تتجول بمياه الجزائر ، فاحتجت دولة فرانسا على هذا الصنيع لدى الباب العالي ، وذلك بناء على ماكان امضاه السلطان من المعاهدة التى تنص على عدم المباغتات البحرية ، وجاء حينئذ امر الباب العالي الى الجزائر برد ما استحوذ عليه القرصان من المراكب الفرنسية وحاول احمد عراب استخلاص السفن من يد القرصان فلم ينجح ، ثم عزل من ولايته .

ولاية القائد رمضان

ولى رئاسة حكومة الجزائر سنة ٩٨١هـ - ١٥٧٤م ، ولم يكن لتاريخ ايامه بالجزائر شأن كبير يذكر به سوى مشاركته فى تأييد العاج علي لعبد الملك بن الشيخ واخيه احمد الاميرين السعديين على انتزاع الملك من اخيهما الغالب بالله ، فغزا الاتراك فاسا سنة ٩٨٣هـ - ١٥٧٥ م وحققوا لعبد الملك منيته ثم عادوا من مراكش بمبلغ عظيم من الهدايا المغدقة عليهم .

وفى اواخر ايام حكومة القائد رمضان بعث الفرانسيون بقنصلهم الى الجزائر فرده البيلرباى ورفض قبوله ما لم يؤد إتاوة ، ولم يتمكن السفير الفرنسى من النزول بالعاصمة الا بعد ان جاء الالزام الحتمى من طرف الباب العالي ؛ ثم لم تطل ايام الوالي هذا فنقل من الجزائر الى ولاية تونس سنة ٩٨٥ هـ - ١٥٧٧م .

□

ولاية حسن فنزيانو

جلس على سرير الحكم بالجزائر في شهر ربيع الثاني سنة ٩٨٥هـ (جوان ١٥٧٧م) واصله من ايطاليا ؛ نشأ محترفا مهنة الكتابة بمدينة البندقية Venise ولذلك دعى بفنزيانو ، اسره درغوث باشا فباعه لعلج على ؛ وأسلم وكان ينسب اليه فيقال له ابن القبطان علي .

اشتهر حسن بشدة الشكيمة والنشاط والحزم ومضاء العزيمة ، هاجم الاسبان فى عقر دارهم مرارا فاقلق راحتهم فى عدة مرات ؛ ومن بينها حركته الهجومية ضدهم سنة ٩٨٦ هـ - ١٥٧٨ م . وكانت له عناية واجتهاد في تحصين مدينة الجزائر على الخصوص بجعلها في مناعة ووقاية من هجمات العدو ، وفى هذه السنة انضمت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية ، وصار شمال افريقية باجمعه تابعا لها تماما او خاضعا لنفوذها على الاقل .

والامير فنزيانو هذا هو اول من عقد معاهدة تجارية بين دولة الجزائر وانكلتيرا، وذلك سنة ٩٨٧هـ - ١٥٧٩م، وبعد ان قضى نحو مدة ثلاث سنوات من ولايته بالجزائر دعي الى استانبول فسافر اليها سنة ٩٨٨هـ - ١٥٨٠م .

□

ولاية جعفر باشا

يقال ان اصله من اسرى المجر، وانه بعدان ظهرت كفاءته ومقدرته الحربية للباب العالي ولته الحكومة العثمانية باداراتها فباشر هنالك بالمشرق عدة وظائف ومناصب عسكرية واخيرا عينته السلطة العليا باستانبول حاكما عاما بالجزائر فى رجب سنة ٩٨٨ هـ (اوط ١٥٨٠م)

وان ابرز عمل قام به هذا الوالي الجديد فى ولايته الجديدة ، هو صرف عنايته وبذل مجهوداته في ادخال بعض الاصلاحات والتحسينات فى الادارة العسكرية بالجزائر ، ومنها انشاؤه لقلعة الكيفان الموجودة بناحية حصن الماء *Fort de l'Eau* شرقي العاصمة ، اسسها سنة (٩٨٩هـ -١٥٨١م) وفى هذه السنة اتصلت العلائق بين السلطان مراد الثالث وبين حكومة فرانسا .

ويذكر مؤرخوا الافرنج ان فى صدر ولاية هذا الباشا كان تعيين اول قنصل فرنسى بالجزائر ، وهو م. بيونو : كما ان الفضل فى توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الاسلامى وضمه الى الامبراطورية العثمانية يرجع الى هذا الوالي نفسه مع رفيقه في العمل علج علي .

وبينما الرجلان يعملان بمراكش على تحقيق خطة هذه الوحدة السياسية اذ فوجئا بأمر الباب العالي يامرهما بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال الى الحجاز لاخماد ثورة نشأت هناك ، فتخلياعن عملهما هذا سنة ٩٩٠هـ١٥٨٢م(١)

(١) في اليوم الخامس من شهر اكتوبر من هذه السنة الميلادية ١٥٨٢م كان ابتداء تطبيق الحساب بالتقويم الغريغوري المعتبر اليوم فى ضبط التاريخ المسيحى وهو المتعارف عند الفلكيين بالزيج الجديد والجارى به العمل عند اغلب الامم وفى معظم بلدان العالم الان

وذهبا الى المشرق

وبومئذ تولى قيادة الجزائر للمرة الثانية القائد رمضان فحاول من اول مرة الزام قرصان الجزائر برد المركبين الفرنسيين الذين استولى القرصان عليهما منذ سنة ٩٨١هـ ١٥٧٣م فلم ينجح في ذلك بل احدث صنيعه هذا ضجة وثورة عنيفة ضده فاضطر الى التخلي عن منصبه وذهب الى طرابلس حيث اغتيل هناك وتولى مكانه فى هذه الفترة بالجزائر مامى الارناؤوط مؤسر المركب الذى كان يحمل الكاتب الاسبانى الكبير ميكال سيرفانطيس في سنة (٩٨٨هـ ١٥٨٠م)

ولاية حسن فنزبانو (ثانيا)

ثم بعد انتقال القائد رمضان الى طرابلس اتخذ القوم المسمى يونس ريثما حضر من غزواته البحرية الرئيس حسن فنزيانو الذى بادر الى عودته للجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى واضطراب الجند لحادثة المركبين الفرنسيين فنصب نفسه على عرش الجزائر للمرة الثانية وفرض طاعته على الرعية وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٩٩١هـ (افريل ١٥٨٣ م) ولم يعارض الباب العالى فى توليته هذه ذلك لما كان له من الفضل في حسم الخلاف واطفاء لهيب نار الفتن واستتباب الامن بالجزائر

ولقد باشر الوالى دفة تسيير الادارة الجزائرية هذه المرة بما عهد منه من النشاط والحزم ، فانه لم يترك قط قيادة الاسطول الجزائرى لغيره ولم يكن ليثق في المهمات بغيره ابدا، وكثرت في ايامه المغانم بما كانت تجلبه السفن والمراكب الجزائرية من سواحل اسبانيا والجزر الشرقية وصقلية وسردانية من النفائس وبما كان يستولى عليه هو بنفسه من الاسرى وخيرات البلاد فى غزواته وزحوفه على الاعداء

ومن اشهر غاراته واهمها حملته العنيفة على ثغر بلنسية (٩٩٢هـ ١٥٨٤م) حيث ابحر باسطوله الى هنالك وحمل من الموريسكيين (١) الفي وثلاثمائة نسمة جاء بها الى الجزائر فانقذها من اضطهاد الاسبان وفي السنة التالية استطاعت سفنه المغيرة ايضا ان تحمل الى الجزائر جميع سكان كالوسا. ولقد بلغت غارات المسلمين البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية ما بين سنتي ٩٣٣ و٩٩٢ هـ (١٥٢٨-١٥٨٤م) ثلاثا وثلاثين غزوة ما عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من العرب المتنصرين المهاجرين.

وبقي حسن فنزيانو على راس الحكومة الجزائرية الى ان استدعاه السلطان الى استانبول ليتولى منصب امارة البحر في مكان علج على المتوفى سنة ٩٩٥هـ (١٥٨٧م) عن ثمانين سنة ؛ فانتقل الحاكم فنزيانو الى استانبول في شعبان سنة ٩٩٣ هـ «اوط ١٥٨٥م» وترك من آثاره بالعاصمة حصن باب عزون انشأه حوالى سنة ٩٨٩-٩٩٣ هـ «١٥٨١-١٥٨٤م» وتولى مكانه موقتا محمد مامى عتيق المعروف بقارج علي، وبانتقال حسن فنزيانو انتهى دور حكومة البيلربای وهو الدور الثاني من عصر الاتراك بالجزائر.

(١) اصلها Moriscos وهي تصغير لكلمة Moors الاسبانية ومعناها المسلمون او العرب الاصاغر المتنصرون رمزا الى ما انتهت اليه الامة الاندلسية من السقوط والانحلال. انظر نهاية الاندلس لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة ١٩٤٩ م

بيلموبايات الجزائر

		تاريخ التولية
حسن باشا بن خير الدين	بيلرباى	٩٥٠هـ — ١٥٤٤م
حسن آغا ـ موقتا ـ	»	٩٥٨هـ — ١٥٥١م
صالح رايس	»	٩٥٩هـ — ١٥٥٢م
حسن قورصو	»	٩٦٣هـ — ١٥٥٦م
حسن باشا بن خير الدين (ثانيا)	»	٩٦٤هـ — ١٥٥٧م
احمد باشا بستانجى	»	٩٦٩هـ — ١٥٦٢م
القائد يحيى ـ موقتا ـ	»	» »
حسن باشا بن خير الدين (ثالثا)	بيلرباى	» »
محمد بن صالح رايس	»	٩٧٤هـ — ١٥٦٧م
علج علي	»	٩٧٦هـ — ١٥٦٨م
احمد عراب	»	٩٧٩هـ — ١٥٧٢م
القائد رمضان	»	٩٨١هـ — ١٥٧٤م
حسن فنزيانو	»	٩٨٥هـ — ١٥٧٧م
جعفر باشا	»	٩٨٨هـ — ١٥٨٠م
القائد رمضان ـ موقتا ـ	»	٩٩٠هـ — ١٥٨٢م
مامي الارناؤوط	»	» »
حسن فنزيانو (ثانيا)	»	٩٩١هـ — ١٥٨٣م
محمد مامي عتيق ـ موقتا ـ	»	٩٩٣هـ — ١٥٨٥م

سلاطين آل عثمان

	تاريخ التولية
السلطان الغازى سليمان خان	٩٢٦هـ - ١٥٢٠م
السلطان الغازى سليم خان ـ الثانى ـ	٩٧٤هـ - ١٥٦٦م
السلطان الغازى مراد خان ـ الثالث ـ	٩٨٢هـ - ١٥٧٤م

مشاهير الجزائريين

عمر بن الكماد

٩٦٠ هـ - ١٥٥٣ م

هو العالم المحقق الشيخ ابو حفص عمر بن محمد الكماد الانصارى القسنطيني المعروف بالوزان اشتهر رحمه الله بتحرير المسائل والتحقيق في دروسه عند الالقاء وكان جامعا مشاركا في العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ذكره صاحب نيل الابتهاج نقلا عن فهرست المنجور فاثنى عليه وقال : انه كان من عباد الله الصالحين ، رحل اليه الشيخ ابو زكرياء يحيى بن عمر الزواوى وسمعه يقرر الفقه بنقل اللخمى وغيره ويقرىء الفنون فكان اذا ذكره يعجب به ويعجب ويرجحه على كل علماء عصره وسأله عن مسائل كثيرة في الفقه والكلام فاجابه الشيخ عنها بتأليف خاص

وكان فيمن اخذ عنه جماعة منها اليسيتنى، وعبد الكريم الفكون، وابو الطيب البسكرى ويحيى بن سليمان ،

ولقدعرض عليه حاكم الجزائر حسن آغا خطة القضاء فاعتذر اليه برسالة طويلة فأعفاه.

وله من المؤلفات كتاب «البضاعة المزجاة» كتبه على اسلوب طوالع البيضاوي ومواقف العضد. وهو فى غاية التحقيق والايضاح، وله تعليق على قول خليل «وخصصت نية الحالف» وشرح لصغرى السنوسى وتأليف في الرد على المرابط عرفة القيراوني وصحبه

قال في نيل الابتهاج : واخبرني بعض اصحابنا ان وفاته رحمه الله كانت سنة ٩٦٠هـ «١٥٥٣م» ، وذكر غيره ان وفاة ابن الكماد كانت يوم ٢١ شعبان ٩٦٥هـ ٨ جوان ١٥٥٨ م ودفن بمدرسة صهره الشيخ ابن افوناس على يمين الذاهب الى باب الوادى من مدينة قسنطينة، ولا وجود اليوم لهذه المدرسة حيث حطمت بعد الاحتلال

محمد الخروبي

٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م

هو الامام المتضلع ابو عبدالله محمد بن علي الخروبي صدر علماء الجزائر في الدور الثاني من العهد التركي ، اصله من طرابلس الغرب كان رحمه الله متمكنا من علوم الشريعة والتصوف متبحرا في معرفة احوال الدول والممالك ذا دراية واسعة بسياسة الملوك وخبرة تامة بشؤون الحكومات عالما اديبا بليغ القلم واللسان خطيبا مصقعا ، شجاعا هماما شديد النكير على اهل البدع والضلالات لا تأخذه في الله لومة لائم ، ذا جاه ووجاهة عظيمة عند الملوك والسلاطين

اوفدته حكومة الجزائر مرتين الى المغرب الاقصى لتسوية قضية الحدود السياسية بين المملكتين الاولى سنة ٩٥٩هـ والثانية سنة ٩٦١هـ «١٥٥٢-١٥٥٤م» فاقتبلته حكومة مراكش بما يليق بجلال فضله واكرمت وفادته وجرت له هنالك مع علماء المغرب مساجلات ومناظرات واستجازه بعضهم فأجازه بسنده .... وكان رحمه الله ذا ولوع خاص بجمع الكتب النفيسة حتى اصبحت مكتبته العامرة مضرب الامثال بين العلماء وله من التآليف تفسير القرآن الكريم وشرح الحكم العطائية ورسالة في الرد على ابن عمر القسطلي وغير ذلك توفي بعاصمة الجزائر سنة ٩٦٣هـ «١٥٥٦م» ودفن خارج سور المدينة وقبره الآن مجهول.

على بن يحيى الجاديري

٩٧٢هـ — ١٥٦٥م

هو العلامة الفقيه الخطيب ابو الحسن على بن يحيى السلكسينى الجاديرى التلمسانى كان رحمه الله اماما محققا ذا دراية فائقة في علوم الحساب والفرائض وعلم الكلام والفقه وفن الرسم وضبط القرآن وتفسيره : اخذ عن جماعة منهم الشيخ احمد بن ملوكة الندرومى وشقرون بن ابى جمعة ومحمد بن موسى الوجديجى والشيخ عيسى الخ....

كان رحمه الله متبتلا خاشعا يضل نهاره صائما منقطعا لنشر العلم وتدريسه بجامع اجادير فى تلمسان حيث كان اماما خطيبا به فكان لا يفتر عن الدرس ابدا فهو فى الصباح يقرىء في المسجد المذكور الى الضحى الاعلى ثم يخرج من المسجد راكبا دابته الى حقله بوادى الصفصيف فيرافقونه الطلبة الى الحقل وهم فى طريقهم ذلك يستفيدون منه ما يمليه عليهم من مسائل العلم والحكمة ثم اذا وصل الى الحقل نزل عن دابته وافرغ السرجين بنفسه ونزع البرذعة عن دابته ويربطها بيده ولا يترك ذلك لاحد ابدا ثم ياخذ الفاس ويباشر اعمال الفلاحة والزراعة وهو مع ذلك مشتغل بتقرير مسائل العلم للطلبة وشرح ما يقرأه عليه القارىء من المتون وهكذا دأبه دائما وابدا فاذا عاد من حقله فكذلك يصنع وهو يمشى معهم راكبا او راجلا قائما او قاعدا فلا يفتر عن الدرس اصلا واذا حضر وقت الصلاة قام الى الاذان وفي طريقه اليه يذهب معه القارىء ويطلع معه في الصومعه فيقرئه فى طريقه ذهابا وايابا ويؤذن الشيخ بنفسه ليخرج من الخلاف في اجرة الامام

تخرج عنه جماعه منهم ولده عاشور، ومحمد الادغم، واحمد ابركان الزكوطى وعلى العطافى، واحمد بن الحاج البيدرى؛ واحمد اعراب بن سهلة الراشدى،

ومحمد بن العباس العبادى، وموسى بن ابى عمران، ومحمد بن جوهرة الوجدى وسعيد المقرى ، وعبد الرحمن بن موسى ، فى آخرين.

توفى رحمه الله في اليوم الثانى والعشرين من شهر رجب سنة ٩٧٢هـ (٢٣ فيفرى ١٥٦٥م)

مصطفى باش تارزى

٩٨٠هـ — ١٥٧٢ م

هو العالم الفقيه الشيخ مصطفى بن العارف بالله سيدى عبد الرحمن باش تارزى القسنطينى ، كان رحمه الله اعجوبة زمانه فى الفقه والحفظ والورع والتدين وحيدا في معرفة الفلك شاعرا مجيدا ولى فتوى الحنفية بقسنطينة ثم القضاء ثم الخطابة بجامع سوق الغزل ثم بجامع القصبة ثم بسيدى الكتانى له تآليف نفيسه منها تحرير المقال في جواز الانتقال ورسالة في وقف الحنفية. وشرح منظومة الشيخ عبد الرحمن في الحساب مقتصرا فيها على العمل دون تعرض لشرح كلام المتن، توفى رحمه الله سنة ٩٨٠هـ [١٥٧٢م] ترجم له بلديه الشيخ عبد الكريم الفكون في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعي العلم والولاية وخلاصة ترجمته هو ما قدمناه .

جدول تاريخي

٩٥٠ – ٩٩٥ هـ

١٥٤٤ – ١٥٨٧ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٩٥٠هـ ١٥٤٤م	ولاية حسن باشا بن خير الدين بيلرباى على الجزائر
٩٥٢هـ ١٥٤٥م	غزو تلمسان والقضاء على السلطان مولاى احمد وحاميته من الاسبان
٩٥٥هـ ١٥٤٨م	احداث بايلك ـ مقاطعة ـ تيطرى وتولية اول البايات بها
٩٥٧هـ ١٥٥٠م	استيلاء دولة السعديين على تلمسان واحوازها ؛ وانشاء مدينة القليعة بالساحل الجزائرى ـ غربا ـ
٩٦١هـ ١٥٥٤م	غزو الاتراك لمدينة فاس وتولية ابى حسون الوطاسى عليها والحاق تلمسان بالجزائر
٩٦٢هـ ١٥٥٥م	تمكن الاتراك من الاستيلاء على اهم مدن عمالة قسنطينة وبجاية
٩٦٣هـ ١٥٥٦م	استيلاء الدولة السعدية على تلمسان ثانيا وانتشار الوباء بالجزائر
٩٦٤هـ ١٥٥٧م	انتصار حسن بن خير الدين على السعديين وايقاعه بالاسبان فى وقعة مازغران
٩٦٦هـ ١٥٥٩م	غزو حسن باشا لنواحى قلعة بنى عباس والمسيلة
٩٦٨هـ ١٥٦١م	تملك احمد امقران على نواحى جبل كوكو من بلاد القبائل
٩٦٨هـ ١٥٦١م	ظهور شركة لانش Lenche الفرنسية لتأسيس مراكز صيد المرجان بالسواحل الجزائرية
٩٦٩هـ ١٥٦٢م	تقسيم القطر الجزائرى الى اربع مقاطعات
٩٧٥هـ ١٥٦٧م	انهزام جان جاسكون الاسباني عن مدينة الجزائر وخيبته

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٩٧٦هـ ١٥٦٨م	مزاحمة الانكليز لشركة صيد المرجان الفرنسية بالساحل الجزائري
٩٧٧هـ ١٥٦٩م	مفاوضة فرانسا للحكومة الجزائرية حول فتح قنصلية لها بالجزائر وامتلاك تونس
٩٨٣هـ ١٥٧٥م	سير الحامية التركية الى حماية عبد الملك بن الشيخ بفاس
٩٨٦هـ ١٥٧٨م	انضمام مملكة مراكش الى الامبراطورية العثمانية
٩٨٧هـ ١٥٧٩م	اول تعاقد تجارى وقع بين حكومة الجزائر والانكليز
٩٨٨هـ ١٥٨٠م	تعيين اول قنصل فرانسى بالجزائر
٩٩٢هـ ١٥٨٤م	مجيء الجالية الاندلسية المهاجرة من بلنسية و دالوسا الى الجزائر

«ج»　　عصر الباشاوات

٩٩٥ – ١٠٦٩ هـ

١٥٨٧ – ١٦٥٦ م

وقع في هذه السنة تغيير فى سياسة الدولة العثمانية نحو ولاة الجزائر فاقتضى لذلك حذف لقب البيلرباى الذى كان يحمله حاكم الجزائر وصار يلقب بالباشا (١) وحددت مدة ولايته بثلاث سنوات وشاركه فى نفوذه الوجاق ، او قوة الجيش مع الديوان، وكان اول باشاوات الجزائر دالى احمد باشا

ولاية دالى احمد باشا

تولى سنة ٩٩٥هـ – ١٥٨٧م ولا نكاد نعلم عن تاريخ ايام حكمه شيئا سوى انه ذهب على رأس بعثة عسكرية الى طرابلس الغرب لاخضاع شوكة الثائرين هناك فكان فيها حتفه وذلك بعد سنتين من ولايته ٩٩٨هـ – ١٥٨٩م

□

ولاية خضر باشا

استلم منصب باشا الجزائر فى شهر شوال ٩٩٧هـ اوط ١٥٨٩م ، وكان من كبار رجال القرصنة الجزائرية؛ نشاطا في سائر حركاته وغزواته البحرية عاملا على تنشيط غيره فى ذلك، ولم يؤثر عنه – فيما علمناه – كبير عمل في ولايته هذه المرة سوى غزوه لاعمال مجانة الخاضعة لاحمد امقران فقضى على الثائرين هناك واحتل المدينة سنة ٩٩٨هـ – ١٥٩٠م ثم اندفع بامر السلطان العثمانى لغزو اسطول مرسيليا المتمرد على ملك فرانسا حليف تركية اذ ذاك

(١) اصل هذه الكلمة جزء من باش آغا ومعناها رئيس الرؤساء ويطلق على ارباب الاقلام والسيف فى مراتب معينة من نظام الجندية ثم توسعوا فيه بعد ذلك وصار يمنح كلقب شرفى للمدنيين

وفى نفس السنة هـذه تحركت زوبعة بحرية هوجاء فتحطم لهبوبها اسطول الجزائر الراسى بثغر العاصمة ؛

واحيط الباشا بتهم سياسية لاندرى مكانها من الصحة فقضت على سمعته لدى الباب العالى فاستدعاه السلطان الى استانبول فحمل اليها مكبلا في الاغلال سنة ٩٩٩هـ — ١٥٩١م

□

ولاية الحاج شعبان باشا

هو شعبان بن يحيى تأمر على الجزائر في ذى القعدة سنة ٩٩٩هـ — اوط ١٥٩١م، وفى ايامه اشتد لهيب الثورة ببلاد زواوة فانتشر اوارها غربا وجنوبا الى ان كاد يتصل بقاعدة ولاية تيطرى، واجتهد الباشا في اخمادها فلم يحصل على طائل،

وفى ايامه تعين القنصل الفرنسى دوفياس بالعاصمة ثم جاء دور الانكليزى بعده

□

ولاية مصطفى باشا

هو مصطفى بن قية باشا تولى الحكم بالجزائر في شهر ربيع الاول سنة ١٠٠٣هـ — نوفمبر ١٥٩٤م حاول اطفاء هيجان الثورة القبائلية التى نشبت على عهد سلفه شعبان باشا فلم ينجح بل انتشر لهيبها واندلع لسانها الى متيجة غربا وما وسعه في ذلك سوى اقامة حصن بسور الغزلان(١) لمقاومة من هنالك من العصاة وقمع الحركة الثورية بتلك النواحي ويومئذ دعى الى استانبول فغادر الجزائر ثم اعيد اليها فحكم بها ثلاثة اشهر ثم تخلى عنها

[١] اصل الكلمة هذه لاتينية وينطق بها هكذا «اورزا» ثم حرفت الى ما هى عليه الآن

ولاية خضر باشا (ثانيا)

تولى على رأس الحكومة الجزائرية للمرة الثانية في ذي الحجة سنة ١٠٠٣ ﻫ اوط ١٥٩٥م وكانت ايامه كلها فتن وثرات وكثر حوله الاضداد والخصوم ؛ فجمع اليه الباشا الكراغلة والاعراب ويومئذ نشأ التنافس بين هؤلاء والاتراك واشتد هيجان الشعب واضطرابه وتصدى الباشا لمقاومة المنشقين والمتمردين وكثر الشغب فعزل الباشا خضر من سنته وجيء بسالفه مصطفى فمكث اياما قليلة ثم انعزل

ولاية دالى حسن باشا

تولى باشوية الجزائر سنة ١٠٠٧ﻫ – ١٥٩٩م وكان يكنى ابا ريشة وذكر بعضهم ان المتولى يومئذ على عرش الجزائر هو مصطفى جاقرجى باشى ثم جاء بعده ابو رشيد ؟... والصحيح هو ما ذكرناه بدليل ما اورده صاحب البستان فى ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن موسى التلمسانى المتوفى سنة ١٠١١ﻫ حيث قال : وهذه الابيات الآتية نظمها – المترجم – عند هدم الباشا حسن حصن المرسى الاعلى – بوهران – وهروب النصارى دمرهم الله للحصن الاسفل وهى هذه :

هنيئا لك باشا الجزائر والغرب — بفتح اساس الكفر مرسى قرى الكلب
ستفتح وهرانا ومرساتها التي — اضرت بذا الاقليم طرا بلا ريب
فثق بالاله واستعن به واصبرن — ينلك المراد يا اميري ومطلبى
وقد وعد الرحمن جل جلاله — مع العسر يسر قد اتى ذاك في الكتب

وبعد ان اتى على القصيدة برمتها قال : وكان دخول المسلمين هذا الحصن ليلة السبت خمسة عشر من رمضان عام ١٠٠٧ﻫ (١٣ افريل ١٥٩٩م) وذلك هو نفس تاريخ ولاية دالى حسن باشا على الجزائر

طموح الغرب نحو المغرب العربي

جاء في مشروع م لوتسيو الايطالي الذي حرره او قرره على راس القرن السادس عشر الميلادي ان ملك الاسبان يمكنه ان يصلى الحرب في افريقية ويطرد الترك منها ، وله الحق في الاستيلاء عليها ، وانه يجب على البابا ان يجهز الاساطيل لمحاربة الترك في البحر . ولا ادري والله من اين اكتسب الكاتب هذه السطوة او السلطة التي اوحت اليه باصدار امره الى الملوك والباباوات بالغزو وشن الغارات والحروب ضد المسلمين ؟ ولا كيف اعطى لهم الحق في ذلك ؟... اللهم الا ان يقال ان ذلك عن تعصب وحمية فيحتمل !....

□

ولاية سليمان باشا

هو سليمان بن قاطانيا ويعرف بالعلج ، تولى على الجزائر سنة ١٠٠٩هـ ١٦٠١م واظهر الاحداث في دولته هو ذلك الانقلاب العسكري الناشىء عن طغيان جيش الانكشارية ومحاولتهم الاستبداد بتعيين رئيس الحكومة الجزائرية من بينهم فاصبحت عندئذ سطوة السلطان العثماني ضئيلة جدا بهذه الديار ، وذلك ما يشبه عصر الفوضى في التاريخ الروماني (١٩٢ ـ ٢٧٠م) حيث تدخل الجند في اسناد الامبراطورية الرومانية لمن وافق هواه ؛ والتاريخ يعيد نفسه.

ومما كان في ايام هذا الباشا اخفاق الاسبان في حملتهم على الجزائر (١٠٠٩هـ ١٦٠١م)وهم في سبعين سفينة وعشرة آلاف جندى. أوما وقع كذلك من تكرار المحاربة بين احمد امقران سيد مجانة وجيوش الباشا بنواحي حمزة والساحل الجزائري وفيها كانت وفاة احمد امقران بجمعة الصهريج من بلاد زواوة فخلفه ولده ناصر

ولقد حدث خلال السنتين التاليين من تاريخ ولاية الباشا سليمان زلازل وطواعين اعقبها جفاف ومسغبة شديدة وابلغ ماكان ذلك في اعمال قسنطينة

ولاية خضر باشا (ثالثا)

عاد الخضر لمنصبه هذا بالجزائر للمرة الثالثة سنة ١٠١١هـ ـ ١٦٠٣م ويؤرخه الافرنج بشهر ماى عام ١٦٠٤م واستعمل الشدة والقسوة فى معاملته للرعية ، وكانت بينه وبين الحكومة الفرانسية عداوة منشأها تخلف فرانسا عن دفع ماترتب بذمتها من الاتاوة والواجبات في مقابلة مراكزها التجارية بالسواحل الجزائرية وما ارتكبته كذلك من المخالفة لنصوص المعاهدة السابقة الذكر، فاظلم الجو بينهما وحدثت عن ذلك مشاكل واحداث سياسية فعمد الباشا الى تحطيم المركز الفرنسى بالقالة والقاء القبض على القنصل الفرنسى المتصرف هناك ولم يكن ليسمح الباشا بالعفو عنه الا بعد قبضه لضمان مالى جسيم.

ويومئذ سعت فرانسا في اخذ تعويضات عن ذلك من طرف الباب العالى باستانبول، واتصل الباشا بالمبلغ فصرفه الى القرصنة، فعزله السلطان من سنته وبعث مكانه محمد قوصة ـ اوكوسة ـ باشا

□

ولاية محمد قوصة باشا

كانت ولايته سنة ١٠١١هـ ـ ١٦٠٣م واول ما قام به من الاعمال هو ان قبض على سلفه الباشا خضر فقتله خنقا (١) وصادرجميع امواله وممتلكاته وابرم مع الحكومة الفرنسية معاهدة يتلخص مضمونها في هذه البنود الاربعة :

البند الاول : تأمين المراكب الفرنسية من القراصنة الجزائريين في كامل البحر الابيض المتوسط

البند الثانى : تحمل الحكومة الجزائرية لضمان ما عسى ان يقع لهذه المراكب من العطب والخسائر من قبل القراصنة

«١» لايزال قبره ظاهرا معروفا بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبى بالعاصمه

البند الثالث : عتق جميع الاسرى الفرنسيين

البند الرابع : اقامة مركز القالة واعادته من جديد

ولأن هذه المعاهدة لم يرض عنها الديوان فاحدث لذلك ضجة في الاوساط الجزائرية المسؤولة وامتنع اعضاء الحكومة وابرز الشخصيات الحاكمة من المصادقة عليها وهدد الباشا بالقتل وبلغ ذلك آذان السلطان بالاستانة فأوفد من طرفه مأذونا لحماية الباشا وتجيز المعاهدة فاصر الديوان على الرفض ولم يلبث الباشا ان توفى

ولم يبلغنا عن تاريخ هذا الباشا بالجزائر سوى ما قدمناه او ماكان من رده لغارة الاسبان عن مدينة زفون بالساحل

□

ولاية قوصة مصطفى القابجي

تولى باشوية الجزائر في شهر ذي الحجة سنة ١٠١٣ هـ ـ افريل ١٦٠٥م وسعى بكل مجهوداته في تطبيق نص المعاهدة السالفة الذكر فعارضه الديوان بسبب ماظهر على حكومة فرانسا يومئذ من التهاون بالشروط التي هي في مصالح الجزائر واخيرا رضخ الديوان لراى الباشا الجديد امتثالا لامر السلطان وقبل تنفيذ المعاهدة وتطبيقها على ان يكون الاعتراف بها ودخولها في حيز التنفيذ بعد ان لايبقى من اسرى المسلمين الذين هم بمرسيليا تحت تصرف الفرنسيين احد فكان ما اراد

وحدث في السنة التالية من ولاية القابجي هذا (١٠١٤هـ ١٦٠٦م) (١)

«١» ان من اعظم احداث هذا العصر وارهاصاته المتقدمة بين يدى تقهقر آل عثمان ان انعقدت في هذه السنة بين الدولة العثمانية والنمسا معاهدة توروك «Sitvolorok» فنزلت تركية بحسبها عن قبض الجزيه او الاتاوة السنويه التى كانت تدفعها لها النمسا ، وهى ثلاثون الف دوكه واكتفت بقبض مائتى الف ريال غرامه حربيه .... وكان من خصائص هذه المعاهدة ان الدول المسيحيه امكنها ان تناقش الدوله العثمانيه في كيفيه تحرير الصكوك والمعاهدات وقبل ذلك كانت الدوله تملى مثل هذه المعاهدات باللغه التركيه وتبلغها اعداءها وكان عليهم ان لايرجعوا فيها

ان حارب الاسبان اهالي عمالةوهران فاستنجد هؤلاء بباشا الجزائر فانجدهم بالحامية فاخفقت وضاع من الجيش نحو الثلاثة ارباع، ولكن الباشا نجح في اخضاع من هناك من الثوار، ويذكران عاقبته كانت في السجن بسبب تصلبه في تنجيز المعاهدة مع فرانسا؛ وفي السنة هذه ظهر الوباء بالعاصمة

□

ولاية رضوان باشا

كنيته ابو نعيم رضوان بن عبد الله وهو من مماليك رمضان باشا، تقلد منصبه هذا بالجزائر في شهر صفر سنة ١٠١٦هـ - ماي ١٦٠٧م

واشهر الاحداث في ايامه غزوة الطوسكان (١) وحملتهم على مدينة بونة انتقاما لما قام به الاتراك من قبل في ليفورنيا فنزلوا بميناء عنابة فنهبوها وسلبوا ارزاقها واحتلوا المدينة ايضا فغنموا مابها من مغانم كثيرة ثم ادبروا عنها، وفي هذه الوقعة كان استشهاد والى قسنطينة محمد بن فرحات الذى جاء منجدا

كما انه حدث في ايام هذا الباشا وحشة بين الحكومة الجزائرية وفرانسا بسبب مدفعين من الفولاذ كانا تحت القرصان الفلمنكي المدعو سيمون دانزير يعمل بهما لفائدة الجزائر ففر بهما يوما الى فرانسا وقدمهما امامه هدية لاحد كبار ولاة فرانسا وهو الدوك دوكيز، فغضب لذلك ديوان الجزائر ورفع قضيته الى حكام فرانسا مطالبا باسترجاع المدفعين المذكورين، فأهملت القضية ورفض النصارى الاصغاء الى هذه الدعوى ويومئذ اعلنت حكومة الجزائر قطع العلائق بينها وبين فرانسا والغت معاهدة احترام مراكبها في البحار وشرعت حينئذ في شن غاراتها ضد السواحل الفرانسية فظفرت منها بغنائم اربت على نحو مليون ليرة

وثأرت فرانسا من الجزائر بتنظيم غزاة شنتها على ميناء مدينة برشك - بين شرشال وتنس - فحطمتها ثم ذهبت شرقا الى شواطى جيجل وهنالك

«١» امارة بوسط بلاد ايطاليا

قذفتها المدافع الجزائرية بقنابيلها فانسحبت الحملة الفرنسية الى ليفورنيا

□

ولاية قوصة مصطفى « ثانيا »

عاد هذا الباشا الى منصبه للمرة الثانية بظهير من الدولة العالية مؤرخ في جمادى الثانية سنة ١٠١٩هـ - اوط ١٦١٠م، وفي ايامه هذه اشتهرت البحرية الجزائرية بشدة الشكيمة وقوة البأس، فجاء يومئذ الانكليز ومعهم الهولانديون والاسبان فغزا الجميع تونس ثم عرجوا على السواحل الجزائرية فدمروا منها نواحي جيجل وخربوها

ثم بعد سنة من ولاية هذا الباشا ظهر الوباء بالجزائر ففتك بعدد وافر من الانفس، وفيها كان تأسيس المسجد الجامع بمدينة القليعة الساحلية (١٠٢٠هـ ١٦١١م) ثم اننا لا نعلم بعد هذا من مهام حوادث هذا الباشا سوى وقوفه في وجه ثوار زواوة فأخضعهم ونشره الامن في البلاد واخيرا تخلى عن منصبه لابن اخيه مصطفى باشا فتولى مكانه يوم ٢٦ جمادى الثانية عام ١٠٢٠هـ ٦ سبتمبر ١٦١١م

□

ولاية حسين الشيخ باشا

كانت ولايته سنة ١٠٢٢هـ - ١٦١٣م وعلى عهده كان ذلك الخلاف المشهور بين حكومة تونس والجزائر فى شان الحدود فكان هناك قتال بين الطرفين انتصر فيه الجزائريون ثم وقع الاتفاق من الجانبين على جعل نهر سراط هو الحد الفاصل للتخوم الجزائرية الشرقية

وبسعي هذا الباشا وقع عتق كثير من الاسرى المسلمين الذين هم بفرانسا، واظهرت الدولة الفرنسية يومئذ تقربا من الحكومة الجزائرية فاستجابت لعتق الاسرى ولم تشترط في مقابلة ذلك سوى تامين مراكبها

واحترام اهلها، ثم نقضت غزلها واخلفت وعودها فأبطلت المفاوضات وتعطل المشروع وجاء اسطول الدوك دوكيز فانتهب من الجزائر مائتي اسير

وتخلى الباشا المذكور عن منصبه فتولى مكانه مصطفى خزناجي حسين سنة ١٠٢٥هـ ١٦١٦م ولكن لا يعلم عن سيرته شيء

□

ولايه سليمان قاطانيا باشا

الظاهر ان اصله من مدينة «قاطانيا» بصقلية وكان تعيينه لمنصبه هذا بالجزائر في اليوم الثاني من شهر رمضان المعظم سنة ١٠٢٦هـ — ٣ سبتمبر ١٦١٧م وفى ايامه تظاهرت الدولة الفرانسية بمظهر الصداقة للجزائر واخذت في مصانعة الباشا وجاءت بعتق طائفة من الاسرى كتكفير لما سلف منها من المخالفات فصانعها الباشا بالمثل، والحرب خدعة !...

حتى اذا اكتمل نزول الاسرى بمدينة الجزائر انبرى الاتراك حينئذ الى مهاجمة مركز القالة الفرنسي فهدموه انتقاما لما سبق من فرانسا حتى لم يبقوا فيه حجرا على حجر واستعبدوا اهله

وفي ايام سليمان هذا بلغت اساطيل الجزائر بقيادة مراد رايس الى جزيرة مادير بالمحيط الاطلنطيكي بل والى شواطىء جزيرة ايزلاندة باعلى الشمال

ثم كانت وفاة الباشا يوم الاربعاء ودفن يوم الخميس ٦ جمادى الثانية سنة ١٠٢٧هـ — فاتح جوان ١٦١٨م

□

ولاية حسين الشيخ باشا (ثانيا)

اعيد اليه زمام الحكومة الجزائرية للمرة الثانية عصر يوم الاربعاء ٢٩ رمضان سنة ١٠٢٧هـ ٢٠ سبتمبر ١٦١٧م فاشتغل اولا باخماد نار الفتن والاضطرابات الداخلية واعادة الهدوء والدعة للبلاد، وبعد سنتين من ولايته كانت حادثة تحطيم الاسطول

الجزائرى المرابط بثغر العاصمة بسبب زوبعة بحرية شديدة ذهبت ضحيتها الميناء

وفى اوائل رمضان سنة ١٠٢٩هـ — ٨ اوط ١٦٢٠م ظهر فى الميدان السياسى من سعى من تجار فرانسا فى رأب الصدع ونشر الوئام بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية، وعمل على استرجاع المدفعين السالفى الذكر الى الجزائر مع من وجد هنالك في بلاد الثغور الفرانسية من اسرى المسلمين فانشرح لذلك صدر الباشا واخذ هو بدوره يعمل على تحرير اسرى الفرنسيين واوفد سنان اغا مبعوثا مفوضا الى فرانسا وكممثل لحكومة الجزائر لدى البلاط الملكي هناك، وماكادت الاتفاقات تتم بين الطرفين حتى احاط بها الريب والشك وداهمتها اشاعات وقلاقل زائفة مضمونها ان احد قرصان الجزائر — رجب رايس — قد استحوذ على سفينة فرنسية بخليج مدينة ليون فحطمها وفتك باصحابها؟.

ورغم بطلان هذه الاشاعة المزورة فان الجو الفرانسى تكهرب واظهر اهل مرسيليا عداوتهم للجزائريين بتحطيم مفوضية الدولة التركية بمرسيليا وتقتيل اهلها بما فيهم من السفير سنان آغا نفسه، ولكن العدالة الفرنسية ساءها ذلك فلم تكن لترضى عن هذا الاعتداء الشنيع فحاكمت شرذمة ممن شاركوا فى هذه العملية الاثيمة وساقت اربعة عشر منهم الى المشنقة، غير ان الجزائريين راعهم ما فعله اهل مرسيليا بالمفوضية التركية وعظم عليهم موت ممثل حكومة الجزائر هكذا غدرا لمجرد فرية وبهتان فاعلنوا حرب القرصنة ضد المراكب الفرانسية واطلقوا العنان للقرصان فى القاء القبض عليها اينما حلت وارتحلت واسر يومئذ جميع الفرنسيين الذين وجدوا بالجزائر.

وعادت العداوة جذعة وانقطعت العلائق بين الطرفين.

ثم اعتزل الباشا حسن الحكم سنة ١٠٢٨هـ — ١٦١٩م وحل محله موقتا الباشا سليمان ويقال ان المستخلف هو خسرف باشا تأمر يوم الاحد ٢٦ شعبان ١٠ اوط من هذه السنة؟... وكلاهما لانعلم عنه شيئا؟....

ولاية خضر باشا

قيل انه هو نفسه خضر باشا السالف الذكر وانه تولى الحكم بالجزائر اربع مرات ؟... فان صح ذلك فيكون تاريخ موته غير ما ذكرناه سلفا ؟...

وايا ماكان فان الخضر هذا تولى عرش الجزائر سنة ١٠٢٩هـ - ١٦٢٠م فناهضته دولة فرانسا فقاومها وكسر شوكتها ، ثم اعادت عليه الكرة حتى تمكنت من رغبتها باقامة وانشاء مركز تجاري لها بالقالة وانزلت به الحامية ، ولم يكن ليستقر به الفرانسيون حتى حمل عليه الاتراك فحطموه وقضوا على من كان به من الجند والحامية.

وفى صفر ١٠٣٠هـ ديسمبر ١٦٢٠م جاء الاميرال الانكليزى «مانصيل» الى الجزائر يحمل امر ملكه جاك الاول الناطق بتخليص اسرى الانكليز وفدائهم فرفض الديوان قبوله ثم حاول الاميرال يومئذ التوصل الى غرضه بالمقاومة الحربية فلم ينجح

التزاحم الهولاندى الانكليزي بالجزائر

لقد اثارت هذه المراكز التجارية التى يحتلها الفرانسيون بالساحل الشرقى من الشواطىء الجزائرية امتعاضا شديدا واضطراما فى صدور المنافسين الغربيين، وخاصة منهم الهولانديين والانكليز واهل جنوة، فهم كانوا من اسبق الناس ركضا بهذا الميدان كل ذلك طمعا وحرصا على احتكار تجارة الرقيق والمرجان واستئثارا بخيرات البلاد وتركيزا لسطوتهم القرصانية على ضفاف غربى هذا البحر ....

ففيما بين سنتى ١٠٢٩ - ١٠٣٣هـ (١٦٢٠ - ١٦٢٤م) حلت قافلة هولاندية بحرية بمياه الجزائر تشتمل على ست وحدات حربية واتصل اهلها بالديوان فاظهروا له رغبتهم فى النزول بمراكز المرجان المنبثة بالشواطىء فلم يعرهم الديوان بالا ويومئذ كشف هؤلاء الهولانديون عن عداوتهم فجاؤوا بطائفة من

الاسرى المسلمين فاعدموهم شنقا امام الجزائر وعلى مراى ومسمع من السكان وبومئذ استجاب الديوان لهولاندة فعقد معها معاهدة سلم

وفي نفس هذه الآونة من التاريخ غزا الانكليز عاصمة الجزائر محاولا هو بدوره ايضا احتكار التجارة والاستقرار بالمراكز المذكورة فرمى المدينة بالقنابل واستقر حيث اراد بشواطيء الجزائر ومكث بها عدة سنوات يزاحم الهولانديين بدون جدوى ، ثم ضمت المجهودات الى بعضها بعض وتعاقدت الشركتان على العمل معا فلم يكتب لها النجاح

ويذكر الاخباريون ممن عنى بتدوين احداث هذا العصر انه حدث خلال سنة ١٠٣٠هـ ـ ١٦٢١م وباء رهيب بولاية تونس وانتشر منها الى الجزائر فهلك منه نحو الخمسين الف نسمة ويعرف هذا الحادث بالوباء الكبير وباثره كان انهزام الاتراك امام الاسبان بسهول الهبرة من اعمال وهران

وهنا تذكر لنا الرواية التاريخية عدة باشاوات اعقبوا خضر باشا من غير ان تعطينا تفاصيل عنهم ولا يسعنا نحن الاسرداسمائهم هكذا مجردة تأدية لامانة التاريخ: اولهم مصطفى حافظ كوسته او قوصة؟ سنة ١٠٣٠هـ ـ ١٦٢١م ثم حسين باشا قائد سوسة تولى يوم السبت ثاني شوال من هذه السنة نفسها؛ وبعده حسين بن الياس باى عام ١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٣ ، ثم في نفس السنه مراد باشا الاعمى ٢٢ رمضان ـ جويلييت ـ ثم ابراهيم باشا يوم ١٤ جمادى الثانية ١٠٣٣هـ افريل ١٦٢٤م

□

ولاية خسرف باشا

تولى منصب الباشاوية بالجزائر يوم ٢٢ ذى الحجة ١٠٣٤هـ - ٢٥ سبتمبر ١٦٢٥م ويذكر ان اسمه اسراف ؟...

كثرت فى ايامه الثورات وانتشرت بنواحي جبل كوكو شرقا الى اعمال تلمسان غربا ولج الانكشايرية بالعاصمة فى عتوهم وطغيانهم فبعث بهم الى نواحى الثوار فاخمدوا حركاتهم وسكنت العاصمة

وفى اليوم الثالث من شعبان ١٠٣٤هـ - ١١ جوان ١٦٢٥م اوفدت فرانسا سفيرها لدى الباب العالى باستانبول لاسترضاء السلطان وطلب العفو عن الاسرى والحصول منه على تصريح بعودتها الى فتح باب المعاملة مع الجزائر والنزول بتلك المراكز التجارية المنبثة بالساحل الجزائرى فاذن لها السلطان فى ذلك وامر الباشا بالعفو عن الماسورين وجاء القنصل الفرنسى الى الجزائر فنزل بهذه المؤسسات وتولى بنفسه ادارة حركتها التجارية

ولقد بلغت المراكب التركية الجزائرية فى اعمالها القرصانية ايام هذا الباشا مبلغا عظيما فانها بلغت الى ايزلاندة باعلى الشمال واسرت منها اربعمائة اسير، وبلغت كذلك الى سواحل اكادى Acadie بامريكا الشمالية . ثم كانت وفاة الباشا خسرف يوم ٢٢ رجب ١٠٣٥هـ - ١٩ افريل ١٦٢٦م

□

حسين باشا

وبعد فترة تولى الحكم بالجزائر حسين باشا سنة ١٠٣٦هـ ١٦٢٦م وفي ايامه اتصلت الجزائر بمائتى اسير ممن كان بمرسيليا من الجزائريين كما انها حصلت على المدفعين المغصوبين منها الموجودين بفرانسا منذ ولاية رضوان باشا ١٠١٦هـ - ١٦٠٧م وبذلك فتحت فرانسا طريقا لتمركزها بالجزائر وبذلت

فى ذلك اموالا شتى بعضها رشى لولاة الامر وبعضها الآخر قروضا واموالا باسم الدولة، واستطاع بذلك سانصون نابولون المفوض الفرنسى ان يحصل من الدولة التركية بتاريخ ٢٩ المحرم ١٠٣٨هـ - ٢٨ سبتمبر ١٦٢٨م على تصريح باقامة محرس تجارى حصين عرف باسم Bastion على الساحل الشرقى واحتكار صيد المرجان بالسواحل الافريقية نظير دفع ستة عشر مليون فرنك سنويا وتمت المعاهدة بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية على الشروط الآتية

ا تبادل الاسرى .

ب احترام مراكب الطرفين

ج رفع الاسر بين المتعاهدين

د حماية المحارس والقنصلية الفرنسية ورجالها

ولم يكن مصرحا للمفوض الفرنسى سانصون نابولون كما ترى بهذه المعاهدة ان يجعل من هذه المحارس التجارية حصونا او يتخذها وسيلة للتدخل في شؤون البلاد ولكنه استعملها مراكز للاستطلاع والتجسس واتخذ منها محطة لتموين اعداء الجزائر ومحاربيها من الدول الاجنبية والتجسس لهم ثم تناول تصدير القمح وامتدت يده الى متاجر شتى من بلاد المغرب.

وقعة السطارة

السطارة او الستارة هى اسم مكان قرب الكاف من اعمال تونس وبها كانت هذه الوقعة الشهيرة بين التونسيين والجزائريين في ١٣ رمضان ١٠٣٧هـ - ١٧ ماى ١٦٢٨م بسبب تجدد الخلاف بين اهل هذين الولايتين حول التخوم والحدود المقررة بينهم منذ سنة ١٠٢٣هـ - ١٦١٤م فانتصر فيها اهل الجزائر وغنموا من سلاح تونس اثنين وعشرين مدفعا ويومئذ بادر والى تونس يوسف داى الى حقن الدماء فتم الصلح بينهما بعقد معاهدة السلم وجعل الحدود هكذا .

يمتد خط الحد من البحر الى راس جبل الهفا، ومنه الى قلوب الثيران؛ ومنه الى الكرش، ثم الى وادى ملاق، ومن هنك الى وادى السيرات في الجنوب.

وتنص المعاهدة في مادتها الرابعة على ان قوانين الدولة المحلية بتونس او الجزائر تعم جميع من يوجد داخل الحدود من رعايا الجانبين ولا يمكن بحال تعقب احكامهما

وهنا كذلك تسوق لنا الرواية التاريخية طائفة من اسماء الباشاوات ممن حكم الجزائر بعد حسين ولا نعلم عن تاريخهم سوى ذكر اسمائهم حسبما يلى : اولهم حسن خوجة سنة ١٠٣٨ هـ - ١٦٢٨م، وفى هذا التاريخ كان سقوط مدينة تلمسان بيد دولة مراكش السعدية ثم انتزعت منها. وفي السنة بعدها اتحد الكراغلة مع طائفة الرياس ضد الحكومة المركزية ابتغاء المزاحمة في الحكم فاوقدوا النار في خزينة البارود فانفجرت ومات يومئذ ستة آلاف نسمة وتهدم بالمدينة ما يقرب من خمسمائة منزل، ولم تسجل لهم مع ذلك نتيجة، ثم تولى يونس باشا بتاريخ اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ١٠٣٩هـ - ١٥ جويلييت ١٦٣٠م، ثم حسن باشا سنة ١٠٤١هـ - ١٦٣١م

وتقص علينا الرواية التاريخية ان البحرية الجزائرية بلغت فى هذا العصر الى ايرلاندة شمال بلاد الانكليز وجالت فيما حولها من بحار الجزر البريطانية وصافحت قناة القديس جورج وان الخسائر التى منيت بها دولة فرانسا في البحر تجاه الاسطول الاسلامى ما بين سنتي ١٠٣٧ - ١٠٤٤هـ (١٦٢٨ - ١٦٣٤م) بلغت الى ثمانين مركب مشحونة بمختلف البضائع وان قيمتها تقدر بعملة ذلك العصر : ٤،٧٥٢٠٠٠ ليرة

ثم تولى حسين باشا الشيخ للمرة الثالثة وذلك يوم ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٠٤٢هـ - ٨ نوفمبر ١٦٣٢م ، وفي ايامه حدث زلزال هائل اندك له اكثر دور العاصمة ومات من جرائه عدد وافر من الناس ولا يبعد ان يكون هذا

الحادث هو نفسه تلك الكارثة التى زلزلت لها الجزائر في حركة الكراغلة اثر انفجار خزينة البارود التى اشرنا اليها فيما تقدم ؟...

ويذكر عن هذا الباشا انه اختلف مع اعضاء الديوان فنشأت عن ذلك ثورة الانكشارية والقى القبض على الباشا فاودع السجن

□

ولاية يوسف باشا

تدخل الجند فى تولية الولاة هذه المرة وكانت يومئذ فترة انقطاع اضطرب لها حبل الحكومة الجزائرية وحصل تشويش اعقبه انحلال وفتور فى الادارة الى ان بادرت حكومة استانبول الى انقاذ الموقف هذا فقضت على الفوضى الشائعة يومئذ بتعيين يوسف باشا يوم ٢١ المحرم سنة ١٠٤٤هـ (جويليت ١٦٣٤م)

ولكن الديوان تصلب في وجهه معاكسا لسلطته ومقاوما لسياسته المعتدلة وكان مما حاول هذا الباشا السعي في حسم الخلاف بين الجزائر وفرانسا واستمر الديوان على اظهار عداوته للفرنسيين المقيمين بالمحارس التجارية واخيرا رضخ الباشا للديوان والقى القبض على القنصل الفرنسى م بيون ، ويومئذ هوجمت الجزائر من طرف الفرنسيين بحملة بحرية فخابت وكان هناك غلاء فى الاسعار وازمة في التجارة.

□

ولاية علي باشا

اتصل بمنصبه هذا في فاتح صفر سنة ١٠٤٧ هـ ـ ٢٥ جوان ١٦٣٧م وصادف ان كان الصراع والخلاف قائما بين الفرنسيين والجنويين حول المنشئات والمتاجر الساحلية ولقد بلغ التزاحم والتنافس بين شركات هذين الامتين اشده فاشتد النزاع وتفاقم امر الخلاف حتى ازعج حكام الجزائر واقلق بالهم فاصدر

الديوان يومئذ امره للرئيس على بتشنى (١) بالقضاء على هاتيك المراكز ومصادرة اموالها وما احتوت عليه من ارزاق فخرج الرئيس فى مراكبه القرصانية يوم ٢٤ رجب ١٠٤٧هـ-١٣ ديسمبر ١٦٣٧م فدمرها وجاءهم بما فيها من الغنائم منها ٣١٧ اسير

ومعلوم ان هذه المحارس كانت قائمة بناحية القالة وبونة من العمالة القسنطينية وكان سكان تلك النواحى منتفعين بما يجرى بينهم وبين اصحابها من المعاملات التجارية فكانت الحركة الاقتصادية يومئذ رائجة بين الاهالى والاجانب ولما نضب ذلك المعين بعملية التدمير التى قامت بها الحكومة المركزية نقص عن السكان ما كانوا يستغلونه من الموارد والمداخيل، فكان من الضرورى ان يعلن هؤلاء استياءهم وتذمرهم امام الحكومة وفعلا قطع القوم صلتهم بالدولة وامتنعوا من دفع اللزمة - المغرم - لحاكم المقاطعة - مراد باى - واعلنوا ثورتهم فحملوا السلاح برئاسة شيخ العرب ابى عكاز ابن الصخرى وقاتلوا الحامية التركية فقضوا عليها فاستنجد الباى يومئذ بحاكم الجزائر فانجده باربعمائة جندى وجاءت النجدة الى قسنطينة برئاسة القائدين يوسف وشعبان وحمى هنالك وطيس الحرب فانهزم الاتراك بالمكان المعروف باسم قجال - بالقاف المعقودة - قرب ميلة وذلك يوم ١٢ جمادى الاولى سنة ١٠٤٨هـ - ٢٠ سبتمبر ١٦٣٨م

ولم تلبث الحكومة الجزائرية حينئذ ان منحت امتيازات جديدة لشركة فرنسية مرسيلية صرحت فيها للشركة بان تقيم هذه منشئات لحماية اموالها وارواح اصحابها (٢)

واثر هذه الحادثة تحركت النعرة... التعصبية فى الاتراك - وهم المباشرون

«١» ايطالى الاصل من البندقية ويكتب اسمه هكذا Piccini او Picenino كان امير البحر فاسلم واسس ذلك المسجد الانيق القائم الى اليوم بحى باب الوادى بالعاصمة بناه سنة ١٠٣٢هـ-١٦٢٢م ثم حوله الاستعمار الى كنيسه مسيحية سنة ١٢٥٩هـ-١٨٤٣م كما حول غيره كذلك من المعاهد الاسلاميه بالجزائر الى كنائس ومراكز عسكرية ومصحات الخ....

«٢» انظر E. Vayssettes : Histoire de Constantine sous les Beys p. 94-110 Alger 1869

والمسيطرون طبعا على الحكم فقاوموا الكراغلة واجلوهم العاصمة (١٠٣٩هـ ١٦٢٩م) وصادروا اموالهم مخافة استقوائهم وتطلعهم بعد ذلك الى مناصب الحكم

□

ولاية الشيخ حسين باشا

كانت ولايته سنة ١٠٤٩هـ ١٦٣٩م ولا نعلم عن تاريخ ايامه القليلة التي قاضاها على العرش سوى النكبة التي اصابت الاسطول الجزائري بثغر فالونا Valona من بلاد البانيا، وذلك ان الدولة العثمانية كانت في حرب مع اهل البندقية فحمتها مراكب الجزائر برئاسة علي بتشنى في بحر الادرياتيك، وفي ثغر فالونا هذه خسر الاسطول الجزائري ثمانية عشر قطعة، حيث غرق منه اربع سفن واسرت اربعة عشر ومات من الجند الف وخمسمائة نسمة وحصلت الجزائر على تصريح من الباب العالي بدفع تعويضات عن هذه الخسائر كلها ولم يلبث الباشا ان توفي من سنته بالطاعون

□

ولاية ابي جمال يوسف باشا (ثانيا)

تقلد منصب الحكم بالجزائر للمرة الثانية في ٢١ من المحرم سنة ١٠٥٠هـ (ماي ١٦٤٠م) وكان يعرف بلقب قرطالج او قرطالجي؛ واهم ما علمناه من الحوادث على عهده هو عقده للمعاهدة التجارية بين الجزائر وفرانسا بتاريخ ١٧ ربيع الاول ـ ٧ جويلييت من هذه السنة وتصريحه للشركة الفرنسية باسترجاع مراكزها الجزائرية او ما كان كذلك من اندلاع لسان نار الثورة الاهلية التي لم ينطفيء لهيبها ضد الحاكم الاجنبي منذ خلق الله الجزائري وولدته امه حرا الى اليوم وتمكن الباشا من اخماد هذه الثورة المنتشرة يومئذ باعمال قسنطينة وغيرها ثم اعقبها تمرد الجنود الانكشايرية بسبب تخلف الحكومة عن دفع مرتباتهم فتغلبوا على الباشا وقبضوا عليه فاودعوه السجن ثم افرجوا عنه واعادوه الى منصبه.

ولاية محمد برصالى باشا

تولى زمام الامر بالجزائر سنة ١٠٥٢هـ - ١٦٤٢م وكان يلقب بسرقوشلى وهو الذى اكمل فتح اعمال قسنطينة واتم الاستيلاء التركى على تلك الجهات الشرقية من القطر الجزائري

وحدث في ايامه ان كان الاسطول العثمانى متوجها الى غزو جزيرة مالطة فاراد السلطان تعضيد هذه الحملة بمرافقة اسطول الجزائر الذي كان يرأسه يومئذ على بتشنى فرفض الديوان ذلك بحجة تخلف الباب العالى عن انجاز وعده السابق من دفع التعويضات عن الخسائر التى منى بها الاسطول الجزائرى في وقعة ليفورنيا من بلاد إبطاليا فاوفد السلطان الى الجزائر مندوبين للنظر فى القضية فاشاع الناس وارجفوابان ما جاء المندوبان الا لقتل الرئيس على بتشني وكثر القال والقيل وكاد الناس ان يصدقوا بذلك وخشى الباشا من اغتيال الوفد فانزله بزاوية سيدى عبد الرحمن الثعالبى ومكث معه الباشا نفسه الى ان دخل عليهم الرئيس على بتشنى فآمن خيفتهم واذهب عنهم الروع وخرج الجميع من الزاوية آمنا وعند ذلك منح على بتشنى منصب الامارة العليا على الاسطول العثمانى باستانبول وماكاد يتصل بفرمان التولية حتى اودت به المنية رحمه الله

□

ولاية احمد دغانجي باشا

انتصب على عرش الجزائر يوم السبت ٤ جمادى الاولى سنة ١٠٥٤هـ ٩ جويلييت ١٦٤٤م وكانت ايامه كلها ايام قلق واضطراب بسبب اشتداد وطأة القرصنةمن كلا المعسكرين وامتلات العاصمة على عهده بالاسرى وشارك الاسطول الجزائرى بخمسين قطعةفي وقعة كريت ببحرارخبيل اليونان (١٠٥٥هـ - ١٦٤٥م)

ثم تضعضعت قواته بعد ذلك في وقعة مالطة فاستشهد فيها يومئذ مائتان وخمسون نسمة واسر نحو المائة والخمسين جزائرى

وفي ايام هذا الحاكم تاسست الارسالية المسيحية بالجزائر على يد القديس فانصان دوبول (١٠٥٦هـ ـ ١٦٤٦م)

□

ولاية يوسف باشا (ثالثا)

كان جلوسه على سرير الباشاوية للمرة الثالثة بالجزائر يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٠٥٧هـ ـ ٢٨ ماى ١٦٤٧م وكان هنالك خلاف قائم بين الديوان وحكومة فرانسا فانتقم الباشا من شخص القنصل الفرنسى فاودعه السجن ترضية للراي العام الجزائرى وحينئذ جاءت الحملة الفرنسيه يقودها الاميرال دوكين ولم تزل تقذف بقنابيلها العاصمة فامطرتها وابلا من المقذوفات النارية حتى اضطر اهلها الى الافتداء فتنزلوا عن جميع الاسرى الفرنسيين ودفعوا للحملة مليونا ومائتى قرش فكف عنهم الاميرال وصرف اسطوله عن الجزائر.

وفى شعبان ـ سبتمبر ـ من هذه السنة خرج الباشا بنفسه الى اخضاع العصاة المنشقين من الدواودة وغيرهم من اهل الارجاء الشرقية الجزائرية

استشراف الدوله الشريفيه العلوية للجزائر

صرف المولى محمد بن الشريف العلوى سلطان المغرب الاقصى ـ جد الاسرة المالكة اليوم ـ عنايته لاحياء ما اندرس من عهد ملوك المغرب في دولة الموحدين والمرابطين وعصر الفاتحين الاولين فحاول ضم الجزائر الى مملكته وبذلك يتم توحيد المغربين الاقصى والاوسط تحت سلطانه فخرج في قومه سنة ١٠٦٠هـ ١٦٥٠م الى التخوم الشرقية من حدود مملكته فبلغ الى انكاد واخذ البيعة لنفسه من اولائك الاقوام ثم حملهم معه الى منازلة قبيلة بنى يزناسن ـ سناسن ـ فاستولى

عليها وقصد وجدة فاحتلها وشن غاراته على ما جاورها من القرى والقبائل كاولاد زكري وبني سنوس فخضع الجميع لطاعته وتقدم سائرا بجيوشه الى ندرومة ثم عاد الى وجدة فمكث بها مدة ومنها توجه الى تلمسان فنازل احوازها واحاط بقراها واوقع هنالك بالحامية التركية فاذاقها قوارعه ثم ادركه فصل الشتاء فعاد الى وجدة يستجم

ثم بعد انصرام فصل الشتاء خرج السلطان العلوى الى الصحراء الغربية فاغار على الجعافرة وبايعته هنالك قبيلة حميان ثم جاء من دله على مدينة الاغواط وعين ماضي والغسول فتوجه اليها السلطان واحتلها فاحدث ذلك قلقا عاما بالقطر الجزائرى اضطرب له حبل الحكومة التركية وكادت الرعية ان تنقض على حكومتها

تجهز الاتراك للقتال

وعم الخطر بلاد الجزائر فاخذت الحكومة التركية تعمل على اخذ احتياطاتها في الدفاع والتأهب للحرب ضد الدولة الشريفية فشمرت عن ذيلها وشرعت فى حفر الخنادق حول ايالة معسكر وبادر حاكم الناحية - الباى - الى استنصار باشا الجزائر فخرجت الحامية من العاصمة يقودها نائب الباشا الى نواحى تلمسان فاستقرت هناك ويومئذ انكفأ مولاى محمد بن الشريف متقهقرا الى وجدة عن غير قتال وهناك اخذ في تقسيم الغنائم واقتسام الاسلاب ثم قفل الى سجلماسة - تافيلالت -

واثر مغادرة سلطان المغرب للجزائر اوفد الاتراك الى حضرته لجنة من العلماء للمفاوضة في شأن الحدود بين القطرين وتوثيق عرى الصداقة بين المملكتين وتقرر جعل وادى التافنا هو الخط الفاصل بين الحكومتين وتاكد ذلك بابرام معاهدة مؤرخة سنة ١٠٦٤هـ - ١٦٥٤م

وفى عهد هذا الباشا يوسف تحصلت الجزائر على تعويضات الدولة العثمانية

الموعود بها من قبل فى مقابلة الخسائر التى تكبدتها الجزائر في حماية الاسطول العثمانى ببحر الادرياتيك ايام الشيخ حسين باشا سنة ١٠٤٩هـ ـ ١٦٣٩م فاتصل الديوان بمبلغ ستين الف سلطانى وهو ما يقدر بنحو مليون ونصف فرنك بعملة ذلك الزمن،

وبعد مهلك الباشا يوسف خلفه المسمى مراد فاتح ربيع الاول عام ١٠٦٠هـ ٤ مارس ١٦٥٠م ولا يعلم من حوادث تاريخ ايامه فى الجزائر الا ما يذكر من هيجان الاسرى الاروبيين واضطرابهم في السجون

□

ولاية بوشناق محمد باشا

تراس على حكومة الجزائر بلقب باشا يوم ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٠٦١هـ منتصف ماى ١٦٥١م واشتهر امره بنشر الامن في الرعية وحماية شعبه واهتمامه براحته ورفعته

ولا يعلم من تاريخ الحوادث الجديرة بالذكر على عهده سوى انهزام الاسطول الجزائرى مرتين امام مدينة البندقية وفي بحر الارخبيل، او ماكان من هجوم بريطانيا العظمى على الجزائر وخيبتها

ثم تولى بعده طوبال محرم باشا يوم ١٧ محرم ١٠٦٤هـ ـ ٩ ديسمبر ١٦٥٣م ولم يحفظ لنا التاريخ فيما علمناه عن هذا الباشا شيئا

□

ولاية احمد طوشان باشا

كانت ولايته يوم ٢٢ رمضان سنه ١٠٦٥هـ ـ ٢٦ جويليت ١٦٥٥م وابرز حادثة كانت في ايامه القصيرة بالجزائر هى حملة بريطانيا على العاصمة ورميها بالقنابل فاحترقت بعض المراكب الراسية ولم يكن بالثغر من رؤساء البحر يومئذ احد اذ كان كلهم بالغزو فتخطفت الحملة كل من ظفرت به من اسراها والاسرى

الهولانديين من غير فداء ثم انصرفت

ولم تطل ايام هذا الباشا فعزل من سنته وخلفه البكباشي عبدالله باشا وكذلك هذا لم تطل ايامه ولايعلم من شانه شيء سوى انعقاد الصلح في هذه الآونة بين الجزائر وبريطانيا

□

ولاية ابراهيم باشا

تقلد زمام الحكم بالجزائر يوم ١٢ ربيع الثانى سنة ١٠٦٦هـ (٩ فيفرى ١٦٥٦م) فغزا الاسبان وحاربهم بوهران، وكانت ايامه هادئة مطمئنة لم يرعها غير حادث القنصل الفرنسي حيث توهم معاداة الجزائر لحكومته فبادر الى القاء القبض على نحو الخمسين نسمة من الجزائريين فاسرهم وخف الى حمل متاعه وكل ما استطاع نقله من مستودعات المحارس فاستصحب ذلك كله معه الى فرانسا فاشمأز من ذلك اهل الديوان فاجمعوا على عزل الباشا حيث لم يعجل بحجز القنصل ونصبوا مكانه الحاج احمد باشا الذى كان سجينا باحدى الحصون الجزائرية، وذلك عصر يوم الجمعة ٢٤ رجب - ماى - من هذه السنة وفيها ايضا كان استيلاء الاميرال الهولاندى ليتير على ثمانية عشر سفينة جزائرية بجبل طارق

ثم ادركت فرانسا خطأ القنصل فى عمله هذا فجاءت مسترضية، واعيد ابراهيم باشا الى منصبه عصر يوم السبت ٢٢ ذي القعدة ١٠٦٧هـ فاتح سبتمبر ١٦٥٧م، وكان هذا آخر العهد بحكام الجزائر وباشاوتها اصحاب السلطة الفعلية التابعة للباب العالى باستانبول .

نهاية حكومة الباشاوات

هناك قسط وافر من المسؤولية في سقوط سمعة حكومة الباشاوات واضمحلال سيادتهم بالجزائر ملقى على عواتق هؤلاء الحكام - الباشاوات انفسهم - ذلك ان

الباشا قد شعر بالاستقلال في هذه المدة واخذ فى الاشتغال بنفسه منصرفا عن الادارة مجتهدا فى التمول بطرق الرشى والسرقات فلم تلبث هيبته ان سقطت واجترأ عليه الانكشايرية ....

والى هؤلاء الباشاوات ايضا ترجع مسؤولية الاسراف في التعدى على السفن والثغور فقدكان هنالك من الباشاوات من يدفع اهل البلاد الى ذلك دفعا بل نكلفون بعض القرصان بان يقوموا بعملية القرصنة لحسابهم ومن ثم لم يعن الباشا بان يحسن تمثيل السلطان او يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه فلم يكن الجند او الاهلون ليحسون بوجوده بينهم الا فى الاحتفال العظيم الذى يقام لاستقباله يوم يصل من القسطنطينية والا فى هذه الاجتماعات التى كان مجلس الشورى يعقدها للنظر فى شؤون البلاد من حين الى حين

وربما حاول الباشا ان يخضع شوكة الانكشايرية بالاستعانة عليهم بقبائل من اهل البلاد فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى .....

وقد حاول احدهم ان يستولى على المنحة التى كان السلطان يبعثها كل عام لاعانة الاسطول الجزائرى فكانت النتيجة ان قرر الديوان — وكانت السلطة فيه للانكشايرية — ان يسحب من الباشا آخر ما بقى له من مظاهر السلطان وهو القيام على الاموال والاحتفاظ بالخزينة فتولاها يومئذ الآغا يعاونه الديوان، واصبحت السلطة الفعليه بيد الاغوات (١)

(١) راجع الشرق الاسلامى ج ١ ص ٢٩٨

باشاوات الجزائر

		تاريخ التولية
دالى احمد	باشا	٩٩٥هـ — ١٥٧٨م
خضر	»	٩٩٧هـ — ١٥٨٩م
الحاج شعبان	»	٩٩٩هـ — ١٥٩١م
مصطفى	»	١٠٠٣هـ — ١٥٩٤م
خضر «ثانيا»	»	١٠٠٣هـ — ١٥٩٥م
دالى حسن	»	١٠٠٧هـ — ١٥٩٩م
مصطفى جاقرجى	»	» »
سليمان	»	١٠٠٩هـ — ١٦٠١م
خضر «ثالثا»	»	١٠١١هـ — ١٦٠٣م
محمدقوصة	»	» »
كوسة مصطفى القابجى	»	١٠١٣هـ — ١٦٠٥م
رضوان	»	١٠١٦هـ — ١٦٠٧م
كوسة مصطفى «ثانيا»	»	١٠١٩هـ — ١٦١٠م
مصطفى	»	١٠٢٠هـ — ١٦١١م
حسين الشيخ	»	١٠٢٢هـ — ١٦١٣م
مصطفى خزناجى	»	١٠٢٥هـ — ١٦١٦م
سليمان قاطانيا	»	١٠٢٦هـ — ١٦١٧م
حسين الشيخ «ثانيا»	»	١٠٢٧هـ — ١٦١٨م
سليمان	»	١٠٢٨هـ — ١٦١٩م
خسرف	»	» »

خضر	باشا	١٠٢٩هـ — ١٦٢٠م
مصطفى حافظ كوسة	»	١٠٣٠هـ — ١٦٢١م
حسين	»	» »
حسين بن الياس	»	١٠٣٢هـ — ١٦٢٣م
مراد	»	» »
ابراهيم	»	١٠٣٣هـ — ١٦٢٤م
خسرف	»	١٠٣٤هـ — ١٦٢٥م
حسين	»	١٠٣٦هـ — ١٦٢٦م
يوسف	»	١٠٤٤هـ — ١٦٣٤م
على	»	١٠٤٧هـ — ١٦٣٧م
الشيخ حسين	»	١٠٤٩هـ — ١٦٣٩م
ابو جمال يوسف ـ ثانيا ـ	»	١٠٥٠هـ — ١٦٤٠م
محمد برصالى	»	١٠٥٢هـ — ١٦٤٢م
احمد دغانجى	»	١٠٥٤هـ — ١٦٤٤م
ابو جمال يوسف ـ ثالثا ـ	»	١٠٥٧هـ — ١٦٤٧م
مراد	»	١٠٦٠هـ — ١٦٥٠م
بوشناق محمد	»	١٠٦١هـ — ١٦٥١م
طوبال محرم	»	١٠٦٤هـ — ١٦٥٣م
احمد طوشان	»	١٠٦٥هـ — ١٦٥٥م
عبد الله بلكباشى	»	» »
ابراهيم	»	١٠٦٦هـ — ١٦٥٦م
الحاج احمد	»	» »
ابراهيم ـ ثانيا ـ	»	١٠٦٧هـ — ١٦٥٧م

سلاطين آل عثمان

	تاريخ التولية
السلطان الغازي سليم خان «الثاني»	٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م
السلطان الغازي مراد خان «الثالث»	٩٨٢ هـ - ١٥٧٤ م
السلطان الغازي محمد خان «الثالث»	١٠٠٣هـ - ١٥٩٥م
السلطان الغازي احمد خان	١٠١٢هـ - ١٦٠٤م
السلطان مصطفى خان	١٠٢٦هـ - ١٦١٧م
السلطان عثمان خان «الثاني» (١)	١٠٢٧هـ - ١٦١٨م
السلطان مصطفى خان «ثانيا»	١٠٣١هـ - ١٦٢٢م
السلطان الغازي مراد خان «الرابع»	١٠٣٢هـ - ١٦٢٣م
السلطان ابراهيم خان	١٠٤٩هـ - ١٦٤٠م
السلطان الغازي محمد خان «الرابع»	١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م

(١) في ثامن رجب سنة ١٠٣١هـ — ٢٠ ماي ١٦٢٢م كان قتل السلطان عثمان الثاني بالابراج السبعة في استانبول ، وهو اول سلطان قتل في الدوله العثمانية .

مشاهير الجزائريين

ابو العباس احمد المقرى

١٠٤١هـ — ١٦٣٢م

علامة الجزائر ومفخرة المغرب العربى الامام الحافظ الحجة والمؤرخ الاديب الكبير ابو العباس شهاب الدين احمد بن محمد بن احمد المقرى (١) التلمسانى

اشتهر بيت المقرى هذا بتلمسان منذ ان انتقل اليها اعضاء هذه الاسرة الاولون من مقرة فى اواخر القرن السادس الهجرى اعنى حين استقرت دولة بنى زيان على عرش الجزائر، وبها ولد المترجم حوالى سنة ٩٨٦هـ — ١٥٧٨م وفيها درج ونشأ وبها حفظ القرآن الكريم وتأدب وأخذ عله عن مشائخها المشهورين فى التاريخ واخصهم عمه ابو عثمان سعيد مفتى تلمسان ستين سنة،

ارتحل الشيخ الى المغرب الاقصى فدخل مدينة فاس سنة ١٠٠٩هـ ولقى بها المشيخة فاخذ عن امثال الشيخ احمد بابا التنبوكتى وغيره من علماء العدوتين، ثم عاد الى بلاده فمكث سنتين ثم غادرها الى فاس ثانيا سنة ١٠١٣هـ وبها القى عصاه منقطعا الى العلم والتعمق فى البحث والدرس حتى برع فى علوم الشريعة والادب والتاريخ فكان آية فى الحفظ وسعة الاطلاع واستحضار ابواب الفقه ونوازله راسخ القدم جيد القريحة قوى البديهة مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا وشاعرا متفننا ومحاضرا ظريفا

---

(١) نسبة الى قرية (مقرة) احدى قرى الزاب الجزائرى المشهوره بجنوب جبال الحضنة وشرقى المسيلة - المحمدية - ضبطها المترجم نفسه في ازهار الرياض ج ١ ص ٣ بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحه، وهى كذلك عند الثعالبى فى «العلوم الفاخرة» والونشريسى ايضا، وضبطها ابن مرزوق الحفيد فى شرحه على الالفيه بفتح الميم وسكون القاف وقال فى النسبه اليها مقرى كبدري، وهى كذلك عند ابن الاحمر فى فهرسته والشيخ زروق

ولاه السلطان احمد المنصور الامامة والخطابة بجامع القرويين بفاس سنة ١٠٢٢هـ ثم صارت اليه الفتوى في ايامه

ولما اختلت احوال مملكة المغرب السياسية اثر وفاة السلطان المذكور وكثرت الفتن وانقسمت الدولة السعدية الى مملكتين الخ.. ازمع المقري على الرحيل الى المشرق تاركا المنصب والاهل والوطن والالف، فهاجر المغرب في اواخر رمضان سنة ١٠٢٧هـ – سبتمبر ١٦١٨م فركب البحر الى مصر فمكث بها قليلا ثم توجه الى الحجاز فحج وطاف بالاماكن المقدسة واملى بتلك المعاهد والاماكن المشهودة علومه ومعارفه الغزيرة فظهر هنالك فضله ونبله، ثم عاد الى مصر فدخل القاهرة في شهر رجب سنة ١٠٢٨هـ – جوان ١٦١٩م فتزوج بها من اسرة السادة الوفائية وبقى يتردد على الحجاز خمس مرات ثم استقر الشيخ بالازهر الشريف متجردا للعلم، فاشتهر يومئذ علمه بين الناس وطار صيته فى الآفاق؛ فعلت منزلته وتمكنت محبته وتبارى الادباء والشعراء فى مدحه بقصائد ورسائل بليغة وجرت لهم معه مساجلات شعرية ومطارحات علمية نفيسة بعضها مذكور فى كتب السير والتراجم (١) وفي نفح الطيب.

وبعد ان تبوا الشيخ مكانه فى المجتمع الاسلامى بالمشرق واصبح به كقطب من اقطاب العلم وامام من ائمة الاسلام عقد اثناء ذلك رحلات في ربوع الشرق الادنى ومنها رحلته المشهورة الى بيت المقدس سنة ١٠٣٧هـ حيث القى هنالك بالمسجد الاقصى دروسا قيمة كانت سببا فى اتصاله بكثير من علماء وادباء فلسطين والتفات الاعيان اليه، ثم دخل دمشق فابتهج بمقدمه علماء الشام وافاضلهم ونزل فيها بالمدرسة الجقمقية فبالغ اهلها في اكرامه وهنالك اقترحوا عليه تدريس صحيح البخارى فابى اقتراحهم وشرع في اقرائهم الكتاب دراية فاحتشد الناس لدروسه وضاقت رحاب مجالسه بالجامع الاموى وتسابق الفضلاء والاعيان الى لثم يده والجثو بين يديه...

(١) انظر خلاصة الاثر للمحبي ج ١ ص ٣٠٢ ط القاهرة ١٢٨٤م

ذكر من ترجم له من علماء المشرق انه تكلم يوم ختمه للصحيح بكلام في العقائد وعلم الحديث لم يسمع له نظير قط، وكان فيما ساقه في درسه المشهود ان تعرض لترجمة الامام البخاري بافاضة وانشد له هذين البيتين وافاد ان ليس للبخاري غيرهما :

اغتنم في الفراغ فضل ركوع　　　فعسى ان يكون موتك بغتة
كم صحيح قد مات قبل سقيم　　　ذهبت نفسه النفيسة فلتة

واستغرق مجلس الختم هذا من شروق الشمس الى قرب صلاة الظهر

وبالشام اقترح عليه العلماء تصنيف كتاب جامع لتاريخ الاندلس فجاءهم بهذا الاثر الجليل والصنيع النفيس العجيب والسجل العظيم الخالد : نفح الطيب بغصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. فرغ من تأليفه واملائه سنة ١٠٣٩هـ اى نحو سنتين قبل وفاته وطبع كتابه هذا بمصر مرارا فى اجزاء كما طبع منه الجزءان الاولان بليدن سنة ١٨٥٥ – ١٨٦١م وترجم الى الانكليزية ونشر بلندن سنة ١٨٤٠ – ١٨٤٣م وهو خزانة علم وادب وفن وتاريخ، انفرد فيه مؤلفه بجمع وتدوين اخبار ذلك الفردوس المفقود

وله رحمه الله ثبت حافل بالمؤلفات النفيسة يزيد عددها على ثمان وعشرين مؤلفا، منها المطبوع ومنها غير المطبوع عرفنا منها كتابه ازهار الرياض فى اخبار عياض طبع منه بمصر ثلاثة اجزاء ولا يزال الرابع تحت الطبع، وطبع بعضه في تونس ايضا واضاءة الدجنة في عقائد اهل السنة مطبوع بمصر اقراه مرارا واملاه دروسا بنفسه على طلاب مصر والشام والحجاز، وفتح المتعال فى اوصاف النعال ـ النبوية ـ وقفت على نسخة مخطوطة منه بمكتبة الجزائر الوطنية، وحسن الثنا في العفو عمن جنى، وشرح على مقدمة ابن خلدون وحاشية على مختصر خليل في فقه المالكية وازهار الكمامة في العمامة، الفه بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان تصنيفه بالحجرة النبوية الطاهرة تجاه الراس الشريف،

ولا يخفى حسن المناسبة في ذلك، وقطف المهتصر من افنان المختصر، واتحاف المغري في تكميل شرح الصغرى – للسنوسي فى العقائد – وعرف النشق في اخبار دمشق وروض الآس العاطر الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام مراكش وفاس، والدار الثمين في اسماء الهادي الامين، والغث والسمين، والرث والثمين، وكتاب البداة والنشأة، كله ادب وفن، وحاشية على ام البراهين فى علم الكلام، ومزدوجات شعر مطبوعة بمصر الى غير ذلك مما لا يتسع ذكره فى هذا الموجز

وهو مع ذلك يعد من فحول الشعراء المطبوعين فشعره جيد رشيق ليس فيه تكلف ولا تعسف فانصت الى قوله في الحنين الى الجزائر :

بلد الجزائر ما امر نواها		كلف الفؤاد بحبها وهواها
ياعاذلي في حبها كن عاذري		يكفيك منها ماؤها وهواها

وقوله ايضا :

قطر كان نسيمه		نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه		در هوى من نظم سلك

وفيه يقول ايضا :

اضواؤه طبق المنى وهواؤه		يشتاقه الولهان فى الاسحار
والطبع معتدل فقل ما شئته		في الظل والازهار والانهار

واستمع الى هذه القطعة الشائقة الرقيقة في الحنين الى وطنه ايضا :

واربع احباب اذا ما ذكرتها		بكيت وقد يبكيك ما انت ذاكر
بطاح وادواح يروقك حسنها		بكل خليج نمنمته الازاهر
فما هو الا فضة فى زبرجد		تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر
بحيث الصبا والترب والماء والهوى		عبير وكافور وراح وعاطر (١)
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته		وما ضم منه الحسن نجد وحاجز

[١] ذكر اربعه اشياء وشبهها باربعه اشياء على سبيل اللف والنشر المرتب

بلادى التى اهلى بها واحبتى — وروحى وقلبى والمنى والخواطر
تذكرنى انجادها ووهادها — عهودا مضت لي وهى خضر نواضر
اذ العيش صاف والزمان مساعد — فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
بحيث ليالينا كغض شبابنا — واياما سلك ونحن جواهر
ليالى كانت للشبيبة دولة — بها ملك اللذات ناه وآمر
سلام على تلك العهود فانها — موارد افراح تلتها مصادر

واستمر اديبنا العالم الكبير متناقلا فى ربوع المشرق مترددا بين معالم مصر ومعاهد الشام متجولا بين ضفتى بردى والنيل الى ان اصطفاه الله لجواره فى شهر جمادى الثانية سنة ١٠٤١هـ ـ جانفي ١٦٣٢م ودفن بقرافة المجاورين بمصر وقيل بالشام تغمده الله برحمته

عبد الكريم بن الفكون

١٠٧٣هـ — ١٦٦٣م

بيت ابن الفكون بقسنطينة مستطير الشهرة منتشر السمعة، فهو بيت علم وادب ورئاسة ودين؛ توارث ابناؤه المجد والسؤدد منذ دهر طويل وقرون متتابعة بالجزائر ولا يزال هذا البيت الماجد ملحوظاً بعين الوقار والاجلال الى اليوم.

وكان ممن اشتهر وذاع صيته في الآفاق من اعضاء هذه الاسرة الجزائرية الماجدة فى القديم ابو على الحسن بن الفكون اكبر شعراء الجزائر وابرع كتابها وفي الحديث - اى العصر الذى نؤرخه - الشيخان العالمان عبد الكريم بن الفكون وولده محمد

قال الشيخ العياشي في رحلته : وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدى محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمى الظاهر والباطن سيدى عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطينى رضى الله عنه ونفعنا به، قدمها حاجا وهو امير ركب اهل الجزائر وقسنطينة وتلك النواحى على نهج ابيه وعادته في ذلك محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والوقار فاجتبته القلوب ومالت اليه النفوس ولم يطلع اميرا الا في هذه السنة وقبل ذلك انما كان يطلع بالركب والده - عبد الكريم - رضى الله عنه، فلما توفي الوالد قام ولده مقامه فى ذلك اعانه الله وسدده،

..... قال وكانت لنا به - اى بالشيخ عبد الكريم - رضى الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه فى سنة اربع وستين (والف) وقد قال لى رضى الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط فى سلك اهل خدمته : انى اقول لك كما قال الامام الشاذلى رضى الله عنه لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة

.... قال وكان في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم اهل الرسوم بعد ما كان اماما يقتدى به فيها وله في كثير منها تآليف شهد له فيها بالتقدم اهل عصره فالقى في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب والتزود الى الحرمين الشريفين مع كبر السن، وكان يقول اذا ذكر له شيء من هذه العلوم : قراتها لله وتركتها لله!....

قال العياشي : وقنعت منه رضى الله عنه بالكلمة التى قالها لى لما علمت حاله وخشيت ان اثقل عليه واكلفه مالا تطيب به نفسه فانه رضى الله عنه من اهل القلوب، ومروياته رضى الله عنه مستوفاة في فهرسة شيخنا ابى مهدى عيسى الثعالبى فنحن نروى عنه جميعها بواسطته: قال فلما لقيت ولده - محمدا - تقربت له وانتسبت له بمعرفة والده فوجدت عنده بعض علم بى وقال اما انت الذى وصل كتابك المبعوث الى والدى من وادي ربغ قبل موته بعام ؟.. فقلت نعم ورحب بى وهش وبش وانس، ووجدت عنده عدة من مؤلفات والده وبعضها بخطه رضي الله عنه فأعارها لى مدة اقامته هناك، فمنها شرحه على ارجوزة الماكودى في التصريف وهو مجلد اجاد فيه غاية الاجادة.... فرغ من تأليفه اوائل صفر من عام ثمانية واربعين والف،... ومنها ديوانه في مدح النبى صلى الله عليه وسلم المرتب على حروف المعجم وكتب عليه «مما يمدح به عند الغمة وساعة الغياهب المدلهمة» والتزم ان جعل مبدأ كل شطر حرفا من حروف «الاهى بحق الممدوح اشفنى امين» وجملة ذلك خمس وعشرون حرفا، ففى كل قصيدة منها ابياتا وهنا اورد العياشي نماذج من قصائد هذا الديوان، ثم قال «وبآخرها بخطه تم بحمد الله وحسن عونه هذا المديح في المصطفى المليح الفصيح فى ليلة الجمعة وقت العشاء منها ليلة ثلاثة وعشرين من جمادى الآخرة من سنة واحد وثلاثين والف...»

ومن تآليفه ايضا جزء فى تحريم الدخان سماه «محدد السنان في نحور اخوان الدخان» وهو في عدة كراريس مشتمل على اجوبة عدة من الايمة وقد لخصنا

بعضه بحسب ضيق الوقت ولنذكر ذلك تتميما للفائدة وهنا اورد العياشي ملخص الكتاب (١) وللمترجم شرح على شواهد الشريف على الاجرومية التزم فيه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد، وشرح جمل المجراد ومخارج الحروف من الشاطبية وتأليف فى حوداث فقراء الوقت، ولعله هو كتابه المسمى بمنشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية .

وهذه رسالة لطيفة من نوع الاخوانيات كتبها الشيخ عبد الكريم بن الفكون الى صديقه بالمشرق ابى العباس شهاب الدين احمد المقرى، احببنا ادراجها هنا كنموذج لاسلوب النثر - والشعر ايضا - المستعمل فى المكاتبة بين الادباء والعلماء في ذلك العصر قال :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من انزل عليه في القرآن «وانك لعلى خلق عظيم» وآله وصحبه وسلم افضل التسليم، من مدنس الايزار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار، الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار، عبد الله - سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون اصلح الله بالتقوى حاله، وابلغه من متابعة السنة النبوية آماله، الى الشيخ الشهير، الصدر النحرير، ذى الفهم الثاقب والحفظ الغزير الاحب فى الله، المؤاخي من اجله سيدى ابي العباس احمد المقرى، احمد الله عاقبتي وعاقبته واسبل على الجميع عافيته. اما بعد فانى احمد الله اليك واصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا اريد الاصالح الدعاء وطلبه منكم ، فاني احوج الناس اليه واشدهم في ظني الحاحا عليه لما تحققت من احوال نفسى الامارة، واستبطنت من دخيلائها المثابرة على حب الدنيا الغرارة كانها عميت عن الاهوال التى اشابت رؤوس الاطفال وقطعت اعناق كمل الرجال، فتراها في لجج هواها خائضة وفي ميدان شهواتها راكضة طغت في غيها وما لانت وجمحت فما انقادت ولا استقامت فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح

«١» انظره في رحله العياشي ج ٢ ص ٣٩٠-٤٠٣ ط فاس ١٣١٦هـ

ومنادى العدل قائم بين العالمين «وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين» فالله اسأل حسن الالطاف؛ والستر عما ارتكبناه من التعدى والاسراف وان يجعلنا من اهل الحمى العظيم وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبى الرؤوف الرحيم ولنكف من القلم عنانه، لما ارجو من اجله ثواب الله سبحانه. وقد اتصل بيدى جوابكم اطال الله في العلم بقاءكم فرايت من عذوبة الفاظكم وبلاغه خطابكم ما يذهل من العلماء فحولها وينيلها لدى الجثو لسماعه سؤلها ومأمولها بيد مافيه من اوصاف من امره قاصر وعن الطاعة والاجتهاد فاتر وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه ان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه، لكن يجازيكم الله بحسن النية البلوغ في بحبوحة الجنان غاية الامنية وقد ذيلتم ذلك بابيات انا اقل من ان اوصف بمثلها على انى غير قائم بفرضها ونفلها فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من اهل مناجاته في حضرته ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منا دمته وقد ساعد البنان الجنان في اجابتكم بوزنها وقافيتها والعذر لى اننى لست من اهل هذا الشان والاعتراف بانني جبان واي جبان والكمال لكم في الرضا والقبول؛ والكريم يغضى عن عوارت الاحمق والجهول وظننا ـ حققه الله تعالى ـ ان نجعل على منظومتكم الكلامية ـ يعنى اضاءة الدجنة ـ تقييدا، ارجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدرى لا على قدركم وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم، وان ساعد الاوان وقضى بتيسيره رب الزمان فآتي به ان شاء الله الأجل معى لانني بالاشواق الى حضرة راكب البراق ومخترق السبع الطباق وكنت عازما على ان ابعث لكم من الابيات اكثر من الواقع الا ان الرفقة اعجلت وصادفتنى ايام موت قعيدة البيت فلم يتيسر عاجلا الا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل

يا نخبة الدهر في الدراية ... علما تعاضده الرواية
لا زلت بحرا بكل فن ... يروى به الطالبون غاية

لقد تصدرت في المعالى كما تعاليت في العناية
من فيك تستنظم المعاني بلغت في حسنها النهاية
رقاك مولاك كل مرقى تحوى به القرب والولاية
اعجوبة ما لها نظير في الحفظ والفهم والهداية
يا احمد المقرى دامت بشراك تصحبها الرعاية
بجاه خير العباد طرا والآل والصحب والنقاية
صلي عليه الاله تترى نكفي بها الشر والغواية

واختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكتب بغاية عجلة يوم السبت سابع اوثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين والف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام (١)

وقد توفاه الله اليه عشية الخميس ٢٧ ذى الحجة سنة ١٠٧٣هـ - ٣ اوط ١٦٦٣م سقي الله ضريحه

(١) نفح الطيب ج ٩ ص ١٨٩ط دار المامون بالقاهرة ١٩٣٦م

جدول تاريخي

٩٩٥ — ١٠٦٩ هـ

١٥٨٧ — ١٦٥٩ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٩٩٥ هـ ١٥٨٧ م	ابتداء عصر حكومة الباشاوات
٩٩٨ هـ ١٥٩٠ م	قمع حركة الثورة الوطنية بمجانة
٩٩٩ هـ ١٥٩١ م	اشتداد لهيب الثورة الوطنية بناحية زواوة
١٠٠٣ هـ ١٥٩٤ م	قمع الحركة الثوريه بناحية «سور الغزلان» وانشاء مركز للحراسة
١٠٠٧ هـ ١٥٩٩ م	استيلاء الاتراك على حصن المرسى الاعلى بوهران وانهزام الاسبان الى الحصن الاسفل
١٠٠٩ هـ ١٦٠١ م	حدوث الاضطراب السياسي والعسكرى حول منصب الامارة واخفاق الاسبان في حملتهم الشعواء ضد العاصمة
١٠١١ هـ ١٦٠٣ م	نشأة الخلاف السياسي والاقتصادى بين حكومة الجزائر وفرانسا ورد غارة الاسبان البحرية عن مرسى ازفون
١٠١٤ هـ ١٦٠٦ م	انتصار الاسبان بوهران
١٠١٦ هـ ١٦٠٧ م	اغارة الطوسكان على بونة ـ عنابه ـ وقطع العلائق بين الجزائر وفرانسا وتحطيم مرسى برشك
١٠١٩ هـ ١٦١٠ م	حملة الانكليز والهولانديين والاسبان على سواحل جيجل
١٠٢٢ هـ ١٦١٣ م	تسوية الخلاف الناشىء بين حكومة الجزائر وتونس حول تخطيط الحدود السياسية بين القطرين.
١٠٢٦ هـ ١٦١٧ م	تحطيم السلطة المركزية للمحرس الفرنسي بالقالة

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
١٠٢٩هـ١٦٢٠م	تجدد الخلاف بين الجزائر وفرانسا وشن الغارات البحرية الجزائرية ضد المراكب الفرانسيه
١٠٣٠هـ١٦٢٠م	خيبة حملة الاميرال الانكليزى «مانصيل» على الجزائر
١٠٣٣هـ١٦٢٣م	تقدم البحرية الجزائرية واتصالها باعلى جزر بحر الشمال
١٠٣٣هـ١٦٢٣م	التزاحم الهولاندى الانكليزى بالجزائر
١٠٣٧هـ١٦٢٨م	نشوب الخلاف بين الجزائر وتونس حول قضية الحدود وانفجار وقعة السطارة
١٠٤٢هـ١٦٣٢م	تدمير الزلزال الهائل لاكثر دور العاصمة وموت الاكثرية من السكان
١٠٤٤هـ١٦٣٤م	انكسار الاسطول الفرنسى بمياه الجزائر
١٠٤٦هـ١٦٣٧م	تحطيم مركز القالة الفرنسى واعلان الحرب ضد فرانسا
١٠٥٥هـ١٦٤٠م	انكسار الاسطول الجزائرى في حرب البندقية ببحر الادرياتيك
١٠٥٢هـ١٦٤٢م	الاستيلاء النهائى على اعمال قسنطينة
١٠٥٤هـ١٦٤٤م	انكسار اسطول الجزائر امام قرصان مالطة
١٠٥٦هـ١٦٤٦م	تاسيس ارسالية القديس «فانصان دوبول» بالجزائر
١٠٥٨هـ١٦٤٨م	هجوم الاميرال الفرانسى دوكين على مدينة الجزائر
١٠٦٠هـ١٦٥٠م	محاولة الدولة الشريفية العلوية الاستيلاء على الجزائر
١٠٦٤هـ١٦٥٥م	اتخاذ وادى التافنا حدا فاصلا بين حكومتى الجزائر ومراكش
١٠٦٦هـ١٦٥٦م	تسرع القنصل الفرانسى الى مغادرة المحرس التجارى وتاسيره لطائفة من المسلمين
١٠٦٩هـ١٦٥٩م	نهاية عصر حكومة الباشاوات

الفهرست

صفحة :

الدولة الحفصية ٧—٦٨

مشاهير الجزائريين

الدولة المرينية ٦٩–١١٣

صفحة:

مشاهير الجزائريين

الدولة العبد الوادية - الزيانية - ١١٤ — ٢٦٩

مشاهير الجزائريين

القسم الثالث

الجزائر المكافحة

صفحة :

مشاهير الجزائريين

صفحة :

صفحة :

مشاهير الجزائريين

فهرس الخـــرائط والصور

صفحـة :

تصويبات واستدراكات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦ سقط من السطر الاول ذكر الآل			
١١	١٤	الخوم	التخوم
بالهامش	١	دولتا	دولنا
١٣	١٦	التر	التتر
١٨	٥	نوقلو	نقلوا
١٩	٨	غازبا	غازيا
٢١	١٥	تارة	وتارة
٢١	١٦	ان	آن
٢٢	١٧	واذنهم	وآذنهم
٢٥	٥	بنى حفص	بني ابي حفص
٢٩	١٢	يستفزهم	يستفزهر
٣١ الهامش	١	٣١	٤١
٣٢	٤	ن	ان
٣٣	١٦	تقى	تاج
٣٨	٣	مذهب السنة	مذهب اهل السنة
٤٠	٤	فان	فلا تزال
٠٠	٢٣	منظما	منتظما
٤١	٢٣	القاوسى	النقاوسي
٤٤	١٤	اوكسفور	اوكسفورد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٦	٨	يحى	يحيى
...	١٥	لم يزالو	ولم يزالوا
٤٧	١٩	الداعى	الدعى
٥٠	١	اصتحب	استصحب
...	٧	لمكان صغره	لصغره
٥٢	١٧	راحح	راجح
٥٥	٥	من قبلية	الى قبيله
٦٣	١٢	٣٠٨	٨٠٣
٦٤	١٤	الولد	الوالد
٦٥	٨	كتب	كتبت
٧٠	١٢	لكتابه	الكتابة
٧٩	١٥	لاعما	الاعمال
٨٢	١٦	شكواه	لشكواه
٨٣	١٩	بقصبها	بقصبتها
٨٩	٨	حالا	حلا
٩٠	١٩	خلدوى	خلدون
٩٤	١	مايفتخر	يفتخر
...	٤	فيه جملة مكررة تدرك بادنى تامل	
٩٥	١٨	زرباب	زرباب
...	١٩	الغناء	الالحان
٩٦	١٩	زبر	زير
٩٧	٢٣	والي	الى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٩	١٢	نبسة	تبسة
١٠٦	١٧	تواريخ	توريخ
١١٢	١٣	١٣٠	٧٣٠
١٢١	٨	يغمراسن بن، ثابث	يغمراسن بن زيان بن ثابت
١٢٦	٢١	وعمره	عمره
»	٢٢	اولده ابى	ولده ابا
١٢٨	١٢	فى هذه	وفي هذه
١٣٣	٢	ابو حمو بن السلطان	ابو حمو بن موسى « الاول » الخ
١٣٤	١٤	سبب	بسبب
١٣٧	٥	الدولة استيلاء	استيلاء الدولة
»	٩	عودة	دعوة
١٤٥	١٠	ذكره	ذكر
١٥١	١	٨٠٦	٧٠٦
١٥٦	١٦	يضاف الى اول السطر : توج يوم الخميس ٨ ربيع الاول ٧٦٠هـ — ٧ فيفري ١٣٥٩ م	
١٥٩	٣	به	تحته
»	٩	العامرين	العامريين
»	١٥	احمال	الاحمال
١٦٣	١٤	اللقا	اللقاء
١٦٤	١٤	عنذ	عند

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧٠	١٢	توجهت	ثم توجهت
»	٢١	ورحمه	رحمه
١٧١	١٦	فاضهرت	فاظهرت
١٧٦	١٥	انيئذ	آنئذ
١٨٠	٢ تعليق	هسيانيا	هسبانيا
١٨٢	١	طورزلاس	طورد يسيلاس
١٨٤	١٣	عشر	عشرة
١٨٨	»	الوثق	الواثق
١٩٠	٣	١١٠	٧١٠
»	٥	العلوين	العلويين
١٩١	١٦	مدرسته	المدرسة
١٩٢	٣	اذ	اذا
١٩٣	١٠	لم يسعه	فلم يتسع له
»	١١	فانه لم يبلغنا	فلم يبلغنا عنه
٢٠٠	٢٢	غرار	غرر
٢٠٥	٧	سنه	منه
»	١٩	الانجاد	الامجاد
»	٢٢	ابا زيان الثالث	ابا زيان احمدالثانى
٢٠٨	٩	« السابع »	« الثامن »
»	١٠	« السابع	« الثامن »
»	٢٠	يضاف الى الجلبابة : المرقعة الاصيلة ؛ وتبدل كلمة الحسيبة بالمكرمة	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠٨	٢١	تحذف الاصيلة ويجبه	
٢١٢	١	الحبانة	الحيانة
«	٩	خبة	خيبة
١١٣	٣	الحسين	الحسن
٢١٤	٥	تليها	تلتها
«	٢٠	الغاضبين	الغاصبين
٢١٥	٨	يضاف الى كلمة شعب : كار	
٢١٦	١٠	يضاف الى كلمة الانتاج : الصناعى	
٢١٧	١	على ناحية	على اى ناحية
«	١٦	يتجهر	يتجهز
٢١٩	٩	يتجهر	يتجهز
٢٣٥	٢	نوحى	نواحي
«	٣	واصيلة	واصلية
٢٣٦	٢١	والفتيان	والفتيا
٢٣٧	١	وأضحت	وبذلك اضحت
٢٤٠	١ هامش	الصحبح	الصحيح
٢٤٣	١٤	ولحوانيت	والحوانيت
٢٤٨	١٦	بمدية	بالمدية
٢٥٣	٥	الشاطبيتان	الشاطبيتين
«	٦ تعليق	احمد العديم	احمد بن العديم
٢٥٤	١٤	بقانونه	بفنونه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٥	٦	ابن	أبى
»	١١	روا	رواه
»	١٨	تلامهذتما	تلامذتهما
»	٢١	بها	بهما
٢٧٣	٤ تعليق	صورة	صوريا
٢٧٤	٥	وجهه	وجه
٢٧٧	٢٢	حد	حدد
٢٨٠	١٠	لهؤلاة	لهؤلاء
٢٨١	١٠	مقتصى	مقتضى
٢٨٢	١٠	تسعر	وتسعير
٢٨٣	٢٢	تطويد	توطيد
٢٩٠	١٤	وكلوا	ونكلوا
٢٩٢	١٩	مدينة	المدينة
٢٩٣	١٨	الامداد	الامدادات
٢٩٦	٢	جات	جاءت
٢٩٧	١ تعليق	مجمعة	معجمة
٢٩٨	١٩	رمز	رمزاً
٣٠٧	٦	واما	أوما
٣١٠	١٨	بقربة	بقرية
٣١٣	١٦	فاعتقلها	فاعتقلهما
٣١٥	٤	الرهبة	الرهبنة
٣٢١	١٠	يضاف الاوسط الى المغرب	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٢٨	٨	الفقـ	التـآليف
٣٣٧	٢١	رغبة في	رغبة منه فى
٣٤٢	١٠	٩٧٨	٩٧٩
٣٥٨	١٥	نشاطا	نشطـا
٣٦٠	٣	ثرات	ثورات
٣٧٥	١	اجلوهم العاصمة	اجلوهم عن العاصمة

انتهى طبع الجزء الثانى من تاريخ الجزائر العام ؛ ويتلوه الجزء الثالث اوله الدور الرابع من عصر الدولة التركية العثمانية : حكومة الاغاوات .



965
J56
v. 2

APR 18 1963

